مجلة شهرية ثقافية جامعة

ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية

يحيى الجمل

أطفال الأنابيب من وجهة نظر إسلامية

عبد القادر الحمارتي

مَعَالِمُ وضوابط لاجتهادٍ مُعَاصرٍ قويمٍ

بقلم: الدكتور يوسف القرضاوي

لا يكاد يختلف إثنان من أهل العلم والفكر اليوم في ضرورة الاجتهاد وأهميته لحياتنا الاسلامية المعاصرة وتجديد فقهنا بما يجعله قادراً على علاج مشكلاتنا المتجددة من طب الشريعة الرحبة .

ولكن بعض أهل العلم يخافون أن يدخل من هذا الباب ــ اذا فتح ــ الأدعياء والطفيليون الذين يلبسون لبوس العلماء ويحملون ألقابهم الفخمة وليسوا من العلم في قليل ولا كثير ..

ومثلهم الخطافون المتعجلون الجرآء الذين يسارعون الى الفتوى في أعوص المسائل ، وأعمق القضايا ، دون أن يجهدوا أنفسهم في البحث والتنقيب ، والمراجعة والمشاورة مع أهل الذكر ، فجوابهم حاضر لكل سؤال ، وفتواهم (جاهزة) لكل قضية ، لو عرضتها على عمر لجمع لها المهاجرين والأنصار !

وأخطر منهم أدعياء التطور الذين يريدون أن يدخلوا على الحياة الاسلامية ما هو غريب عن فطرتها وقيمها وشريعتها بدعوى الاجتهاد في الشرع ، وهي أبعد ما تكون عن شرع الله نصاً وروحاً .

وشر منهم الذين وظفوا علمهم للسلطان ، وباعوا دينهم بدنيا غيرهم ممن أغفل الله قلبه عن ذكره ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا .

والعلم اذا غدا تابعاً للهوى لم يعد علماً ، بل ينقلب جهلاً وضلالاً « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ » « سورة الجاثية »الآية (٢٣)

ولعل مثل هذه التخوفات هي التي جعلت جماعة من العلماء في العصور المتأخرة ينادون بسد باب الاجتهاد ليقطعوا الطريق على هؤلاء وأمثالهم ، على اعتبار أن هذا من باب (سد الذرائع) المقرر شرعاً .

ولكن المبالغة في سد الذرائع كالمبالغة في فتحها يترتب عليها ضرر كبير ، وشر مستطير .

والواجب هو الوقوف عند خط الاعتدال الذي أوقفنا الله تعالى عنده « تلك حدود الله فلا تعتدوها » سورة البقرة (٢٢٩) .

والحق أننا لو حاولنا سد باب الاجتهاد ــ خوفاً من الأدعياء المتطفلين ، أو من المتعجلين المغرورين ، أو مفتي السلاطين أو المهزومين فكرياً ونفسياً أمام الغازين ــ لم نعالج المشكلة من جذورها ، لأن هذا إن سد الباب على أدعياء الاجتهاد المتطفلين عليه ، وغير المتأهلين له ، فهو في الوقت ذاته يحرم أهله القادرين عليه من ممارسة حقهم الشرعي في الاجتهاد ، كما أمر الله ورسوله ، وهذا ينتهي بغلبة المقلدين الجامدين ، واختفاء المجتهدين المتنورين ، وباختفاء هؤلاء وظهور أولئك تجمد الحياة ، ويتوقف الفكر ، ويتخلف المسلمون ، وتتعثر حركة الاسلام .

على أن عصرنا لم يعد قابلاً لدعوى إغلاق باب الاجتهاد ، ولا عاد هذا ممكناً لو أردناه ، فان حرية القول باللسان والقلم ، وحرية الاذاعة والنشر ــ وخصوصاً فيما لا علاقة له بالسياسة ــ متاحة وميسورة ، ولاسيما من كان له نفوذ مادي أو أدبي .

ومن هنا كثر الذين يدعون الاجتهاد ، كلياً أو جزئياً ، وسيكثرون بعد شئنا أم أبينا ، اعترفنا بهم أم لم نعترف ، بل ربما كان صوت الأدعياء أعلى من صوت المؤهلين بحق للاجتهاد .

لهذا كان الأولى أن نحدد الاتجاه الصحيح الذي نؤيده ، ونرحب به من بين اتجاهات الاجتهاد المعاصر ، ومدارسه ، ونضع له المنهج القويم الذي يحكمه ، ونوضح المعالم والضوابط التي تنظم سيره ، وتحدد غايته وتضبط طريقه ، فلا يغلو مع الغالين ، ولا يقصر مع المقصرين ، بل يحرص على المنهج الوسط للأمة الوسط .

ومن ثم يحسن بنا أن نلقي شعاعا من الضوء على اتجاهات الاجتهاد المعاصرة لنتبين من عرضها الاتجاه الذي نقبله وندعو اليه ، ونرفض ما سواه .

اتجاهات الاجتهاد المعاصر ومدارسه

واذا نظرنا الى اتجاهات الاجتهاد ، يمكننا أن نقول :

ان هناك ثلاثة اتجهات أساسية بهذا الاعتبار .

اتجاه التضييق والتشديد

١ ــ اتجاه التضييق والتشديد ، وهذا يمثله مدرستان :

المدرسة المذهبية

الأولى : المدرسة المذهبية التي لاتزال تؤمن بوجوب اتباع مذهب معين لايجوز الخروج عنه ، ويجعل الاجتهاد للمسائل الجديدة في إطاره ، وتخريجا على أقوال علمائه ، وبخاصة المتأخرون منهم ،

مثل شراح الهداية ، والكنز والتنوير من الحنفية ، وشراح خليل والرسالة من المالكية ، وشراح المنهاج ، وأبي شجاع من الشافعية ، وشراح الاقناع والمنتهى من الحنابلة .

وهؤلاء اذا سئلوا عن معاملة جديدة لابد أن يبحثوا لها عن نظير في كتب المذهب ، أو المذاهب المتبوعة ، فاذا لم يجدوا لها نظيرا أفتوا بمنعها ، كأن الأصل في المعاملات الحظر ، إلا ما أفتى السابقون باباحته !

الظاهرية الحديثة

والثانية : المدرسة النصية الحرفية ، وهم الذين أسميهم (الظاهريةالجدد) . وجلهم ممن اشتغلوا بالحديث ، ولم يتمرسوا بالفقه وأصوله ، ولم يطلعوا على اختلاف الفقهاء ومداركهم في الاستنباط ، ولا يكادون يهتمون بمقاصد الشريعة وتعليل الأحكام ، ورعاية المصالح ، وتغير الفتوى بتغير الزمان ، والمكان ، والحال .

ولهذا نجد هؤلاء يحرمون كل أنواع (التصوير) مثلا ، حتى الفوتوغرافي والسينمائي والتليفزيوني ، أخذا بظاهر الأحداث التي وردت في لعن المصورين ، وتكليفهم يوم القيامة أن ينفخوا فيها الروح ، وان لم يكن في هذا التصوير مضاهاة لخلق الله ــ الذي علل به التحريم في بعض الأحاديث ــ إذ هو خلق الله نفسه !

ونجدهم أو نجد منهم من يحرمون (الذهب المحلق (١) على النساء أخذاً بظاهر أحاديث وردت ، لم تسلم من طعن ، ولو سلمت لكانت مؤولة أو منسوخة بالاجماع الذي نقله غير واحد من العلماء على اباحة الذهب للنساء ، والذي يؤيده حديث « هذان (يعني الذهب والحرير) حرام على ذكور أمتي ، حل لاناثها » .

ونجد منهم من لا يرون زكاة في عروض التجارة ، وان بلغت قيمتها الملايين لأنهم لم يصح عندهم حديث خاص في وجوب زكاتها غافلين عن النصوص العامة التي أوجبت في كل مال حقاً أو زكاة ، دون أن تفصل بين مال ومال ، وغافلين عن حكمة تشريع الزكاة ، وهي تزكية أنفس الأغنياء وتطهير أموالهم ، ورعاية ذوي الحاجات ، والاسهام في تحقيق مصلحة الدين والأمة .

بل نجد من هؤلاء من يرى أن النقود الشرعية هي الذهب والفضة ، التي وردت فيها الأحاديث ، فأما النقود الورقية فلا تعتبر نقوداً شرعا . وعلى هذا لا يجري فيها الربا ، ولا تجب فيها الزكاة !

اتجاه الغلو في التوسيع

٢ ــ الاتجاه المبالغ في التوسيع ، ولو على حساب النصوص المحكمة والأحكام الثابتة .

ويمثل هذا الاتجاه مدرستان أيضاً :

المدرسة الطوفية

الأولى : مدرسة إعلاء (المصلحة) على (النص) وهي التي يمكن أن نسميها المدرسة (الطوفية) نسبة الى نجم الدين الطوفي (ت ٧١٦ هـ) صاحب الرأي المشهور في تقديم المصلحة على النص اذا تعارضا .

ولهذه المدرسة شبهات تستند اليها ، يظهرونها في مظهر الحجج ، ولكنها لا تقف على

مَعالِمُ وضَوابِطُ لاجتهادٍ مُعاصرٍ قويمٍ

قدمين . ولا تثبت أمام النقد العلمي الصحيح .

ومن أبرز ذلك : استنادهم الى بعض اجتهادات عمر رضي الله عنه في مثل سهم (المؤلفة قلوبهم) وقسمة سواد العراق . وغيرها .

والتحقيق أن هذه الاجتهادات لا تخالف النصوص أبداً ، كما هو مبين في موضعه ، ولا يتسع له المقام هنا .

وكثيراً ما يكون هؤلاء (المصلحيون) من غير ذوي الاختصاص في الدراسات الشرعية من رجال القانون أو التاريخ أو الأدب أو الفلسفة أو نحوهم .

مدرسة تبرير الواقع

الثانية : مدرسة (التبرير) للواقع ، سواء كان الواقع الذي يريده العامة أم الواقع الذي يريده السلطان .

وهذا الواقع لم يصنعه الاسلام ، وإنما صنع في غيبة الإسلام عن قيادة الحياة تشريعا وتوجيها ، تحت تأثير الغزو الأجنبي بكل ألوانه المادية والأدبية .

ومهمة أصحاب هذه المدرسة إضفاء الشرعية على هذا الواقع ، بالتماس تخريجات وتأويلات شرعية ، تعطيه سنداً للبقاء .

وقد يكون مهمتهم تبرير ، أو تمرير ما يراد إخراجه للناس من قوانين أو قرارات أو اجراءات تريدها السلطة .

ومن هؤلاء من يفعل ذلك مخلصاً مقتنعاً ، لا يبتغي زلفى الى أحد ، ولا مكافأة من ذي سلطان ، ولكنه واقع تحت تأثير الهزيمة النفسية أمام حضارة الغرب ، وفلسفاته ، ومسلماته .

ومنهم من يفعل ذلك ، رغبة في دنيا يملكها أصحاب السلطة أو من وراءهم من الذين يحركون الأزرار من وراء ستار ، أو حباً للظهور والشهرة ، على طريقة : خالف تعرف .

إلى غير ذلك من عوامل الرغب والرهب أو الخوف والطمع ، التي تحرك كثيراً من البشر ، وإن حملوا ألقاب أهل العلم ، أو لبسوا لبوس أهل الدين .

الاتجاه المتوازن أو مدرسة الوسط

٣ ــ والاتجاه الثالث هو اتجاه مدرسة (الوسط) أو الاتجاه المتوازن أو المعتدل ، الذي يجمع بين اتباع النصوص ورعاية مقاصد الشريعة ، فلا يعارض الكلي بالجزئي ، ولا القطعي بالظني ، ويراعي مصالح البشر ، بشرط ألا تعارض نصاً صحيح الثبوت ، صريح الدلالة ، ولا قاعدة شرعية مجمعاً عليها ، فهو يجمع بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر .

وهذا الاتجاه هو الاتجاه السليم الذي تحتاج اليه أمتنا . وهو الذي يمثل بحق وسطية الاسلام بين الأديان ، ووسطية أمته بين الأمم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ووسطية أهل السنة والفرقة الناجية بين الفرق المختلفة التي مال بها الغلو أو التفريط عن « الصراط المستقيم » .

وهذا هو اتجاه أهل العلم والورع والاعتدال ، وهي الصفات اللازمة لمن يتعرض للفتوى والتحدث ، باسم الشرع ، وخصوصاً في هذا العصر .

فالعلم هو العاصم من الحكم بالجهل .
والورع هو العاصم من الحكم بالهوى .
والاعتدال هو العاصم من الغلو والتفريط .

وهذا الاتجاه هو الذي يجب أن يسود ، وهو الاجتهاد الشرعي الصحيح وهو الذي دعا ويدعو اليه المصلحون الغيورون .

معالم وضوابط لابد منها

ومن هنا يجب أن ندعو الى الاجتهاد غير متهيبين ولا وجلين ، على أن يمضي مستقيماً ولا يرتد القهقرى ، ولا ينحرف الى اليمين أو الشمال .

وهذه بعض المعالم والضوابط الأساسية للاجتهاد المعاصر :

لا اجتهاد بغير استفراغ الوسع

١ ــ يجب أن نذكر أن الاجتهاد ــ كما عرفه الاصوليون ــ هو استفراغ الفقيه وسعه في نيل الأحكام الشرعية بطريق الاستنباط .

فلا اجتهاد الا بعد (استفراغ الوسع) ومعناه : بذل أقصى الجهد في تتبع الأدلة ، والبحث عنها في مظانها ، وبيان منزلتها والموازنة بينها اذا تعارضت ، بالاستفادة مما وضعه أهل الأصول من قواعد التعادل والترجيح . حتى اشترط بعض الأصوليين في تعريف الاجتهاد أن يحس بالعجز عن مزيد طلب ، أي بلغ الغاية في البحث ، ولم يعد عنده أي احتمال للزيادة .

وإذن : لا يكون من الاجتهاد المعتبر شرعاً : ما يفتي به المتسرعون الذين اجترءوا على اقتحام حمى الفتوى لجرأتهم على النار ! حتى انهم ليفتون بما ينفيه صريح القرآن ، أو يكذبه صحيح الحديث ، أو يخالفه اجماع المسلمين .

لا محل للاجتهاد في المسائل القطعية

٢ ــ يجب أن نذكر أن مجال الاجتهاد هو الأحكام الظنية الدليل ، أما ما كان دليله قطعياً فلا سبيل الى الاجتهاد فيه ، وانما تأتي ظنية الدليل من جهة ثبوته أو من جهة دلالته أو من جهتهما معاً .

فلا يجوز إذن فتح باب الاجتهاد في حكم ثبت بدلالة القرآن القاطعة مثل فريضة الصيام على الأمة ، أو تحريم الخمر ، أو لحم الخنزير ، أو أكل الربا ، أو ايجاب قطع يد السارق ، اذا انتفت الشبهات واستوفيت الشروط ، ومثل توزيع تركة الأب الميت بين أولاده ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، ونحو ذلك من أحكام القرآن والسنة اليقينية ، التي أجمعت عليها الأمة ، وأصبحت معلومة من الدين بالضرورة ، وصارت هي عماد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة .

ومقتضى هذا ألا ننساق وراء المتلاعبين الذين يريدون تحويل محكمات النصوص الى متشابهات ، وقطعيات الأحكام الى ظنيات ، قابلة للأخذ والرد والارخاء والشد ، فان الأصل في هذه المحكمات أن ترد اليها المتشابهات ، وفي القطعيات أن ترجع اليها المحتملات ، فتكون هي الحكم عند التنازع والمقياس عند الاختلاف ، فاذا أصبحت هي الأخرى ، موضع خلاف ومحل تنازع ، لم يعد ثمة مرجع يعول عليه ، ولا معيار يتحكم اليه .

لا يجوز أن نجعل الظنيات قطعيات

٣ ــ يجب أن تظل مراتب الأحكام كما جاءتنا ، القطعي يجب أن يظل قطعياً ، والظني يجب أن يستمر ظنياً ، فكما لم نجز تحويل القطعي الى ظني ، لا نجيز أيضاً تحويل الظني الى قطعي ، وندعي الاجماع فيما ثبت فيه الخلاف ،

• لابد لنا أن نتوقع الخطأ من المجتهد وأن نفسح له صدورنا ولا نشدد النكير على من أخطأ

• يجب أن نميز بين الأصول والفروع وفى الأولى نكون فى صلابة الحديد وفى الثانية نكون فى ليونة الحرير كما قال إقبال

• ليس كل من اشتغل بالفقه أو ألف فيه أو حفظ مجموعة من الأحاديث يعد مجتهدا

مع أن حجية الاجماع ذاته ليست موضع إجماع !

فلا يجوز أن نشهر هذا السيف ـ سيف الاجماع المزعوم ـ في وجه كل مجتهد في قضية ، ملوحين به ومهددين ، مع ما ورد عن الإمام أحمد أنه قال : من ادعى الاجماع فقد كذب ، وما يدريه ! لعل الناس اختلفوا وهو لا يعلم !

واذا كان في مخالفة الاجماع ذاته كلام ، فكيف بمخالفة المذاهب الأربعة ، التي يشنع بها كثيرون اليوم ، كما شنعوا بها على شيخ الاسلام ابن تيمية من قبل ؟مع أن أحدامن علماء المذاهب الأربعة لم يقل : إن اتفاقها حجة شرعية ، ولو قالوه لم يعتبر قولهم ، لأنهم خالفوا فيه أئمتهم من ناحية ، ولأنهم مقلدون من ناحية أخرى ، والمقلد لا يقلد ، أما أئمة المذاهب أنفسهم فقد حذروا من تقليدهم ، ولم يدعوا لأنفسهم العصمة .

وقد عاب علي بعض الكاتبين المتعجلين يوماً ما ذكرته في بعض كتبي من خلاف بعض فقهاء السلف في بعض القضايا المهمة ، كالخلاف في نكاح المتعة ، أو في وقوع الطلاق البدعي ـ الطلاق في الحيض وفي طهر جامعها فيه ـ واللعب بالنرد من غير قمار ونحوها ، يريدون مني أن ألغي هذا الخلاف ولا أعتبره ولا أذكره ، وان لم أرجحه ، وهذا ليس من الأمانة العلمية ، ولا من المصلحة العلمية في شيء .

الوصل بين الفقه والحديث

٤ ـ يجب أن نمد جسراً واصلا بين الفقه والحديث ، وأن تزول الفجوة القائمة بين المدرستين : المدرسة الفقهية والمدرسة الحديثية .

فالمشاهد أن أغلب المشتغلين بالحديث لا يهتمون كثيراً بالدراسات الفقهية والأصولية ، ولا يوجهون همتهم الى علل الأحكام ، وقواعد الشريعة ومقاصدها . وهي التربة اللازمة لنمو بذرة الاجتهاد ، وبلوغها غايتها ، وخصوصاً ما يتعلق باختلاف الفقهاء وتنوع مشاربهم ، وتعدد منازعهم في الاستنباط والاستدلال ، وأهميتها في تكوين ملكة الاجتهاد ، حتى جاء عن أكثر من واحد من علماء السلف : من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه ! وفي مقابل هؤلاء نجد لدى أغلب المشتغلين بالفقه وأصوله ودراساته ضعفاً ظاهراً في الحديث وعلومه ورجاله ، حتى انهم ليستدلون أحياناً بالأحاديث الواهية أو التي لا أصل لها ، وقد يردون بعض الأحاديث وهي صحيحة متفق عليها .

والشكوى من الانفصال بين الفقه والحديث شكوى قديمة ، والشعور بالحاجة الى الجمع بينهما له جذور أصيلة قديمة في تراثنا .

قالوا :

كان سفيان الثوري ، وابن عيينة وعبدالله بن سنان يقولون : لو كان أحدنا قاضياً لضربنا بالجريد فقيهاً لا يتعلم الحديث ، ومحدثاً لا يتعلم الفقه (٢) .

الحـــذر من الوقوع تحت ضغط الواقع

٥ ـ ينبغي أن نحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة وهو واقع لم يصنعه الاسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه ، ولم يصنعه المسلمون بارادتهم وعقولهم وأيديهم ، إنما هو واقع صنع لهم ، وفرض عليهم ، في زمن غفلة وضعف وتفكك منهم ، وزمن قوة ويقظة وتمكن من عدوهم المستعمر ، فلم يملكوا أيامها أن يغيروه أو يتخلصوا منه ، ثم ورثه الأبناء من الآباء والأحفاد من الأجداد ، وبقي الأمر كما كان .

فليس معنى الاجتهاد أن نحاول تبرير هذا الواقع على ما به ، وجر النصوص من تلابيبها لتأييده ، وافتعال الفتاوي لاضفاء الشرعية على وجوده ، والاعتراف بنسبه مع أنه دعي زنيم .

إن الله جعلنا أمة وسطا لنكون شهداء على الناس ، ولم يرض لنا أن نكون ذيلاً لغيرنا من الأمم ، فلا يسوغ لنا أن نلغي تميزنا ، ونتبع سنن من قبلنا شبرا بشبر وذراعاً بذراع . وأدهى من ذلك أن نحاول تبرير هذا وتجويزه بأسانيد شرعية ، أي أننا نحاول الخروج على الشرع بمستندات من الشرع ! وهذا غير مقبول .

الترحيب بالجديد النافع

٦ ـ لا ينبغي أن نجعل أكبر همنا مقاومة كل

معالم وضوابط لاجتهاد معاصر قويم

جديد ، وإن كان نافعاً ، ولا مطاردة كل غريب وإن كان صالحاً ، وإنما يجب أن نفرق بين ما يحسن اقتباسه وما لا يحسن ، وما يجب مقاومته وما لا يجب ، وأن نميز بين ما يلزم فيه الثبات والتشدد ، وما تقبل فيه المرونة والتطور .

ومعنى هذا أن نميز بين الأصول والفروع ، بين الكليات والجزئيات ، بين الغايات والوسائل ، ففي الأولى نكون في صلابة الحديد ، وفي الثانية تكون في ليونة الحرير ، كما قال أقبال رحمه الله ، مرحبين بكل جديد نافع ومحتفظين بكل قديم صالح .

ومن هنا يجوز لنا أن نقتبس من أنظمة الشرق أو الغرب ، ما لا يخالف عقيدتنا وشريعتنا ، مما يحقق المصلحة لمجتمعاتنا ، على أن نصبغه بصبغتنا ، ونضفي عليه من روحنا ، حتى يغدو جزءاً من نظامنا ، ويفقد جنسيته الأولى ، كما رأينا ذلك فيما اقتبسه المسلمون في العصور الذهبية من الأمم الأخرى .

ألا نغفل روح العصر وحاجاته

٧ ــ ألا ننسى أننا في القرن الخامس عشر الهجري ، لا في القرن العاشر ، ولا ما قبله ، وإن لنا حاجاتنا ومشكلاتنا التي لم تعرض لمن قبلنا من سلف الأمة وخلفها ، وأننا مطالبون بأن نجتهد لأنفسنا ، لا أن يجتهد لنا قوم ماتوا قبلنا بعدة قرون ، ولو أنهم عاشوا عصرنا اليوم ، وعانوا ما عانينا ، لرجعوا عن كثير من أقوالهم ،وغيروا كثيراً من اجتهاداتهم ، لأنها قيلت لزمانهم ، وليس لزماننا .

وقد رأينا أصحاب الأئمة وتلاميذهم يخالفونهم بعد موتهم ــ وهم متبعون لأصولهم ــ لتغير العصر اللاحق عن العصر السابق ، رغم قرب المدة ، وقصر الزمان .

بل رأينا إماماً كالشافعي يغير اجتهاده في عصرين قريبين ، قبل أن يستقر في مصر ، وبعد أن استقر في مصر ، وعرف تاريخ الفقه مذهبه القديم ، ومذهبه الجديد ، وأصبح معروفاً في كتب المذهب : قال الشافعي في القديم وقال الشافعي في الجديد .

فكيف بعصرنا ، وقد تغير فيه كل شيء ، بعد عصر الانقلاب الصناعي ، ثم عصر التقدم التكنولوجي ، عصر غزو الكواكب و (الكمبيوتر) وثورة البيولوجيا التي تكاد تغير مستقبل الإنسان ؟ ! !

فعلينا ونحن نجتهد أن نعترف بما طرأ على حياتنا من تغيرات في الأفكار والأعراف والعلاقات والسلوك ، وأن نقدر ظروف العصر وضروراته ، وما عمت به البلوى ، وأن نطبق على الواقع ما قدره علماؤنا من تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال .

ورحم الله ابن أبي زيد القيرواني صاحب (الرسالة) المشهورة في الفقه المالكي ، حيث كان يسكن في أطراف المدينة ، فاتخذ كلباً للحراسة فقيل له : كيف تفعل ذلك ومالك يكرهه ؟ فقال : لو كان مالك في زماننا لاتخذ أسداً ضارياً !

الانتقال الى الاجتهاد الجماعي

٨ ــ ينبغي في القضايا الحديثة أن ننتقل من الاجتهاد الفردي الى الاجتهاد الجماعي ، الذي يتشاور فيه أهل العلم في القضايا المطروحة ، وخصوصاً فيما يكون له طابع العموم ، ويهم جمهور الناس .

فرأي الجماعة أقرب الى الصواب من رأي الفرد ، مهما علا كعبه في العلم ، فقد يلمح شخص جانباً في الموضوع لا ينتبه له آخر ، وقد يحفظ شخص ما يغيب عن غيره ، وقد تبرز المناقشة نقاطاً كانت خافية ، أو تجلي أموراً كانت غامضة ، أو تذكر بأشياء كانت منسية . وهذه من بركات الشورى ، ومن ثمار العمل الجماعي دائماً : عمل الفريق ، أو عمل المؤسسة ، بدل عمل الأفراد .

وقد روى الطبراني في الأوسط عن علي بن أبي طالب قال : قلت : يا رسول الله ، إن عرض لي أمر لم ينزل فيه قضاء في أمره ، ولا سنة ، كيف تأمرني ؟ قال : تجعلونه شورى بين أهل الفقه والعابدين من المؤمنين ، ولا تقض فيه برأيك خاصة » (٣) وهذا هو الاجتهاد الجماعي .

وكانت هذه هي طريقة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، كما روى ذلك الدارمي والبيهقي عن ميمون بن مهران فكان أبو بكر اذا لم يجد في القضية كتاباً ولا سنة ، دعا رءوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم ، فاذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به . وكان عمر اذا لم يجد في القضية كتاباً ولا سنة ، ولا قضاء من أبي بكر ، دعا رءوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم ، فاذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به (٤) .

وروى الدارمي عن المسيب بن رافع قال : كانوا اذا نزلت بهم قضية ليس فيها من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمر ، اجتمعوا لها وأجمعوا . فالحق فيما رأوا (٥) .

وكثير من الاجماعات المحكية في الفقه مصدرها هذا الاجتهاد الجماعي الشوري في عهد الشيخين رضي الله عنهما .

وهذا الاجتهاد الجماعي المنشود يتمثل في صورة مجمع علمي اسلامي عالمي يضم الكفايات العليا من فقهاء المسلمين في العالم ، دون نظر الى إقليمية أو مذهبية ، أو جنسية . فإنما يرشح الشخص لعضوية هذا المجمع فقهه وورعه ، لا ولاؤه لهذه الحكومة أو ذلك النظام ، أو قرابته أو قربه من الحاكم أو الزعيم .

يجب أن يتوافر لهذا المجمع كل أسباب الحرية ، حتى يبدي رأيه بصراحة ، ويصدر قراره بشجاعة ، بلا ضغط ولا ارهاب من الحكومات أو من قوى الضغط في المجتمع . يجب أن يتحرر من الضغوط السياسية والاجتماعية معاً .

والحق انه لا حرية لمجمع تعين أعضاءه حكومة اقليمية ، على أرضها يقوم المجمع ، ومن مالها ينفق عليه ، أو على الأقل لا ضمان لهذه الحرية .

فالحكومة عادة لا تختار إلا من يواليها ، ولا تنفق على مؤسسة لا تدور في فلكها .

ولهذا يكون من الخير أن يجتمع علماء المسلمين ، أو صفوتهم من كل أقطار العالم في صورة مؤتمر كبير ، يحدد زمانه ومكانه ، ليختاروا هم من بينهم من يرونه أحسن فقهاً ، وأقوم خلقاً ، ليتكون منهم المجمع العلمي الذي ننشده .

واذا اتفق علماء هذا المجمع على رأي في مسألة من المسائل الاجتهادية أعتبر هذا (اجماعاً) من مجتهدي العصر ، له حجته والزامه في الفتوى والتشريع .

واذا اختلفوا كان رأي الأكثرية هو الأرجح ، ما لم يوجد مرجح آخر له اعتباره شرعاً .

على أن هذا الاجتهاد الجماعي لا يقضي على اجتهاد الأفراد ولا يغني عنه . ذلك أن الذي ينير الطريق للاجتهاد الجماعي هو البحوث الأصيلة المخدومة التي يقدمها أفراد المجتهدين ، لتناقش مناقشة جماعية ويصدر فيها بعد البحث والحوار قرار المجمع المذكور بالاجماع أو الأغلبية .

واذا لم يوجد هذا النوع من البحوث الاجتهادية الفردية ، فان القرارات الجماعية كثيراً

• يجب رفض أدعياء الاجتهاد الذين لا يملكون إلا الجراءة على النصوص والاستهانة بالأصول

• لابد من قيام مجمع علمي اسلامي عالمي يضم الكفايات العليا من فقهاء المسلمين في العالم بعيدا عن تأثير الحكومات الاقليمية المختلفة

• الاجتهاد الجماعي لا يقضي على اجتهاد الأفراد ولا يغني عنه

ما توجد فيها ثغرات تجعلها عرضة للنقد والتشكيك .

وسيظل حق الأفراد في الاجتهاد قائماً على كل حال ، بل أن عملية الاجتهاد في ذاتها عملية فردية في الأساس ، وانما الاجتهاد الجماعي هو التشاور فيما وصل اليه أفراد المجتهدين ، كما رأينا .

لنفسح صدورنا لخطأ المجتهد

٩ ـ ولابد لنا ـ لكي ينجح الاجتهاد ـ أن نتوقع الخطأ من المجتهد ، اذ لا عصمة لغير نبي ، وأن نفسح له صدورنا ، والا نشدد النكير على من أخطأ في اجتهاده ونتهمه بالزيغ والمروق وما الى ذلك من النعوت . فان شيوع هذا الاسلوب يقتل روح الاجتهاد ، ويخيف كل ذي اجتهاد حر من اعلان رأيه ، خشية أن تصب عليه سياط التشنيع ، وتصوب إلى صدره سهام الاتهام وبذلك تختنق الآراء الاجتهادية الحرة في صدور أصحابها ، ويسود جو الخوف من التجديد ، والرهبة من مخالفة المألوف . وفي هذا خسارة كبيرة على الفقه وعلى الفكر ، وعلى الأمة جميعا .

لابد أن تتسع صدورنا لأخطاء المجتهدين ، كما اتسعت صدور الأولين ، فالمجتهد بشر يفكر ويستنبط ويخطىء ويصيب ، ولن يكون مجتهدو اليوم أفضل من مجتهدي الأمس ، وقد وسع بعضهم بعضا فيما رأوا أنه أخطأ فيه . وهكذا ينبغي أن يكون موقفنا من المجتهد اذا افترضنا أنه أخطأ ، وتبين لنا خطؤه بيقين . وذلك منوط بشرطين :

أ ـ أن يملك أدوات الاجتهاد ـ وهي معروفة مذكورة في أصول الفقه ـ فليس كل من اشتغل بالفقه أو ألف فيه أو حفظ مجموعة من الأحاديث يعد مجتهداً .

ب ـ أن يكون عدلا مرضي السيرة . وهو ما يطلب في قبول الشاهد في معاملات الناس ، فكيف بقبول من يفتي باجتهاده في شريعة الله ؟

فهذا إن أخطأ فهو معذور ، بل مأجور أجراً واحداً على اجتهاده وتحريه ، ومن يدري لعل الرأي الذي يظنه الأكثرون اليوم خطأ هو الصواب بعينه كما يدل على ذلك تاريخ الاجتهاد وتغير الفتوى .

أما أدعياء الاجتهاد ، الذين لا يملكون إلا الجراءة على النصوص والاستهانة بالأصول ، واتيان البيوت من غير أبوابها ، فهؤلاء يجب أن يرفضوا ، حفاظاً على قداسة الدين ، وحرمة الشريعة ، أن تتخذ سلماً للشهرة ، أو مطية للوصول الى دنيا ظاهرة ، أو اشباع شهوة خفية ، أو أداة لتأييد سلطان جائر ، أو لتبرير سلوك منحرف ، أو فكر مستورد .

تلك هي المعالم والضوابط الضرورية في نظرنا ، التي ينبغي أن يراعيها الاجتهاد في عصرنا الحافل بشتى التيارات والمؤثرات سواء كان اجتهاد ترجيح وانتقاء ، أم اجتهاد ابداع وانشاء .

وفي ضوء هذه المعالم ، وفي اطار تلك الضوابط تستطيع مسيرة الاجتهاد المعاصر ـ وهو فريضة وضرورة ـ أن تمضي الى الأمام قدماً مسددة الخطا ، موثقة العرا ، مأمونة العثرات ، مرجوة الثمرات ، دون أغلال تعوقها عن الحركة ، ولا ضغوط أو جواذب تميل بها الى اليمين أو تنحرف بها الى اليسار، فقد اتضحت الغاية ، واستبان النهج « ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » .

يوسف القرضاوي

هـوامـش

(١) يقصدون بالمحلق : ما كان على صورة حلقة كالخاتم والاسورة والقلادة والقرط ونحوها .

(٢) نقله الكتاني في مقدمة كتابه : « نظم المتناثر من الحديث المتواتر ـ ص ٣ . ط . دار الكتب العلمية ببيروت .

(٣) تفسير المنار جـ ٥ ص ١٩٦ ط ثالثة .

(٤) المصدر السابق .

(٥) سنن الدارمي جـ ١ ص ٤٦ .

ابتداء مم هذا العدد يلتقى قراء الدوحة بالكاتب العربى الكبير أكرم زعيتر ، فى مجموعة جديدة من ذكرياته ، فبعد أن عشنا مع الكاتب الكبير فى الشهور السابقة فى سلسلة ذكرياته الممتعة عن الشاعر القروى ، نعيش اليوم مع صفحة جديدة ومجيدة من الذكريات حول شاعر كبير آخر هو « بدوى الجبل » الذى رحل عن الدنيا سنة ١٩٨١ بعد أن ترك وراءه حياة حافلة بالعمل والنشاط وتراثا صافيا من الشعر العربى الرفيع ، ولاشك أن ذكريات أكرم زعيتر سوف تفتح الكثير من الآفاق المجهولة أمام الأجيال الجديدة التى قد لا تعرف الكثير عن بدوى الجبل ، رغم أنه كان وسيظل واحدا من أكبر الشعراء فى تاريخ الأدب العربى كله :



بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة



بقلم: أكرم زعيتر



بدوي الجبل

تمهيد :

منذ قضى شاعر العربية محمد سليمان الأحمد ، بدوى الجبل ، بعد إخاء امتد أربعاً وأربعين سنة ، وهاتف جواني يهتف بى : لم لا تضع كتاباً تجعل عنوانه : « بدوى الجبل وإخاء أربعين سنة » ولك أسوة بالأمير شكيب أرسلان ، أمير البيان فى كتابه « رشيد رضا واخاء أربعين سنة » وظل يحضنى على الكتابة ما توافر لي من الروافد : ذكريات لا تبرح الخاطر ، ورسائل هى منجم « اخوانيات » ونفحات من « الوجدانيات » .

وكنت أهامس الهاتف : مهلا حتى يصفو الحال ، ويروق البال ، وأدخل حرم الذكريات بنفس مطمئنة . ولكن « الدوحة » : بعد أن نشرت الحلقات الخمس من ذكرياتى والشاعر القروى ، أفضلت على مشكورة بالحث على الكتابة عن صديقى الأثير ، وشاعرى الكبير بدوى الجبل ، ولم أكد استمهلها رويداً حتى كدت أسمع من وراء الغيب : ان الوفاء لأخيك الشاعر بنشر الذكريات الغاليات : هو وفاء للأدب ، ووفاء للشعر ـ والشعر ديوان العرب ـ والى هذا فقد لا يبدد كآبة الروح مثل جمال الذكريات ، ولعلها تكون فى ظلال « دوحتنا » الوارفة أنساً للنفوس وجلاءً للأذهان .



الشاعر الكبير بدوى الجبل مع كاتب المقال

هذه الذكريات

وهذه الذكريات ليست تحليلاً علمياً ، وليست بحثاً نقدياً ، وإن كانت روافد لذلك كله . ولما كانت تتصل بعلاقات شخصية وأواصر ودية وتبائث نجاوى ، فهى تحفل بألوان من الثناء والحديث عن النفس والتقارظ ، فلا مندوحة لي عن التمهيد لهذه الذكريات من استغفار المستظلين بهذه الدوحة أو الاستعذار من ثناء الشاعر الكبير على صديقه الأثير ، وفى اجتهادى ان حجب بعض الثناء باصطناع التواضع أو إغفاله دفعاً لشبهة التمدح هو أدنى إلى الجحود . وإن فى اثباته تحدثاً بنعمة الاخاء وعرفاناً للجميل ، وإن من حق الروعة — وإن جاءت مدحاً عبقرياً — أن تكون مشاعاً بين كل صديق ذواقة . ومن أضر من المستظلين بالدوحة على حسبانها من جانبى تمدحاً ، ومن جانبه غلواً ، فإننى استغفر الله لي وله ولهم .

سيرة الشاعر

ولابد قبل أن اطالع بالذكريات الملأ من الأدباء والمتأدبين من لمحة الى سيرة الشاعر :

ولد محمد سليمان الأحمد فى قرية ديفة فى جبل الكلام فى الجبل العلوى من محافظة اللاذقية سنة ١٩٠٣ ، وعلى أن العبقرية الشاعرة من صنع الله ونفحة العلى الأعلى فإن منجمها البيت الذى فيه نبتت ، وصيقلها البيئة التى فيها ترعرعت ، فالشيخ سليمان الأحمد ، والد الشاعر ، المتسلسل نسباً من الأمير الشاعر الصوفى المكزونى السنجارى ، كان من اعلام زمانه فقهاً ولغة وأدباً ، وهو فى الجبل العلوى مبجل فى قومه ، وبيته مثابة لرواد الفضل ، يرتل فيه القرآن ، ويجود الشعر ، وينظم شيخنا المتصوف فى الحكمة وبعض مرامى الشعر الشريفة تساعفه قريحة ثرة ، وقد شرح لزوميات شيخ المعرة شرحاً لا أوفى منه ولا أتقن . ويتقلمذ الولد محمد لأبيه فى ديوانه الذى تعبق فيه طيوب الشاعرية حتى ليجيء أولاده الثلاثة : محمد وأحمد وفاطمة شعراء .

وكان محمد وقدة ذكاء يتلقف فى الديوان كل سري من نظيم ونثير ويختزنه فى مستودع اللاوعي لترفد مفرداته بعد ذلك ذهنه السخى وقريحته المخصاب بالبيان الأجمل ، ومع أن ديوان أبيه هو مدرسته الحقيقية فقد درس الابتدائية فى الجبل والاعدادية فى اللاذقية .

الى دمشق

وفى سني الحرب الأولى العجاف ، كان الفتى لا يرى فى وطنه إلا ما ينم على القهر ، وما يضرب مثلا فى الاعتساف والفقر ولكن نفسه الشاعرة كانت تسمع دبيب الأمانى القومية فى ثورة الشريف الحسين بن على أمير مكة ، ويترقب إشراقة المجد فى الموكب الفيصلى يهل على دمشق ، والعربية تبعث من مرقدها .

وحين احتل الفرنسيون اللاذقية كان الرجل العربى الكبير رشيد طليع متصرفها فتوثقت بينه وبين الشيخ سليمان أصرة صداقة ، وشام فى الفتى محمد مخايل النجابة فحث أباه على تعليمه فبعث به الى دمشق ، كما أن رشيدا نفسه انضم الى فيصل بدمشق متصرفاً لحماة فوزيراً للداخلية .

وراح فتانا محمد بعقاله المقصب وعباءته البدوية ينشد فى أندية دمشق بواكير شعره ، وقد شغفه حبها ، وثبت عليه . وفضلها على بلاد العالمين . وأرانى هنا أسبق الزمن فأورد قوله فى دمشق بعد أربعين سنة يوم قال مشيعاً صديقه حبيب كحالة صاحب المضحك المبكى : « والشام لا تقنع أن تكون مدينة دور وقصور ، وبساتين ورياحين ، ووسامة تاريخ وجلوة حضارة . انها ذلك كله . ثم هى فوق ذلك كله صبابة وحنان ، ونغم ووله ، إنها حورية من لحم ودم ، وسحر وعطر ، وأناقة ورشاقة ، تطفر فى القلوب حيناً وتغفو فيها حيناً ، وهى فى حالتيها ترش القلوب بالطيوب . إنها المدينة الحورية ، المدينة التاريخ ، المدينة المجد . المدينة الأم والأخت والحبيبة ، عطرها مزيج من كل ذلك . وحنين النفوس إليها حنين إلى كل ذلك .. وقبلنا دلهت الشام جبلة بن الأيهم فما ارخت « فروق » لبانات روحه ، لا بأفانين الحضارة ، ولا بعز الامارة ، ولا بحسن فروق الحائر بين مائها وسمائها ، وآرامها وانغامها ، بل بقيت الشام غاية هواه ، وحلم مناه ، فياجبلة بن الأيهم هكذا والله يوضع الجمر على البخور ، فتتضوع العطور ، وهكذا والله يكون الحنين الى الشام واللوعة عليها ، وهكذا تشرى الغفوة فيها تحت ملتف الشجر ، على ضفة النهر ، فى ناعم من ضوء القمر ، وباسم من نور الزهر ، بالسمع والبصر ، وبالأسر فى ربيعة أو مضر ! » .

مع الثوار

وكان العهد الفيصلى يشجع الحركات الثورية الوطنية فى المناطق المحتلة ، فلما ثار على الفرنسيين الزعيم العلوى الشيخ صالح العلى اتفق الرأى ابتغاء التوثيق والتنسيق على الاتصال بالشيخ الثائر فى مقره الجبلى وعهد الى وزير الدفاع يوسف العظمة بترؤس الوفد لهذه الغاية واشار رشيد طليع باصطحاب الفتى محمد لنجابته ولمنزلة أبيه فى القوم ، وكانت الرحلة الى مركز الثورة شاقة ، وفى الطريق الوعر فوجىء الوفد بطلقات رصاص تنذره بالوقوف .

بدوي الجبل
وإخاء أربعين سنة

ورأى رئيس العصابة بينهم حدثاً لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره فانتهره : من أنت ؟ فاجابه : « أنا محمد ابن الشيخ سليمان الأحمد » فانحنى الرجل على الغلام يريد أن يقبل يده ، وصاح بالعصابة : انه ابن شيخنا .. واستوثقت الرحلة وحققت اغراضها وقد ود الشيخ صالح لو استبقى فتانا معه ، ولما عاد الوفد الى دمشق موفقاً قدم وزير الدفاع الفتى إلى الملك فيصل منوهاً له فشكر له الملك جهده ، وقدر له عمله ، ولعل هذا ما جعل الفرنسيين يحتقدون عليه ويتربصون به .

اضطهاد وتنكيل

واقتحم الفرنسيون الغزاة العتاة دمشق بعد معركة ميسلون واستشهاد وزير الدفاع البطل يوسف العظمة دفاعاً عنها وكان فتانا معجباً به . وقد أهدى بواكير شعره في ديوانه (الشفق) « إلى تلك الروح الكبيرة التى تمردت على العبودية وعلى الحياة » .

وعلم الفتى الشاعر ما تبيته له الاجنحة الفرنسية ، فلاذ بحمى البطريرك العربى ، الشامخ الوطنية غريغوريوس حداد الذى ظل وفياً لبيعته لفيصل .. ثم يمم الشاعر مدينة حماة ماشياً ، علّه يتسلل منها إلى معتصم الثوار في الجبل .. ولكن الفرنسيين اهتدوا الى مخبئه فاعتقلوه في احد « خانات » حماة الرطبة وأدموا قدميه ضرباً ، ومعصميه تكبيلا وتشغيلا ، ورأى في السجن كيف تستباح أرواح وكيف تنفذ أحكام الصلب على المجاهدين ارتجالا وبالقرعة ، ثم سيق الى حمص فبيروت فمكث في سجنها اشهراً ثم اقتيد الى سجن جزيرة ارواد فلبث حيناً . ولما اطلق سراحه لصغر سنه وبوساطة زعماء الجبل ، كان التنكيل قد احتفر في خواطره أخاديد من الذكريات الراعبة ولعله وقد أوهى الاضطهاد جلده ، وأعيته مناهضته ، جنح الى مهادنة المحتل حيناً ، ولكن ما اسرع ما استغفر الله وهناً ألم به واستجاب للصارخة القومية ، يوم نفخ في صور الوحدة السورية ، لم يفزع من ترهيب ولم يخضع لترغيب . كلا ، بل إنه انتمى الى الكتلة الوطنية منغمراً في حياة تنذر بصنوف المصاعب والوان المتاعب هاتفاً :

ويارب درب في الحياة سلكته
وما حدت عنه لو عرفت المغيبا
ولي وطن اكبرته عن ملامة
وأغليه أن يدعى على الذنب مذنبا

ومن حقه أن أحمل الجرح راضياً
ومن حقه ألا ألوم واعتبـا

وأصبح مرشح الوطنيين للنيابة وعرفته البرلمانات الوطنية نائباً يمثل عروبة جبل العلويين من انسال غسان وتنوخ ..

الى العراق

وحين خاس الفرنسيون بالوعد ونقضوا المعاهدة سنة ١٩٣٩ ، وتقوض الحكم الوطني وراحوا يغرون العلويين والدروز والجزيرة الفراتية بالانفصال ، ظل البدوى يذود عن الوحدة وينافح عن الحرية ثم نشبت الحرب العالمية الثانية ، وشعر ما يبيته المحتلون للوطنيين فقطع البيداء لائذاً بالعراق حيث لقى كل حفاوة ، وعمل في التدريس . وحين انتهت ثورة الجيش العراقى الموسومة بالكيلانية ، وكانت له فيها مشاركة إعلامية ، عاد إلى سورية ، فاعتقله الفرنسيون وزجوه في قلعة (كسب) على الحدود السورية التركية ، وبالوعة قلبه حين قضى أبوه الشيخ الجليل وهو في المعتقل ، وقد ألهم الشاعر المحبوس من الروائع ما يزرى بكثير من قصائد السجون :

اذا ملكوا الدنيا على الحر عنوة
ففى نفسه دنيا هى العز والكبر
وإن حجبوا عن عينه الكون ضاحكا
أضاء له كون بعيد هو الفكر
أنزه آلامي عن الدمع والأسى
فتؤنسها مني الطلاقــة والبشر
وأضحك سخـراً بالطغاة ورحمة
وفى كبدي جرح وفى اضلعى جمر
أطل على الدنيا عزيزاً أضمنى
اليه ظلام السجن أم ضمنى القصر؟
ومـا حــاجتى للكائنات بأسرها
وفى نفسى الدنيا وفى نفسى الدهر

وزير وشريد

ثم اطلق سراحه وتسلم الوطنيون الحكم وانتخب بالتزكية الجماعية نائباً للاذقية . ومنيت سورية بعد سنوات باحداث داخلية وانقلابات قضت بتنحيته واخوانه عن النيابة وفي عهد الشيشكلى صدر أمر بالقبض عليه فلجأ الى لبنان ثم عاد الى دمشق بعد أن تقشعت الغيمة وغدا وزيراً ممثلا للحزب الوطنى ، ثلاث مرات ولكن احداثا طارئة على نظام الحكم سنة ١٩٥٦ شردته سنوات قضى في بيروت بعضها ثم اسرع الى استانبول وفيها نظم قصيدته وفاء القبور ثم قضى في فيينا وجنيف وروما وتونس مدة طويلة ، وفي مغتربه ، في هذه العواصم ، وهو يتنزى المأ ــ والألم من أهم ملهماته ــ اثرى ديوان الشعر العربى بخوالد من روائعه مثل (ابتهالات) و (البلبل الغريب) وجرت بينه وبين شاعر الشام شفيق جبرى مطارحات تجاوزت الغاية في الروعة وأرجو ان اتحدث عنها في الذكريات ، ثم عاد الى وطنه ، واستفزته هزيمة حزيران سنة ١٩٦٧ فأطلق عاصفته الشعرية من وحي الهزيمة ، وقد نيفت على مائة وستين بيتاً جاء فيها بالعجب العاجب من براكين وصواريخ وغارات ودموع وآهات وتنديد بحاملى الهزيمة ومحتقبى أوزارها ..

وقضى الشاعر

وذات صبح كان البدوى يمشي على عادته في الرياضة اليومية واذا بشرير يهوى على رأس الشاعر بطعن دراك أفقده وعيه ، ونقل محطماً الى مكان خفي ، وباءت بالاخفاق جهود موصولة للعثور عليه حيا أو ميتا ولكن انذاراً صارماً وجهه وزير الدفاع السوري يومئذ اللواء حافظ الأسد للآثمين باعادته فوراً أدى إلى طرحه خفية في أحد المستشفيات وهو يحتضر ، ونمّت ساعة يده عليه فبذلت جهود لانقاذه واستنفر لذلك أطباء من

بدوى الجبل في ربوع سويسرا



لقطة نادرة لبدوى الجبل ضاحكاً فى إحدى جلسات البرلمان السورى ، وعن يمينه نائب حلب ليون زمريا ونائب دمشق سهيل فارس الخورى

سورية ولبنان حتى افاق بعد أربعين يوماً من غيبوبته وتماثل وئيداً وئيداً من علته فدفعت عن تاريخ العربية معرة قتل شاعرها ، وياليتها استطاعت ان تدفع مثل هذه المعرة قبل اجيال فى مصرع أبى الطيب المتنبى ، وقيل أن مدير اغتيال الشاعر قد انتحر بعد حين ، فتذكرت أن آخر بيت فى « وحي الهزيمة » هو :

لم أهادن ظلماً وتدرى الليالى
فى غـد أينا هـو المدحـور

وقد ترجح أن قصيدته « وحي الهزيمة » وقد طبعت فى كراس مرات وتداولها الناس واستشهدوا بأبياتها هي التى أوشكت ان تودى بالشاعر ومطلعها :

رمل سيناء قبرنا المحفور
وعلى القبـر منكـر ونكير
كبرياء الصحراء مرغها الـذل
فغـاب الضحى وغار الـزئير

وقد أثر الحادث فى بنية الشاعر .. وترافدت عليه الأمراض يبل منها حيناً ويعاوده السقم حيناً ، يعتمر بيروت يوماً ، ويصطاف فى بلودان أياماً ... ثم بدا مرضه عياء فلزم بيته بدمشق ولم ينقطع اخوانه عن عيادته حتى قضى يوم الثلاثاء فى الثامن عشر من آب سنة ١٩٨١ .

* * *

اللقب

وبعد ، فقد كان الشاعر فى صدر يفاعته يرسل قصائده الى جريدة (الف باء) الدمشقية ، ولم يكن على قدر من الشهرة تناسب رفعة شعره ، وحدث سنة ١٩٢١ ان هز العالم نبأ المناضل الايرلاندى ، ماك سويني ، محافظ مدينة كورك الذى جعل احتجاجه على وجود الانكليز في بلاده صياماً حتى الموت ، وسبك صلاة لبني وطنه يرتلونها فى كنائسهم .

ثم قضى صائماً ، واطلع الشاعر على فحواها فنظمها بالعربية ، وبعث بها الى (الف باء) مع تحية شعرية لروح المناضل منشورة فى الديوان واما الصلاة فقد عثرت عليها اخيراً وهذه هى :

أقتول الأمم الضعيفة حقها
ومديلها القهار من ظلامها
اسمح لنصرك ان يرفرف فوقها
ويطاول الجـوزاء فى أعلامها
ان لم ترو الفوز قبل حمامها
فاسمح به يارب بعد حمامها
فتراه بعد الموت فى أرواحها
ان لم تكن شهدته فى اجسامها

وفى اليوم التالى رأى الشاعر قصيدته والصلاة مذيلة بتوقيع (بدوى الجبل) فسعى الى صاحبها الأستاذ يوسف العيسى مدهوشاً يسأله عن السبب فأجابه « ان الناس يقرأون للشعراء المعروفين ، ولست منهم ، وهذا التوقيع المستعار يحملهم على أن يقرأوا الشعر للشعر ، وأن يتساءلوا : من ذا يكون هذا الشاعر المجيد ؟ وأنت فى ديباجتك بداوة .

وأنت تلبس العباءة وتعتمر العقال المقصب وأنت ابن الجبل » ، وتوالت قصائد البدوى ونقلتها صحف فى بيروت شادية بها ، والناس يتساءلون : عمن يكون ؟ أهو خير الدين الزركلي أم هو خليل مردم بك ؟ وهما شاعرا الشام آنئذ ، الى ان دعا صاحب الجريدة نخبة من الأدباء وأعضاء المجمع العلمي الى احتفال قدم فيه الشاعر : « هو ذا بدوى الجبل . محمد سليمان الأحمد » وراح البدوى يشدو وهم فى نشوة مما يسمعون .

وغلب اللقب على الاسم ثم حل محله فى البيت وخارجه به تناديه زوجته وأولاده والناس كلهم ، وكذلك كان شأن المتنبى الذى ندر أن يعرف الناس اسمه .. ولا أزال اذكر انه حين يمم القاهرة سنة ١٩٣٨ لحضور المؤتمر البرلماني لنصرة فلسطين وكنت فيها انه كان يتلقى لكل اجتماع أو احتفال بطاقتين احداهما معنونة باسم « سعادة بدوى بك الجبل » والأخرى باسم « سعادة النائب محمد سليمان الأحمد » .

البقية فى العدد القادم

أطفال الأنابيب.. وبنوك الحليب

من وجهة نظر الفقه الإسلامي

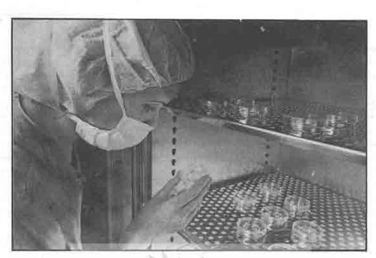
بقلم: عبد القادر بن محمد العماري

إن التقدم العلمي يجب ألا ينسينا أخلاقياتنا ومبادئنا الرفيعة المتمثلة فى أوامر ديننا الاسلامي وضوابطه ، ويجب أن ننطلق بحذر فى المجالات الحضارية التي قد يستهوينا فيها بريق الجديد وتجرنا إليها جاذبية التحرر ، فهناك من الناس من لا تهمه أن تسقط الانسانية فى الحضيض وتعم الفوضى العلاقات الاجتماعية والأسرية ، فيعيش الناس كالحيوانات السائمة بلا رابط ولا ضابط .

واذا كان فى الغرب اليوم من قام ينادى برفع الحواجز والفواصل بعد الاكتشافات العلمية الأخيرة فى مجال تكنولوجيا الاخصاب ، فأراد أن يعيش الناس بلا آباء ولا أمهات معروفين ، ويعتاض عنهم بصحون المختبرات داخل الأنابيب ، فان هؤلاء لا يريدون للانسانية خيراً . وكيف يقال انهم إنما يسعون من أجل قطاعات من الناس حرموا من الأولاد بسبب العقم ؟!

إن الأشرار كثيراً ما ينحرفون بالأهداف النبيلة مثل أولئك الذين سخروا أبحاث الذرة لتدمير الانسانية ، واننا لانشك أن من بدأ هذه الأبحاث من العلماء ما كانوا يريدون لأبحاثهم أن تنحرف عن القصد الحسن وخدمة الانسانية ، لذلك فإنه يجب وضع ضوابط وحدود لكل انجازات العلم ، ولن تجد مثل الاسلام حافظاً وموجهاً للعقل البشرى للوصول الى الأهداف السامية ، فهو يمنع فتح باب الانجاب بلا أزواج لأن ذلك يؤدى الى الفوضى وهدم المثل والأخلاق والتسبب فى كوارث مرضية فى أولئك المتشابهين وراثياً الذين ستجتمع فيهم كل الأمراض لأن التغاير والتشاكل فى الوراثة من أسباب حماية الجنس البشرى وارتقائه ، لذا يجدر بنا أن نبين وجهة نظر الفقه الاسلامي فى أطفال الأنابيب وكذلك فى بنوك الحليب لارتباطها بهذا الموضوع من بعض النواحى .

وقبل أن ندخل فى الموضوع نحب أن نؤكد أن الفقه الاسلامي لا يقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق أى مصلحة أو حاجة ملحة لأى انسان ولكنه يضع الضوابط ليحمى هذه المصلحة والحاجة من أن تتحول الى مضار تحيق بالانسانية وتفوت على الانسان نفسه مصالح كثيرة أهم وأعظم وأنفع من تلك المصلحة المحدودة التى سعى إليها فى وقت من الأوقات . قال الامام أبو حامد الغزالى : إن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الحق وصلاح الخلق فى تحصيل مقاصدهم لكنا نعنى بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول



لقطة داخل معامل أطفال الأنابيب في الغرب

الخمسة فهو مفسدة ودفعها مصلحة » .(١)

والاسلام يكره التزوير والتزييف بأن ينسب للانسان ابناً ليس ابنه ولذلك قال تعالى (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) (٢) .

إن التقدم العلمى فى مجال الطب حقق أمنيات لكثير من النساء والرجال الذين حرموا من الأطفال بسبب العقم فى الحصول على الأطفال عن طريق أطفال الأنابيب ، حيث تتبع الأساليب الآتية فى معامل التلقيح الصناعى :

• إذا كان فى الزوج قصور عن ايصال مائه الى الموضع المناسب تؤخذ النطفة الذكرية من الرجل وتحقن داخل مهبل زوجته حتى تلتقى النطفة التقاء طبيعياً بالبويضة التى يفرزها مبيض الزوجة فيقع التلقيح بينهما ثم يقع العلوق فى جدار الرحم .

• اذا كان الزوج عقيماً لا بذرة فى مائه تؤخذ النطفة الذكرية من غيره وتحقن فى الموقع المناسب فى المرأة زوجة الرجل العقيم .

وهذان الأسلوبان يسميان التلقيح الصناعى الداخلى ، وواضح أن الصورة الأولى لا غبار عليها فهى جائزة فى الشرع . وأما الثانية فلا تجوز شرعاً لأن المنى ليس من الزوج .

أما التلقيح الخارجى فيكون بالأساليب الآتية :

١ ــ عندما تكون الزوجة عقيماً بسبب انسداد القناة التى تصل بين مبيضها ورحمها (قناة فالوب) تؤخذ نطفة من الرجل وبويضة من مبيض زوجته فتوضعان فى أنبوب اختبار طبى حتى تلقح نطفة الزوج بويضة زوجته فى وعاء الاختبار ، ثم اذا أخذت فى الانقسام والتكاثر تنقل من أنبوب الاختبار الى رحم الزوجة نفسها صاحبة البويضة فتنمو وتتخلق ككل جنين ، ثم فى نهاية مدة الحمل الطبيعية تلد الزوجة طفلا أو طفلة ، وهذه الصورة جائزة من الناحية الشرعية لأن المنى والبويضة للزوجين ، لكن يجب الاحتياط من اختلاطها بنطف الآخرين ، كما يجب ألا يكون ذلك الا للضرورة .

٢ ــ عندما يكون مبيض الزوجة مستأصلا أو معطلا ورحمها قابلا للعلوق يكون التلقيح فى أنبوب الاختبار بين نطفه مأخوذة من زوجها وبويضة مأخوذة من مبيض امرأة ليست زوجته ثم تزرع فى رحم زوجته وهذه الصورة لا تجوز شرعاً لأن البويضة ليست من زوجة الرجل .

٣ ــ عندما يكون الرجل عقيما ومبيض زوجته معطلا ولكن رحمها سليم فيجرى التلقيح فى أنبوب الاختبار بين نطفة رجل ونطفة امرأة ليسا زوجين ، ثم تزرع النطفة الملقحة فى رحم المرأة المتزوجة ، وهذه الصورة أيضاً محرمة لأن الماء والبويضة ليسا للزوجين .

٤ ــ عندما تكون المرأة غير قادرة على الحمل لسبب فى رحمها ولكن مبيضها سليم منتج أو غير راغبة فى الحمل فتتطوع لها امرأة أخرى بالحمل عنها ، فيجرى تلقيح خارجى فى وعاء الاختبار بين بذرتى الزوجين ثم تزرع اللقيحة فى رحم المرأة المتطوعة .. وهذه الحالة جرى فيها خلاف بين العلماء المعاصرين ، فأباحها أكثرهم إذ كانت المرأة المتبرعة بالحمل ضرة أخرى لصاحبة البويضة أى أنها زوجة للرجل صاحب البذرة ، ولكن تكون المشكلة فى نسبه من جهة الأم فقال البعض إنه ينسب الى صاحبة البويضة وقال البعض الآخر إنه ينسب الى المتبرعة بالحمل لأنها هى التى ولدته وفى القرآن الكريم (إن أمهاتهم الا اللائى ولدنهم)(٣) وصاحبة البويضة لم تلده غير أنها تكون كالأم الرضاعية للمولود ، لأنه اكتسب البويضة من جسمها وعضويتها أكثر مما يكتسب الرضيع من مرضعته فى نصاب الرضاع ، وكان الشيخ يوسف القرضاوى ممن أجازوا أن تكون المرأة نائبة فى الحمل عن صاحبة البويضة حتى لو لم تكن ضرة لها وأن ينسب الولد الى الزوج صاحب البذرة والزوجة صاحبة البويضة وقد ذكر ذلك فى مقال له بمجلة العربى بعدد مارس ١٩٧٨ م . غير أن الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود قد رد عليه فى رسالة يرى فيها عدم جواز هذه الصورة ، وقال إن حديث الولد للفراش وللعاهر الحجر نص فى الحكم فى هذه القضية فمتى حملت المرأة ذات زوج فإن حملها يكون للزوج ولزوجته ولا علاقة للمأخوذ منه المنى بالحمل .

وقد جاء فى قرار مجلس المجمع الفقهى الاسلامى المنعقد بمكة فى دورته السابعة والذى

أطفال الأنابيب.. وبنوك الحليب

من وجهة نظر الفقه الإسلامي

نشر بجريدة السياسة الكويتية بتاريخ ١٥ مارس ١٩٨٤ أن المجلس نظر فيما نشر وأذيع على أنه يتم فعلا تطبيقه فى أوروبا وأمريكا من استخدام هذه الانجازات لأغراض مختلفة منها تجارب ومنها ما يجرى تحت عنوان تحسين النوع البشرى ومنها ما يتم لتلبية الرغبة فى الأمومة لدى نساء غير متزوجات أو نساء متزوجات ولا يحملن لسبب منهن أو فى أزواجهن . وما أنشيء لتلك الأغراض المختلفة من مصارف النطف الانسانية التى تحفظ فيها نطف الرجال بصورة تقنية تجعلها قابلة للتلقيح بها الى مدة طويلة . وتؤخذ من رجال معينين أو غير معينين تبرعا ولقاء عوض الى آخر ما يقال إنه واقع اليوم فى بعض بلاد العالم المتمدن .

ثم قرر المجلس ما يلى :

١ ــ إن حاجة المرأة المتزوجة والتى تحمل وحاجة زوجها الى الولد تعتبر غرضاً مشروعا يبيح معالجته بالطريقة المباحة من طرق التلقيح الاصطناعى .

٢ ــ إن الأسلوب الذى تؤخذ فيه النطفة الذكرية من متزوج ثم تحقن فى رحم زوجته نفسها فى طريقة التلقيح الداخلى هو أسلوب جائز شرعا بعد أن ثبت حاجة المرأة الى هذه العملية لأجل الحمل .

٣ ــ إن الأسلوب الذى تؤخذ فيه البذرتان الذكرية والأنثوية من رجل وامرأة زوجين أحدهما للآخر ويتم تلقيحهما خارجيا فى أنبوب اختبار ثم تزرع اللقيحة فى رحم الزوجة نفسها صاحبة البويضة هو أسلوب مقبول مبدئياً فى ذاته بالنظر الشرعى ، لكنه غير سليم تماماً من موجبات الشك فيما يستلزمه ويحيط به من ملابسات . فينبغى الا يلجأ إليه الا فى حالة الضرورة القصوى .

٤ ــ إن الأسلوب الذى توخذ فيه النطفة والبويضة من زوجين وبعد تلقيحهما فى وعاء الاختبار تزرع اللقيحة فى رحم الزوجة الأخرى للزوج نفسه . حيث تتطوع بمحض اختيارها بهذا الحمل عن ضرتها المنزوعة الرحم . يظهر لمجلس المجمع أنه جائز عند الحاجة وفى حالات الجواز الثلاث يقرر المجلس أن نسب المولود يثبت من الزوجين مصدر البذرتين ويتبع الميراث والحقوق الأخرى ثبوت النسب ، فحين يثبت نسب المولود من الرجل والمرأة يثبت الإرث وغيره من الأحكام بين الولد ومن التحق نسبه .

أما الزوجة المتطوعة بالحمل عن ضرتها فتكون فى حكم الأم الرضاعية للمولود .

٥ ــ أما الأساليب الأخرى من أساليب التلقيح الاصطناعى فى الطريقين الداخلى والخارجى فجميعها محرمة بالنظر الاسلامى ، لا مجال لاباحة شيء منها لأن البذرتين الذكرية والأنثوية ليستا من زوجين أو لأن المتطوعة بالحمل هى اجنبية عن الزوجين مصدر البذرتين .

واختتم المجمع قراره بقوله (ونظراً لما فى التلقيح الاصطناعى بوجه عام من ملابسات حتى فى الصور الجائزة شرعاً . ومن احتمال اختلاط النطف أو اللقائح فى أوعية الاختبار . ولاسيما اذا كثرت ممارسته وشاعت فإن مجلس المجمع ينصح الحريصين على دينهم ألا يلجأوا الى ممارسته الا فى حالة الضرورة القصوى . وبمنتهى الاحتياط والحذر من اختلاط النطف أو اللقائح) .

أما دار الافتاء المصرية فقد أصدرت فتوى موقعة من فضيلة المفتى السابق وشيخ الأزهر حاليا الشيخ جاد الحق على جاد الحق بتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ . الموافق ٢٣ مارس ١٩٨٠ م . وتنص على ما يلى :

١ ــ تلقيح الزوجة بذات منى زوجها دون شك فى استبداله واختلاطه بمنى غيره جائز شرعا ويثبت النسب فإن كان منى رجل آخر غير زوجها فهو محرم شرعا ويكون فى معنى الزنا ونتائجه .

٢ ــ تلقيح بويضة امرأة بمنى رجل ليس زوجها ثم نقل هذه البويضة الملقحة الى رحم زوجة الرجل صاحب هذا المنى حرام ويدخل فى معنى الزنا .

٣ ــ أخذ بويضة الزوجة التى لا تحمل وتلقيحها بمنى زوجها خارج رحمها (أنابيب) واعادتها بعد اخصابها الى رحم تلك الزوجة دون استبدال أو خلط بمنى انسان آخر أو حيوان لداع طبى وبعد نصح طبيب حاذق مجرب باتباع هذا الطريق هذه الصورة جائزة شرعاً .

٤ ــ التلقيح بين بويضة الزوجة ونطفة زوجها يجمع بينهما فى رحم أنثى غير الانسان من الحيوانات لفترة معينة يعاد بعدها الجنين الى ذات رحم الزوجة فيه افساد لخليقة الله فى أرضه ويحرم فعله .

٥ ــ الزوج الذى يتبنى أى طفل انفصل وكان الحمل به باحدى الطرق المحرمة لا يكون ابناً شرعياً والزوج الذى يقبل أن تحمل زوجته نطفة غيره بالزنا الفعلى أو بما فى معناه سماه الاسلام ديوثاً .

٦ ــ كل طفل ناشيء بالطرق المحرمة قطعاً من التلقيح الصناعى لا ينسب الى أب جبرا وإنما ينسب لمن حملت به ووضعته باعتباره حالة ولادة طبيعية كولد الزنا الفعلى تماماً .

٧ ــ الطبيب هو الخبير الفنى فى إجراء التلقيح الصناعى أيا كانت صورته فإن كان عمله فى صورة غير مشروعة كان آثما وكسبه حرام وعليه أن يقف عند الحد المباح .

٨ ــ انتشار مستودع تستحلب منه نطف رجال لهم صفات معينة لتلقح بها نساء لهن صفات معينة شر مستطير على نظام الأسرة ونذير بانتهاء الحياة الأسرية كما أرادها الله .

وتقول الفتوى ومن هنا لا يجوز فى نطاق الاسلام الانطلاق فى عمل التلقيح الصناعى ، بمعنى نقل منى الرجل ، أى رجل ، وتلقيحه ببويضة امرأة أى امرأة . لأن تلك تجارب تصلح لتحسن السلالات ومحلها بين أنواع مختلفة من الحيوان لا تعرف لها أباً ومن النبات تسمق سيقانه حامله وفير الثمرات ــ وذلك أمر مشروع ــ ومن هنا كان القول الحكيم (اليتيم من ابن آدم من مات أبوه ومن الحيوان من ماتت أمه) فإذا نحن انطلقنا فى مجال التلقيح الصناعى فى الانسان وأنشأنا مستودعاً (بنكا) تستحلب فيه نطف الرجال الأذكياء أو ذوى الأجسام الأقوياء لتلقح بها أنثى رشيقة القوام سريعة الفهم لاثراء الصفات فى الجنس البشرى . كان هذا شراً مستطيراً على نظام الأسرة ونذير انتهاء الحياة الأسرية كما أرادها الله فمن باب سد الذرائع وحفظا لروابط الأسرة وصوناً للأنساب يحرم الاسلام الانطلاق فى التلقيح الصناعى لتوالد الانسان ولا يجيزه كما سبق الا بين الزوجين وبالشروط المبينة وبديلا لهذه البنوك وجه الاسلام الانسان الى المحافظة على قوة نسله وسلامة نفسه وجسده ، وذلك باحسان اختيار كل من الزوجين للآخر ، والى الاغتراب فى الزواج بمعنى ترك الزواج بين ذوى القربى لقريبه حتى لا يضوى النسل ويضعف كما قال عمر بن الخطاب ناصحاً احدى القبائل (قد أضويتم فانكحوا الغرائب) وقيل قديماً (بنات العم أصبر والغرائب أنجب) هذه هى المعايير المشروعة التى يقررها الاسلام للحفاظ على النسل : نسل الانسان سليماً قوياً لا تلك التى يتنادى بها بعض الناس مقلدين أقواماً أغوتهم المادية وانغمسوا فيها وتحللو من كل قيم الدين فحسبوا الانسان ونسله مزرعة تجارب كأى مزرعة للنبات أو الحيوان . مع ان الله قد كرم الانسان وأعلى قدره وسخر له ما فى السموات والأرض (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب) الانفعال ٢٤ ــ ٢٥ .

• بعض علماء المسلمين أجازوا تأسيس بنوك الحليب .

• علماء النفس والاجتماع أعلنوا تخوفهم من قيام مثل هذه البنوك في العالم الثالث .

وأما بنوك الحليب فهى مؤسسات أقيمت فى الغرب من أجل تجميع حليب من النساء الوالدات لحفظه ويغذى به الأطفال المبتسرون الذين يحتاجون الى الرضاعة الطبيعية باعتبار أن لبن الأم هو أعلى قيمه غذائية يمكن أن تعطى للطفل . فلاشك أن الهدف الذى أنشئت من أجله هذه البنوك سام ونبيل . وقد عرف الاسلام استئجار المرضعة . ونص على ذلك القرآن ولكن المشكلة التى تعترض تأسيس هذه البنوك فى عالمنا الاسلامى أن هذه الألبان ستكون من نساء متعددات فتختلط الألبان . وهناك فى الشرع الاسلامى النساء المحرمات بالرضاع . فعندما يكبر هذا الرضيع ويريد أن يتزوج فربما تكون الفتاة التى يريد الزواج بها قد شربت من نفس اللبن الذى شرب منه فتكون أخته من الرضاعة فيحرم زواجه بها شرعا . وقد وجد بعض الفقهاء المعاصرين أنه فى الامكان التغلب على هذه المشكلة باعتماد القول الذى يشترط المص من الثدى للتحريم فى الرضاع وأن التحريم لا يكون فى حالة الوجور وصب اللبن فى الحلق باعتبار أن أساس التحريم هو الارضاع من المرأة عن طريق الثدى من الأم المرضعة لأن الآية القرآنية تقول : (وامهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة)(٤) .

فالأمومة لا تكون من مجرد أخذ اللبن بل من الامتصاص والالتصاق الذى فيه حنان الأمومة ويتفرع عن هذه الأمومة الأخوة . وقد تبنى هذا الرأى الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى تبعا للامام ابن حزم الذى قال فى كتابه المحلى (واما صفة الرضاع المحرم فانما هو ما امتصه الراضع من ثدى المرضعة بفمه فقط فأما من سقى لبن امرأة فشربه من اناء أو حلب فى فمه فبلعه أو أطعمه بخبز أو طعام أو صب فى فمه أو فى أنفه أو أذنه أو حقن به فكل ذلك لا يحرم شيئا ولو كان ذلك غذاؤه دهره كله برهان ذلك قول الله عز وجل (وامهاتكم اللاتى ارضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) وقال صلى الله عليه وسلم (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) فلم يحرم الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى نكاحا الا بالارضاع والرضاعة والرضاع فقط . ولا يسمى ارضاعا الا ما وضعته المرأة المرضعة من ثدييها فى فم الرضيع . يقال أرضعته ترضعه ارضاعا ولا يسمى رضاعة ولا ارضاعا الا أخذ المرضع أو الرضيع بفيه الثدى وامتصاصه اياه . تقول رضع يرضع ارضاعا ورضاعة . وأما كل ما عدا ذلك مما ذكرناه فلا يسمى شىء منه ارضاعا ولا رضاعة ولا رضاعا انما هو حلب وطعام واسقاء وشرب وأكل وبلع وحقنه وسعوط وتقطير ولم يحرم الله عز وجل بهذا شيئا . قال أبو محمد وقد اختلف الناس فى هذا فقال الليث ابن سعد لا يحرم السعوط بلبن المرأة ولا يحرم ان يسقى الصبى لبن المرأة فى الدواء لأنه ليس برضاع) (٥) .

كما أن الشيخ عبد اللطيف حمزه مفتى الديار المصرية قد قال إن هذه البنوك حلال شرعا استنادا الى مذهب ابى حنيفه الذى يشترط أن يكون اللبن الذى تناوله الرضيع لبن امرأة وأن يصل الى الجوف عن طريق الفم أو الأنف ، والا يكون مخلوطا بغيره كالماء والدواء أو بلبن امرأة أخرى بالاضافة الى أنه يتوافر فيه عنصر الجهالة بالنسبة للأمهات اللاتى اعطين لبنهن ، واللبن بعد تجفيفه اذا تناوله الرضيع لابد من اضافة الماء اليه على أن يكون الماء غالبا على اللبن)(٦) .

واذا كنا قد استطعنا أن نجد الحل الفقهى فى قول الظاهرية والأحناف بجواز تأسيس بنوك الحليب . فإن علماء النفس والاجتماع يتخوفون من قيام مثل هذه البنوك فى العالم الثالث . فيقول الدكتور على فهمى من المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة (انه لو دخل المشروع نطاق التنفيذ فسيكون فاشلا وسيخلق جيلا فاشلا اجتماعيا لا يمكن أن يتكيف مع المجتمع والبيئة التى يعيش فيها . وبالتالى سيخلق جيلا ضعيفا مليئا بالأمراض والأوبئة . لأنه سيحرم كثيرا من الأطفال الأصليين ابناء هذه الأمهات اللاتى يتعاملن مع هذا البنك مما يترتب عليه حرمان هؤلاء الأطفال من حقهم الطبيعى فى الغذاء مقابل بيع هذا اللبن . كما سينتج عنه تشجيع كثير من الأمهات على امتهان هذه المهنة (مثل الاتجار بالدم) وستكون هذه الأمهات من الطبقات الدنيا التى لا شك أن لديهن كثيرا من الأمراض . ولا اتصور أن هذه العملية انسانية لأنها تعمل على تشجيع الأمهات على الامتناع عن ارضاع أطفالهن رضاعة طبيعية . هذا الى جانب الناحية النفسية للطفل . فقد أكدت كل البحوث والدراسات أن تربية الطفل الرضيع ليست عملية تغذية فقط الا أنه الى جانب ذلك تعطى للطفل جرعة من الاشباع فى الحنان والحب والدفء والعطف من الأم وما يثبت على ذلك أن النظرية الفرويدية تقول انه بمجرد اعطاء الطفل ثدى الأم يحدث عنده اشباع فى المرحلة الأولى التى هى مرحلة لابد أن يمر بها كل طفل طبيعى وحرمان الطفل من هذه المرحلة سيؤدى الى بعض الأمراض النفسية ويصبح الطفل كائنا غير اجتماعى محروما جزئيا من الحنان فيصبح كائنا ضد المجتمع) .

وأقول مع احترامنا لوجهة النظر هذه فان المسألة يجب أن ينظر اليها من خلال الحاجة والضرورة . لأنها تتعلق بحاجة الطفل الخديج فقط فهى اذن ضرورة والقاعدة تقول (عند الضرورات تباح المحظورات) .

عبد القادر بن محمد العمارى

هوامش

(١) المستصفى جـ١
(٢) الآيتان ٤ ،٥ من سورة الأحزاب
(٣) المجادلة (٢)
(٤) النساء (٢٣)
(٥) المحلى لابن حزم جـ/ ١٠
(٦) الأهرام ٢٣ / ٨ / ١٩٨٣م

لمـــاذا هــذا الصـــراع بـــين القــديـم والجديـــد ؟!



بقلم: الدكتور علي الدين هلال

من أهم القضايا المثارة فى حياتنا الثقافية خلال القرن العشرين هى قضية الأصالة والتجديد ، والتى يتعرض لها الكتاب والمفكرون تحت أكثر من مسمى « التراث والمعاصرة ، التقليدية والحداثة ، الموروث والوافد ، القديم والجديد » ومع أن هذه المسميات ليست مترادفة تماما فى معانيها فإنها تشير فى جوهرها الى نفس الموضوع .

وبادىء ذى بدء ينبغى الاشارة إلى أن هذه المشكلة ليست قاصرة على المجتمع العربى الاسلامى أو خاصة به ، بل واجهتها كل المجتمعات ذات التاريخ الثقافى المتميز ، ونجد فى هذه البلاد نفس الحوارات ونفس التيارات الثقافية التى حاولت مواجهة هذه القضية . فعلى سبيل المثال برز فى روسيا القيصرية خلال القرنين الثالث عشر والتاسع عشر ثلاثة تيارات فكرية عريضة. أولها انطلق من أن الطريق الأمثل لروسيا يكمن فى تبنى التكنولوجيا والأفكار والمؤسسات الغربية وسمى أنصار هذا التيار بالتغريبيين Westernizers وثانيهما اكد على التقاليد التاريخية والثقافية المتميزة لروسيا وأكد على تفوق قيمها على تلك القادمة من أوربا الغربية ، وأن التحرر الحقيقى لروسيا ليس فى التشبه بالآخرين ولكن تأكيد روحها الحقيقية والعودة الى جذورها الثقافية التى خبت جذوتها بفعل تأثير الأفكار القادمة من الخارج . وبين التيارين ظهر تيار ثالث يسعى إلى التوفيق بينهما والجمع بين مزايا كل منهما . نفس هذه التيارات ، مع اختلاف فى المسميات ، نجدها فى الفكر الصينى فى القرن التاسع عشر ، ونجدها فى فكرنا العربى فى القرن العشرين .

ولا يهدف هذا المقال إلى تقديم وجهة نظر جديدة فى الموضوع الى جانب ما يوجد فى الساحة ، وما أكثره . ولكنه يسعى الى اقتراح بعض الأصول والقواعد المنهجية سواء من حيث ضبط الألفاظ ، أو تحديد المفاهيم المتداولة بما يساعدنا على فهم أكثر وضوحاً للموضوع .

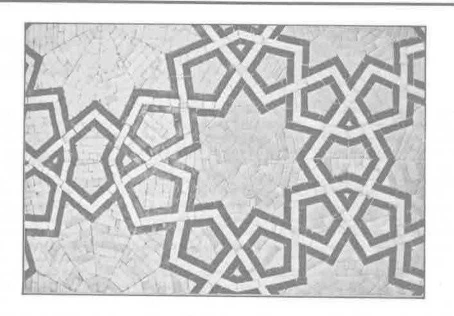
الأصالة والتجديد

فإذا بدأنا من الناحية اللغوية نقول أن الأصالة لفظة مشتقة من كلمة أصل ، وأصل الشيء مبتدؤه وأوله أو قاعدته الأساسية . ونجد المعنى الأول والثانى فى قوله تعالى « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » (ابراهيم : ٢٤) : أما المعنى الثالث فيشير إليه قول الفقهاء إن « الأصل فى الأشياء الإباحة » أى أن القاعدة الأساسية فى الأشياء أنها مباحة . أما التحريم فهو الاستثناء من هذه القاعدة . وفى كل الأحوال فإن الأصالة تعنى الرجوع الى الأصول وعدم التنكر للمنشأ أو المبتدأ .

أما التجديد فلفظة مشتقة من كلمة جديد ، وهى عكس القديم ، وتجديد الشيء أى اعادته لسيرته الأولى بإزالة ما علق به من غبار واصلاح ما أصابه من أضرار ، وتعديله بما يتناسب مع جوهره ووظيفته .

ومن غير الصحيح أن نربط فى أذهاننا الأصالة بالقديم أو الموروث والحداثة بالجديد أو الوافد . فليس كل ما حدث فى « الماضى » أصيل أو نابع من واقعنا . والحكمة الاسلامية فى هذا الأمر بالغة الدلالة فيقول القرآن الكريم « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى : ١٣) .

ولم يرفض الاسلام كل العادات والمناسك التى كانت موجودة قبل ظهوره مثل الحج والأشهر الحرام ، وان كان قد عدل فى بعض جوانب ممارساتها مثل طواف الكعبة بدون ملابس ، كما



حرم القرآن الكريم النسىء وهو تبديل الأشهر الحُرم.

واتبع الخلفاء الراشدون سنة الرسول فى منهجه فأمر ابو بكر بجمع القرآن وهو أمر جديد لم يفعله النبى لكنه وجده أمرا ضروريا. واقتبس عمر نظام الدواوين من الفرس وقام بمنع الجند الفاتحين من امتلاك الأراضى الزراعية فى مصر والشام والعراق وقرر جعلها مملوكة لبيت المال، ومنع كبار الصحابة من التفرق فى الأمصار المفتوحة حتى يمنع افتتان الناس بهم وأمور أخرى عديدة.

وكان المنهج الاسلامى فى هذا الشأن قوامه الأخذ من أفكار وممارسات السابقين والمعاصرين ما يفيد المسلمين وبما لا يتعارض مع مبادىء الاسلام، وتعديل وملائمة هذه الأفكار والممارسات بما يتلاءم مع واقع المجتمع الاسلامى. وهكذا فإن ما نعتبره جزءا من تراثنا ـ اليوم ـ هو فى حقيقة الأمر اجتهادات قام بها أجدادنا لمواجهة المشاكل التى طرحها واقعهم عليهم، أو اقتبسوا حلولها من المجتمعات التى كانت قائمة وقتذاك ولم يجدوا فيها ما يخالف معتقداتهم.

وإذا كان من المؤكد أنه ليس كل ما هو قديم «أصيل» بالمعنى الذى أشرت إليه، فمن المؤكد أيضاً أنه ليس كل ما هو جديد أمرا متقدما أو يستحق الأخذ أو الاقتداء به.

التراث والمعـــاصرة: مفهــــومان تركيبيـــان

ولا تستقيم المناقشة إلا إذا حددنا مفهوم التراث والمعاصرة.

تتعدد الاجابات على هذا السؤال فمن قائل بأن التراث هو عناصر الثقافة التى تتناقل من جيل الى جيل، ويشير الى أن المضمون الأصلى للمفهوم هو فكرة انتقال ما عبر الزمن وهو بذلك يقترب اقترابا وثيقاً من مفهوم الثقافة. بل ويرى البعض أن التراث مرادف للثقافة (١).

والحقيقة أن التراث هو أكثر من النصوص والكتابات. هو جماع خبرة المجتمع فى تطوره المادى والمعنوى، وهو يتضمن النصوص والأفكار والقيم من ناحية، والمؤسسات والأبنية من ناحية أخرى، والعلاقات والممارسات من ناحية ثالثة. بعبارة أخرى التراث هو خلاصة خبرة المجتمع فى تفاعله مع بيئته الداخلية والخارجية. وهو استخلاص كيفية تعامله مع التحديات التى واجهته فى مسيرته التاريخية.

وتراث أى أمة لا يشكل كياناً متجانساً موحداً فهو ينتمى عادة الى أكثر من حقبة تاريخية وبالذات فى المجتمعات التى لها ماض موغل فى القدم مازالت آثاره قائمة وشاهدة عليه. فعلى سبيل المثال فإن تراث مصر يجد جذوره الأولى فى المراحل السابقة على الفتح الاسلامى وتنطبق نفس الملاحظة على لبنان وتونس.

وهو من ناحية ثانية ليس على وتيرة واحدة أو فى اتجاه واحد بل يوجد فى كل تراث الشيء ونقيضه، والفكرة وعكسها. ونجد النظم والممارسات المختلفة د وفى التراث العربى الاسلامى نجد الفرق والتيارات المختلفة. وفى تاريخ الفلسفة الاسلامية نجد التيارات العقلانية، ونجد نقيضها أيضاً. ونجد مدارس الخوارج والمعتزلة والمرجئة والأشاعرة. ونجد جدلا نظريا طويلا حول الجبر والاختيار، وهل الانسان مجبر أو مخير فى آرائه. ونجد الغزالى الذى حمل على التفكير الفلسفى حملة شعواء مثلها كتابه «تهافت الفلاسفة»، ونجد من ناحية أخرى ابن رشد الذى رد عليه بمؤلف «تهافت التهافت».

وإذا كان التراث مفهوماً تركيبياً متعدد الجوانب، متنوع القسمات فإن الحداثة أو المعاصرة ينطبق عليها نفس الملاحظة فالحداثة (Modernism) وعملية التحديث (Modernization) ليست نموذجاً واحداً أو متجانساً. وما نسميه بالحداثة أو العصرية هو تركيب فكرى قام ببنائه عدد من المفكرين والباحثين الغربيين بأثر رجعى، وبعد أن كانت عمليات التصنيع والتغير الاجتماعى وبناء مؤسسات الدولة الحديثة قد تمت فى أوربا. أى أن نظرية التحديث الموجودة أمامنا اليوم هى فى حقيقة الأمر رؤية بعض المفكرين لخلاصة الخبرة الأوربية بعد أن تمت، وتصورهم للعلاقة بين مكونات هذه الخبرة، ولكننا لا نجد فى تاريخ الفكر الأوربى فى القرنين السابع عشر أو الثامن عشر تصورا متكاملا لعملية التغير الشامل فى أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فعملية النهضة الأوربية تمت على عدة قرون، وتضمنت فى ثناياها عددا من العمليات التاريخية منها عملية النهضة (الرينسانس) والتنوير على المستوى الفكرى، ومنها الاصلاح الدينى وظهور البروتستانتية على المستوى الدينى، ومنها الثورة

التراث

بين الأصالة والمعاصرة

الصناعية وظهور الطبقة العاملة والنقابات على المستوى الاقتصادى . ومنها قيام الأحزاب والصراع السياسى من أجل حق التصويت والمشاركة على المستوى السياسى .

والتركيبة الايدولوجية التى نقرأها فى بعض المؤلفات والتى تعطى الانطباع بوجود « وصفة » جاهزة للتحديث أو للتغير . وان هذه العملية تمت فى أوربا بشكل منسجم ومتناغم ليس لها أساس من الناحية التاريخية . فالعمليات التاريخية التى أشرت إليها لم تتم كلها فى نفس الوقت ، ولا فى نفس المجتمع ، بل تمت فى أماكن مختلفة من أوربا وأتت من روافد متعددة . فحركة الاصلاح الدينى كانت فى هولندا ، وبداية الثورة الصناعية فى انجلترا . والثورة السياسية كانت فى فرنسا . والدولة القومية لم يتم قيامها فى ايطاليا إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وقد تمت هذه العمليات أيضا باشكال ونماذج مختلفة .

أضف إلى ذلك أن الحداثة ليست خيراً محضاً والتاريخ الغربى الحديث الذى أفرز أفكار وممارسات تعدد الأحزاب والمشاركة السياسية ، وحق التصويت لجميع المواطنين . هو أيضاً الأب الشرعى لأفكار وممارسات الاستعمار والعنصرية والنظم الناشئة والشمولية .

ويرتبط بمفهوم الحداثة قضية أخرى مازالت تتطلب منا قدرا كبيرا من التنقيب والتحليل . وهى ماهية شروط ومتطلبات المجتمع الحديث . وهل السمات التى ارتبطت بالتجربة الأوربية ذات طابع عالمي وحتمى ، وهى شروط ضرورية للحداثة . أم أنها سمات نبعت من ظروف الخبرة الأوربية وارتبطت بظروفها الخاصة ؟

بعبارة أخرى هل اقامة مجتمع صناعى حديث ومجتمع يتسم بالكفاءة والإنجاز يتعارض بالضرورة مع الايمان أو مع اعتبار الأسرة الوحدة الرئيسية للمجتمع البشرى ؟

الأمر المؤكد أنه لابد من تفتيت التركيبة الايدولوجية التى يقدمها الغرب وأن يتم التمييز فيها بين تلك الشروط الضرورية واللازمة لاقامة مجتمع حديث ، وبين تلك السمات التى ارتبطت بالتاريخ الأوربى المتميز والتى تعكس هذا التاريخ .

ضوابط منهجية

الى ماذا يوصلنا هذا التحليل ؟

يوصلنا الى عدد من النتائج الهامة التى أعتقد أنه من المهم تبنيها كضوابط منهجية عند الحديث عن الأصالة والتجديد ، أو عن التراث والمعاصرة :

أولها : أن كلا من التراث والمعاصرة لا يمثلان كياناً متجانساً موحداً ، كما أنهما لايعبران عن نموذج تطبيقى أو تاريخى واحد . فهناك تعدد للتيارات الفكرية والفلسفية ، وتنوع للتجارب وللنماذج التاريخية فى اطار كل من التراث والمعاصرة .

وثانيها : أنه لا ينبغى الخلط بين التراث والدين . فليس كل ما حدث فى التاريخ ولا كل النظم والممارسات التى تمت ولا كل الأفكار التى نشأت فى سياق هذا التاريخ تتفق مع جوهر الدين الحنيف ، كما أن هناك تراثاً سابقاً مغرقاً فى القدم عمره آلاف السنين مازال له تأثيره فى بعض البلاد العربية .

وثالثها : أن العلاقة بين الأصالة والتجديد ليست علاقة تنافر وتضاد وتناقض . بل يمكن القول أنه لا أصالة بدون تجديد ولا تجديد بدون أصالة . الأصالة الحقة هى التى تواجه مشاكل الواقع المعاش وتقتحمها . والحداثة الحقة هى التى تستند إلى تراث الأمة وإلا لن يكون لها تأثير على جموع الناس وستظل محصورة فى عقول الأقلية .

يترتب على ذلك أن المفاضلة بين الأصالة والمعاصرة أو بين التراث والتجديد هو أمر تجاوزته الأحداث والظروف ولم تعد تستهوى إلا البسطاء . فلا توجد أمة تستطيع أن تمسخ ذاتها بالانفصال عن ماضيها وتراثها . ولا توجد تلك التى ترضى أيضاً بالانتحار الذاتى برفضها الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة . ولا توجد نهضة حديثة لم يكن أحياء التراث جزءا منها .

واذا كان منهج المفاضلة والاختيار بين « إما ... وإما » لم يعد وارداً فإن المطلوب هو نظرة نقدية لكل من مفهومى التراث والحداثة . وأن نمارس التفكير والتحليل فى تاريخنا وفى تاريخ الآخرين أيضاً . لا نقبل كل ما هو ماضٍ باسم الأصالة ، ولا ننقاد إلى كل وافد باسم التجديد أو الحداثة .

إن النظرة النقدية التى ندعو إليها ينبغى أن تسأل : أى تراث ؟ وأى معاصرة ؟

وكل من التراث والمعاصرة لهما امتداداتهما الثقافية والفكرية فى واقعنا العربى المعاصر . ولهما أيضاً نماذجهما السياسية الراهنة . وفى تاريخنا الحديث استخدم كل منهما لتبرير أمور جد متناقضة . وكم من المواقف وعكسها تم شرحها وتبريرها للانسان العربى باسمهما .

وهذه النظرة النقدية تتضمن أيضاً أنه لا توجد « وصفة » جاهزة أو « تركيبة » مضمونة . ما علينا سوى تطبيقها فى بلادنا . فلا التفتيش فى بطون الكتب ولا النقل عن تجارب هذه الدولة أو تلك سوف يوصلنا إلى هذه الوصفة الجاهزة أو التركيبة المضمونة . وأى مجتمع يجد حلوله من خلال التجربة التاريخية ذاتها انطلاقاً من تصور عام للتطور ولمسار التغيير ومن مشروع سياسى نهضوى يحدد التوجهات العامة لهذا التقدم المنشود .

كما تتضمن هذه النظرة النقدية الابتعاد عن الأشكال والرموز والنفاذ الى جوهر الأشياء وأصولها . والحقيقة أن بعدنا اليوم ـ كعرب ـ عن التراث يماثله بعدنا عن الحداثة . فمع أننا من أكثر الناس ترداداً وحديثاً عن تاريخنا وتقاليدنا فإننا لا نتمثلها حقاً فى سلوكنا ومشاريعنا السياسية وإلا فأين الجهاد ومعانى البذل والتضحية والعطاء ؟ . ونحن أيضاً أخذنا من الحضارة مظاهرها الاستهلاكية المادية من مبان شاهقة . وسيارات فارهة . وسلع ومصنوعات جاهزة دون أن نأخذ منطقها وأسلوب تفكيرها .

ورابعها وأخيرها أن قضايا التراث والمعاصرة أو الأصالة والتجديد لا ينبغى النظر لها على أنها قضايا ثقافية فكرية يتم حسمها بالتفكير ومقارعة الحجة بالحجة فما هكذا يتحرك التاريخ . وهى على هذا المستوى النظرى لا تهم سوى عدد ضئيل من ابناء المجتمع العربى .

وانما النظرة الصحيحة لها ستكون فى اطار التحديات التى تواجه بلادنا وعلاقة هذه القضايا واسهامها فى مواجهة هذه التحديات وفى قدرتنا على التصدي لها وفى الاقتراب بنا من النهضة . فنحن فى هذه المرحلة نواجه تحديات عدة . هناك تحدى الاستقلال الوطنى فى مواجهة التبعية الأجنبية . وهناك تحدى الحرية والمشاركة واحترام حقوق الانسان فى مواجهة الاستبداد السياسى . وهناك تحدى التنمية والعدل الاجتماعى فى مواجهة التخلف والاستغلال . وهناك تحدى التحرر الثقافى وتأكيد الذات القومية والحضارية فى مواجهة التغريب والاستلاب الحضارى . وهناك التحدى الاسرائيلى — الصهيوني ، وهناك تحدى التجزئة والوحدة .

وقضايا التراث والمعاصرة هى جزء من هذا السياق التاريخى وسيتم فرز الآراء المختلفة بخصوص هذه القضايا بقدر ما تسهم وتساعد المجتمع فى مواجهة هذه التحديات .

علي الدين هلال

هامش :

(١) د . محمد الجوهرى : دراسات فى التنمية الاجتماعية (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٣ م ص ٢٣٦ .

دعوها فالجنوب لها يغني

« رسالة مفتوحة إلى الشهيدة العربية سناء التي فجرت نفسها في قافلة اسرائيلية في الشهر الماضي ... » .

شعر : عبد السلام جاد الله



تُعاندني القوافي يا سناءُ ... ويستعصي على قلمي الرثاءُ
وحرفي رحيلُكِ في زمانٍ ... تُخالِفُهُ الرجولةُ والحياءُ
يضيقُ الشعْرُ بالمعنى فأغدو ... كمحمومٍ يضيقُ به الرداءُ
فأهجرُ أحرفي وأسُدُّ بابي ... لأبكي حيث يُسعفني البكاءُ
بكيتُكِ هامةً بالعزِّ تعلو ... وهاماتُ الرجالِ بها إنحناءُ
رغيفُ الخبزِ يُدنيها فتدنو ... وتتركُ ما تشاءُ لما يشاءُ
رحلتِ وقد عرفتِ بأن فينا ... عيوباً لا يعالجها الدواءُ
عرفتِ بأننا أصفارُ عدٍّ ... وراءَ الرقْمِ يُلْغيها الوراءُ
أثائرةَ الجنوب فدتْكِ نفسي ... عزائي أن يقدمني العزاءُ
لأنهي عند قبركِ في سكونٍ ... حياةً لا تُضيءُ ولا تُضاءُ
وأشربُ من رحيق الأرض كأساً ... فكأس الموت آخرها صفاءُ
أنامُ وأستفيقُ على هوان ؛ ... أليسَ لما يعذبني انتهاءُ ؟
تُحاصرني الفجيعةُ في سكوني ... ويسكتني بحيرتِهِ النداءُ
أأرثي زهرةً بالأمس ماتتْ ... ليولَدَ من تمزقها الرجاءُ
حَرِيٌّ بالرثاء أنا وشِعْري ... ومن في شعرِهِ ألفٌ وباءُ
فبئسَ الشعر إذ يرثي شهيداً ... ويمدح من لأمتهم أساؤا
سناءُ هناك ترقبنا جميعاً ... ضفائرها تخضبها الدماءُ
تريد يداً تَشُدُّ على يديها ... وتبذلُ ما يُحتِّمُهُ الوفاءُ
فصمتاً يا أعزائي لتغفو ... ويغفو فوق معصمها المساءُ
فلا شعراً تُريد ولا دموعاً ... كفى قد ضاق بالماءِ الإناءُ
دعوها تجمع الفيروز ليلاً ... وتروي كيف يُختتمُ العطاءُ
فإن الروح من أجلي وإني ... لما يحيا به وطني فِداءُ
دعوها ، فالجنوب لها يغني ... غناءَ الأُمِّ تسمعُهُ السماءُ

رجل ملأ الدنيا وشغل الناس
منذ تسعمائة سنة إلى اليوم



خواطر وتأملات في ذكرى مرور تسعة قرون على وفاته

بقلم: الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر

عبر تسعة قرون مضت الآن على وفاة الإمام (الغزالى) لم تكف الألسنة والأقلام عن الحديث عنه حديثاً مسموعاً أو مقروءا فى منتدى أو قاعة درس أو بحث أو كتاب . وجلها تجد منه المادة الخصبة التى شغلت ومازالت تشغل الفكر الإسلامي بخاصة ، والإنسانى بعامة .

وهى فى كثرتها وخصوبتها وتزاحمها تتباين فى الحكم عليه ، أو له تبايناً لا يكاد يوجد فى شخصية من مثله ومثل مجالات حياته .

لقد أحبه أقوام حتى بوأوه مكاناً سامياً لا ترقى إليه نقيصة ، بل وسموا به سموا كادوا يصلون به إلى العصمة ، ونادوا به حجة الإسلام ومحجة الدين التى يتوصل بها إلى دار السلام . جامع أشتات العلوم ، والمبرز فى المنقول منها والمعقول حتى أخمل من القرناء كل خصم ، وأخمد من نيران البدع كل مالا تستطيع أيدى المجالدين مسها ، ولم يزل يناضل عن الدين الحنيف ويحمى حوزته بحلاوة مقاله حتى انكشفت شبهات الغالين عنه والمتربصين . فهو إمام الفقهاء على الإطلاق ، وربانى الأمة بالاتفاق ، سارت مصنفاته فى الدنيا مسير الشمس فى البهجة والجمال ، ثم هو مع الاختلاف فى فهم آرائه وتأويل نزعته مجمع على اعتباره أعظم المفكرين الدينيين فى الإسلام وأظهرهم أصالة وأقواهم أثراً .

وقد خاصم الغزالى أقوام على اختلاف ثقافاتهم ونحلهم ومذاهبهم من فلاسفة إلى متكلمين إلى فقهاء بل ومتصوفين حتى بلغوا به من الاتهام حداً أنه أجهل الناس بقواعد الدين وفلسفة الحكماء ، وأنه احتطب بليل أموراً خالف بها المعقول والمنقول وملأ كتبه بجمل تردد بها بين مذاهب الموحدين والفلاسفة والمتصوفة لا يعدوها . فأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعانى وتسهيلا للهجوم على الحقائق فجمع فى علومه هذه مالا يسوغ أن يودع فى كتاب وحتى ترامت الأخبار بإحراق كتبه فى بعض البلاد .

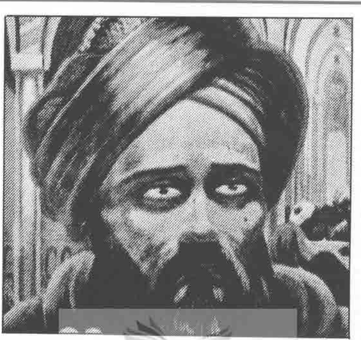
ثم بدا له الانصراف عن طريق العلماء . ودخل فى غمار العمال ثم تصوف ، فهجر العلوم وأهلها ، ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموزها وجعل يطعن الفقهاء والمتكلمين ، وابتعد كل البعد عن الإقناع العلمى ، والبرهان الفلسفى حتى كاد ينسلخ من الدين .

هذا التباين مادلالته ؟

هكذا ذهبت الآراء فى الغزالى متباينة .

وإن دل هذا التباين على شيء فإنما يدل على تعدد جوانب هذه الشخصية الخصبة ، فإن أشد الناس ورعا وأتقاهم وأعلمهم من لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة بل بعضهم بعين الرضا ، وبعضهم بعيون السخط .

والغزالى : أولا وقبل كل شيء بشر غير معصوم يخطىء ويصيب ، والشخصية الإنسانية المتكاملة هى التى تخطىء وتصيب ، ومع ذلك فإن أنصاره



الغزالي كما رسمته ريشة فنان

أسرفوا في تقديره وغالوا في الإسراف . كما أن خصومه قد أسرفوا في الانتقاص منه وغالوا في الإسراف . ولا يرتضى من محبيه أن يرتفعوا به إلى مقام العصمة ، ولا من خصومه أن يسلبوه العلم بل والإيمان أو يجردوه من المنطق والصواب .

ملامح من عصره

ولعل السر وراء هذا التباين يكمن في الصراع الفكرى الدائر والدائم في العالم الإسلامى بين مدارس التفكير المختلفة في المنهج والهدف والتعليم والتفكير مما ترتب عليه الاختلاف في قيم التقدير والنقد ، وما أصدق قول ابن السبكى في طبقاته وهو يترجم للغزالى : « إن الطرق شتى مختلفة . ما رأيت سالك طريق إلا ويستقبح الطريق التى لم يسلكها ، ولم يفتح عليه من قبلها ، ويضع عند ذلك من غيره ، لا ينجو من ذلك إلا القليل من أهل المعرفة والتمكين . ولقد وجدت هذا واعتبرته حتى في مشايخ الطريقة ... واختلاف الطريقين يوجب تباين المزاجين وبُعْد ما بين القلبين لاسيما إذا انضم إليه المخالفة في المذهب » ..

والناظر إلى حال المجتمع الإسلامى في القرن الخامس الهجرى ــ الذى ولد فيه الغزالى ــ لا يعزب عنه أن يرى مظاهر هذا الصراع الفكرى .. فضلا عن الصراع السياسى والاجتماعى ــ محتدما أواره مما أدى إلى انقسام المسلمين في ذاك القرن إلى أكثر من اتجاه ومعسكر يبرز منها اثنان :

- معسكر أهل السنة في الدولة العباسية .
- ومعسكر الشيعة في الدولة الفاطمية .

وكل منهما يتربص الدوائر بالآخر ، ولا يهمه ما يصيبه من الكوارث ، ولم يخفف من حدة هذا الخلاف بينهما ما أصاب المسلمين من نكسات .

وخلال هذه الأحداث ــ وهى كثيرة ــ كان التصوف يشتد عوده ويمضى في طريقه يستهوى قلوب العامة والخاصة . مع ما شاب بعض تياراته ، وبعض رجاله من انحراف رفضوا به الشريعة جهراً وتستروا بمسمى الحقيقة . وصاروا يقولون : هذا شريعة وهذا حقيقة . وتمادى بعضهم حتى صار يقول : (حدثنى قلبى عن ربى) وفي ذلك ما فيه من خطر التصريح بالاستغناء عن بعثة الرسل . فضلا عن إباحتهم التعطل عن العمل في الدنيا باسم الدين فزادوا أتباعهم نفورا عن العمل وميلا إلى الكسل في وقت اشتدت فيه حاجة الأمة إلى مواجهة التحديات العسكرية والحضارية من المتربصين بهم من الصليبيين وغيرهم .

وناهيك بما كان للفلسفة من دور آنذاك وما كان لها من سيادة وجلال حتى لقد كادت تحل مكان الدين ، فاستحوذت على الذهن والتفكير ، واتسعت التصورات وانتشرت التأملات الفلسفية وجرى الناس وراء النظريات والجدل جرياً أتعبهم وأتعب معتقداتهم وأتعب الحياة معهم ، وامتدت آثارها إلى (علم الكلام) وأدلة (الفقه) وطرق بحثه ، وبذل الفلاسفة المسلمون كثيراً من الجهد في سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين فابتدعوا مذهبا وسطا في علوم (ما وراء الطبيعة) وابتكروا نظريات هنا وهناك للمصلحة والتوفيق بين فلسفة الإغريق وما فيها من وثنيات وبين وحي الإسلام وما فيه من هدى ونور . وشتان ما بينهما .

هكذا ماجت التيارات الفكرية من كلامية وفلسفية وصوفية وفقهية حتى اتسم عصر الغزالى بألوان قوس قزح فكان من أكبر عصور الشك والتلون والتباين في التاريخ .

* * *

رحلة الحيـــاة

في صخب هذا الطوفان ولججه العارمة ولد الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى ــ بتخفيف الزاى وتشديدها ــ ولد بمدينة (طوس) ، ومات ، وقبر بها ، وهى مدينة كبيرة تضم كثيراً من القرى ، وهى من أعمال (خراسان) شمالى شرقى إيران ، وقد أتت عليها صروف الزمان فدمرت نهائياً عام ٦١٧ هـ بأيدى المغول ، وظلت أطلالا دارسة حتى القرن الثامن الهجرى فأعيد بناؤها باسم (مشهد) وهى تضم بين رفاتها رفات الإمام علي بن موسى الرضا ورفات الخليفة العباسى هرون الرشيد ورفات الغزالى . كما أخرجت (طوس) عدداً كبيراً من أئمة العلم والسياسة أشهرهم الغزالى والوزير الكبير (نظام الملك) ... وغيرهما .

الغـزالي

ورحلة الحياة إلى اليقين

وقد ولد الغزالي من أصل فارسي في مطلع عام (٤٥٠ هـ ــ ١٠٥٩ م) لأب فقير اليد ، غني النفس ، يكسب قوته من عمل يده فيغزل الصوف ويبيعه ، ويكن في نفسه التقدير الكريم للعلم وأهله . فكان إذا سمع واعظاً ، أو فقيها تضرع إلى ربه أن يرزقه ابناً خطيباً واعظاً ، أو عالماً ، أو متعبداً .

ومات هذا الوالد وقد ترك ولدين في مدارج الطفولة موصياً بهما رجلا صالحاً من أهل التصوف من أصدقائه تاركاً لهما صبابة من مال لا تقوم بأودهما طويلا وكان من قوله : إن لي لتأسفاً عظيماً على ما فاتني من التعلم وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلمهما . ولا عليك أن يتفد في سبيل ذلك جميع ما أخلفه لهما .

فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النَزْرُ اليسير الذي كان خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما فقال لهما : اعلما أنني أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأما أنا فرجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به وأصلح حالكما ، فما لكما إلا أن تلجآ إلى مدرسة فإنكما طالبان للفقه عساه يحصل لكما مقدار قوتكما . ففعلا ذلك ، وأحسن الرجل بذلك صنعاً إلى اليتيمين وكان أبوهما صالحاً وكان هذا من أسباب سعادتهما وعلو درجتهما .

وكان الغزالي كلما ذكر هذا الصنيع فيه وفي أخيه يقول : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله ، أي : أنهما طلباه ليكون وسيلة للعيش يجري عليهما بسببه ما يجرى على طلبة العلم ، فكان أن أوصلهما إلى الغاية الحقيقية من طلب العلم وهي معرفة الله تعالى حق المعرفة .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشيد بما كانت عليه مجانية التعليم وتكافؤ الفرص فيه ــ للقادر عليه وغير القادر من الفقراء واليتامى ــ وإطعام طلبته بالمجان والتي سبق بها المسلمون العالم أجمع مما يقتضينا تسجيل التقدير والإعجاب بها هنا .

ولقد بدأ تحصيل العلم ببلده (طوس) فقرأ بها ــ في صباه ــ دروسه الأولى وطرفاً من الفقه على (أحمد بن محمد الرإذكاني) الطوسي وكان من الفقهاء الصالحين ، ثم انتقل إلى مركز علمي أكبر في (جرجان) ــ وهو لما يبلغ العشرين ــ إلى الإمام (أبي نصر الإسماعيلي) وكان من الأمثلة النادرة في الورع والتقوى فعلق عنه التعليقة ، ومكث بها ثلاث سنين يحفظ ويستذكر .

ثم رجع إلى (طوس) وأثناء عودته إليها حدثت له تلك الحادثة التي يحكيها بقوله :

قُطعت علينا الطريق ، وأخذ العيارون (اللصوص) جميع ما معي ومضوا ، فتبعتهم فالتفت إلي مُقدمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت . فقلت له أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليّ تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به ، فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليّ المخلاة .

يقول الغزالي : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري ، فلما وافيت (طوس) أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي .

ولعل هذه الحادثة كانت ذات أثر بين في حياة الغزالي الفكرية ، فقد عودته ــ كما يقول المؤرخون ــ أن يستظهر كل ما يقع تحت يده حتى لا تصبح له حاجة إليه إذا ما تناولته أيدي العفاء

ثم انتقل إلى (نيسابور) وهي عاصمة (السلجوقيين) ومدينة العلم بعد (بغداد) فانتظم في دروس (أبي المعالي عبد الملك بن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب الجويني) إمام الحرمين ــ وكان من أتقى وأعلم أهل زمانه ، ورئيس المدرسة النظامية الزاخرة بشتى المعارف فأخذ عنه ، وتنهل منها وأعلّ ، وأكب على دروس الفقه ، والأصول والمنطق والكلام ، وكانت أبرز علوم عصره ، وأعانه على ذلك ما كانت تزخر به هذه المدرسة من العلوم فضلا عن أستاذه وشيخها الكفء الإمام الجويني ، وفيها كذلك بدأ حياته في الكتابة والتأليف مما زاد من خصوبة حياته العلمية ، بل إن هذه الفترة بالذات لتعد من أخصب أيام حياته العلمية إذ برع فيها في المنطق والمحاورة وعرف مناهج الفلاسفة وطرق الرد عليهم ، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه ، ولكنه لم يزل ملازماً له إلى أن مات ، فخرج من (نيسابور) إلى (المعسكر) وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره وقد ظهر فضله وذاع صيته ، ولقي هناك (نظام الملك) الوزير الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي وكان من أخطر الشخصيات التي لها أثر بعيد في التاريخ الإسلامي ، فقد وزر لكل من السلطان (ألب أرسلان وولده ملكشاه) وقد بسط المؤرخون الحديث عن سجاياه من تقوى وعدل وحب للعلم والعلماء ، وكان له جهد لا ينسى في ابتناء المدارس وتأسيس الربط والعناية بها حتى ليقال إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة كبرى على نمط الجامعات اليوم يقيم فيها الطلاب للدراسة مكفولا لهم كل ما يحتاجون إليه من الطعام واللباس ، وكان مجلسه مجمع أهل العلم وملاذهم ، فوجد عنده الغزالي كل تبجيل وتعظيم وبخاصة بعدما ظهر علمه وفضله في المناظرات التي كانت تجرى في مجلسه ، وفوض إليه التدريس بمدرسته (النظامية) ببغداد عام ٤٨٤ هـ ــ ١٠٩١ م فقدمها ــ وسنه لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ــ وقلما تقلد عالم هذا المنصب في مثل هذه السن ــ فأعجب به أهل العراق وارتفعت منزلته بينهم حتى صار عظيم الجاه مسموع الاسم وذاع صيته حتى ليقال : إن مجلس الغزالي كان يحضره أكثر من ثلثمائة عمامة من أكبر العلماء ، وأصبح مضرب المثل في التدريس والافادة ، تشد إليه رحال طالبي العلم وأهل الورع ، وفي تلك الأثناء اشتغل بتحصيل الفلسفة مدة سنتين ، ثم عاود الدراسة فيها متفكرا ومتفقداً غوائلها قريباً من سنة .

• حاربه بعض العلماء في عصره ، وترامت الأخبار بأنهم أحرقوا كتبه في بعض البلاد !

• كان عصر الغزالي من اكبر عصور الشك والتلون والتباين في التاريخ

منهجه في البحث والدراسة

عاش الغزالي في القرن الخامس الهجري وفيه كانت العقول قد نضجت واستوت أودية التفكير على سوقها وتعددت روافدها بين أصيل ودخيل ، واختلفت أساليب المعرفة ومناهج البحث عن الحقيقة التي ينشدها كل مفكر في العقائد والفروع وفي الطبيعة وما وراءها وفي المذاهب والديانات ، وكثر الخلاف في كل مسألة حتى ليكاد التوفيق بين تلك الآراء المتباينة والمذاهب المتباعدة ضرباً من المستحيل ، ووسط هذا المناخ قطع الغزالي مراحل حياته العلمية يقول : « ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور

لا خوض الجبان الحذور ، أتوغل في كل مُظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع . لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولازنديقاً معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان شبابي غريزة وفطرة من الله وضعت في جبلتي لا باختياري وحيلتي » ..

فظل بهذا المنهج يدأب في إرواء غليله حتى انحلت عنه رابطة التقليد وانكسرت عليه العقائد الموروثة وهو لم يزل على قرب عهد بسن الصبا ، فتحرك باطنه إلى حقيقة الفطرة السليمة وحقيقة العقائد العارضة عليها بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات ، فحدد لنفسه أولا : أن مطلوبه : هو العلم بحقائق الأمور ، وأنه لابد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ ..

الرحلة الى اليقين

لقد ظهر له أن العلم اليقيني هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا بخوارق العادات لم يورثه ذلك شكا ولا إنكاراً فيما علمه وأيقنه ، وأن كل ما يعلمه ويتيقنه وليس على هذا الوجه فهو علم لاثقة به ، ولا أمان معه ، وليس بعلم يقيني .

ثم بدأ مرحلة كشف وتطبيق لعلومه التى حصلها وبلغ فيها أقصى ما يصل إليه عالم في عصره حتى انتهت إليه الرئاسة فيها ، فوجد نفسه إزاءها عاطلة من (علم يقيني) موصوف بهذه الصفة إلا في (الحسيات والضروريات) .

ثم تأمل في هذه الحسيات وتلك الضروريات وتشكك ، حتى بطلت الثقة بها عنده وازداد تشككه حتى أعضل به الداء ودام معه مدة ظل فيها على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق

• كان أبوه فقير اليد ، غني النفس ، يكسب قوته من غزل الصوف وبيعه

• كان مجلس الغزالى يضم اكثر من ٣٠٠ عمامة من أكبر العلماء في بغداد

والمقال حتى شفاه الله تعالى من ذلك المرض وعادت نفسه إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين » ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في صدره .

وبيان ذلك : أن الغزالى نظر حوله في أصناف الطالبين فوجدهم ينحصرون في أربع فرق هم المتكلمون ، والفلاسفة ، والباطنية ، والصوفية ، وكان لهم من السيطرة ما فتن بهم الخاص والعام وصاروا محلمة العصر وبضاعتهم محك الأقران

وبدأ عملية سبر وامتحان لها وعلى طريقها لعله يجد ضالته فيها ، فماذا وجد ؟

الغزالى وعلم الكلام

بدأ الغزالى بعلم الكلام فحصله وعقله وأحكمه بعد أن طالع كتب المحققين منهم ، ثم صنف فيه بعد أن صادفه علماً وافياً في بابه ، إذ كان الهدف منه حفظ عقيدة أهل السنة عليهم وحراستها عن المبتدعين ، وأن علماء الكلام لتحقيق مقصودهم منه اعتمدوا على مقدمات تسلموها من خصومهم ، وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، ومع هذا لم يجده مشبعاً ولا وافيا بمقصوده هو ، فهو قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا .. « فلم يكن (الكلام) في حقي كافياً ، ولا لدائي الذى كنت أشكوه شافياً » ..

الغزالى والفلسفة

« ثم إنى ابتدأت ــ بعد الفراغ من (علم الكلام) بعلم الفلسفة » ..

هكذا أقبل الغزالى على الفلسفة اليونانية جرياً وراء دعوى أنها الطريق الوحيد الموصل إلى معرفة الحق واليقين إذ هي العلم المبنى على العقل والمنطق والاستدلال .

ورأى ــ أولا ــ أن يحيط بمقاصدها وكلياتها بجهده ويتعرف عليها بنفسه لا بما عرفها به أنصارها أو خصومها ، فأقبل عليها دارساً في نهم حتى وصل منها إلى أقصى ما يصل إليه عالم متوفر على دراستها ، بل وفاق كل أقرانه في دراستها « ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف همته إلى ذلك ، ولم يكن في كتب التكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد .. فشمرتُ عن ساعد الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية .. فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم في أقل من سنتين .. ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره .. » .

وبهذه الحيدة والإنصاف والتعمق أخذ الغزالى يقسم علوم الفلسفة إلى ستة أقسام : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وسياسية ، وخلقية ، ثم إلهية ، فأما (الرياضية) فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاهدتها بعد فهمها ومعرفتها ، وأما (المنطقية) فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيا وإثباتاً ، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه وأن العلم إما « تصور » وسبيل معرفته الحد ، وإما « تصديق » وسبيل معرفته البرهان ، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر ، بل هو جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة ، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات .

وهكذا يقول عن علم (الطبيعيات) ، وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل معينة ذكرها في (تهافت الفلاسفة) .

وأما (السياسات) فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية والإيالة السلطانية وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء .

وأما (الخُلقية) فجميع كلامهم فيها يرجع إلى

حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، ولقد كان في عصرهم ، بل كان في كل عصر جماعة من المتألهين .

ثم انتقل إلى علم (الإلهيات) وهو العلم الذى تركز فيه الصراع بين الاسلام والفلسفة . إذ فيها أكثر أغاليطهم فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها .

وبعد النظر في جميع فروع الفلسفة والاعتراف بصحة بعضها وفائدته انتهى إلى أن أكثر أغاليطهم إنما هو في (الآلهيات) وناقشهم في شرائعهم ومقدماتهم للبحوث الآلهية . ثم أخذ في بيان مسائل الفلاسفة التى تكفل الرد عليها ونقدها وتشريحها وهى عشرون مسألة أكثرها في الآلهيات فكفرهم في ثلاث منها هى :

١ ـ مسألة قدم العالم وقولهم به .
٢ ـ مسألة قولهم إن الله ـ تعالى لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص .
٣ ـ مسألة قولهم بإنكار بعث الأجساد وحشرها .

فهذه المسائل الثلاث لا تلائم الاسلام بوجه ، ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ ثم توقف في تكفيرهم في المسائل الأخرى .

الغزالي والباطنية

ثم انتقل بالدراسة إلى (الباطنية) التي كان قد عظم شأنها واستهوت الكثيرين . وكانوا قد زعموا أنهم يأخذون علمهم من الامام المعصوم القائم بالحق وهو مصدر العلم الذى يصح الاعتماد عليه والثقة به .

فكان طبيعياً أن يلجأ إليهم الغزالي ـ وقد يئس من رحلته مع العقل في صحبة الفلاسفة ـ فبدأ بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم وبعض كلماتهم .. ثم قرر شبهتهم إلى أقصى الامكان ثم أظهر فسادها بغاية البرهان .

وبين ـ عن اقتناع ـ أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة ـ مع ضعفها ـ إلى هذه الدرجة . فهم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام لم يفهموا الإشكالات التى استشكل عليهم بها ، فضلا عن القيام بحلها فلما عجزوا أحالوا على الامام الغائب فإذا ما قيل لهم : هاتوا علمه وأفيدونا من تعليمه وقفوا قائلين : الآن إذا سلمتم لنا هذا فاطلبوا ، فإنما غرضنا هذا القدر فقط ، فهذه حقيقة حالهم فلما خبرهم نفض اليد منهم .

الغزالي والتصوف

ثم لما فرغ من هذه العلوم أقبل بهمته على طريق الصوفية علما وعملا فوجد أن حاصل عملهم : قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة وحتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله تعالى .

وكان العلم بها أيسر عليه من العمل فبدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم حتى اطلع على كنه مقاصدهم العلمية فظهر له أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعليم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

• استطاع أن يتعرف على مقاصد الفلسفة اليونانية عندما أقبل على دراستها..

• المسلمون أول من حققوا مجانية التعليم قبل أن يعرفها العالم كله بمراحل طويلة

• لم ينكر علم « الطبيعيات » الا في مسائل معينة ذكرها في « تهافت الفلاسفة »..

وعلم يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصله ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك .

« وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع لى في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق ..

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذا أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحداً تطييبا للقلوب المختلفة إلي فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب فكان لا ينساغ لى ثريد ولا تنهضم لى لقمة وتعدى إلىّ ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج وإلا أن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له فأجابني الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبى الأعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ففارقت بغداد .. ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب بذكر الله تعالى » .

وهكذا مضى الغزالي في طريقه ، فقضى بقية حياته في الاشتغال بالدين والعلم وأقبل على استكمال مجالاته العلمية بدراسة السنة النبوية وكانت خاتمة أمره ، فجمع بين صفاء القلب ونقاء العقل حتى حط الرحال وهو على اليقين .

يقول أخوه أحمد ـ كما يحكى ابن الجوزى ـ « لما كان يوم الاثنين ، وقت الصبح ، الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة (٥٠٥ هـ ، توضأ أخى وصلى وقال علىّ بالكفن فأخذه وقبله ووضعه على عينيه ، وقال سمعاً وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه واستقبل ، وانتقل إلى رضوان الله تعالى » .

حسن عيسى عبد الظاهر



على الصفحات التالية فى هذا العدد يبدأ الدكتور يحيى الجمل تقديم لوحات حية من مذكراته فى الحياة والثقافة ، وهى لوحات جميلة مليئة بالحرارة والصدق والعذوبة والتصوير الدقيق لكفاح جيل عربى كامل من أجل النهضة والتقدم العلمى والثقافى والاجتماعى والجهاد الشاق ضد التخلف ، والدكتور يحيى الجمل كاتب عربى لامع ، وأستاذ جامعى كبير ، وكان أحد الوزراء البارزين فى وزارة الدكتور عبد العزيز حجازى التى تولت السلطة فى مصر بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

قصة حياة عاديّة

بقلم : الدكتور يحيى الجمل

كان البكاء قد أرهقه وتحول إلى نشيج وزفرات وهو يلقى برأسه على صدر جده الى أن أخذته سنة من النوم لم يفق منها الا وذلك المركب الشراعى يعبر به النيل من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، وجدّه يحنو عليه ويحاول أن يسرى عنه ببعض ما اشتراه له من حلوى . ولكن الصبى الصغير كان فى شغل عن ذلك كله ، وكان منظر جدته وهى مسجاة على فراش الموت لا يكاد يبرح خاطره . لقد كان يسمع من الناس أنها جدته ، ولكنه لم يكن يعرف له أما غيرها فقد احتضنته وهو لم يجاوز العام الا بشهور قليلة . وعاش معها فى تلك القرية من قرى « البحيرة » يعب من حبها وحنانها عبا ويتمتع بما أفاء الله به عليها من بعض الثراء لا يشاركه فى ذلك أحد ، ذلك أن جدته تلك التى اعتصرها الموت منذ الأمس الحزين . لم تكن قد انجبت إلا أمه فلما رزق الله أمه بغلامين رأت هى تخفيفاً عن ابنتها وملاء لحياتها أن تأخذ ثانى الغلامين لتقوم على تربيته ، وظل فى كنفها حتى جاء ذلك اليوم الأخير وجاء معه من عرف فيما بعد أنهم أمه وأهل أبيه . وبقيت أمه الى جوار جثمان أمها وبقى معها أبوه وأدرك الجميع أن الطفل الصغير لن يقوى على كل مشاهد الحزن التى أحاطت بذلك البيت الذى كان لايرى فيه الا الحنان . فاقترحوا أن يأخذه جده لأبيه معه بعد أن أدى واجب العزاء لكى يعود به الى تلك القرية الصغيرة من قرى « المنوفية » على الضفة الشرقية من النيل لكى يبدأ حياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن حياته الناعمة المدللة طوال تلك السنوات الأربع التى قضاها مع أمه الجدة لا يشاركه فى حبها شريك .

ويوشك الصبى أن لا يذكر شيئاً ولا حدثاً فى طفولته الباكرة مثل ذكره لذلك اليوم الذى أخذه فيه جده وعبر به النيل من قريته على الضفة الغربية الى قرية أخرى على الضفة الشرقية للنيل ، ورأس الصبى على صدر ذلك الجد والدموع ما تزال تنسكب من عينيه وصدره يفور زفراته من آن لآن .

ويعرف الصبى بعد ذلك أن له أمًّا غير تلك التى كان يعيش معها والتى لم يعرف له أمًّا غيرها ، أمًّا كان يراها فى زيارات خاطفة فينكر على « أمه » ان تشركها معه فيما كان خالصاً له من حبها وحنانها وبرها . ويعرف أكثر من ذلك أن له أخاً يكبره بأربع سنوات وأن له أختاً تصغره بثلاث سنوات وأن له أبا وأن عليه منذ اليوم أن يعيش مع تلك الأسرة الجديدة وأن يعايشها وأن يرضى بهذا الواقع الجديد الغريب .

وكأنه قد سقط من حالق . بعد أن كان متربعاً وحده على عرش الحب كله اذ به يجد نفسه مضطراً الى مشاركة أخوين فى قلب أم محزونة الحزن كله والضنى كله لفراق أمها التى لم يكن لها غيرها فى الوجود وكان تعلقها وارتباطها بها يوشك أن يكون تعلقاً مرضياً . ومازالت أمه هذه لاتفتأ رغم مرور السنين الطوال — وحتى وفاتها — تذكر أمها بعين باكية وقلب مكلوم .

هكذا بدأ حياته الجديدة ضائعاً أو كالضائع .. وأدرك بعد فترة أنه قد حيل بينه وبين الضفة الغربية من النيل ، وحيل بينه وبين تلك القرية من قراها التى نعم فيها بدفء الحنان وغمرة الحب على نحو لم يجد له عوضاً قط .. ووقر فى قلبه الصغير — على غير وعى منه — أن جوعه الى ذلك الحب سيظل جوعاً أبديا بغير ارتواء .

وأدخل الصبى بعد ذلك — فيما يذكر — كتاب القرية ليحفظ بعض سور القرآن الكريم وليتعلم القراءة والكتابة مع بعض لداته . وكان شيخ الكتاب واحداً من عائلة أبيه وهو فى ذات الوقت إمام مسجد القرية مما كان يحيطه بهالة تجعله مرهوب الجانب مسموع الكلمة لا يجرؤ أحد على مراجعته فى رأى يبديه .

وانهمك الصبى فيما أريد له وأظهر تفوقاً سريعاً على كل لداته حتى انه ليحفظ بعض أجزاء القرآن ويحسن القراءة والكتابة فى بضعة شهور ، ويوشك أن لا يذكر ذلك اليوم الذى بدأ فيه قراءة « الأهرام » وجلوسه بين بعض أقربائه ممن لا يقرأون ولا يكتبون وهو يقرأ لهم ما جاء فى « الجرائد » من أخبار السياسة وأخبار « الوفيات » جميعاً ، وما أقل ما كان يعى مما يقرأ وما أكثر ما كان يحس بنوع من العوض يسعده بعض السعادة اذ يحس بشيء من الأهمية لأنه يستطيع ما لا يستطيعه الكثيرون من لداته فى القرية .

وكان أبوه قد آثر — تلبية لرغبة أمه فيما يبدو — أن يبتنى بيتاً مستقلا عن بيت العائلة الكبيرة . ولم يكن ذلك البيت يفصله عن البيت الكبير الا بضع خطوات مما جعل الصبى وأخاه الأكبر أيضا يترددان دائماً على جدهما وجدتهما حيث كانا يجدان لديهما من التدليل مالا يجدانه عند أبويهما .

ومازال الصبى يذكر كيف كان جده فارع الطول جهورى الصوت محباً للأكل ولكل متع الحياة ،

وكيف كانت جدته ضعيفة البنية خفيضة الصوت قانعة راضية النفس الى أبعد حدود الرضا كريمة الى حد يشبه السفه .

وكان « دوار » جده هو أهم مبانى القرية وأفخمها جميعاً ، وكانت تتقدمه عواميد أربعة ضخمة تظلها « شكمة » أو ما يمكن أن يقال له الآن « فراندة » وفى هذه الشكمة تمتد « دكك » خشبية على جانبى باب الدوار حيث كان يجلس جده منفرداً حيناً ومعه بعض أعيان القرية وكبار رجالها حيناً ، وكان الصبى يحس برضا عميق وهو يرى أهل القرية يمرون أمام جده راجلين لا يجرؤ أحدهم أن يمر أمامه مهما كبر سنه أو علا مقامه وهو راكب حماره أو دابته .

وما أكثر ما كان ذلك الجد يلقى الألفاظ الغليظة على هذا الشخص أو ذاك فلا يقابل بأكثر من عبارة « ليه بس ياعم الحج » وحتى الذين كانوا يستطيعون مواجهته بتلك العبارة من أهل القرية كانوا قليلين .

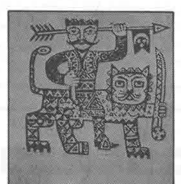
حتى أولاده وبنو عمومته كانوا يخشونه . وكان عمدة القرية هو أحد بنى عمومته وزوج أخته فى آن واحد ، ومع ذلك فقد كان لا يستطيع مع هذا الجد الغاضب دائماً الصاخب باستمرار إلا أن يسترضيه حيناً وأن يتجنب احتمالات هياجه فى كثير من الأحيان .

وكانت جدته هى ملاذ الأقربين والأغراب من أهل القرية اذا كان لهم عند ذلك الجد حاجة أو إذا أرادوا أن يطمئنوا من ثورته حين يثور وما أكثر ما كان يثور .

وكان الصبى الصغير معجباً بذلك الجد أيما اعجاب وكان محباً لجدته أيما حب وكان لا يلقى من أيهما الا كل الاعزاز والحنان والعطاء .

ومازال يذكر تلك الليلة التى اتفق فيها مع كثير من لداته وأقاربه على الذهاب الى مولد « سيدى شبل » فى مدينة الشهداء على مبعدة بضعة كيلومترات من قريتهم ، وذهب الى جده يستأذنه فى أن يذهب مع رفاقه هؤلاء ويطلب منه « مصروفه » وأذن له جده — ولم يكن به حاجة بعد هذا الاذن الى أن يستأذن أحداً من والديه — ومنحه خمسة قروش كاملة ، وما كان مصروف أحد من لداته يزيد على قرشين اثنين .

ورغم أن ذكريات تلك الليلة غير العادية ليست واضحة فى ذاكرته الا أنه مازال يذكر ذلك الزحام الشديد الذى كانت تغص به تلك المدينة الصغيرة



الزير سالم

وأنوار « الكلوبات » التى كانت تملأها وما اشتراه وأكله فى تلك الليلة من حلوى . وكان الصباح قد اقترب عندما ذهب هو وبعض من معه ليناموا عند رجل جعل نصف بيته منزلاً لزوار المولد ونصفه الآخر لمن أرهقه التعب .

— ٢ —

وذهب الفتى الى طنطا مع أخيه ليكمل حفظ القرآن فى « كتاب » الشيخ عبدالحميد قشطة ذى الشهرة الواسعة فى الصرامة والقسوة . واختار والده له ولأخيه أن يسكنا فى حجرة عند شرطى ترتد أصوله الى قريتهم ، وان كانت قد انقطعت بينه وبين القرية الصلات منذ أن عمل فى البوليس واستقر فى تلك المدينة . ويذكر الفتى أن ذلك الرجل كان ثقيل الظل وكانت له ابنة صغيرة تفوقة فى تلك الخاصية البغيضة . وكان عليه أن يجامل تلك الطفلة وأن يشترى لها أحياناً « بمليم نعناع أو أرواح » ولم يكن ذلك عن طيب خاطر منه قط ولكن الذى يذكره أن والدها كان يضطره الى ذلك اضطراراً بطريق مباشر أو غير مباشر ، وكان لابد له من مرضاة ذلك الوالد حتى لا يخبر أخاه الأكبر كذباً بما قد يثيره عليه ، وكان أخوه — على حبه له — يريد أن يمارس عليه من أنواع السيطرة والتسلط ما كان يضجر الفتى ويرهبه فى كثير من الأحايين .

وانخرط فى كتاب الشيخ عبدالحميد قشطة وتزايد قدر ما يحفظه من القرآن الكريم يوماً بعد يوم . وعرف عنه بين لداته سرعة الحفظ وحسن الالقاء ، وكان الشيخ فخوراً به دون أن يظهر ذلك الا لوالده ، عندما يلم بمدينة طنطا بين الحين والحين ، وكان والده هو الذى يشعره برضا الشيخ عنه وكان مظهر ذلك أن يعطيه — دون أن يعلم أخوه الكبير — عشرة قروش كاملة لا دخل لها بمصروفهما الذى كان يتصرف فيه الأخ الأكبر بطبيعة الحال .

ولا يذكر الفتى تلك المناسبة السعيدة أو التعسة التى جعلت والده يعطيه ذات مرة « ريالاً » صحيحاً من الفضة ، وكان العهد أن لا يعطيه كلما زاره هو وأخاه فى مدينة طنطا الا عشرة قروش فقط . وظل الريال فى جيبه أياما لا تمتد اليه يده الا لكى تطمئن عليه ، ذلك أن الريال فى تلك الأيام الخوالى كان ثروة حقيقية تزيد قيمته قطعاً عن قيمة عشرة جنيهات فى هذه الأيام الحاضرة ؛ وفى يوم من الأيام والفتى فى « الكتاب » يستظهر بعض آيات القرآن اذ به يضع يده فى جيبه ليجد أن « رياله » قد ضاع ، ويبحث مرة ومرة دون جدوى ويحاول أن يخفى ما ألم به من اضطراب شديد ولكنه لا يستطيع الى ذلك من سبيل . ويلاحظ الشيخ أن تلميذه ذلك النجيب تصدر عنه حركات غير عادية وأنه قد انصرف عن مصحفه ، وأن رأسه قد توقف عن الاهتزاز الذى يصاحب عملية القراءة ، وأنه يضع يده فى جيبه ثم يخرجها ليضعها مرة ثانية ؛ وأنه يدير رأسه تحت « التخته » ، وأن أمره كله ينبىء عن أن شيئاً غير طبيعى قد حدث ، ويقترب منه الشيخ بطوله الفارع المخيف ورائحة « النشوق » تفوح منه ليسأله عما به ، وينكر الفتى أن شيئاً قد حدث . ويحاول جاهداً أن يسترد ما فقد من هدوء ، ولكن الشيخ لا يجوز عليه شيء من ذلك ويعنف الفتى ويشده من يده شدة كاد ذراعه الصغير أن ينخلع لها ، ولا يملك التلميذ الا أن يعترف لشيخه بالكارثة التى وقعت وبأن « الريال » الذى أعطاه له والده قد ضاع وأنه قد ضاع فى « الكتاب » لأنه تحسسه أكثر من مرة منذ الصباح وهو فى طريقه اليه وبعد أن استقر مقامه فيه .

ويأخذه الشيخ من يده والفتى يرتعد ولا يعرف ماذا ينتظره الى أن ذهب به الشيخ الى المكان الذى توجد به « الفلكة » حيث أمر به فوضعت رجلاه فيها وضربه الشيخ ضرباً موجعاً . ورغم أن الفتى يذكر أن الشيخ لم يضربه بذات القسوة التى كان يضرب بها غيره من الصبية لما يرتكبون من أخطاء سواء فى الحفظ أو فى السلوك إلا أنه لم يستطع أن يدرك حتى يومه هذا لماذا ضربه الشيخ وما الذى جناه ليستحق عليه العقاب ، لقد كان به من ألم ضياع « الريال » ما يكفيه ولكن ذلك لم يكف الشيخ فمده فى « الفلكة » لأول مرة فى حياته ولكنها على أى حال لم تكن آخر مرة .

* * *

كان الفتى يسمع أخاه وابناء عمومته يتحدثون عن مقالات الرسالة والرواية وعن المعركة الأدبية التى تدور رحاها بين الرافعى والعقاد وكان أخوه من المتحمسين للرافعى وابن عم له — مات يرحمه

الله ـــ من المتحمسين للعقاد وابن عم ثالث يجامل هذا تارة وذلك تارة أخرى ويرى أن كلا من الأديبين الكبيرين لا يخلو من ميزة ، وكان الصبي يسمع ذلك كله لا يكاد يعي منه شيئاً ، الا أن ذهنه تفتح الى شيء جديد .

وعرف أن ثمة داراً للكتب وأخرى للعاديات في مدينة طنطا ـــ وكانتا آنذاك في مبنى واحد قريب من ميدان الساعة على قدر ما يذكر ـــ فكان يتردد عليهما كل يوم جمعه ليقرأ ما يستطيع من قصص مترجمة أو غير مترجمة مما لا يذكر شيئاً منه الآن ، ولكن الكتاب الذى مازال عالقاً في ذاكرته كان من تأليف الاستاذ حسن الشريف وكان عنوانه « المآسي التاريخية الكبرى » وكان يدور حول أحداث الثورة الفرنسية بطريقة روائية بالغة التشويق . ولعل حبه للتاريخ وشغفه بقراءته فيما بعد يرجع الى تجربته الأولى مع ذلك الكتاب الذى جعله يعيش أحداث الثورة الفرنسية الدامية ومحاكماتها الشهيرة على نحو لم يغادر مخيلته قط ، بل ولعل هذا الكتاب أيضاً كان وراء رغبته بعد ذلك فى دراسة القانون وحبه لمهنة المحاماة .

وأغرم الفتى بالقراءة وأولع بها ولعاً شديداً . وكان ذلك كله والصبي لم يبلغ العاشرة من عمره بعد . ولا يذكر ذلك اليوم الذى اشترى فيه قصة « الزير سالم أبو ليلة المهلهل » من عيون الأدب الشعبي التى كانت رائجة آنذاك وكانت تباع بالقرب من مسجد السيد البدوى نفسه .

وذات يوم لم يكن قد أكمل فصلا من فصول الرواية فساورته نفسه أن يأخذها معه الى « الكتاب » ، والنفس أمارة بالسوء . وأخذها فعلا وأخفاها فى ثنايا جلبابه وعندما جلس على مقعده أخذ يقرأ فى قصة « الزير سالم » وتأخذه القراءة فى القصة وتستولى عليه حتى لينسى نفسه ومن حوله وينسى أنه فى كتاب الشيخ عبد الحميد قشطة . ويبدو أن صوته قد ارتفع قليلا وهو يدندن بشعر تلك الملحمة الشعبية . ولم يشعر إلا بيد غليظة تمتد لتمسكه من رقبته ويد أخرى تمتد لتمسك الرواية مفتوحة .. ودارت به الدنيا وأسقط فى يده وأظلم « الكتاب » كله من حوله وأحس كأن نهاية للعالم ونهايته معاً قد دنت .

وهاج الشيخ هياجاً عظيماً وأرغى وأزبد ولطمه على وجهه واقتاده معه ثانية الى ذلك المكان الرهيب حيث توجد « الفلكة » ، ولعن الفتى ، الزير سالم ، وقصته وكتاب المآسي التاريخية الكبرى وكل كتب الأدب ، وتصور الفلكة وكأنها ذلك « الجيلوتين » الذى تهاوت عليه رؤوس قادة الثورة الفرنسية ورؤوس أعدائها على حد سواء .

وكان ذلك اليوم فراقا بينه وبين كتاب الشيخ عبدالحميد قشطة ذلك أنه أعلن عصياناً لا عدول عنه وأعلن أنه لن يستمر عند ذلك الشيخ ، بل أعلن أنه لن يكمل تعليمه الا إذا ادخله أهله المدارس الابتدائية .

ولم يستطع أخوه أن يحسم ذلك وحده فأرسل الى والده لكى يحضر ، وقد شجع الفتى على عصيانه واصراره على ذلك العصيان انه أحس احساسا مبهما أن والده وأخاه جميعاً كانا مستاءين من القسوة البالغة التى عامله بها الشيخ والتى مازالت آثارها واضحة على رجلى الفتى وأجزاء من جسمه . الى أن حضر أبوه وشجعه ذلك الاحساس على أن يمعن فى موقفه لا يحيد عنه .

وكان العام الدراسى قد بدأ منذ شهور .

وجلس والده يتداول الرأى مع شيخ أزهرى ـــ كان جليلا جداً فى نظره آنذاك ، وكان الشيخ بالغ الضخامة ، وكان يسكن فى شقة كاملة بها صالون للجلوس ـــ ومع غيره من أهل الرأى والحكمة واستقر رأيهم بعد طول المدارسة على أن يذهب به والده الى مدرسة ابتدائية أهلية لعلها تقبله رغم أن العام الدراسى كان قد أوشك أن ينتصف .

واشترط ناظر المدرسة لكى يقبله أن يعقد له امتحانا فى الاملاء والحساب .

ويبدو أن الفتى قد اجتاز ذلك الامتحان بنجاح ملحوظ مما جعل الناظر يعدل عن كل تردد ويقبله على الفور .

وكان لابد وأن يشترى له والده بدلة جاهزة ، ومازال يذكر كيف ذهب مع ذلك الوالد الطيب الى محل كبير فى مدينة طنطا وكيف لبس لأول مرة فى حياته تلك البدلة التى دفع والده ثمنا لها ثمانين قرشا عدا ونقداً .

واصبح منذ ذلك اليوم تلميذا فى السنة الأولى الابتدائية .



مصطفى صادق الرافعى



طه حسين

— ٣ —

ولا يذكر الصبي شيئا كثيرا عن تلك الشهور التى قضاها فى مدرسة « ولى العهد » الابتدائية الأهلية ولا عن تلاميذها الا زميلا له من تلاميذ الفصل كان اسمه « سعفان » ، اذا كانت ذاكرته قد أسعفته بالاسم الصحيح بعد كل تلك السنين الطوال التى جاوزت الأربعين . وغير هذا الزميل الذى يذكر أنه كان هادىء الطبع أبيض الوجه أقرب الى أن يكون طويل القامة مجدا فى دراسته حسن الالقاء فى درس المطالعة ـــ غير هذا الزميل الذى جاء ترتيبه الثانى فى امتحان نهاية العام ـــ وكان فتانا هو الأول .. لا يكاد صاحبنا يذكر شيئا عن تلك المدرسة ولا مدرسيها ولا حتى موقعها فى مدينة طنطا .

وعلى قدر احتفال الفتى واهتمامه كلما ذهب الى تلك المدينة بأن يذهب الى حيث كانت توجد ـــ ومازالت ـــ مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية التى انتقل اليها منذ السنة الثانية الابتدائية فانه لا يذكر شيئا ذا قيمة عن تلك المدرسة الأهلية التى قضى فيها تلك الشهور من سنته الأولى فى التعليم العام .

ولم تكن مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية مدرسة أهلية بالمعنى الذى كان يعرف عن تلك المدارس فى تلك الحقبة من نهاية العقد الثالث وبداية العقد الرابع من القرن العشرين ، حيث كانت تلك المدارس تعتبر أقرب الى المشروعات التجارية منها الى مدارس العلم . ولكن مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية لم تكن مع ذلك من المدارس الأميرية أى من مدارس الحكومة . وكان فى طنطا مدرسة ابتدائية اميرية واحدة وكانت مصروفات التلاميذ فيها فى العام تزيد على عشرة جنيهات ، ذلك على حين أن مصاريف التلاميذ فى

الجمعية الخيرية الاسلامية كانت ستة جنيهات فقط. كذلك فإن المدرسة الاميرية كانت تمتاز بملعبها الكبير الذى تتبارى فيه المدارس الابتدائية فى كرة القدم. ولم يكن فى مدرسة الجمعية الخيرية مثل هذا الملعب وإن كان فيها ملعب لكرة السلة. كذلك فإن تلاميذ المدارس الابتدائية الأميرية الذين كانوا يدفعون عشرة جنيهات رسوما كانوا يتناولون وجبة الغذاء فى المدرسة الأمر الذى لم يكن متاحا فى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية.

وكأن القدر كان لا يريد أن يرهق والد الفتى فوق إرهاقه فأراد أن ينجح من السنة الثانية الى السنة الثالثة الابتدائية بحيث كان ترتيبه الأول على كل فصول المدرسة. وكان النظام المتبع فى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية أن يتمتع الطالب الأول بمجانية التفوق. وسعد الفتى أيما سعادة عندما علم أنه أول مدرسته وأن مكافأته على ذلك ستكون اعفاء والده من مصاريف المدرسة. ولم تكن شيئا هينا بمقاييس تلك الأيام: ستة جنيهات نقدا وعدا. وضاعف من سعادة الفتى أنه عندما منح مجانية التفوق سمع عن نوع آخر من المجانية فى الجمعية الخيرية الاسلامية كان يطلق عليه مجانية الفقر. وكان للحصول على هذه المجانية عدة شروط منها شدة الفقر مع الانتقال من سنة الى سنة أعلى. وكان يحصل على هذه المجانية عدد من الطلاب فى كل سنة، ذلك على حين أن مجانية التفوق تمنح لطالب واحد، وكان لا يطلب من مستحقها أن يثبت عجزه عن دفع الرسوم كما هو الحال بالنسبة لطالب مجانية الفقر. ذلك فضلا عن الفارق الرهيب بين الاسمين: مجانية التفوق ومجانية الفقر.

ويذكر الفتى أنه ظل سنين طويلة يقول لوالده فى معرض المزاح الذى لا يخلو من جد أنه لم يثقل عليه قط فى رسوم المدارس كما فعل إخوته الآخرون، وأنه منذ السنة الثانية الابتدائية والى أن أتم تعليمه فى الجامعة كان يتمتع دائما بمجانية التفوق. وكان والده ـ رحمه الله ـ يقول له مسرورا فرحا وعاتبا فى نفس الوقت: وهل مصاريف المدرسة شىء الى جوار المصاريف الأخرى وتكاليف الحياة؟!

* * *

وكان أخوه الأكبر يريده أن يكون أديبا، ولعله لمس فى الفتى استعدادا لشىء من ذلك وهو يتابع تلك المحاورات المستمرة بين أخيه وبنى عمومته وأبناء القرية من طلبة الأزهر حول الرافعى والعقاد وطه حسين واحمد حسن الزيات واحمد أمين. تلك الأسماء التى سمع الفتى عنها كلها وهو لم يجاوز العاشرة من عمره الا قليلا. بل ولعل أخاه ايضا لمس ذلك الاستعداد فى فتانا حيث كان يريد



أحمد حسن الزيات

أحيانا أن يقرأ فى الرسالة وحيث كان يقرأ فعلا فى الرواية.. كان أخوه الأكبر يريده على أن يكون أديبا مرموقا يوما من الأيام ولذلك شجعه على أن يكمل القرآن حيث لم يكن قد بقى له على اتمام حفظه عندما ترك كتاب الشيخ عبد الحميد قشطة، الى المدرسة الابتدائية غير أربعة اجزاء فقط من القرآن الكريم كله والذى يجزأ الى ثلاثين جزءا.

والأكثر من ذلك أن الأخ الأكبر كان قد سمع أو عرف أن الاستاذ دريني خشبة كان له ابن أخت من الأدباء النابهين الشباب وأنه ـ أى دريني خشبة ـ قد جعله يحفظ كليلة ودمنة لابن المقفع عن آخرها. ورغب أخوه فى أن يفعل الفتى نفس الشىء، وامعانا فى تشجيعه فقد نذر أن يعطيه خمس مليمات (قرش تعريفة) ـ ومأدراك ما خمس مليمات آنذاك ـ عن كل صفحة من «كليلة ودمنة» يحفظها عن ظهر قلب. ويذكر الفتى أنه حفظ جزءا ضخماً من كتاب كليلة ودمنة وأن ذلك الجزء ظل عالقا بذهنه ردحا طويلا من الزمان. ولكن الفتى لم يستطع أن يكمل حفظ كليلة ودمنة فقد كان يجد فى حفظها مشقة كبيرة، ويذكر أنه اشتكى الى والده من ذلك الأمر فى مرة من المرات التى كان والدهما يلم بهما فى تلك المدينة «طنطا» ليطمئن على أحوالهما وليعطيهما ما يلزمهما من نفقة وليمنح الفتى الصغير ـ دون علم من أخيه ـ عشرة قروش كاملة غير منقوصة فى كل مرة من تلك المرات.

واستاء الأخ الأكبر من شكوى الفتى لأبيه عن أمر ليس فيه الا مصلحته، ولم يدرك مدى المشقة التى كان يعانيها ذلك الصبى الصغير فى تحصيل دروسه وفى حفظ بقية اجزاء القرآن وكذلك تلك الصفحة من كليلة ودمنة، وتركه على حريته لكى يقرأ «كليلة ودمنة» قراءة بغير استظهار. وكان الفتى على شغف بالقراءة وحب شديد لها. ويبدو أن تلك العادة ـ عادة القراءة ـ قد تكونت لديه منذ ذلك الوقت المبكر ومازالت تلازمه الى يومنا هذا. ومازال يؤرقه أن شواغل الحياة تحول بينه وبين متعة القراءة وقتا يقصر أحيانا ويطول أحيانا وفقا لظروف الحياة ودواعى العمل.

ويوشك أن يتصل ما يذكره الفتى عن تلك الفترة من حياته فى مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بذلك التكوين اللغوى والأدبى الذى اتيح للكثير من لداته. يذكر أنه اختير لالقاء «خطبة» عن شخصية من الشخصيات الاسلامية وكان الفتى ـ ومازال حتى يومنا هذا ـ معجبا إعجابا شديدا بشخصية عمر بن الخطاب فاختار «عمر» موضوعا لتلك الخطبة. ويذكر الفتى أنه كان محل استحسان غير قليل من اساتذته الذين استمعوا إليه بغير ضجر.

ويذكر الفتى أن مفتشا للغة العربية جاء زائرا للمدرسة وهو فى السنة الثالثة وكان استاذ اللغة العربية من الأساتذة الأكفاء، وكان الفصل من الفصول المعروفة بقوة التلاميذ وتفوقهم. وشاءت ظروف لم يدرك الفتى كنهها أن لا يستطيع أغلب الطلاب الاجابة على ما كان يثيره المفتش من أسئلة وأنه وحده الذى كان يظل رافعا اصبعه طالبا الاجابة، وكان يجيب الإجابة الصحيحة، وأدى ذلك إلى اعجاب المفتش به الى حد أنه كان عندما يلقى سؤالا ولا يستطيع التلاميذ الاجابة عنه كان يتجه الى فتانا قائلا: «أجب ياللى عليك الأمل ياجمل» ويذكر الفتى أنه رغم سروره الا أنه كان فى ضيق شديد لأنه أحس أن استاذه الذى لم يدخر جهدا معه ومع زملائه كان فى حرج شديد وضيق أشد نتيجة عجز الطلاب عن إجابة الأغلب الأعم مما اثاره المفتش من أسئلة يبدو أنه كان يقصد من ورائها اثبات عجز المدرس عن توصيل العلم الى التلاميذ. الا أنه أيا كان الأمر فقد ظلت تلك العبارة «ياللى عليك الأمل ياجمل» عالقة فى ذهنه الى وقت بعيد. ويذكر الفتى ايضا أنها لم تكن عالقة فى ذهنه على نحو يخلص للسرور وانما كان سروره يختلط بشىء من المرارة يرجع بعضه الى ما أصاب استاذه من هم ويرجع بعضه الى كثير من تصاريف الحياة الأخرى التى لم تحقق آماله فى كثير من جوانب الحياة.

— ٤ —

كان يوم الخميس الأخير من العام الدراسى لا ينتهى الا وهو عائد الى القرية ليقضى بها أجازة الصيف كاملة غير منقوصة. ولم تكن الفترة التى يقضيها فى القرية مجرد أجازة صيف، لقد كانت حياة كاملة، كان يعيشها حتى بأكثر مما كان

يعيش أيام المدرسة .. ذلك أنها لم تكن مجرد لهو وراحة ولعب ولكنها كانت من أكثر الفترات امتلاء في حياته . وقد تكون من أبعدها تأثيرا على تكوينه النفسى والثقافى . وكانت تلك هى الفترة التى يجتمع فيها شمل الأسرة الصغيرة أو الكبيرة . كانت هى الفترة التى يرى فيها أمه وأباه وبقية إخوته . هذا عن الأسرة الصغيرة ، والتى كان يرى فيها عمومته وأبناء عمومته ومن اليهم وتلك هى الأسرة الكبيرة .

وكان أبوهم قد اختار — بناء على رغبة الأم — أن يبتنى بيتا خاصا مستقلا عن البيت الكبير ، ولكن ذلك البيت المستقل الذى لم يكن يخلو من بعض مظاهر الحداثة لم يكن بعيدا عن حيث يوجد جده وجدته وبقية أعمامه ولداته من بنى الأعمام .

وكان مركز « العمودية » في عائلتهم منذ كان ذلك المنصب في القرية المصرية . ولكن العمدة لم يكن هو جده المباشر ولا عمه المباشر وانما كان من فرع آخر من فروع العائلة . وكانت تلك الفروع ترتبط ببعضها بأكثر من رباط . كان العمدة ابن عم لأبيه وابن عمته في نفس الوقت ذلك أن والدى العمدة كانا بنى عمومة . ومن ثم فقد كان جده عما للعمدة وخالا له في آن واحد وكانت البيوت كلها متشابكة متلاصقة . وكان العهد بقسمة الأرض والدور مازال قريبا . وكان جيله من الصغار ينظرون إلى الجيل السابق عليهم — جيل الآباء والأعمام — على انهم اخوة لا يكادون يميزون بين الأخ وابن العم الا قليلا .

وأنه مازال يذكر جده وكيف كان فارع الطول يكاد الدم يتفجر من وجهه من شدة احمراره ، وكيف كان حاد المزاج لا يكاد يتكلم بهدوء في أمر من الأمور . وكيف أن جده الآخر — العمدة — كان قصير القامة هادىء الطبع يتحاشى أن يدخل في صدام مع قريبه ذلك الحاد الطبع العالى الصوت العصبى المزاج . وقد انتقل ذلك الجيل من الجدود الى الدار الآخرة ولم يبق في ذاكرة الفتى عنهم الا أقل القليل .

أما جيل الأعمام وأبناء الأعمام فأولئك الذين كانت تتكون منهم لحمة الحياة وسداها طوال شهور الصيف الأربعة .

وكان « سعد » أكثر ابناء عمومته التصاقاً به وقربا منه . وكان كلاهما « رومانسيا » حالما ، وكان كلاهما يحب القراءة ويشغف بها شغفا شديدا . وكان وصول الفتى الى القرية يعنى أن يتوقف « سعد » عن كل عمل منتج .

وقد ذهب « سعد » الى طنطا في البداية كى يلتحق بالأزهر ثم آثر السلامة وعاد الى القرية بعد وقت غير طويل . ولكنه لم يستطع عندما عاد الى القرية أن يعيش كما يعيش لداته .


ابن المقفع


سيد قطب

كان قد عرف أشياء وتعلم أشياء ، وكان قد كره الدراسة التقليدية ولكنه أحب القراءة الحرة ، ولم يكن كرهه « للفلاحة » بأقل من كرهه للدراسة التقليدية .

وكان يضيق بالقرية ضيقا شديدا أيام الشتاء القاسية — رغم قصرها — وكان ينتظر الصيف بفارغ الصبر حتى اذا جاء صاحبنا أوشكا ان لا يفترقا طوال تلك الشهور الأربعة كانا يقرآن معا ويتبادلان ويتحاوران فيما يقرآن . وكانا ينصتان الى من هم أكبر منهما سنا وأكبر اطلاعا وثقافة وهم يتناقشون ، ويحاولان قدر جهدهما أن يتابعا تلك المناقشات ، وقد يعن لصاحبنا أن يتدخل في المناقشة ايضا . وقد يستمع له الكبار من بنى عمومته وقد يردون عليه أو قد يكتفون بالاستماع ثم يواصلون مناقشاتهم ، وماكان أروع تلك المناقشات وما كان أشد تأثيرها على نفس صاحبنا وقلبه وعقله جميعا . كانوا يتحدثون عن العقاد والرافعى وعن طه حسين وكان لكل واحد من هؤلاء الأدباء الكبار شيعة تتشيع له وترى فيه كل الفضائل ولا ترى في غيره شيئا قط من فضل . ولم يكن الأزهريون كلهم من شيعة الرافعى كما يتوقع ولم يكن غير الأزهريين كلهم من المتشيعيين لطه حسين أو للعقاد . بل كان التشيع يجمع من هؤلاء ومن هؤلاء . وكان الحوار يجرى هادئا أحيانا وصاخبا احيانا وينتهى المتحاورون على ماكان بينهم من ود عند بدء حديثهم وحوارهم بعض الأحيان الى ما يشبه المشادة الكلامية التى تؤذن بقطع أحبال النقاش والود جميعا .

وكان أخوه الأكبر — وكان طالبا في نهاية المرحلة الثانوية آنذاك — متشيعا لمصطفى صادق الرافعى أشد التشيع وكان يوشك أن يتغنى بمقالاته في « وحى القلم » وأن يحفظ بعض عباراتها ويرددها ترديدا . ومازال الفتى يذكر كيف كان أخوه معجبا أشد الاعجاب مفتونا أقوى الفتنة بمقالات « الانتحار » التى كتبها الرافعى في الرسالة ثم جمعها بعد ذلك في أحد أجزاء « وحى القلم » ومقالة « الله اكبر » وغيرها من المقالات . وكان ابن عمه « امين » رحمه الله — الطالب الأزهرى الذى يوشك أن ينهى المرحلة الثانوية الأزهرية ويبدأ المرحلة النهائية من التعليم الازهرى — كان أكبر من أخيه بعدد من السنين وكان من شيعة العقاد الذين يقرأون كل ما يكتب العقاد أو كل مايكتب عن العقاد . ويذكر الفتى في تلك المرحلة من العمر أنه كانت هناك معركة ادبية واسعة بين أحد تلاميذ الرافعى هو محمد سعيد العريان وأحد تلاميذ العقاد هو سيد قطب — رحم الله الجميع — وكان أخوه من المتحمسين للعريان ، وابن عمه من المتحمسين لسيد قطب فرعا عن تحمس كل منهما للأصل — الرافعى من ناحية والعقاد من ناحية أخرى — وكان كثيرون من الأزهريين في القرية يشاركون بعض المشاركة في هذه المناقشات ولكن كثرتهم لم تكن تستغرقها تلك المناقشات استغراقا كاملا وانما كانوا ينصرفون الى معاونة اهلهم وذويهم فيما يقومون به من عمل في الحقل أو مايشبه ذلك . ويبدو أن أخاه وابن عمه امين وابن عم ثالث بعيد — محمود — كانت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية تتيح لهم شيئا من اليسر لا يلجئهم الى مساعدة أهلهم — الا لماما — في عطلة الصيف .

يحيى الجمل

البقية العدد القادم

جامعات الأرض المحتلة

قلاع تؤرق "إسرائيل"

الفلسطينيون يحتلون المرتبة الثالثة في التعليم الجامعي في العالم بعد أمريكا والاتحاد السوفيتي ويتفوقون في هذا المجال على الإنجليز والفرنسيين

بقلم : عصام شريح

إضطهاد مؤسسات التعليم العالى فى الأراضى العربية المحتلة ، أصبح سياسة منهجية لسلطات الاحتلال الصهيوني . وكان آخر الممارسات الاسرائيلية ــ وليس الأخيرة ــ فى هذا النطاق ، اغلاق جامعة بيرزيت لمدة شهرين ، واعتقال خمسة عشر طالباً من طلابها ، والزج بهم فى معتقل « الفارعة » الشهير بعمليات التعذيب المنظمة التى تجرى فيه .. وكانت الذريعة التى استندت إليها سلطات الاحتلال فى ذلك ، هى اقامة معرض للتراث الفلسطيني احتوى على ملصقات وشعارات وطنية ...

وليس من شك فى ان الجامعة أو الجامعات ومعاهد التعليم العالى هى أحد مقاييس التقدم الثقافي والابداع الحضارى للأمم والشعوب ، فى أي زمان ومكان ، فهذه المؤسسات تعكس فى الواقع روح المجتمع وتجسد هويته الحضارية ، وتعبر عن مستواه العقلاني ، وأبعاد هذا المستوى ، ولقد كانت الجامعات وبيوت العلم والثقافة المختلفة لدى العرب أيام سطوع حضارتهم بل وأيام أفولها ، الانجاز الأكثر أهمية الذى تنهل منه الأجيال الصاعدة ، والذى حفظ لهم دورهم الثقافي فى مسيرة الحضارة العالمية .

النضال على جبهة العلم

ومن هذا المنطلق نستطيع القول ، ان المستوى العلمى والثقافى للشعب العربى الفلسطيني ــ وهو أحد شعوب الأمة العربية ــ والذى ساهمت فيه جامعات الأرض المحتلة إلى حد كبير ، كان أحد الأسلحة الفعالة ، وما يزال ، فى الصراع العربى ــ الصهيوني ، إذ ليس فى المستطاع عقلانياً ، الفصل بين النضال العسكرى والسياسي لأي شعب من الشعوب ، ونضاله العلمي ــ الثقافي .

ولقد أدركت الحركة الصهيونية فى وقت مبكر دور العلم والثقافة ، فى تشكيل هوية معينة لأشتات اليهود المهاجرين إلى فلسطين المحتلة ، وفى المواجهة الحاسمة والمصيرية مع الأمة العربية ، ذات التراث العلمى والثقافى الحضارى الثرى ، فجاء تفكيرها فى انشاء الجامعة العبرية مبكراً منذ عام ١٩١٨ ، وخرجت الفكرة إلى حيز التنفيذ فعلا فى عام ١٩٢٥ ، أي قبل الاعلان عن قيام الكيان الصهيوني بحوالى ربع قرن .

ولقد جاء رد الفعل الفلسطيني على انشاء الجامعة العبرية ، بعد ست سنوات فقط ، أى فى عام ١٩٣١ ، عندما طرح الحاج أمين الحسيني انشاء جامعة فلسطينية فى القدس ، تحت اسم « جامعة المسجد الأقصى » ، لكن الفكرة بقيت حبراً على ورق ، ولم تنشأ الجامعة الفلسطينية الأولى حتى مطلع السبعينيات ، لكن .. وعلى الرغم من هذا الفاصل الزمني الكبير ــ نصف قرن تقريباً ــ بين انشاء الجامعة العبرية ، وأول جامعة فلسطينية فى ظل الاحتلال الصهيوني ، فإن الجامعات ومعاهد الدراسة العليا فى الأرض المحتلة ، قد ساهمت مساهمة جُلّى فى تشكيل ثقافة





لقطتان : الأولى أثناء الاحتفال بتخريج دفعة جديدة من الطلبة الفلسطينيين فى الأراضى العربية المحتلة .. واللقطة الثانية لمبنى جامعة النجاح الوطنية التى تضم حاليا أربع كليات .

وطنية كان لها شأن أساسى فى صمود المواطنين العرب فى الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين فى وجه سياسة الاقتلاع والنفى التى تنتهجها سلطات الاحتلال .

جامعات الأرض المحتلة :

يبلغ عدد الجامعات فى الأرض المحتلة اليوم ست جامعات ، تقوم بدور مباشر فى المواجهة الحضارية الشاملة بين العرب والحركة الصهيونية ، وهذه الجامعات هى :

١ ـ جامعة النجاح الوطنية :

أسست جامعة النجاح ، كمدرسة ابتدائية فى عام ١٩١٨ ، على يد مجموعة من شباب مدينة نابلس ، وأطلق عليها آنذاك اسم « مدرسة النجاح الوطنية النابلسية » . وفى عام ١٩٤١ ، أصبح اسمها « كلية النجاح الوطنية » ، وفى عام ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦ : افتتح فى الكلية معهد لاعداد المعلمين ، وما يزال هذا المعهد يقدم برامج دراسة مدتها سنتان ، وتشمل على دراسات تربوية ومسلكية مع تخصصات فى تدريس العلوم العامة والرياضيات والتربية الرياضية واللغة الانكليزية واللغة العربية والاجتماعات والدين والفن . وفى عام ١٩٧٦ ، قررت هيئة عمادة الكلية تطوير الكلية الى « جامعة النجاح الوطنية » ، وبالتالى تغير اسم الهيئة الى « مجلس أمناء الجامعة » . ثم بدأ العمل فى تطوير الكلية لتصبح جامعة ، وتم ذلك فى عام ١٩٧٦ ، حيث أصبح اسمها « جامعة النجاح الوطنية » ، وكان الهدف المعلن هو إعداد مدرسين مؤهلين بالشهادات العالية ، لمرحلة الدراسة الثانوية ، بيد أن افتتاح الجامعة ، تأخر حتى أواخر عام ١٩٧٧ ، بسبب إصرار سلطات الاحتلال الصهيوني على ضرورة حصول الجامعة على ترخيص بذلك منها . وقد تم فى عام ١٩٧٩ ، شراء أرض لبناء حرم جديد للجامعة عليها ، وفى عام ١٩٨٠ تم بناء كلية الآداب ، وتم تغطية الجزء الأكبر من كلفة البناء من تبرعات قدمها الفلسطينيون وعرب آخرون فى الخارج . وتضم « جامعة النجاح الوطنية » حاليا أربع كليات أو دوائر هى :

• دائرة العلوم : ويدرس فيها الطلاب برنامجاً

جامعات الأرض المحتلة

فى مستوى البكالوريوس ، فى تخصصات الرياضيات والكيمياء والاحياء والفيزياء .

• دائرة كلية الاقتصاد والتجارة والعلوم الادارية : وتضم التخصصات التالية : الاقتصاد ، المحاسبة ، وإدارة الأعمال .

• دائرة الآداب : وتقدم برنامجاً فى مستوى البكالوريوس ، يشتمل على تخصصات فى اللغة العربية ، واللغة الانكليزية ، والتاريخ والآثار ، والجغرافيا ، وعلم الإجتماع .

• دائرة التربية : وتقدم برنامجاً للدراسات العليا فى التربية ، يمنح الناجحون فيه شهادة الدبلوم العالى فى التربية ، وبإمكان المتفوقين متابعة الدراسة لنيل شهادة الماجستير فى التربية ، كما تقدم هذه الدائرة (الكلية) برنامجاً لشهادة البكالوريوس فى التربية وعلم النفس ، مع تخصص فرعى فى موضوع أكاديمي فى العلوم أو الآداب ، وبرنامجاً آخر لشهادة دبلوم متوسط فى التربية ، يؤهل حامله للتدريس فى المرحلة الالزامية . ويقدم هذا البرنامج من خلال « معهد النجاح للمعلمين » بدائرة التربية ، الذى أصبح أحد أقسام الجامعة .

وتضم جامعة النجاح الوطنية بمدينة نابلس ، مختبرات للفيزياء والكيمياء والأحياء كما تحتوى على مكتبة فيها ١٢ ألف كتاب ، ويبلغ عدد طلابها ٣٥٠٠ ، نصفهم تقريباً من الإناث ، وأعلى سلطة فى الجامعة ، مجلس أمنائها . كما يوجد فيها مجلس طلبة ، وقد انضمت جامعة النجاح الى اتحاد الجامعات العربية فى كانون الأول من عام ١٩٧٧ .

٢ ـ جامعة بيرزيت :

تأسست جامعة بيرزيت كمدرسة صغيره فى عام ١٩٢٤ على يد الآنسة نبيهة ناصر ، ثم تطورت بعد ذلك ، وأصبحت فى عام ١٩٥١ ، تقدم مواد دراسية تتخطى المرحلة الثانوية ، وفى عام ١٩٥٣ اكتمل الصف الجامعى الأول بفرعيه العلمى والأدبي ، وتبعه الصف الجامعى الثاني فى عام ١٩٦١ ، وألغيت الصفوف الابتدائية والاعدادية والثانوية بصورة تدريجية ، الى أن تم إلغاء آخر صف (فصل) ثانوى فى نهاية العام الدراسى ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ، واقتصر التعليم آنذاك على الصفين (الفصلين) الجامعيين الأول والثاني ، أى ما يعرف بالمرحلة الجامعية المتوسطة ، وبعد حرب لكلية لتصبح جامعة ، نظراً للحاجة الملحة للجامعة فى ظل ظروف الاحتلال الاسرائيلي المستجدة ، وما تفرضه هذه الظروف من تحديات وأعباء ، وقد أقرت الادارة فى حزيران (يونيو) من عام ١٩٧٢ ، برنامجاً دراسياً لأربع سنوات جامعية ، بحيث يضاف الصف الجامعى الثالث فى عام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ، والصف الجامعى الرابع ، فى العام الدراسى التالى ، وفى عام ١٩٧٢ ، شكل مجلس أمناء لجامعة بيرزيت من ١٤ عضواً من الفلسطينيين من ذوى الخبرة والاختصاص أو الاهتمام بالأمور التربوية والتعليمية بالضفة الغربية المحتلة ، وأخذ مجلس الأمناء على نفسه مهمة تطوير الجامعة . وتشتمل جامعة بيرزيت على كليتين هما :

• كلية العلوم : ومدة الدراسة فيها أربع سنوات ، وهي تمنح فى نهايتها شهادة البكالوريوس فى اتية (علم الحياة والكيمياء الحياتية) .

• كلية الآداب : ومدة الدراسة فيها أربع سنوات ، وتمنح شهادة البكالوريوس فى اللغة العربية ، وإدارة الأعمال ، واللغة الانكليزية والآداب الانكليزى ، ودراسات الشرق الأوسط ، وعلم الإجتماع ، وتخصصاً مزدوجاً فى علم الآثار ، وأى موضوع آخر فى نطاق العلوم الإجتماعية ، (كما أن بإمكان الطلاب الحصول على شهادة بكالوريوس بتخصص مزدوج فى أى موضوعين من مواضيع كلية العلوم ، أو مواضيع كلية الآداب) ، وقد بلغ عدد طلاب جامعة بيرزيت مؤخراً ٣٠٠٠ طالب وطالبة ، والطلبة الملتحقون بها يفدون من مختلف أنحاء فلسطين ، بما فيها الأراضى المحتلة فى عام ١٩٤٨ . وفى الجامعة مكتبة تحتوى على حوالى سبعين ألف كتاب ، وفيها مختبر للفيزياء يتسع لخمسين طالباً ، ومختبر آخر للكيمياء يستوعب حوالى خمسة وخمسين طالباً ومختبر للأحياء يتسع لخمسة وثلاثين طالباً ، ومختبر للغات يستوعب أربعة وعشرين طالباً ، كذلك يوجد فى جامعة بيرزيت قسم لمكافحة الأمية وتعليم الكبار ، ويعمل هذا القسم على فتح صفوف (فصول) لهذه الغاية فى كافة أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين ، ولجامعة بيرزيت علاقة توأمة مع جامعة باريس ، وعلاقة أبحاث أكاديمية مع جامعات إيست وبريمن وايرلنمن بألمانيا الغربية ، وعلاقات لتحسين الجوانب الادارية مع جامعة « بات » البريطانية ، ولمجلس طلبة بيرزيت علاقة توأمة مع مجلس طلبة جامعة « جلاسكو » فى اسكتلندا ، ونشير أخيراً الى أن لجامعة بيرزيت خطة طموحة لزيادة الكليات والتخصصات فيها :

٣ ـ جامعة بيت لحم :

بدأت جامعة بيت لحم التدريس فى مبنى مدرسة الفرير فى مدينة بيت لحم فى تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٩٧٣ ، وكانت قد اتخذت توصية بتأسيس الجامعة ، فى إجتماع دعا إليه ممثل البابا « الاسقف بيو » فى عام ١٩٧٢ وضم مدراء بعض المدارس فى الضفة الغربية المحتلة ، وقد شكل مجلس استشارى للجامعة من أعضاء فلسطينيين ، أما مجلس أمنائها فمقره الفاتيكان ، وهو يتولى مسؤولية الاشراف على عمل الجامعة ، ووضع خطط لتطويرها ، ويربو عدد طلابها على ألفين وخمسمئة طالب وطالبة .

وتضم جامعة بيت لحم الكليات والمعاهد التالية :

• كلية الآداب والعلوم ، وهي تمنح شهادة البكالوريوس فى اللغة العربية وآدابها ، واللغة الانكليزية وآدابها ، وعلم النفس ، والخدمة الاجتماعية ، وعلم الاجتماع ، والرياضيات والكيمياء ، والفيزياء ، والأحياء .

• كلية إدارة الأعمال والاقتصاد : وهي تمنح شهادة البكالوريوس فى الاقتصاد والمحاسبة وإدارة الأعمال .

• كلية المعلمين : وتمنح درجة البكالوريوس للمعلمين الذين يلتحقون بها فى فروع تخصصهم (المقدمة من كلية الآداب والعلوم) ، وشهادة التربية لحاملى الشهادات الجامعية ، ونظام الدراسة فيها مسائى ، وهو عبارة عن برنامج تأهيلى للمعلمين أثناء الخدمة .

• كلية التمريض : ومدة الدراسة فيها أربع سنوات ، وهى تمنح شهادة البكالوريوس فى التمريض .

• معهد إدارة الفنادق (الفندقة) : ومدة الدراسة فى هذا المعهد ثلاث سنوات ، وهو يمنح شهادة الدبلوم فى الفندقة .

وفى جامعة بيت لحم مكتبة تضم مئتى ألف كتاب على الأقل ، وفيها كذلك ثلاث مختبرات للكيمياء والفيزياء والأحياء ، وتضم كذلك خمسة نواد ثقافية وتراثية وإجتماعية ورياضية وفنية .

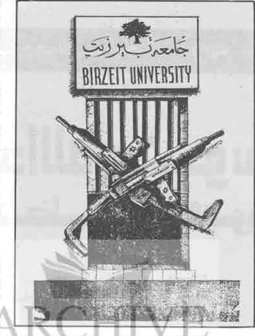
٤ ـ جامعة الخليل :

كلية الآداب والشريعة الاسلامية :

تأسست فى عام ١٩٧١ ، وهى تضم كلية للآداب ، تمنح شهادة البكالوريوس فى اللغتين العربية والانكليزية وآدابهما ، اضافة الى شهادة الليسانس فى الشريعة الاسلامية ، وقد بلغ عدد طلابها حوالى خمسمئة طالب وطالبة ، ويؤمل مجلس امنائها أن يتمكن من تطويرها لتضم كليات أخرى فى المستقبل .

٥ ـ جامعة غزة الاسلامية :

وقد أنشئت فى ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٧٨ على أن تضم كلية الشريعة والقانون ، وكلية أصول الدين ، وكلية اللغة العربية ، وكلية الدراسات الاسلامية والعربية ، وكلية التجارة وإدارة الأعمال ، وكليات العلوم والطب والهندسة



رسم كاريكاتيرى عن جامعة بيرزيت التى يؤدى دورها الهام فى مكافحة سلطات الاحتلال إلى اعتقال طلابها أو إبعاد مدرسيها أو إغلاقها.

والزراعة ، لكن الكليات العاملة حالياً هى : كلية الشريعة والقانون ، وكلية أصول الدين واللغة العربية ومعهد للتمريض.

معاهد التعليم

إلى جانب الجامعات الفلسطينية الست ، يوجد فى الأراضى العربية المحتلة عشرة معاهد أو كليات ، تتراوح الدراسة فيها ما بين سنتين إلى ثلاث سنوات ، وسنشير إلى هذه المعاهد بشكل عام :

- أهم المعاهد التى تقوم بمهمة التعليم والتثقيف فى الأراضى المحتلة هى : المعهد الزراعى (خضورى) ، ومدة الدراسة فيه ثلاث سنوات فى قسم الزراعة ، وسنتان لتدريس المعلمين فى العلوم والرياضيات واللغتين العربية والانكليزية ، والدين ، والاجتماعيات والتربية الرياضية ، ويقع المعهد الزراعى فى مدينة طولكرم.
- معهد البوليتكنيك ــ الخليل : وهو يدرس الصناعة وفنونها لمدة سنتين.
- معهد المعلمات الحكومى ــ رام الله : والمتخرجات منه يمنحن شهادة التربية العامة فى اللغتين العربية أو الانكليزية ، والاجتماعيات والدين والعلوم والرياضيات وعلم المنزل ، والتربية الرياضية
- معهد تدريب المعلمين ــ العرّوب : وهو حالياً معهد زراعى للمعلمين ، مهمته تخريج معلمين زراعيين فنيين.
- مركز تدريب الفتيات والمعلمات التابع لوكالة الاغاثة الدولية بمدينة رام الله.
- معهد النجاح الوطنى لتدريب المعلمين فى نابلس.

- كلية الروضة الوطنية بنابلس : وكانت هذه الكلية حتى عام ١٩٧٣ متخصصة بالتعليم العالى للمعلمين ، الا أنها تحولت بعد ذلك الى الاهتمام بتخريج مساعدى صيادلة ، ومدة الدراسة فيها سنتان.
- كلية العلوم الجامعية بالقدس ، وقد أغلقتها سلطات الاحتلال بعد وقت قصير من افتتاحها فى عام ١٩٧٩.
- كلية التمريض العربية ببلدة البيرة ، وقد تحول اسمها حالياً الى كلية العلوم الطبية.

الجامعات : قلاعنا الصامدة

على الرغم من جميع الممارسات الاسرائيلية التعسفية ضد المؤسسات التعليمية فى الأراضى العربية المحتلة ، فقد نجحت الجامعات والمعاهد العليا ، فى تخريج أكثر من اثنى عشر ألف طالب وطالبة حتى الآن ، وفى تقليص هجرة المثقفين الفلسطينيين من أرضهم إلى أدنى الحدود ، ناهيك عن أن هذه المؤسسات قد تحولت الى بؤر لغرس الروح الوطنية والتعلق بالأرض والتمسك بالتراث والتباهى بتاريخ الآباء والأجداد ، وذلك على الرغم من سياسة « القبضة الحديدية » التى تمارسها سلطات الاحتلال الصهيونى ضد الجامعات والمدرسين والطلاب والمناهج ، وخاصة كتب التاريخ والجغرافيا والدين ، حيث تتدخل هذه السلطات لشطب كل كلمة تشير إلى فلسطين أو التاريخ العربى فى فلسطين ، أو الكلمات والعبارات التى تدعو الى الجهاد والنضال ضد العدو ، وهذه حالة تنفرد بها الجامعات الفلسطينية ومعاهد التعليم العالى فى الأراضى المحتلة ، عن أى بلاد أخرى تقع تحت الاحتلال والغزو والعدوان.

ولعل مما يعزز عظمة الدور الذى لعبته جامعات ومعاهد التعليم العالى فى الضفة والقطاع المحتلين ، أن سلطات الاحتلال ، تخوض مواجهات يومية مع هذه الجامعات والمعاهد ، فهى تعتقل الطلاب تارة وتزج بهم فى السجون ، وتارة أخرى تبعد المدرسين الى الأردن أو غيره ، وتارة ثالثة تقدم على اغلاق الجامعات والمعاهد لأسباب واهية أو مصطنعة غالباً ، وهذه المواجهات هى الدليل الناصع على أن الجامعات والمعاهد فى أرضنا المحتلة ، قد تحولت الى قلاع حقيقية ، تخوض كافة أشكال النضال ضد الاحتلال والغزو ، وتحول مشاريع العدو لتجهيل الشعب الفلسطيني وتحويله إلى عمالة رخيصة فى المصانع والمزارع الاسرائيلية ، الى أضغاث أحلام.

ولعل المأزق الراهن الذى تواجهه الحركة الصهيونية حالياً يكمن فى أحد أبعاده ، فى نسبة التعليم المرتفعة بين صفوف الفلسطينيين ، والتى تفوق مثيلتها لدى الاسرائيليين ، حيث تشير الاحصاءات الى أن لدى الفلسطينيين ١٥ طالباً من كل ألف يدرسون فى مؤسسة أو جامعة للتعليم العالى ، وهذه النسبة تفوق نسبة البريطانيين والفرنسيين فى هذا الميدان ، ويحتل الفلسطينيون المرتبة الثالثة فى التعليم الجامعى والعالى فى العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

وباختصار فلقد نجح الفلسطينيون فى مواجهة الصهاينة ومنازلتهم على جبهة التعلم والتثقف ، حيث أخفقوا مرحليا على جبهات أخرى.

عصام شريح



نحو مسرح عربي الوجه والهوية

سعدالله ونوس بين "حنظلة" و"حرفوش"

بقلم: الدكتور أمين العيوطي

لعل « رحلة حنظلة » تمثل خطوة جديدة فى رحلة سعد الله ونوس الفنية ، بدءا من التجريب فى مسرحياته القصيرة الأولى ، ومرورا بمسرحياته التسجيلية والملحمية ، الى شكل يتحقق فيه مسرح شعبى له ملامح فنية عربية بدأه فى « الملك هو الملك » وأكده فى هذه الرحلة .

من حيث انتهت رحلة خضور بائع الدبس الفقير تبدأ رحلة حنظلة من القهر الذى لا يدرك له سبب حين يلقى به فى السجن ، تماما مثلما يحدث ليوسف ك فى محاكمة كافكا ، ليذوق العذاب عن جريمة لم يرتكبها إلا إذا كانت جريمته ، كما يقدمه لنا حرفوش فى استهلال المسرحية ، هى غفلته وسلامة طويته وسد الطاقة التى يأتي منها الريح ليستريح . والمغزى السياسى ، رغم التناقض فى الموقف ، بل بفضل هذا التناقض ، لا يغيب عن مشهد السجن . فهو ، وهو الرجل الذى لا يعرف له فى الحياة مبدأ أو موقفا ، يجد نفسه متهما بأنه ، مشاغب لا يبالى بالنظام أو السلامة العامة ، وغفلته السياسية لا يواتيها إلا اخلاصه غير المجدى لبيته أو لعمله .

فى البيت الخيانة ، وفى العمل الطرد . إن رأسه يدور حين تنزل به المحنة تلو المحنة فى رحلة السؤال والجواب . هو لا يدرى لماذا يحدث له ما يحدث وهو الذى يريد العيش فى أمان ولا يتدخل فى أى شيء كان . كل شيء يبدو له سرا ، بل لغزا يفوق ادراكه . « لماذا يحدث لى ما يحدث ؟ » هو السؤال الذى يحير عقله ، ويتردد صيحة فى جنبات رحلة السؤال . وهو يبحث عمن يعينه . « ألا يمكن أن أجد العون من أحد ؟ » لكن العون لا يأتى من الآخرين ، ولا من حرفوش . فحرفوش لا يجد أمثاله من « القمل المفروك » يستحقون الشفقة ، فهو لا يستطيع أن يفهم كيف تكون للمرء عينان ولا يبصر . وهو لا يؤمن بالعطف والحنان ، فلن تسعف حنظلة المسكنات ، بل يسعفه أن يشخص بنفسه داءه ، وأن يفكر بنفسه ليعرف أكثر ويدرك أكثر . إنه يريده أن يصل إلى الاجابة عن سؤاله بنفسه . وأن يصل إلى الادراك عن طريق تشغيل عقله .

رحلة البحث عن الاجابة

وهكذا تبدأ رحلة البحث عن الاجابة عند الطبيب النفسى الاعلامى ، أو عند الدرويش . لكنه لا يجد الرضا بعد عملية غسيل المخ ، ولا مع الزار والحرز . فهو لا يفهم كيف يمكن أن يضحك بعد كل ما نزل به من محن ، ولا أن يفهم أى شياطين يريد الدرويش أن يطهره منها . وتطول رحلة الجواب بين المثقفين وجمعيات التآخى



سعد الله ونوس : أسهم في بلورة مسرح له وجه عربي وهوية عربية متميزة .

الاجتماعي ، وأقسام الرقابة الشعبية في الصحف . ورجال الحكومة قبل أن يتحرك عقله ويضيء وعيه بادراك أن الجميع متفقون كأفراد العصابة الواحدة ، وأنهم « يسخرون من المساكين أمثالى ويعملون جميعا كي نبقى في الجهل والظلام » . إنه يدرك أن حياته كانت كلها خدعة ينبغي أن تتوقف . إنه يصل ، بعبارة أخرى ، إلى الادراك الذي يحقق فيه تحولا . وهكذا تأتي نهاية الرحلة بداية لرحلة جديدة . لقد قطع حنظلة شوطا أبعد بكثير من الشوط الذي قطعه خضور .

ولعلنا نستطيع أن نلتمس في عنوان المسرحية ذاته ، وفي شكل الرحلة الذي تتخذه الأحداث النسق الذي يحمل دلالات المسرحية والفكرة التي تقوم عليها . فبين بداية رحلة السؤال ونهاية رحلة الوصول إلى الجواب ، تتألف رحلة البحث من مشاهد متتالية لا يربط بينها إلا وجود شخص حنظلة وما يمر به من محن وتجارب . نحن لسنا هنا أمام فصول درامية تقليدية يرتبط كل واحد منها بالآخر ويكمله . اننا أمام تركيب مثلما يحدث في السينما التي هي أقرب في طبيعتها إلى الرواية ، أو إلى الملحمة . أو لنقل اننا أمام مشاهد متتالية في رواية « بيكارية » من روايات الأفاقين المتشردين الصعاليك التي تأخذ شكل رحلة يشتبك أثناءها الصعلوك في مغامرة إثر مغامرة . فهو يرتحل بحثا عن مغامرات في سبيل المال . وان كان المال في حد ذاته لا يعني له شيئا ، إنما هو رمز لتغلب ذكائه على ذكاء الآخرين الذين يأخذهم بالحيلة والمكر . ومالنا نذهب بعيدا الى شكل الملحمة أو شكل الرواية البيكارية ولا نذهب مباشرة إلى شكل حكايات الشطار والعيارين التي كانت الأصل الذي أخذت عنه أسبانيا ومنها أوروبا . فليس الشكل الملحمي : أو شكل الرواية البيكارية في الحقيقة إلا أحد الأشكال الشرقية والأشكال العربية على وجه التحديد كما في ألف ليلة وليلة أو حكايات الشطار وقصص الشعراء الصعاليك .

غير أن شخصية حنظلة والهدف من الرحلة يختلفان قطعا عن شخصية الشاطر والهدف الاجتماعي والسياسي من حكايته . فحنظلة ليس على الزيبق . وعلى الرغم من اتهام زوجته له بأنه زعرور ، إلا أنه ليس ذلك الزعرور الذي يعيش بلا عمل لصا أو خاطفا أو يخلى نفسه على هواها . وهو ليس العيار الذي يعيش جوالا طوافا منفلت العيار . وهو ليس الشاطر الداهية أو اللص الذكي الذي يستخدم الحيلة أو يلجأ إلى القوة . هو ليس ذلك البطل المتمرد الخارج على القانون . وحرفوش يبدو واعيا بهذا الاختلاف في تقديمه لحنظلة بقوله : « هذا البطل الضامر سيكون بطل السهرة . لا تشعروا بالخيبة ، فقد ولى عهد الأبطال العمالقة . لكل مرحلة شخصيتها ، وهذا الرجل الضامر (تزداد لهجته اعلانية) هو شخصية هذه المرحلة » كذلك يختلف الهدف من الرحلة هنا عنه في حكايات الشطار فحنظلة لا يعرف عن القوانين الأخلاقية ولا الأهداف الاجتماعية والسياسية التي كانت تحكم مغامرات الشطار شيئا . بل هو انسان مسحوق لا يمتلك درجة وعي الشاطر الاجتماعي والسياسي ، بيحث عن ذاته واجابة لتساؤلاته حتى يسترد نفسه من خلال اصطدامه بأجهزة الدولة ومؤسساتها .

الوجه الآخر لحنظلة

ولعل أحد أسباب التحول في حنظلة ونضج وعيه في النهاية هو وجود شخصية حرفوش . وربما كان حرفوش هو الآخر أحد شخصيات حكايات الشطار والزعر والعيارين . لكنه هو الآخر يكتسب بعداً آخر هنا . فهو ليس المقاتل والمصارع واللص . بل هو انسان ساخر يدرك سر مصائب حنظلة . ويدرك عجزه عن ادراك سر محنته ، وأن عليه أن يتحمل العذاب فوق العذاب ، وأن يقطع درب الآلام حتى وسخريته تعني انفصاله عن حنظلة حتى ليبدو كما لو كان التواصل بينهما قد انعدم . هذا الانفصال الآخر يأخذ شكل الحوار الذي لا يتصل بين الاثنين في لحظات ، فيبدو حرفوش وكأنه لا يفعل شيئا إلا أن يقوم بترقيم ما يقوله حنظلة . ساخرا من معاناته ، كما يحدث عندما يخرج حنظلة من السجن .

حنظلة : (وهو ينقل بصره بين حرفوش والحزام) تصور أيها السيد . (يستدرك) اسمي حنظلة . هذا الحزام اشتريته يوم زواجي . إنه جلد أصلي . لكن حارس السجن قطعه وهو يسوطني به .

حرفوش : من لا يملك حزاما ، لا يستطيع أن يستر « ظهره » .

حنظلة : كنت أعتز به . أحس أنه يجمعني



ويحزم وسطى .

حرفوش : والآن إما أن تزحف على مؤخرتك أو تعرضها للمارة .

حنظلة : آه لو تعلم ماذا جرى لى أيها السيد .

حرفوش : تعطلت دواليب عقلك ، وانحلت براغيه .

غير ان هذا الانفصال الساخر لا يعني بالفعل انعدام التواصل بينهما . فحرفوش يريد فى أعماقه أن يرى حنظلة طريقه . لكنه لا يملك له الا الاستخفاف الذى يمتزج بالاحتقار طالما ظل على سذاجته وغفلته ، طالما لم يصل إلى فهم . بل إنه هو الذى يقود خطاه فى رحلة البحث عن جواب .

والواقع أنهما شخصيتان تكمل إحداهما الأخرى . فإذا كان حنظلة هو السؤال الدائم الذى يترددفى جنبات المسرحية من لوحة لأخرى ، فإن حرفوش هو الوعى المستتر الذى لا يبين . والذى يقود خطى حنظلة نحو الوعى الكامل . حنظلة هو الحيرة ، وحرفوش هو الادراك والوعى . بل لعله الوعى الذى يكمن داخل حنظلة فهو ليس القدم الذى يقدم لنا شخصية حنظلة ويحللها ويكشف جوانب ضعفها فحسب وهو ليس مجرد الراوى الشعبى الذى يبدأ القصة من أولها ، ويواصل الحكاية . ويربط بين المشاهد التمثيليةفى مسرحية يتناوب فيها السرد والعرض . هو فى حقيقة الأمر هذا الوعى الشعبى الذى يكمن بداخل أبسط البسطاء ، ويتحرك مع حركتهم من لحظة البداية السلبية التى تتمثل فى طلب الستر ، والبعد عن المشاكل . واقامة جدار بين أحدهم الآخر . ليضىء لهم فى النهاية طريق الوعى واعتناق موقف إيجابى فى مواجهة ما يتهددهم من طحن وانسحاق . وهو فى هذا كله يرتبط بشخصية الراوية الشعبى .

وإذا كانت المسرحية تأخذ من الحكاية الشعبية شكل المشاهد المتتالية أو اللوحات ، فإنها أيضا تكتفى من البيئة المنظرية والمهمات المسرحية بأقل القليل ، شأن الراوية الشعبى الذى كان يعتمد على أقل القليل من المهمات المسرحية . يكفيها فى المشهد الأول حلقة معدنية يتأرجح عليها حرفوش ، ودكة خشبية يرقد عليها حنظلة ، وسلسلة مثبتة بالأرض ، وحاجز متحرك من قضبان . ويكفى فى المناظر التالية مقعد فى حديقة فى الهواء الطلق ، أو منصة عمليات جراحية ، أو مصطبة ، أو طاولة عريضة يجلس إليها ممثلو أجهزة السلطة الأربعة . ومن الأشكال الشعبية تستعير المسرحية أسلوب تركيب الديكور أثناء رواية حرفوش وهو يتأرجح على الحلقة ، أو النبرة الاعلانية المحايدة التى ينطق بها وهو يحدد مناظر المشاهد ، بل فى هذا الحوار الاعلاني بين الطبيب والمرضة الذى يستفز بسخريته أذهان المتفرجين .

الطبيب : من يساعد الفرد على التكيف مع واقعه والتلاؤم مع مجتمعه ؟

المرضة : انه الطب البسيكو ـ اعلامى .

الطبيب : كيف يصبح الفرد هادئا راضيا مسالما ؟

المرضة : اسأل الطب البسيكو ـ اعلامى .

الطبيب : من يحول المواطن وديعا كالحمل صبورا كالجمل ؟

المرضة : أنه الطب البسيكو ـ اعلامى .

الطبيب : من يجعل المواطن يتحمل الغلاء والفساد دون أن يغضب أو يبالى ؟

المرضة : انه الطب الاعلامى .

أو يتخذ الحوار شكل السرد المتبادل بين حرفوش وحنظلة وهما يعددان الأبواب التى طرقاها بحثا عن حل المشكلة :

حرفوش : بعد المثقف الحكيم طرقنا باب جمعية التآخى الاجتماعى

حنظلة : استقبلتنا سيدة موقرة

حرفوش : كان وقتها ضيقا لا يسمح لها أن تصغى إلى القصة كلها . قاطعت حنظلة وألقت محاضرة مسهبة عن ضرورة التسامح الاجتماعى .

حنظلة : وفى النهاية حملتنى رزمة ثقيلة من النشرات والمطبوعات ..

ويستمر السرد فى استعراض الجهات التى طرقا أبوابها : انهما ينسلخان هنا عن دوريهما ، ويؤديان ما يرويه حرفوش وكأنهما يحكيان قصة قديمة ..

الابتعاد عن الانغماس العاطفى

وإذا كان تناوب السرد والعرض يحقق نوعا من التباعد الذى لا يسمح بالانغماس العاطفى كلية فيما نراه ، حتى يبقى العقل يقظا لاستقبال الرسالة السياسية التى تتضمنها المسرحية . فإن هذا الأسلوب يرتبط من ناحية أخرى بانفصال حرفوش الساخر عن حنظلة ، كما يرتبط بالتناول الساخر لموضوع المسرحية وللشخصية الرئيسية فيها ، لهذا كانت النبرة الكوميدية التي تسود المسرحية . وفى تناوله الكوميدى لموضوعه يستعير سعد الله ونوس بعض أساليب السيرك والحرفوش يتأرجح على الحلقة المعدنية كأنه مهرج فى سيرك ، أو فى المشهد الايمائى البهلوانى الذى يستهل به اللوحة الثالثة بين ممثلين يتعاركان ، أو أكثر من ممثلين ، حول معنى السلبية والايجابية . بل إن أداء حنظلة نفسه لايخلو من ألعاب المهرج الهزلية بحذائه الضخم الذى يحمله تحت إبطه وحركات إنزلاق سرواله ومحاولته رفعه ليسقط الحذاء ، ويتبادل الحذاء والسروال سقوطهما كلما ترك واحدا منهما . ويصل هذا الهزل السيركى مداه فى مشهد الزوج والزوجة والعشيق ، حين يلحظ حنظلة قدمي العشيق وهما تبرزان من تحت الغطاء ، أو حين يعطس فتعطس الزوجة للتغطية على الموقف ، أو حين تظهر رأس العشيق فيشيح حنظلة عنه بوجهه ويدير له ظهره حتى يتسل الرجل من تحت الغطاء ليختفى خلف الخزانة فتجرى لعبة الدوران حول الخزانة بينهما فى مطاردة هزلية . مثل هذه التأثيرات الهزلية لا تنتهى من المسرحية حين يسحب المقعد من تحت حنظلة فيسقط ، أو حين تسود النبرة الساخرة فى تشخيص الطبيب النفسى الاعلامى للأمراض وعلاجها فيهوى بالمطرقة على ركبة حنظلة التى تندفع فى الهواء لتصيب قدمه الطبيب الذى يتكىء على المرضة ويحتضنها ليسقط الاثنان معا على الأرض . وهى نبرة نلمحها أيضا فى ملامح ممثلى السلطة المضخمة بشكل كاريكاتيرى . لقد تجاوزنا هنا الجو الكابوسى الذى يشيع فى « بائع الدبس » إلى جو كوميدى ساخر يضحك من غفلتنا حتى نفيق مع حنظلة على الدرس الذى استوعبه ووعاه .

غير أن الكوميديا ليست هنا من أجل ذاتها ، ولا النهاية السعيدة نهاية مسرحية كوميدية بحتة . إنها أيضا النهاية التحريضية التى تدعو إلى التغير من أجل إحداث التغيير . وهى الرسالة التى تحملها رحلة حنظلة . وهى الرسالة التى يصر الحكواتى هنا على ترقيمها وتأكيد مراحلها حتى لا يفوت المغزى السياسى عن المشاهدين .

إن المسرحية خطوة جديدة فى رحلة سعد الله ونوس الفنية من الأشكال الذهنية التجريدية الوجودية والعبثية ، مرورا بالمسرح التسجيلى والملحمى ، إلى المسرح الشعبى العربى الذي يستغل الشخصيات والحكايات الشعبية ، ويتوسل بكل أساليب الحكواتى الشعبى التى تجمع بين الرواية والتمثيل ، والتى تضم الراوى والشخصيات والجمهور فى اطار واحد ، والتى تسهم فى بلورة الوعى الشعبى وتوجيهه . وبهذه المسرحية يبلور سعد الله ونوس ملامح لم تغب عن مسرحه ، لكنه يضيف بها بعدا آخر يسهم فى بلورة مسرح له وجه عربى وهوية عربية متميزة .

أمين العيوطى



أخطاء لغوية معاصرة

بقلم: الدكتور عبد الله العبّادي
جامعة قطر

بنـاء على :

يقول البعض «بناء على الأوامر الصادرة من السيد السيد فلان .. فإنه يمنع كذا وكذا» أو يقولون «بناء على القانون رقم (...) فانه يحق له كذا وكذا..» فيضمون الباء في أوله . وهذا هو من الخطأ في اللفظ والصواب «بناء» بكسر الباء ، لأن كلمة «بناء» مصدر من بنى يبنى ، وهو موضوع في الأصل لبناء الدور التي تبنى من اللبن والطين والآجر ، حيث إن البناء يدل على الثبوت واللزوم لمكان واحد ، وذلك يدل على القوة والمتانة والقاعدة الراسخة ، ثم أستعيرت هذه الكلمة إلى شيء آخر يشبه البنيان في الثبوت واللزوم والقوة ، وعدم التغيير ، فقالوا : بناء على كذا .. فإنه كذا .. وأصله «أبنى بناء على كذا» فبناء مفعول مطلق لفعل مطلق محذوف».

والمفعول المطلق كما هو معلوم منصوب دائما ، وأكثر ما يكون مصدراً كما في المثال السابق ، كما استعيرت هذه الكلمة للكلمات المبنية في النحو ، وهي ضد المعربة ، فالبناء هو لزوم آخر الكلمة ضربا واحداً لا تتغير الكلمة تشبيها لها بالبيان الذي لزم مكانه ، وثبت ، فلم يتحرك .

كما قالوا : بنى على أهله إذا دخل بها ليلة العرس ، وأصله أن الرجل كان إذا تزوج بنى للعرس خباء جديدا ، أو بنى له تكريما له ، ثم كثر استعمال ذلك فكنى به عن الجماع ليلة العرس ، أما قولهم بنى بأهله بالباء ، فليس فصيحا وانما هو قول العوام . هكذا قال بعض أهل اللغة .

وقد أستعيرت الكلمة كذلك للشرف ، والمجد ، قال لبيد :

فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه
فسما اليه كهلها وغلامها

وقد جاءت الباء مضمومة في قولك «البُنْيَة» (بضم الباء) (وبكسرها) قال الشاعر :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى
وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا سدوا

يروى بضم الباء وبكسرها ، وجاءت كذلك مضمومة في قولك «البُنيان» قال تعالى (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوف) الصف آية ٤ وفي الحديث «المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا» .

وخلاصة القول إن «بناء» مصدر والمصدر في هذا الفعل (بنى) لم يسمع الا بكسر الباء . وقد قال تعالى (الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) البقرة آية ٢٢ .

وقال (الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء) غافر آية ٦٤ .

كلا وكلتا :

ويقولون «كلا الفدائيين قد نفذا الخطة بنجاح» «وكلتا الفدائيتين جرحتا» .

والمختار أن يقال «كلا الفدائيين قد نفذ خطته بنجاح» ، «وكلتا الفدائيتين جرحت» وهو الكثير ، ذلك ان لفظ «كلا» و «كلتا» مفردان في ذاتهما ، وقد وضعا لتأكيد المثنى اثنين واثنتين ، لا أنهما مثنى ، والدليل على ذلك قوله تعالى (كلتا الجنتين آتت أكلها) الكهف آية ٣٧ .

وقال الشاعر :

كلانا غني عن أخيه حياته
ونحن إذا متنا أشد تغانيا

فقال «غني» ولم يقل «غنيان» .

فإذا ورد غير ذلك ، فإنه يحمل على المعنى ، أو لضرورة الشعر ، وقد اجتمعا في قوله :

كلاهما حين جد الجرى بينهما
قد اقلعا وكلا انفيهما رابي

فقال في الاولى «قد اقلعا» نظرا للمعنى . وقال في الثانية «انفيهما رابي» نظرا للفظ .

وقد سئل ابن هشام الانصاري : ما رأيك في قول القائل :

زيد وعمرو كلاهما قائم . أو كلاهما قائمان أيهما الصواب ؟

فقال : ان قدر «كلاهما» توكيداً قيل «قائمان» (أي نظرا للمعنى) لأنه خبر لزيد وعمرو (فالخبر لابد أن يطابق المبتدأ في التثنية) وأن قدر كلاهما مبتدأ وقائم خبر جاز الوجهان ، والمختار الافراد انتهى .

فنظرا للمعنى نقول «كلاهما قائمان» ونظرا للفظ نقول «كلاهما قائم» وحينئذ الجملة من المبتدأ والخبر الثانية في محل رفع خبر للمبتدأ الاول ، ومثل ذلك «ان عليا ومحمداً كليهما نجحا» لأن كليهما توكيد لعلى ومحمد . فالمقصود هنا المعنى وليس اللفظ . فإذا قيل «ان عليا ومحمداً كلاهما ..» جاز الوجهان في نجح ، فتقول نجحا اعتبارا للمعنى ، وتقول نجح اعتباراً للفظ . ولكن يتعين مراعاة اللفظ في قولك «كلاهما محب لصاحبه» لأن المعنى كل منهما محب لصاحبه ، ومثل ذلك قول القائل :

كلانا غني عن أخيه حياته
ونحن إذا متنا أشد تغانيا

اى الكل منا غني عن أخيه .

ومن الخطأ كذلك أن يقال «تصافح الرجلان كلاهما» ، «وتعانقت المرأتان كلتاهما» ذلك أن «كلا» و «كلتا» وضعا لتوكيد المثنى ، واثبات الحكم للاثنين معا ، ومعلوم أن المصافحة ، وكذلك المعانقة لا تكون إلا بين اثنين فإذا قلت تصافح الرجلان ، وتعانقت المرأتان فلا حاجة بنا بعد ذلك إلى توكيد ، لأن السامع لا يغيب عن ذهنه أن المصافحة ، والمعانقة لا تأتى من شخص واحد وانما تأتى من اثنين معا ، فاثبات المصافحة للرجلين ، واثبات المعانقة للمرأتين حاصل دون توكيد .

أضــواء على قضيــة عصريــة:

الانســان الآلي ومستقبل البشرية



بقلم: محمود محمود

ما فتىء الانسان منذ فجر التاريخ يحاول أن يخترع الآلات التى تقوم له بالعمل الذى تتطلبه حياته ، فتوفر له جهده العضلى الذى يبذله فى نشاط آخر أحب الى نفسه ، ويؤدى له العمل الشاق الذى يعجز عن أدائه بيديه ، كالفأس يفلح بها الأرض والمغزل يفتل به خيوط الثوب الذى يرتديه . ولبث الأمر كذلك حتى جاءت الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر الميلادى . فكاد الانسان أن يعتمد على الآلة فى كل ما يصنع .

وبقى الفكر وظيفته وحده لا تستطيع آلة من الآلات أن تقوم به . ولكن الانسان لم يفتر ولم يقف عند هذا الحد ، وظل يقدح الذهن ليصنع الآلة التى تفكر له ، فاخترع الحاسبات الالكترونية التى أغنته عن كثير من العمليات الحسابية بالعقل البشرى . وقد تطورت هذه الحاسبات حتى أمست عقولاً آلية تفكر فى شتى مجالات المعرفة . ولكنها مابرحت تعمل بتوجيه من الانسان .

وأخيرا استطاع الباحثون والعلماء أن يصمموا إنسانا آليا يفكر ويعمل فى آن واحد ، وأطلقوا عليه اسم (الروبوت) . وقد أخذ هذا الروبوت يحتل مكانة ملحوظة فى البيئة الاجتماعية وفى مختلف مجالات الصناعة وبخاصة فى اليابان . ونستطيع أن نقول إننا اليوم فى مستهل عصر جديد من التاريخ يعرف بعصر الانسان الآلى ، ولئن كانت هذه الاشخاص الآلية تعد الآن بالآلاف الا أننا نتوقع سرعة انتشارها حتى يصبح إحصاؤها بالملايين يستخدمها الانسان فى كل قطر من أقطار الأرض ، ولابد لنا منذ هذه اللحظة أن نفكر فيما يترتب على ذلك من آثار .

المرحلة الحالية

إن هذا الانسان الآلى ــ فى مرحلته الحالية ــ لا يعدو أن يكون رافعة يتحكم فيها الكمبيوتر وتقوم بعمل معين محدد تكرره بغير قدرة على التصرف . فهو انسان لا يبصر ولا ينطق بالكلام ولا يفكر كما يفكر الناس بالأذهان . والظاهر أن أمام المشتغلين بتطويره عدة سنوات قبل أن يستطيعوا أن يجعلوا منه آلة يمكن أن تحل محل الانسان بكل قدراته .

وتنحصر أهمية الروبوت فى الوقت الحاضر فى أن بوسعه أن يقوم بالاعمال الخطرة على حياة الانسان التى يؤثر أن يتحاشاها ، ويكلها إلى غيره ، كالعمل فى الفضاء وفى المناجم وفى المتفجرات وأعماق المحيطات وأمام المشعات وفى المواد الكيماوية السامة ودرجات الحرارة العالية ، وتحت الضغوط الجوية التى لا يحتملها الانسان ، وغير ذلك من مكامن الخطر على الحياة .

كما أنه ــ فوق ذلك ــ يستطيع أن يؤدى أعمالا قد لا تكون فيها خطورة مادية ولكنها تبعث بتكرارها على السأم مما لا يطيقه الانسان بطبيعته . ذلك أن الانسان الآلى لا يتطرق اليه الملل ، بل ويتقن أمثال هذه الاعمال بدرجة لا يرقى اليها الانسان العادى .

وإذا ما أمكن للانسان البشرى أن يلقى عن كاهله عبء هذه الاعمال إستطاع أن يوجه نشاطه الذهنى الى الابتكار والابداع .

غير أن « إسحق ازيموف » العالم الامريكى الباحث فى هذه الامور ينبهنا الى أننا اذ نستبشر بهذه النتيجة التى تنجم عن استخدام الانسان الآلى فى مثل هذه الامور ينبغى لنا ألا ننسى أن ذلك قد يؤدى الى البطالة بين الناس وازدياد الايدى البشرية التى لا تجد لها عملا تؤديه . إن العمل قد يكون كريها فى حد ذاته الا أنه ــ مهما يكن من أمر ــ وسيلة لكسب العيش فى كثير من الاحيان ومدعاة لاحترام صاحبه .

وعلينا أن نذكر أن التقدم التكنولوجى قد سار شوطا بعيدا قبل ابتداع هذا الانسان الآلى . واستطاع الانسان دائما أن يخلق مجالات جديدة للعمل يشغل بها الأيدى التى أبطلت عملها التكنولوجيا المتقدمة .

فلئن كانت السيارة ــ مثلا ــ قد عطلت الأعمال التى تتعلق بالعربات التى يجرها الخيل ، كصنع العلف والسياط والجلود وما اليها فقد أوجدت أعمالا ميكانيكية وكهربائية لم تكن معروفة من قبل . وأدت الى تطوير صناعة المطاط لاستخدامه فى العجلات ، والى العناية برصف الطرق لسهولة إنزلاق السيارات فوقها .

ثم إن صنع الروبوت سوف يستدعى استخدام مختصين فى تصميمه ووضع برامج العمل له ، وصيانته ، وتحوير المصانع الحالية بحيث تصلح لقيام هذا الانسان الآلى الجديد بالعمل فيها .

هذه المهنة الجديدة

ولسنا ننكر أنه قد تمر فترة طويلة بين إختفاء مهنة من المهن وظهور غيرها . وربما نشأت هذه

المهنة الجديدة فى أرض غير الأرض التى اختفت فيها مهنة أخرى فيختل ميزان العمالة . كما أن هذه المهنة الجديدة تتطلب وقتا طويلا قبل أن يتدرب عليها الصانع ، ويصل بها الى حد الاتقان ، وربما كان ذلك سببا فى تعطله عن العمل المنتج لفترة طويلة من الزمان .

والواقع أن العمال الذين يحل محلهم الاشخاص الآليون لن يصلحوا للوظائف الجديدة التى سوف تنشأ ، ذلك لأن الاعمال التى يتولاها الانسان الآلى هى الاعمال المتكررة الرتيبة التى لا تتطلب فكرا ولا إبداعا في حين أن الاعمال الجديدة التى سوف نكلها الى الانسان تتطلب قدرا من المعرفة المتخصصة وشيئا من التفكير (وربما كان ذلك لزمن محدود حتى نستطيع أن نخلق الانسان الآلى الذى يستطيع أن يفكر) .

ولقد مر الانسان بوضع كهذا عندما اندلعت الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر ، ولكن الاضطراب كان محدودا اذا قيس إلى مانتوقع حدوثه مع انتشار الثورة الروبوتية نظرا للتقدم التكنولوجى بدرجة مذهلة خلال القرن العشرين ، وسرعة الاتصال بين أجزاء العالم . ومن ثم وجبت علينا المبادرة السريعة بالنظر فيما نتخذ من تدابير عند ذيوع استخدام الانسان الآلى . حفاظا على استقرار المجتمع فى فترة انتقاله من الاعتماد على الانسان الطبيعى الى الاعتماد على الانسان الآلى .

وقد قلنا إن أعمالا ابتكارية جديدة لابد أن تنشأ . فعلينا أن نبحث فى طبيعتها وصنوفها فندخلها فى برامج الدراسة فى المعاهد ومناهج إعادة تدريب العمال . وعلى الحكومات والمؤسسات أن تتضافر فى هذا السبيل حتى لا تكون المفاجأة وإصابة الكيان الاجتماعي بالخلل .

يجب أن تهيىء الطالب والعامل للتجاوب مع عالم الكمبيوتر والروبوت . وأن نشجع بين صفوف الدارسين والعاملين القدرة على الابتكار بحيث نجعل منهم أفرادا مبدعين لا مجرد أشخاص مقلدين .

وقد يبدو هذا أمرا عسيرا لأن أكثر الناس آليون مقلدون بطبيعتهم ، والمبدعون منهم قلائل . غير أننى أرى أن هذه هى نظرة المتشائم . فلقد مرت حقبة من التاريخ ندر فيها من كان يعرف القراءة والكتابة ، وساد فيها الظن بأن هذه القلة فقط هى التى لديها الموهبة لكى تتعلم . أما الكثرة الكاثرة من الناس فتفتقر الى القدرة على التعلم : ولم تخلق الا لكى تؤدى العمل العضلى الذى يستطيعه الحيوان . فلما استدعت حركة التصنيع فى القرن التاسع عشر معرفة القراءة والكتابة أنشئت المدارس المجانية لمحو الامية . وتبين أن القدرة على التعلم هى من فطرة الانسان .

مكمن الخطورة

وبهذا المؤشر التاريخى نستطيع أن نجزم دون أن نجاوز الصواب أننا عندما نبلغ المرحلة التى نكل فيها الى الكمبيوتر والروبوت الأعمال الآلية المملة ، فسوف نجد أن أكثر الناس لديها القدرة الخلاقة وموهبة الابداع .

ليست البطالة اذن من الأمور التى يستعصى على الانسان التغلب عليها . انما مكمن الخطر فى الروبوت ـ كما يرى بعض الباحثين ـ ينحصر فى أننا قد نشتط فى استخدامه : فنجعل منه انسانا محاربا ، وعندئذ يسهل الاقتتال بين الناس ويقضى الانسان على أخيه الانسان ، وذلك بالاضافة الى أن أسلحة الحرب تمسى قطعا أشد فتكا بنا ، اذا نحن وجهناها وأدرناها بالكمبيوتر .

وقد أثبت التاريخ قول الشاعر العربى :

كلما أنبت الزمان قناة
ركب المرء فى القناة سنانا

لأن الانسان يميل بطبعه الى الشر ، والنفس أمارة بالسوء : وما أكثر المخترعات التى يستخدمها الانسان فى الدمار ، وكان من الممكن أن يجعل منها طاقة إنتاجية كبرى ، فهذه الذرة يمكن أن نستخدمها فى علاج المرضى ويمكن أن نصنع منها قنبلة نقذفها على المدن الآهلة بسكانها فندمرها تدميرا .

وبنظرة المتفائل الى الروبوت نقول إننا بالذرة وبدون استخدام الانسان الآلى نستطيع أن نحطم الحضارة بين يوم وليلة . ولن يعصمنا من خطر الدمار بأية وسيلة من الوسائل الفتاكة التى يصنعها بيديه الانسان الا إعادة النظر فى تربية الأجيال الجديدة بحيث ننشئها على الميل الى التعمير والفزع من التدمير .

وأما الخطر الحق من الروبوت والكمبيوتر على حد سواء فهو التطور المستمر الذى يلحق بهما ، فيجعلهما أقدر وأدق من الانسان . وسوف تكون للروبوت أيد ماهرة وحواس مرهفة ومتنوعة . وقد يصبح أنفذ بصرا وبصيرة من الانسان ، فنعهد اليه بأداء الأعمال التى تتطلب قدرة على الابتكار . فلا يتبقى للانسان بعدئذ ما يعمل ، ويضطر اضطرارا الى التقاعد والضجر بحياته ، لا يجد مايتحداه حتى يجعل لحياته مغزى . أفلا يجوز بعد هذا أن يتحول الانسان الى مخلوق لا رجاء فيه والأجدر به أن يبيد ويفنى ؟

ولكنى أرى هذه الصورة من الخيال المتشائم . فالانسان كان وسوف يبقى أنبل مخلوقات الله فوق الأرض بما وضع الله فيه من مزايا جعلته على صورته و « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » كما جاء فى الذكر الحكيم ، وسوف يبقى دائما سيد الكائنات يستخدمها لمنفعته . ولن يشذ الروبوت أو الكمبيوتر عما أراده الله للانسان . ولن يعلو الروبوت شأنا على صانعه الانسان الذى خصه الله بذهن شديد التعقيد لم نستطع حتى اليوم أن نفسر كيف يعمل . وبهذا الذهن العجيب يفكر الانسان ويتصور ويتخيل ولا يفتر عن الابداع والتجديد .

ما الذى حدا بالانسان الى اختراع الكمبيوتر ؟ إن العقل البشرى ضعيف بطبيعته فى الحساب بغير معينات من خارجه . وقد استعان الانسان منذ البداية بالعد على أصابع اليدين . ثم أخذ يعد بالحصى والنوى ، وبعد ذلك استعان بالقلم والقرطاس ، ثم اخترع الأرقام بأوضاعها المختلفة واللوغاريتمات والمساطر الحاسبة ، والكمبيوتر (أو الحاسب الالكترونى) فى آخر الأمر . ولا تدهشنا هذه الآلة المستحدثة بقدرتها على حل المسائل التى تستعصى على ذهن الانسان بمقدار ما تدهشنا بسرعتها الفائقة وتنزهها عن الاخطاء .

وعلينا أن ندرك أن مهمة العقل البشرى ليست معالجة الأرقام بمجرد الاذهان ، انما مهمته الابداع والادراك الدينى والفكر الفلسفى ، ونفاذ البصيرة ، والخيال وتصور المستقبل ، والاحساس بالجمال والاستمتاع بالنعم ومختلف الفنون : من تصوير وشعر وموسيقا وما اليها ، والاستنباط والاستدلال بالمنطق والحكم السديد .

ويتساءل المتشككون : وهلا يمكن أن نضع فى المستقبل للروبوت البرامج التى تمكنه من كل ذلك ؟ لسنا نرى الأمر هنا هينا لاننا لا نعلم بداية كيف يؤديها عقل الانسان فنستطيع بالتالى أن ننقل للروبوت القدرة على أدائها أو تذوقها .

قدرة الانسان

تدبر معى قدرة الانسان على أن يقرأ الكلمة مطبوعة بأشكال مختلفة أو مكتوبة بخطوط يدوية متنوعة بتنوع الأفراد واختلاف فنون الخط من رقعة الى نسخ أو ثلث أو فارسى ، وهو ما لا يستطيعه الكمبيوتر حتى الآن لأنه لا يتعامل الا بصورة خطية واحدة .

تدبر معى أيها القارىء قدرة الانسان على تمييز الصوت مهما تعددت نغماته ، أو اختلف قليلا بتسجيله أو انتقل على أسلاك التلفون .

فكر معى فى قدرة الانسان على الكتابة الأدبية نثرا وشعرا .

انها عبقرية الانسان التى لا يعرف من أين مأتاها حتى يعلمها آلة صماء !

شاهد لاعب الكرة وهو يسددها بقدمه فى المرمى فيصيب الهدف ، وهو بطريقة لاشعورية يقدر الابعاد ومقاومة الهواء واتجاه الريح فى لحظة ، ويستحيل عليه هو نفسه أن يعرف كيف تسنى له ذلك . ولكنها عبقرية الانسان التى يعجز عنها الكمبيوتر أو الروبوت فى أى شكل كان .

وقد نستطيع أن نرفع من كفاءة الروبوت وقدراته ، ولكنا كذلك نستطيع بتقنيات جديدة للهندسة الوراثية أن نضاعف من قدرات العقل البشرى وامكاناته الخلاقة .

إن ما نتوقعه أن يواصل كل من الانسان الطبيعى والانسان الآلى تقدمه فيسيران فى خطين متوازيين يسبق فيهما الخالق مخلوقه فى كل حين . وينعقد بينهما حلف تعاونى لا خصومة فيه ولا منافسة .

أقسم أن أقول الحقيقة

الإفـــــــــــــادة الأولى:

في الفكـرة الفلسطينيَّـة الثـابتـة

بقلم: يوســـف الخطيب

(١)

سأعترف أولاً أمام جميع القضاة والجلادين معاً ، بتهمة اعتقادي الراسخ بأنه ليست هنالك قضية عربية قائمة في العصر الذي نعيش فيه ، أحق بالاهتمام القومي كله ، وبالتكريس القومي كله ، من قضية تحرير فلسطين !! ..

وإني لموقن سلفاً بأن مثل هذا الاعتقاد ــ الذي لا أختص به وحدي في حيز الخندق الفلسطيني الضيق المعزول ، وإنما ينزل من غالبية شعبنا العربي الساحقة بمنزلة اليقين ــ ستقابله تلك الطائفة المازوكية ذاتها من بعض الكتاب والمفكرين العرب بالاستنكار ، والأسف ، والإعراض ، لأن ثمة قضايا أخرى ، كثيرة ، وصغيرة ، قد اختلستهم حتى من تحت جلودهم ، وضيعتهم في متاهات القلق والتمزق والغيبوبة ، من أجل أن يكتسبوا من خلالها هوية الكاتب العالمي ، أو الأديب الإنساني الذي يتعدى نطاق الجاذبية القومية إلى مدارات الشهرة العالمية ، رغم كل ما قد تمخض عن ذلك ، عملياً ، من وحامات عربية مستعصية ــ على جائزة نوبل مثلاً ــ ولكن دون ما أي حَبَل أو إنجاب ..

أما وأن لي شخصيا هويتي الخاصة ، التنبيهية ، التحذيرية ، الصادرة عن مؤسسة اللاجئين كما تعلمون ، فليس ثمة ما يغريني بأن أحمل هوية غيرها ، لأنني لا أظن أن هناك ما هو أكثر إنسانية من أن تظل أنت ، أنت ، الإنسان الذي يحاول الحرية ، ويحلم بالانعتاق ، رغم أنك موثوق بأصفاد الفولاذ إلى جلاميد الجبال ، تنهش الجوارح من صدرك ، وتنقر في حبتي عينيك !! ..

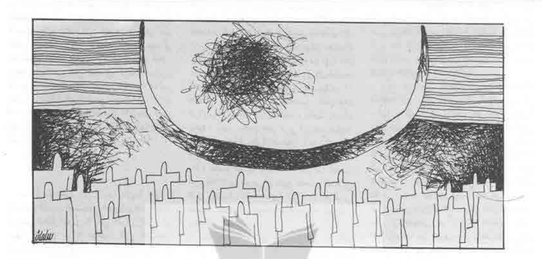
أسجل أيضاً ، أيها السادة ، أنني أتحمل عاقبة القول : بأن القضية الفلسطينية هي التسمية الأخرى ، الأعمق دلالة ، والأشد إيجازا ، للقضية العربية برمتها من جميع وجوهها القومية والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، بقدر ما أعتقد أيضاً بأن الوحدة ، والتحرر ، والعدالة الاجتماعية بجوهرها العربي الاسلامي الأرقى على الإطلاق ، ما هي إلا المردة الثلاثة المخمورة منذ مئات السنين في أدخنة عصور الانحطاط المتعاقبة ، ثم المحبوسة مؤخراً في قمقم القضية الفلسطينية منذ قرابة قرن من الزمان ، وأنه دون أن نفك الطلسم العصي ، أولاً ، عن فوهة هذا القمقم ، فإن كل سعينا وراء أمانينا العظيمة أقرب إلى نشدان الماء في مخاتلة سراب الصحراء !! ..

إن هذا هو اعتقادى الحر الذى وعيته بالتجربة الحية ، ولم أتلقنه ، لا عن عالم ، ولا عن كتاب ..

ولأننى أصر دائماً على أن الكاتب العربى المنسلخ عن القضية الفلسطينية ، إنما هو منسلخ عن كونه إنساناً قبل كل شيء .. ولأننى أود ، لو استطعت ، أن أطوف بأوراق هذه القضية ، ومستنداتها ، وثبوتيات حقى الضائع فيها ، من بيت إلى بيت على متسع وطننا الكبير .. فلكل ذلك أجدني الآن مسوقاً أمام قوس عدالتكم بتهمة الإصابة بمرض « الفكرة الفلسطينية الثابتة » ، ومدّعىً عليّ بأنني قد أصبحت محموماً بهذه الفكرة إلى حد الهذيان والاخلال برصانة النظام العام !! ..

حتى لقد رجمني بعض فرسان الكلمة الوهميين ، من على متون جيادهم الخشبية ، بأنه ليس من حق أحد أن يفرض ظل هذه القضية الثقيل على الكاتب العربي !! .. وبأن قضية الكاتب العربي في صيغتها « العصرية والحضارية معا » يجب ألا تنحدر إلى ذلك المستوى المشين من العاطفية والتبسيط ، بحيث تنقلب إلى قضية وطن مضاع ، ويجب أن يستعاد !! .. وبأن على هذا الكاتب ، قبل أن يقترب من الهم الفلسطيني « الخاص بأصحابه ، وفي حدود ترابه » ، أن يضع في المحل الأول من اهتمامه ، شؤون المحافظة ، أو المديرية ، أو ربما الضيعة التي شهدت مسقط رأسه !! .. وبأن المفهوم القومى لشؤون الوطن العربي ــ بمعنى أن يتحمل القطر منه أعباء الأقطار الأخرى ــ هو مفهوم « خاطيء » ، و« نيء » ، وخيالي ، وينتمى بأصحابه إلى عقلية ما قبل الخامس من حزيران !! ..

فلهذا ، أيها السادة ، جئت أتلو الشهادة عليكم من أولها .. إما لأننى مريض حقاً بعضال « الفكرة الفلسطينية الثابتة » ، فلا أجد ما أتحدث فيه غيرها .. وإما لأنكم لم تستمعوا إلى من قبل ، أو لعلكم لا وجود لكم أساساً في دنيا الحقيقة ، وإنما



أصوركم هكذا في خيالي المحموم . قضاة . وكهنة . وجلادين . من أجل أن أسوق أمامكم هذه الشهادة اليتيمة التي ظللت أسوقها . عبثاً في عبث . على امتداد ما يقرب من أربعة عقود !!..

فعلى أي من الحالين . لن أمل أبداً من تكرار هذه الشهادة ذاتها . سواء وقعت منكم في الآذان . أو في فراغ الجدران . فإنها قدري . وقسمتي ودين الوطن في عنقي .. ومادام في الوسع أن ألفظ آخر كلمتين في العمر ــ أن ألفظ النفس الأخير ــ فإنهما .. عروبة فلسطين .. عروبة فلسطين .. عروبة فلسطين ..

وإلى هنا ننتهي .. لكي نبدأ من جديد ..

(٢)

يوم أن خرج إنساننا العربي الفلسطيني من وطنه الصغير عام ١٩٤٨ . فقد استقبلتم . أيها السادة . جماعاته وأفراده كطوائف غجرية ضالة على الآفاق : قيل عنها يومئذ إنها ضيعت وطنها . أو باعته . أو على الأقل لم تحسن الدفاع عنه في مواجهة غزاته الصهيونيين . مع أن الأمانة مع الموضوع تستلزم أن نسجل منذ البدء أن قطاعاً لا يستهان به في الوسط الثقافي العربي الذي كان يملك آنذاك أن يصنع الرأي العام الشعبي في صدد القضية الفلسطينية : لم يكن على جهل مخجل بعموميات القضية وحسب . وإنه كان أيضا لا يستدل إلا بمشقة بالغة على موقع دير ياسين . أو قبية . أو كفر قاسم . من خارطة فلسطين .. بل اسمحوا لي هنا أن أستشهد بين أيدي حضراتكم بما قد خاطبني به . مرة . كبير كهنة الفكر اليساري ــ في متاهة عقلنا العربي المعاصر ــ الدكتور الذائع الصيت ل . ع . (من حيث لن أذكر الأعلام من مثل هذا الوزن الجهنمي بأسمائهم الصريحة . التزاماً بضوابط أصول المحاكمات المرعية الإجراء حتى يوم الناس هذا) وهو الذي سعيت إليه في مكتبه ذات يوم من عام ١٩٦٩ . أستنصر رأس قلمه بكلمة حق في ملف هذه القضية الشائكة بعد استنكافه الطويل عنها . (أي بعد إحدى وعشرين سنة من تاريخ وقوع الجريمة . وبعد سنتين بثقل القرنين من كارثة حزيران الأسود) . فما كان منه إلا أن ألبسني ثوب الإدانة الكاملة بجريرة أنني أنا الذي هربت من « إسرائيل !! » عام ١٩٤٨ ..

بكلمة أخرى ، أيها السادة فإن كل ما قد سعى إليه ذلكم اللاجئ الفلسطيني هو أن يصحح بعض معلوماتكم العامة عنه . وعن قضيته . منذ يوم خروجه الأول ، وأن يقول لكم بملء الصدق ، والصراحة . ومسؤولية الأخ إزاء أخيه : إننا لم نبع بلادنا للعدو على حد ما تتهمنا بذلك عيونكم المتقدة بشرار الرثاء والازدراء ، وإن كل ما قد بيع منها لم يزد عن ثلاثة في المئة من أصل مساحتها العامة . وإن ثلاثة أرباع هذا الذي بيع فعلاً قد بيع عن غير أيدينا نحن ، وضمن صفقات مرزولة أبرمت مع « الوكالة اليهودية » من هذه العاصمة العربية . أو تلك خارج حدود فلسطين .. وهنا أيضاً أستأذن حضراتكم ــ في إفادة الجلسة القادمة ــ أن أتحدث إليكم في هذا المقام . بلغة الحقائق والأرقام !! ..

ثم إننا لم نهرب من بلادنا هلعاً وجبناً عند أول رصاصة أطلقتها آلة الحرب الصليبية المعاصرة الموظفة في أيدي الصهيونيين ، وإنما نتيجة لأفظع ما يمكن أن تعيه ذاكرة الإنسان من صنوف الإبادة والتنكيل .. فلئن كان مبرراً للجيش النظامي . سادتي . بكل ما يمتلكه من أعتدة وفيرة . وسلاح ثقيل . أن يتقهقر أمام العدو إلى خط دفاعي ثانٍ . أو ثالث ، (ولنقل كما حدث في « دنكرك » مثلاً . لأننا لا نود أن نضع أصابعنا على بعض جراحنا العربية الطرية بعد) ، فإن ما هو أقرب إلى التفسير ، أو حتى التبرير أيضاً . أن يفعل مثل ذلك المدنيون العزل من بعد أن غسلت دماؤهم ربوع فلسطين ، خاصة أنهم كانوا قد طرقوا طويلاً على أبواب أشقائهم في طلب السلاح . لا في طلب الرجال . فكانوا . في بعض الأمثلة الصارخة . يُدعُّون دعّ الأيتام عن مآدب اللئام !! ..

لقد سبق أن قلنا لكم ذلك في تبرير خروجنا الأول ــ أو على الأقل في تفسيره ــ منذ أربعة عقود ، وطيلة أربعة عقود !! .. ورغم ذلك يبدو أن من واجبنا الآن أن نعيد على أسماعكم كل الذي سبق أن قلناه . من بدئه حتى ختامه . لأنه قد

أقسم أن أقول الحقيقة

ظهرت أخيراً على مسرح الفكر والأدب العربيين هيئة القضاة الجدد التي ترغب في أن تحاكم الأمور من جديد .. إن هذه الهيئة الفاضلة ، الكئيبة ، المتقطبة الجبين ، تعتقد أن ثمة أخطاء فادحة في الأصول والإجراءات التي اتبعت في نظر هذه القضية سالفاً ، وهي الأخطاء التي لا تود أن تصححها أبداً ، ولكنها تود أن تدينها فقط ، بدعوى أنها هي التي أدت إلى فاجعة حزيران الأسود .. إذ لو كان الفلسطينيون قد مدوا أعناقهم بصورة مرضية لسكين التقسيم عام ١٩٤٧ ، لما كان قد تردى الوضع القومي العام إلى حضيض ما هو عليه الآن !! .. أو ليست هذه القناعة الهازلة هي آخر ما استجد على مسرح عرائس المأساة ؟! ..

(٣)

منذ أربعة عقود إذن ، وطيلة أربعة عقود ، أراد ذلكم الإنسان الفلسطيني الشريد ـ الذي اضطر أن يخلي المخفر العربي الأمامي عنوة ورغماً ـ أن ينبهكم إلى أن موجة الطاعون التي اكتسحت الساحل الفلسطيني في اندفاعتها الأولى ، لن تقتصر عليه وحده ، وإنما ستنداح وتنتشر ، عاجلاً أو آجلاً ، عبر سماء الوطن كله ، حتى لتتسرب إليكم من خلال نوافذكم المغلقة ، وتطالكم داخل بروجكم الدفاعية المشيدة ، يوم لا ينفع نصح ، ولا يجدي إنذار !! ..

لقد أراد ذلكم الإنسان أن يُشَبِّهَ إليكم الوجود الصهيوني / الصليبي فوق تراب فلسطين بمستعمرة السرطان الصغيرة التي تتوضع في هذا العضو أو ذلك من الجسد البشرى ، لتأتي عليه كله من بعد .. وإنما يلجأ المرء عادة إلى مثل هذه التشبيهات الساذجة عندما يخالجه الريب في أن بعض الآخرين قد يستهزئون من حساباته وتحسباته ، فيريد بالتشبيه ، أن يكون اكثر وضوحاً ، وأن يضع الأمور في صورة مادية ميسرة على الحواس الخمس .. ما دامت الحاسة السادسة هاجعة تغط في سباتها العميق !! ..

لذلك أيها الأخوة ـ عفواً ـ السادة ـ خرج إنسانكم الفلسطيني من أوتاد خيامه أربعة عقود في العراء ، وإنما لينذر قبائل العروبة كلها بأن تلك المستعمرة السرطانية ، الموضعية ، سرعان ما ستتمدد في رقعة « الوعد التوراتي » من النيل إلى الفرات ، وهي عندما تفعل ذلك في قلب الوطن ، فإنها ستكون ، عملياً قد بسطت جناح هيمنتها على مصير الوطن كله من المحيط إلى الخليج .. وإذا ما عقدت الأمة عزمها على إرادة الوجود ، حقاً ، فإن أول ما يتحتم عليها أن تنهض به ـ قبل أي عبء قطري آخر ـ هو أن تستعد على وجه

اجل استفزاز كل خلية مترنحة في جسد الأمة ، في السرعة ، والدقة ، لإنجاز خطوتها الأولى على طريق الألف ميل ، باتجاه استئصال ذلك الورم الخبيث بعملية جراحية ناجعة ، ناجحة ، خاصة أن الداء كان مايزال في أضعف حالته في ذلك الزمن المبكر من عام ١٩٤٨ ، وكان يمكن استئصاله في كل يوم انقضى ، بأسهل ألف مرة من أن يتحقق ذلك في أي يوم « سوف » يجيء .. وفي كل قواميس العربية أن « سوف » هي جذر « التسويف » !! فالخطر ليس موضعياً ، والتغاضي عنه بدفن الرؤوس في الرمال لن يستأنيه ، ناهيك عن أن يلغيه ، وليس يجدي قطر عربي أن يضع شؤونه المحلية وحدها في دائرة اهتمامه ، لأنه شأن غيره من سائر أقطار العروبة الأخرى ، يقع وإياها في دائرة اهتمام معادية واحدة .. ولعل من أعجب أمور هذا الزمن العربي أن يكون التحدي العدواني الذي يستهدف الأمة العربية كلها ، ذا بعد قومي شامل ، بينما تظل استجابات الأمة إزاءه قطرية ، مبعثرة ، متنافرة !! ..

قمة الفاجعة ، أيها السادة ، هي أن ذلكم النذير الفلسطيني الذي ظن أنه سيجمع شمل القبائل العربية كلها حول ذي قار فلسطين ، قد فوجيء في الحقيقة بحالة إحباط في الأمة .. لا هي من « البداوة » إلى درجة النخوة العمياء دون برهان ، ولا هي من « الحضارة » إلى درجة الوعي ، والادراك ، واستطلاع صورة المستقبل في مرآة الحاضر الماثلة للعيان .. وإنما هي حالة من يبحث عن نفسه ، خارج نفسه ، في ملامح الآخرين ، من أقصى نقيض اليسار ، إلى أقصى اليمين !! ..

لذلك ، فإن انذار النكبة الأولى لم يستتبع أية استجابة عربية من مستواه .. ولئن لم تخننا الذاكرة بعد ، فقد استقبلتم ذلك النذير ، منذ أول أيام اندحاره القسري ، بعزله عنكم ، وبالحجر السياسي عليه في مخيمات اللاجئين ..

وبدلاً من أن تعضدوا سعيه في طلب الحرية ، فقد استنفدتم طاقته في اللهاث وراء الرغيف !! .. ومع انصرافه المرحلي هذا عن نشدان الحرية ، إلى تأمين رغيف العيال ، انصرفتم أنتم خلف تعزيز انقسامكم ، وتحديد حدودكم ، أثناء ما كانت تلكم الذئبة المتربصة بكم جميعاً على الساحل الفلسطيني تعد لكم ، بحساب اليوم والساعة ، والدقيقة ، كل التفاصيل المريعة التي سرعان ما ستقع على مسرح حزيران ..

(٤)

ثم من بعد واقعة الخامس من حزيران ، ومن بعد أن تمدد ذلك الجسم السرطاني الخبيث إلى

أربعة أضعاف ما كان عليه عام ١٩٤٨ ، فلقد بدا لقطاع كبير من رأينا العام العربي أنه ليس كذباً ، ولا خداعاً ، ولا تهويلاً ، كل ما سبق أن نقله قبل عشرين سنة ذلكم الشريد الفلسطيني الذي ظل حتى تاريخه محجوراً عليه في المخيمات ، والذي أفرج عنه الآن ، جزئياً ، وأجيز له على بعض المستويات ، وضمن بعض الشروط ، أن يحمل السلاح علانية في وجه الأعداء ..

ومع أن بعض تفاصيل الصورة القديمة قد اختلفت الآن ، فإن عناصرها الأساسية لم تزل على حالها .. كل الذي اختلف على سطح القشرة الخارجية فقط ، هو أن « جهاز الأمن » العربي الذي كان يعتقل ، أو ينفي ، أو حتى يشنق اللاجيء الفلسطيني إن ضبط في حوزته قطعة ولو أثرية من السلاح ، قد أصبح الآن لا يمتعض ، أو في الحقيقة لا يمتعض كثيراً ، إن هو أبصر ذلك اللاجيء نفسه يتدرب فوق أرضه على استعمال أشكال متطورة من السلاح .. ولكن الذي لم يختلف بعد ، في الجوهر ، هو أن قضية التحرير الوطني التي أراد لها هذا اللاجيء أن تأخذ كامل بعدها القومي ما برحت محسوبة عليه وحده باعتبارها قضيته الذاتية التي لا ينبغي لها أن تتعداه !! .. إن أقصى ما أمكن الوصول إليه ، رغم تكاليف درس حزيران الباهظة ، هو ما قد يقوله لك الكاتب ، أو الحاجب ، أو ذو الشأن : « دونك وطنك المحتل أيها الشقيق الفلسطيني العزيز ، فلا تأل جهداً في سبيل تحريره ، ونحن نؤيدك ، والله معك » !! ..

لكن هذا « الشقيق العزيز » ، أيها السادة ، كان مرسوماً له أصلا ضمن الحساب الدقيق الذي صممت بموجبه جريمة « إسرائيل » ، ألا يملك أية قطعة من السلاح ، إلا إذا فقد آخر شبر من التراب :

فإما « أرض بدون سلاح » ، كما كان الحال عليه قبل الخامس من حزيران ..

وإما « سلاح بدون أرض » ، كما أصبح الحال عليه فيما بعد ..

وعلى الحالين كليهما ، أيها السادة ، لم يكن ممكنا ليد وحدها أن تصفق ، أو لجناح وحده أن يطير ..

ولذلك فإن شيئا في جوهر القضية لم يتغير بعد ، وإن تكن قد تبدلت بعض الملامح على السطح ... ومن هنا فإن إفادة الشاهد الفلسطيني ما تزال قابلة لأن تسمع من أولها ، حتى للمرة الألف ، لأن ما قد ناضل من أجله طويلا ليس مجرد الترخيص له ، رسمياً ، بأن يحمل السلاح ويتجه إلى فلسطين ، وليس مجرد الغناء له في الإذاعات بأنه قد اكتشف أخيرا هويته الضائعة ، في ماسورة بندقية ، وإنما ناضل ، ويناضل ، من أجل استفزاز كل خلية مترنحة في جسد الأمة ، في

مواجهة التحدي المصيري الذي لا يستهدفه وحده، ولكنه يستهدف قومه، وتاريخه، وحضارته العربية الإسلامية من الجذور.

(٥)

ألتمس أن أضيف ختاماً، أيها السادة، أنه عبر قتام الهزيمة الثقيل ــ كما هو الحال أيضاً تحت أضواء النصر الصارخة ــ تتخذ الأمور في العادة غير أشكالها الحقيقية، وغير أحجامها الطبيعية .. وليس ثمة كالكاتب، الذي يفترض فيه أنه عقل الأمة وضميرها، من يستشف الحقيقة على الحالين، ولا ينخدع بظواهر الأمور عن بواطنها الكامنة .. وأما حين تلتبس الأشياء وتتعذر الرؤية الصحيحة حتى عن الكاتب نفسه، فإن ما يكتبه عندئذ لابد أن يضاعف من سوء الحال، كدليل أعمى يقود من خلفه إلى هاوية الجحيم .. وعلى هذا، فإنه ليس صحيحاً أبداً ما قد انتهى إليه بعض كتابنا المازوكيين المتلذذين في أعماقهم بهوان الهزيمة وقسوتها، من أن هزيمة حزيران قد جاءت بمثابة التعبير الصارخ عن «فضائل حضارية وتقدمية يختص بها المجتمع اليهودي!!»، بقدر ما جاءت بالمقابل تعبيراً صارخاً أيضاً عن «رذائل وسلبيات متأصلة في أعماق المجتمع العربي»!! ..

فإذا كان لابد لنا من أن نناقش موضوع التحضر في مجتمع، والتخلف في مجتمع آخر، فإن انتصارات أرض «العمليات العسكرية» لم تكن في أي زمان، أو أي مكان، بالمقياس الحضاري الذي يمكن اعتماده في أي تقويم مسؤول لحركة التاريخ، لأننا عندئذ سنضطر أن نعلق أرفع الأوسمة الحضارية إطلاقاً على صدر جنكيز خان، على سبيل المثال، وسيبقى أمامنا جدل طويل، ومثير، حول ذلك الزعم الانفعالي الآخر الذي يرجع الهزيمة العسكرية، عموماً، إلى عوامل تخلفية في أوساط الطرف المهزوم، لأننا هنا أيضاً سنفقد اتزاننا المنطقي مرة أخرى حيال هزيمة فرنسا المريعة أمام الألمان في الحرب الكونية الثانية!! ..

نلاحظ، للأسف العميق، أن مفهوم «التفوق الحضاري» ينحدر إلى بعض أقلامنا العربية من خلال التقنية العسكرية العالية التي يمتاز بها العدو علينا. وهي التقنية التي مهما أحرزت من انتصارات مرحلية، فإنها لم تضمن النصر النهائي لأية قوة تمتلكها، حتى لو كانت قوة ألمانيا الهتلرية، أو قوة الولايات المتحدة العملاقة في حرب فيتنام الطويلة المدى. لأنه كي تتسم القوة العسكرية بأية صبغة حضارية، فلابد أن تنطلق من دوافع إنسانية، نحو غايات إنسانية على حد سواء ..

ثم في صميم هذه النقطة، وختامها، أيها السادة، ألتمس من حضراتكم أن تقرأوا معي ــ وأن تتفحصوا أيضاً ــ هذه الدرة اليتيمة التي فاه بها عملاق روايتكم العربية المعاصرة، الأستاذ ن. م. لمجلة «المستقبل» الباريسية (في عددها ٣٨٦، بتاريخ ١٤ تموز ١٩٨٤)، وهي الوثيقة الصارخة التي أطالبكم بأن تربطوها في ملف هذه القضية، لتكون شاهداً لأجيالنا العربية اللاحقة على مبلغ دمامة هذا الزمان الذي نعيش ... وهو القائل حرفياً:

«العرب أصحاب هدف .. وقضية .. الهدف هو (الحضارة)، والقضية هي (فلسطين) .. ولكن الذي حدث طوال السنوات الثلاثين الماضية، أي منذ قيام إسرائيل وحتى الآن، أن القضية ــ أي فلسطين ــ غلبت على الهدف ــ أي الحضارة ــ .. سأكون صريحا اكثر وأقول: إن (القضية) ضيعت (الهدف) ...!!»

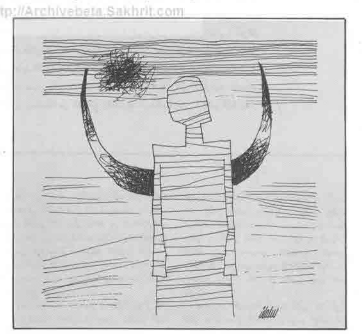
فلئن ارتأيتم فعلاً، أيها الحشد الحافل من القضاة والمحلفين والنظارة والمتفرجين، أن العقبة الكأداء أمام تطلعاتكم وطموحاتكم الحضارية، منذ ثلاثين سنة بطولها، هي هذه القضية الفلسطينية، المتأزمة، المتجهمة، فما الذي يمنعكم حتى الآن من أن تضعوا رأسها في أنشوطة الإعدام، مرة واحدة وإلى الأبد، حتى لا تظل هكذا، في سوق العرض والطلب، متأرجحة بين الموت والحياة دون قرار؟! ..

أما وقد أقسمت منذ البدء على أن أقول الحقيقة بين أيديكم، فاسمحوا لي بأن أقسم في الختام أيضاً على أنه لن يتأتى لكم يوماً أن تلجوا دنيا الحضارة من بابها الصحيح، إلا عبر بوابة الحرم القدسي الشريف .. ولابد لكم، لأجل ذلك، من أن تشرخوا بحد السيف، صرح الطغيان الصهيوني الذي ما قام أساساً إلا على حد السيف .. ففلسطين هي حضارة المستقبل العربي .. وحضارة المستقبل العربي هي فلسطين .. بمثابة اللحمة والسدى .. لا بمثابة العربة والحصان!! ..

* * *

وأخيراً، فإن هذه ليست إلا مقدمة إلى الحقيقة وحسب .. وأما الحقيقة نفسها فإن لي وطيد الثقة في سعة صدوركم وعقولكم، وقلوبكم، بأن تأذنوا لي بالإفضاء بها في إفادات لاحقة، من على منبر «دوحتنا» الظليلة الحانية، رغم أنها إفادات مجردة من أية مؤانسة أو أي إمتاع .. لأنها جميعها ستدور في فلك «الفكرة الفلسطينية الثابتة» التي ربما ستتمها بعض الأسماع ..

يوسف الخطيب



الإمام ناصر بن مرشد اليعربي

بطل كبير وإنسان كريم متواضع جمع أهل عُمان على كلمة واحدة وطرد البرتغاليين المعتدين نهائياً من البلاد

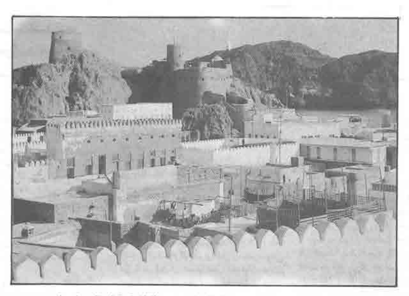
بقلم: أحمد العناني

لم أجد في السالمي صاحب «تحفة الأعيان بسيرة آل عمان» ولا في عديد من المصادر الأخرى ككتاب حميد بن محمد بن رزيق «الشعاع الشائع اللمعان» ولا في كتاب كشف الغمة ، او البحث الممتع عن دولة اليعاربة للسيدة عائشة السيار ، او اي مصدر آخر إشارة من قريب او بعيد تشير إلى مولد الامام ناصر بن مرشد بن مالك بن ابي العرب اليعربي الذي اختير إماماً عام ١٠٣٤ للهجرة الموافق ١٦٢٤ م ، ووافته المنية عام ١٠٥٩ للهجرة (١٠ ربيع الثاني) الموافق لعام ١٦٤٩ م (٢٣ ابريل) بعد حكم ناف على ربع قرن من الزمان مضى معظمه في قتال متصل اولا على الجبهة الداخلية لتوحيد الكلمة وتالياً في قتال البرتغاليين وتصفية حصونهم واحداً في اثر الآخر ، وتخليص البلاد منهم بعد اكتمال قرن ونصف تقريباً على دخولهم العدواني الاجرامي الى عمان الذي اقترن بسلسلة من الفظائع المكشوفة الوحشية التي لانظير لها ابداً .

لم يكن الإمام ناصر من عرض الناس البسطاء ولكن قبيلته من اليعاربة هم يمانيون من بطون بني نبهان الذين طال حكمهم في عمان ، وكان الاماميون يلقبونهم بالملوك باعتبار أن ملكهم كان وراثياً دنيوياً ، ولاشك في أن وجود اليعاربة في الرستاق كان في حد ذاته دليلا على تفوق واضح لهم ، وفوق ذلك فإن تفوق الإمام ناصر العلمي لم يأت من فراغ . وإن كان لابد من الاعتراف بأنه لابد وأن تكون حياته مع والدته وزوجها القاضي المهيب خميس بن سعيد الشقصي كان له أثره في انكبابه على الدرس والتحصيل فلم تكن الكتب وحدها هي المتاحة له في ذلك البيت الكبير ، ولكن منزل القاضي كان ملتقى طائفة من فضلاء العلماء وأهل الفكر ونفر من رجالات البلاد ، وكان الموضوع المهيمن على معظم أحاديثهم الشكوى المرة مما أصاب البلاد من إفساد مرير وتجهيل ونزاع وفقر منذ وصول البرتغاليين إليها وتشجيعهم انقسام الناس على أنفسهم ..

وكان من سوء حظ عمان في تلك الأيام أن كلا من تركيبتها الجغرافية حيث تتكاثر فيها الوحدات الإقليمية الناتجة عن طبوغرافية الأرض ذات القمم العالية والأودية العميقة ، وكذلك تركيبتها السكانية بين أزد وغيرهم من أصول يمانية ، وقبائل ذوات أصول نزارية قيسية ، إضافة إلى التوجهات المتناقضة للهناوية والظاهرية . قد أدى جميعه إلى انقسام البلاد إلى وحدات سياسية غاية في التفرق وسوء الظن المتبادل .

ومما زاد الطين بلة أن البرتغاليين بالأسلوب الذي جاءوا به في الاعتماد في تركيز نفوذهم على



قلعة «ميراني» البرتغالية بمسقط، التي شيدت في القرن السادس عشر لإحكام قبضة البرتغاليين على عمان.

قلاع حصينة ينشئونها على أعلى القمم ويشحنونها بالمؤن والسلاح وخيرة الجنود وقد أغروا صغار المتنفذين في كل منطقة بتأسيس قلاع لهم تؤكد استمرار الفرقة بين أبناء الشعب الواحد..

ومنذ فقد العمانيون أحسن مواردهم التجارية بسبب هيمنة البرتغاليين في البحر واستيلائهم على سائر موانىء عمان الرئيسية راحت الأحوال الاقتصادية توالي تدهورها وبات واضحاً أن الأمر يقتضي العمانيين جهدا في مستوى المعجزة للخروج من ورطتهم.

خصائص حياته

تجمعت في الإمام ناصر بن مرشد صفات الزعامة المقتدرة، فهو أولاً تجرع ألم اليتم، ولا أدري إن كان ذلك اليتم كان وراء تشدد الرجل في اقتفاء سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وحسبك من ذلك أن تعرف أنه مات لايملك شيئا وأنه كان يؤثر على نفسه وأهله وإن به لخصاصة، وإن ببيت المال لمالاً ووفرا، وأنه كان لايقتل أصحابه فحين كان بنزوى في المرحلة الأولى من حكمه، ووصله خبر موكد عن تآمر رؤساء قبيلة «العقر» عليه اكتفى بنفيهم، وحذر تحذيراً شديداً من أن يتطوع أحد لقتل أي واحد منهم.. وكان ذلك منه في عهد هانت فيه حياة الناس واستشرى القتل حتى بات أمراً معتاداً، وكان رجلاً شريفاً مترفعاً عن الغيبة وسوء القول حتى لقد ذهب البعض إلى القول إن القدر انتصف له من جماعة كانوا عند أحدهم لاحديث لهم غير الوقيعة في الإمام ناصر.. وكانت زوجة الرجل تسمع غير مرتاحة حتى إذا استبد بها الغضب من سفاهة زوجها وضيوفه خرجت غاضبة تستنكر فعل القوم فما كادت تبتعد حتى انهار البيت على سائر من فيه فقتلهم.. وسواء أصحت هذه القصة أم لم تصح فإنها قصة تعبر عن حقيقة رضيتة من الامام ناصر. ويروى الكثير أيضا من عزوف الرجل وترفعه مع ذلك عن الاقتراب من بيت المال، وعن بركة القليل من طعامه إذا ماقدمه لضيوفه وليس عنده سواه، وهي أقصص تشير بتواترها إلى المزايا الرفيعة للزعيم المسلم الحق. فعلى ذلك أو مثله جرت حياة الخلفاء الراشدين ولاسيما الفقراء منهم أصلاً كعمر وعلي رضي الله عنهما وكذلك عمر بن عبد العزيز حين أفقر نفسه برد أموال أبيه وضياعه ومال زوجه وحليها إلى بيت مال المسلمين.. وكذلك كان شأن صلاح الدين الأيوبي، والمنصور بن أبي عامر المجاهد الأندلسي وغيرهم ممن جعلوا رضوان الله غاية غاياتهم. ولم يتعاملوا مع المال إلا كوسيلة لا تشغل الذهن للارتفاق بها للحصول على أيسر العيش الذي يحفظ الحياة.

وبذلك كان الرجل عالما بهيا، وكان رجلا زاهدا خلوقا، وكان قد عرف المعاناة وتعامل معها طويلا، فلما حمل حملاً على الاضطلاع بمسئولية الناس لم يغره ذلك ولم يبدل من جوهره شيئاً... وانما هو قضى الحياة مجاهدا إلى أن جمع عمان على كلمة واحدة، ومات كما عاش فقيراً.

كيف حُمِلَ على الإمامة؟

يروي السالمي أن الوجهاء والعلماء الذين تراسلوا فيما بينهم مدة طويلة يتشاكون من سوء الأحوال ويتداعون للتشاور وعمل شيء ما التقوا ولم يكن بينهم العالم الشاب ناصر بن مرشد، وقد سئل الشيخ القاضي خميس بن سعيد عن رأيه في ناصر لما يتمتع به من سمعة طيبة، فشهد بالحق وبما يعلم فقرر الجماعة أن يضموا لهم طائفة أخرى من العلماء وطلبة العلم وأن يمضوا إلى قصرى حيث مقر ناصر فيلتقوا به للاستئناس برأيه وعرض الأمر عليه إذا ظل على ذلك عزمهم، ولكنهم فوجئوا بإصراره بإخلاص على أنه لايستأهل مايرون فيه، ولايرى لنفسه مايرونه، لكنهم أقسموا له جميعاً أن يتخلوا عن مطامح النفوس الأنانية وأن ينصروه إذا هو توكل على الله وقبل فلما رأى ذلك الإجماع والإصرار منهم قبل عرضهم على تثاقل وتهيب كأنما أعاد سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

تماثل الروايات عن سيرته ودلالة ذلك

وإذا ما حاول المرء أن يحقق أية نقطة من حياة هذا الإمام بين مصدر وآخر من عدة المصادر الأساسية التي ذكرنا بعضاً من أهمها في صدر هذا المقال فإنه يدهش فعلاً لتشابه محتوى تلك المصادر في الكبيرة والصغيرة حتى لتكاد تكون متماثلة.. فهل كان سبب ذلك أنه انتصر انتصاراً معجباً على سائر خصومه واحداً بعد الآخر وآخرهم البرتغاليون فلم تكن هناك غير رواية المنتصرين وكلهم على نفس منزع سيدهم الإمام.. أم أن العمانيين كانوا يتابعون تحركات ناصر بمشاعر متناهية في الود والإعجاب أو بالكراهية والرعب فكانت النتيجة أن كل تفاصيل حركاته انطبعت في أذهانهم.. إن السؤال يبقى مطروحاً لتحقيق أوسع في الأمر، وأيما كانت

الحال فهو في صالح الرجل الزعيم البطل الذي وفق إلى مالم يوفق إليه أحد في زمانه ألا وهو جمع كلمة العمانيين . ومن ثم وهو الأهم طرد البرتغاليين المعتدين نهائياً من عمان .. وانه لفخر عظيم أنه بينما كان للهولنديين والانجليز دور مع الصفويين والهرامزة في طرد البرتغاليين من هرمز .. إلا أن إخراجهم من كل عمان وموانئها مسقط وصير ومقنات وبوشر وقريات وصحار وجلفار ومطرح قد تم في عهده فيما عدا المرحلة الأخيرة من الوجود البرتغالي في حصن مسقط التي تمت بعد وفاته .

خطة عمله

لقد وضح من خطة العمل التي التزم بها الإمام أنه حرص على تنقية القاعدة الأساسية التي ينطلق منها . ويتخذها عصبيته الأساسية وحاملة مبادئه والمؤمنة بإيمانه . ثم على توسيع تلك القاعدة شيئاً فشيئاً ثم مواجهة خصوم الحركة وهم :

أ ــ بعض بني عمومته وأهله الذين نفسوا عليه مسئوليته الكبيرة .

ب ــ زعماء القبائل المختلفة أصلا مع الإمام وجماعته كالهنائيين .

ج ــ حلفاء بني جبر الاحسائيين في عمان فقد كان حكم الجبوريين أو نفوذهم قد وصل إلى داخل عمان كما اشتمل في وقت من القرن السادس عشر على البحرين وقطر وحتى هرمز . وكان هناك عرب من الهلاليين . كما كانت جلفار تحت حكم ناصر الدين الفارسي فيما الساحل كله تقريباً بأيدي البرتغاليين وإن كانت وطأة ذلك الحكم قد خفت وأساليبه تطورت كثيراً لاسيما منذ استيلاء الانجليز والصفويين على هرمز ..

كان عصب الدولة التى أنشأها الإمام هم بنو يحمد الذين بدأ بنصرتهم في استيلائه على حصن الرستاق وفي الاستيلاء على نخل من سلطان بن أبي العرب .. وعندما ثارت نخل من ورائه بعد خروجه منها رفض الإمام أن يتحرك لأية فرصة متاحة أخرى قبل أن تنضبط الأمور انضباطاً تاماً في قاعدة انطلاقه فعاد إلى النخل ووطد فيها الأمور جيداً .

وأدرك الناس ولاسيما زعماء المناطق المجزأة أنهم أمام رجل جديد بكل معنى الكلمة فأحس كل واحد منهم أن عليه أن يتخذ له منه موقفاً محدداً .. على أنهم لم يكونوا يدركون أن الرجل كان رجل مبادىء ... من أجل ذلك فإن الذين حسبوا أن الأمر ينتهي بشيء من المجاملة والنفاق كمانع بن سنان العميري الذي سهل دخول الإمام إلى حصن سمايل وجدوا أنفسهم لاحقاً في حرب مريرة مع الإمام لأن الأمر كان أمر وجود عمان موحدة قوية خالصة من المعتدين البرتغاليين أو لاشيء .

وبعد أن استولى الإمام على ازكي معقل الجبوريين الأساسي تآمر على حياته جماعة من رؤساء «العقر» فعلم الإمام بهم ولكنه رفض أن يبطش بهم فتفرقوا بكل أرض ومنهم من تبع مانع ابن سنان ومنهم من التحق بناصر بن قطن الهلالي الجبوري وكان مانع وناصر أشد أعداء الإمام بأساً وهما اللذان قاتلاه قتالاً مريراً قبل أن ينهزما وبقي على ناصر قبل أن تصبح عمان الشرقية وجعلان كلها في دولته أن يحارب الجبوريين في إبرا ، والهلاليين في سمد الشان ثم يحارب البرتغاليين المستولين على مسقط ومطرح محصنتين بالقلاع تحصيناً عظيماً .

ولأن الامام كان يتبع طريقة المرحلية فقد استولى على مناطق المسلمين ولم يتعرض بادىء الأمر للبرتغاليين بأي شيء كأن أمرهم لايعنيه وكان من النكسات التي تعرض لها الأمام في هذه المرحلة انقضاض محمد بن جفير الجفري الجبوري على النخل ، ووقعت أحداث دموية في نقنات بين الإمام من جهة وتحالف من الجبوريين والهلاليين ، كذلك وقعت في الصخيري معارك مريرة تعرض فيها جيش الإمام لخطر عظيم نتيجة استنجاد سعيد الخيالي وجماعته بالجبوريين .

كذلك ، وكما أشرنا من قبل نكث مانع بن سنان عهده وشجعه تحالف سيف بن محمد الهنائي معه مما جعلهما يستوليان على نزوى من أزكي وبهلا .

وكانت آخر المعارك العنيفة التي وقعت بين جنود الإمام والجبوريين في لوى . وكان الإمام هو المهاجم وقد قصد قطع الطريق البري على الجبور ، ومع بالغ الأسف فإن بعض أعداء الإمام لما انقطعت بهم السبل فضلوا التحالف مع البرتغاليين ومنهم مانع بن سنان ، وبعد سقوط حصن لوى المنيع بفترة وجيزة أمكن التخلص من مانع بن سنان بحيلة متقنة .

تحطيم الوجود البرتغالي

وهكذا بعد التخلص من أعداء الوحدة الداخلية ، وبعد إكراه الجبوريين والاحسائيين على الخروج من عمان لم تبق إلا المواجهة مع المستعمرين البرتغاليين . ويبدو أن الامام أتيحت له فرصة كافية للنظر في أفضل الطرق للخلاص من البرتغاليين .. ولما وجد أن نقطة ارتكازهم الأساسية هي حصونهم المنيعة قرر أن يبني إلى جانب كل حصن يمتنع عليه حصناً موازياً له يفرض الحصار المستديم على الحصن البرتغالي ..

ولما كانت حصون السواحل البرتغالية تعتمد في كثير من تموينها على داخل عمان فإن صيرورة ذلك الداخل كله تحت قيادة واحدة وكلمة واحدة أوقعت البرتغاليين في موقف حرج للغاية .

وسرت صيحة الجهاد في عمان فرددت صداها قنن الجبال وسائر الوهاد والقيعان . وكأنما صحا الناس من حلم ، وكان من بين أعنف المعارك التي دارت بين المجاهدين والمشركين معركة صحار عام ١٠٤٣ للهجرة (نهاية محرم) وفيها استبسل المسلمون في وجه المدافع البرتغالية من كل نوع ثم راحوا يفتحون جبهات أخرى للبرتغاليين في بوشر ومسقط وحصلت هدنة مؤقتة ، ولكن الصدور كانت تتفجر بأساها القديم فما لبثت الحرب أن استعرت في صور وقريات . ومن أسف بالغ أن ناصر ابن قطن الجبوري في ذلك الظرف الدقيق قام بغارة على عمان مستعيناً بقوات من البدو من الداخل والخارج لكن حركته تلك كانت تنهار أمام الوعي الاسلامي الجديد في عمان فباءت كل محاولاته بالفشل ، وبعد ذلك عاود الإمام مهاجمة أسوار مسقط آخر معاقل البرتغاليين في عمان لكن الله تعالى توفاه في أثناء ذلك الحصار الذي انتهى لاحقاً بالنجاح التام فما أن حلت سنة ١٦٥٠ للميلاد حتى طوى آخر علم للبرتغال في سماء عمان بعد مئة وثلاث وأربعين سنة من الاستبداد ..

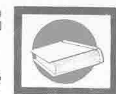
كان لوفاة الامام ناصر بن مرشد اليعربي رنة أسى عظيم في سائر الأوساط الاسلامية المعنية بتخليص المسلمين من استعباد الأجانب الواغلين ومما قيل في رثائه :

حكى الصديق والفاروق عدلا
فأنضى النفس للعدل اطلابا
له سير حسان كل شرح
تباعده إذا شاء اقترابا
بهن الله ثم الرسل يرضي
ومن صارت له عدن مآبا

ومما قيل أيضاً فيه :

بكى النصر لما مات ناصر والهدى
وأضحى تباكي الغمد كل مهند

أحمد العناني



دائرة المعارف القرآنية

بقلم: الدكتور محمد البهي

التهذيب في المعاملة

حددت ثلاث آيات مدنية في سورة مكية ــ وهي سورة الأنعام ــ إطار هذه المعاملة : بعبادة الله وحده ... وبالإحسان للوالدين ... وبعدم قتل الأولاد خشية الفقر .. وبعدم الاقتراب من الفواحش والجرائم الظاهرة والخفية على السواء ... وبعدم قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، وبالوفاء في الكيل فيما يكال ، وفي الوزن فيما يوزن .. وبالعدل في القول ، والشهادة . وفي الحكم بين اثنين ، ولو كان أحدهما قريباً لمن يقول ، أو يشهد أو يحكم .. وبالوفاء بعهد الله . يقول الله تعالى .

«قل تعالوا : أتل ماحرم ربكم عليكم :

« ألا تشركوا به شيئاً (إذ الشرك بالله أساس العبث والفساد في السلوك فالاتجاه في العبادة لغير الله هو اتجاه للمنفعة الشخصية . والمنفعة الشخصية يمليها الهوى ، والمشرك بالله لايلتزم طريقاً واحداً في الحياة . وانما يسلك طرقاً عديدة ، وملتوية لاقتناص منفعته الشخصية) .

«وبالوالدين إحسانا » (والاحسان للوالدين أمارة على وفاء الأولاد . إذ أصبحوا في وضع ليست لهم حاجة إلى والديهم . فوفاؤهم عندئذ دليل على مستواهم الإنساني الرفيع) .

« ولا تقتلوا أولادكم من املاق . نحن نرزقكم واياهم » (وعدم قتل الأولاد خشية الفقر دليل على تحمل مسئولية الآباء نحو أولادهم . وتحمل المسئولية شعور إنساني كريم يدفع بالإنسان إلى درجة المستوى الفاضل في الإنسانية) .

« ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن » (وهي المنكرات والجرائم الاجتماعية من : زنا .. وقتل .. وسرقة . والنهي عن اقترافها هو نهي عن ذلك ، سواء في السر أو العلن .. في الظاهر والباطن . وعدم مباشرة هذه الجرائم مظهر ينم حقيقة عن التحول عن طريق الإيمان . من المجتمع الجاهلي إلى المجتمع الإنساني) .

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » (وعدم قتل النفس في غير رد اعتداء ، أو في غير قصاص دليل كذلك على تعاطف الإنسان نحو الإنسان . والتعاطف درجة رفيعة في الإنسانية) .

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده » (وكذلك مباشرة مال اليتيم ــ وهو الضعيف الذي لايقوى على إدراك مايصنع بماله ، وإن أدرك لايقوى على مقاومة العبث فيه ، بالطريق الأمثل في إنمائه ، والحرص عليه أمارة التحول من الماضي البغيض .. إلى المجتمع المؤمن وهو الانساني .

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لانكلف نفساً إلا وسعها » (وكذلك وفاء الكيل والميزان بالعدل إن دل على بعد عن الأنانية في المعاملة .. وبالتالي على الروح الإنسانية فيها : فإنه من جانب آخر دليل على يقظة الوعي الإنساني في الإنسان الذي يفي بما يلتزمه على أساس من العدل نحو الآخرين . يقظة الوعي في الإنسان هي ترجمة لمستوى رفيع من انسانيته) .

« وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى » (وعلى نحو ممارسة العدل فيما يلتزمه الانسان نحو الآخرين من وفاء فيما يكال أو يوزن ، ومن دلالة ذلك على انسانيته : مايدلي به الإنسان من قول لصالح بعض الأطراف في النزاع بينهم . فإن الحياد فيه ــ أو العدل فيه ــ له نفس الدلالة على انسانية القائل) .

« وبعهد الله أوفوا » (وكذلك الشأن في الوفاء بالعهد . إذ هو التزام على تحقيق هدف خير . وأداء الخير للآخرين هو عطاء من إنسانية المؤدي ، وتعبير عن مستواه الرفيع فيها) « ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون » « وأن هذا » (أي كل ما ذكره من الوصايا هنا) « صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل » (أي الأخرى التي عداه . وهي سبل ملتوية) . « فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » الأنعام (١٥١ ــ ١٥٣) .

وإذا كانت هذه الوصايا تمثل مجمل الإطار العام للتهذيب في المعاملة .. فإن الآيات الأخرى التي جاءت في الوحي المدني تزيد في توضيح ماأجمل فيها :

ــ فجاء في أدب التحية قوله تعالى :

«وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، إن الله كان على كل شيء حسيبا » النساء : ٨٦ .

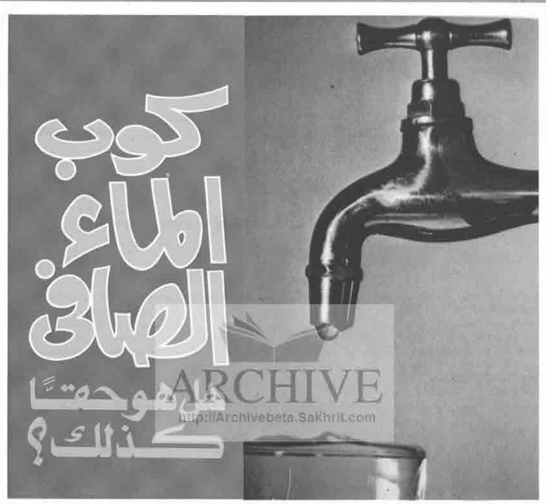
ــ وجاء في أدب المساكن :

« ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا ، وتسلموا على أهلها » (فربط جواز دخول مساكن الآخرين بأمرين : الأمر الأول باستئناس القبول من الساكنين : عند القادم . وهذا أمر أخص من الإذن بالدخول . إذ يجوز أن يأذن الساكنون بالدخول لقادم وليست لديهم رغبة أكيدة في لقائه . والاستئناس إذن هو التحسس بهذه الرغبة بعد الإذن بالدخول . والأمر الثاني أن يلقوا على الساكنين : السلام ، تطمينا لنفوسهم « ذلكم خير لكم لعلكم تذكّرون .

فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم .

« وإن قيل لكم : ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم » .

« ليس عليكم جناح : أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم . والله يعلم ماتبدون وما تكتمون » النور : ٢٧ ــ ٢٩ .



قطرة الماء التي تنساب الى الكوب في حالة نقية .. هل هي في حالة نقية حقاً؟..

بقلم : د. عبد المحسن صالح

اندفع إلى معملي ثلاثة من المشرفين على المحطة الرئيسية لتنقية المياه ، وقد ارتسمت على وجوههم علامات القلق والأضطراب الواضح ، ولقد كنت أعرف منهم واحداً ، فوجهت اليه الكلام قائلاً : خيراً إن شاء الله .. ماذا وراءكم ؟ .. قال : ليس خيراً ، فنحن في مأزق خطير ، اذ حل بأحواض الترشيح عندنا شيء غريب لم نعرف له من قبل مثيلا ، واذا استمر الحال على ذلك ، فلا مناص من احد خيارين : إما أن تحرم المدينة من المياه النقية ، أو أن نمدها بمياه ملوثة ، ولهذا أتينا اليك نطلب العون بعد ان أعيتنا الحيلة ، فلا شك أن العلم حلال المشاكل !

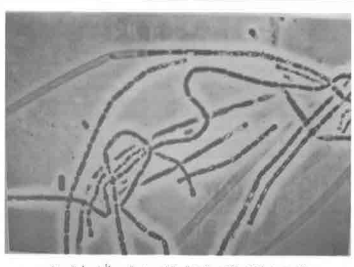
وقد تبدو هذه المشكلة محلية ، وما كان لنا أن نعرضها هنا ، خاصة وأنها لا تهم إلا أصحابها ، أو هكذا يظن البعض . وهو ظن غير صحيح ، إذ أن مشكلة تلوث مصادر المياه ، هي مشكلة عالمية بالدرجة الأولى ، ذلك أن الشواطيء البحرية أصبحت ملوثة ، وكذلك الخلجان والبحيرات والأنهار ، ثم امتد التلوث إلى الأمطار ، المصدر الرئيسي للمياه العذبة على كوكبنا (انظر دراستنا عن الأمطار الحمضية في العدد السابق) .

والواقع أن حالتنا التي عرضناها كمقدمة لهذه الدراسة ، ليست إلا واحدة من آلاف الحالات التي تذكرها المراجع العلمية كل عام ، لكنها من أخطر الحالات ، خاصة وأنها تختص بمياه الشرب لمدينة كبيرة يسكنها حوالي ثلاثة ملايين نسمة ، وأي تلوث طارىء في هذه المياه كفيل بجعلها أخطر على الحياة من قنبلة ذرية . فالتلوث يعني المرض والموت ، وانتشاره مع مياه الشرب التي يستفيد منها الملايين ، يعني انتشار المرض بينهم ، ولنتصور بعد ذلك ما سيصير عليه حالهم !

ثم إن البشر جميعاً غير معصومين من هذا التلوث ، ولكل منا جرعته التي تختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها ، وهي تأتيه عن طريق الماء الذي يشربه ، أو الطعام الذي يحصل عليه من مصادر المياه المالحة والعذبة ، ومن أجل الحصول على مياه نقية نسبياً من الميكروبات المسببة للأمراض ، انتشرت محطات التنقية في كل مدن هذا الكوكب ، لكن ذلك لا يمنع من تسرب بعض المركبات الكيميائية الضارة التي تنساب الى مصادر المياه نتيجة للأنشطة الصناعية المختلفة ، وهو ما سوف نتعرض له في هذه الدراسة المختصرة ، وبقدر ما يسمح المجال .

عود على بدء

والآن نعود الى التعرض للمشكلة الخطيرة التي أشرنا اليها في بداية هذا المقال ، لنوضح من خلالها كيف يمكن تطويع أسلوب البحث العلمي في حل المشاكل التي تنشأ دون سابق انذار أو معرفة بما يمكن أن تتمخض عنه الملوثات التي تنساب إلى مصادر مياه الشرب من أخطار ، ولقد كانت المشكلة التي نحن بصددها تحديا حقيقيا لحل الغموض الذي ران عليها ، وبسببها جاءني الثلاثة ــ منذ سنوات بعيدة ــ وهم يستغيثون من خطر داهم يهدد مدينة بأكملها .



شكل (١) خيوط الكائن البكتيري مكبرة مئات المرات ، وهي السبب الأساسي في انسداد المرشحات وهي أيضا دليل على تلوث مصادر المياه العذبة .



شكل (٢) عندما تزرع الميكروبات في أطباق زجاجية على غذاء خاص (يشبه الجيلي) ، فان كل خلية ميكروبية غير مرئية ، تتكاثر بسرعة ، وتصبح في غضون يوم واحد مستعمرة مرئية تحوي مئات الملايين من الخلايا ، ومن هذه المستعمرات ، يمكن عزل الأنواع المختلفة ، والتعرف عليها .

كوب الماء الصافي

ولقد زاد الطين بلة أنهم عرضوا على كتلة غريبة من مواد هلامية تتخللها ألياف دقيقة ، وأحاطوني علماً بأنها معزولة من سطوح المرشحات الرملية التي تنقي المياه ، وأنها تتجمع عليها كالوباء الذي لم يروا له من قبل مثيلا ، وفي خلال ساعة أو ساعتين تتغطى المرشحات بطبقات كثيفة من هذه المواد اللزجة ، فيتوقف الترشيح تبعاً لذلك ، مما يهدد بانقطاع إمداد هذه المدينة الكبيرة بالمياه النقية .

وهي ــ بلا شك ــ كارثة ، ولابد أن من ورائها سبباً ، أو أن هناك جريمة قد ارتكبت في حق مصدر المياه الذي يمد مدينة الاسكندرية بالماء العذب عن طريق ترعة ملاحية تحصل على مياهها من النيل ، وتمتد لحوالي مائة كيلومتر .. وكان لابد ــ والحال كذلك ــ من تشكيل مجموعة بحث على وجه السرعة ، وفيها يتعاون التخصص الكيميائي مع البيولوجي مع الهندسي بعمل مسح علمي عن مصدر هذا التلوث الغريب والمفاجئ ، وفي غضون نصف ساعة كان الفريق البحثي ينطلق بأجهزته ومعداته لجمع عينات من الماء ــ بداية من نهر النيل ، ومروراً بطول الترعة ، ونهاية بمحطة التنقية ــ ولقد أوضح المسح على الطبيعة أن مشكلة التلوث خاصة بمدينة الاسكندرية وحدها ، بدليل أنه لم تحدث أية مشكلة مع محطات التنقية ــ في المدن التي تقع الى الشرق قبلها !

وكرجال القانون والشرطة الذين يبحثون عن أدلة جريمة وقعت ، كان الحال كذلك معنا ، مع اختلاف بين طبيعة عمل وعمل ، اذ انصب اهتمامنا على أجراء تحليلات فيزيائية وكيميائية وبيولوجية وما شابه ذلك ، علنا نعرف سر هذا الوباء الذي أصاب محطات التنقية ، ولم تسفر التحليلات الكيميائية والفيزيائية عن دليل يمكن أن يرشدنا الى سر المشكلة التي أخذت تزيد وتتفاقم .

ولقد وقع معظم العبء على كاتب هذه الدراسة ، اذ أوضحت التحليلات الميكروبيولوجية أن المياه مصابة بنوع من البكتيريا الخيطية ، وهي التي نمت وازدهرت فجأة ، ودون أن يراها أحد بالعين المجردة ، لكن الميكروسكوب قد رصدها ، وأوضح دورها في انسداد المرشحات بطريقة لم يسجلها هنا أحد من قبل (شكل ١) .

وانكشف سر الجريمة

لكن ذلك لم يحل المشكلة ، اذ لا يكفي أن تحدد طبيعة الميكروب ونوعه ، فهو معروف وموجود في المياه الطبيعية التي تتعرض تعرضاً ولو طفيفاً للتلوث بالمواد العضوية ، وهو ــ في هذه الحالة ــ لا يخلق مشكلة ، ولا يسبب وباء كالذي حدث بضراوة بالغة .. اذن ، ما سبب المشكلة ؟ .. ولماذا تفاقمت الى هذه الدرجة ؟

لقد بدأت الأمور تتضح بعد يومين اثنين عصيبين ، وفيهما لم يكف جرس التليفون في معملي عن الرنين استعجالا لمعرفة سبب المشكلة ، خاصة وأنها بدأت تسير من سيىء إلى أسوأ ، مما يهدد بكارثة .. وتشاء الصدف السعيدة أن تسوقني الى التقاط مستعمرة من المستعمرات البكتيرية الكثيرة المختلفة التي تنمو في الأطباق على غذاء خاص نجهزه لها في المعامل (شكل ٢) ، وتحت عدسات الميكروسكوب ظهرت أفراد المستعمرة كخلايا لكائن دقيق آخر غير الذي تسبب في المشكلة ، لكنه كان بمثابة الخيط الذي قادنا الى تحديد موقع التلوث ، ونوعه ، وسر حدوث الوباء ، وكيفية معالجته بطريقة أبسط مما نتصور .

ان الكائن الدقيق الذي كشفناه لم يكن من أنواع البكتيريا ، رغم أنه يشبهها في الأطباق ، بل كان أحد أنواع الخميرة (شكل ٣) .. والخميرة من الفطريات (وهي التي يطلق عليها العامة اسم العفن) .. لكن الخميرة لا توجد عادة في الماء ، لأنها لا تتكاثر ولا تعيش إلا في محلول سكري ، أو على فاكهة غنية بالسكريات (مثل العنب) .. اذن فوجودها في الماء طارئ ، ولقد بدأت تظهر فيه قبيل محطة التنقية بحوالي نصف كيلومتر لاغير . ومن ثم أمسكت بالهاتف ، وطلبت المسئولين في المحطة ، واستفسرت إن كان هناك مصنع للخميرة قبيل المحطة بنصف كيلومتر ، وجاء الجواب : نعم ، وأردفت : إنه السبب ، وقال محدثي : لكن المصنع موجود هناك من زمن ، وليس هو سر المشكلة ، أجبت : أعتقد أنه سر المشكلة ، لأن المياه تحتوي على خميرة ، والمصنع مصدرها ، ولابد من عملية مسح على الطبيعة ، فربما كان المصنع يصب بعض مخلفاته خلسة في الترعة لأسباب لا ندريها .

ويبدو أن محدثي لم يكن مقتنعاً تماماً باستنتاجاتي ، وانتهت المكالمة بتبرم واضح : على أية حال سوف ندرس الأمر .. وفي اليوم التالي اختفت المشكلة ببساطة شديدة ، اذ ثبت أن جزءاً من مخلفات مصنع الخميرة كان يجد طريقه الى الترعة خلال مصب صغير يختفي بين الأعشاب المائية الكثيفة النامية على الشاطئ ، وعندما اكتشفوه أغلقوه ، وما تم بعد ذلك بين هيئتي المصنع ومرفق المياه من مسائل قانونية لا يهمنا في موضوعنا ، اذ أن هناك قوانين تحرم صرف المخلفات في مصادر المياه العذبة ، حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه .

وطبيعي أن البكتيريا الخيطية التي سببت الوباء كانت تنمو قبل ذلك على بعض المواد العضوية المتحللة نمواً ضعيفاً ، وبقدر ما يتاح لها من مواد غذائية محدودة ، فكان نموها محدوداً كذلك ، وبحيث لا يسبب ذلك مشاكل تذكر ، وعندما انسابت اليها مخلفات مصنع الخميرة في بيئتها المائية ، وأمدتها بفيض من العناصر الغذائية ، بدأت تتكاثر وتنمو وتترعرع بسرعة فائقة ، وهي هنا كالشرد المحروم من الغذاء ، ثم وجد أمامه فجأة طعاماً وفيرا ، فأخذ ينهل منه ما يشاء ، وكذلك تكون البيكتريا ، مع فرق جوهري ، ذلك أنها كلما أكلت ، تكاثرت بسرعة رهيبة لدرجة أنها تتحول الى وباء حقيقي يتداخل في كفاءة الترشيح بالمرشحات الى درجة الانسداد شبه التام !

ظواهر أمراض مميتة

لقد سقنا هذه الحادثة كبداية حقيقية لحوادث مختلفة تتم بصورة أو بأخرى في أماكن متفرقة من العالم ، وحمداً لله أن المخلفات عندنا كانت ذات ضرر محدود ، ولقد تم اكتشافها وعلاجها في أضيق الحدود ، ودون أن يعرف الرأي العام عن أبعادها شيئاً ، لكنها ــ مع ذلك ــ قد طرحت في أحد المؤتمرات العلمية ، ثم نشرت في إحدى المجلات العلمية كمؤشر لسوء استغلال مصادر مياه الشرب في صرف المخلفات ، وما قد يؤدي اليه من كوارث لها ضحايا ، ومثال واحد قد يوضح معنى ذلك بجلاء .

في قرية ميناماتا المشهورة بالصيد ، والواقعة على خليج ميناماتا باليابان ، حدثت ظواهر غريبة ذكرتها المراجع العلمية أحياناً باسهاب ، وأحياناً أخرى باقتضاب ، إذ لاحظ أهل القرية أن القطط كانت تندفع نحو البحر وهي تموء بشدة ، ثم تختفي فيه ، وأخذت الغربان تتساقط على الأرض أثناء تحليقها في الهواء ، ثم تبع ذلك شكوى بين أهل القرية من آلام في العضلات ، واضطراب في البصر ، وبحيث يبدو للواحد منهم وكأنما هو لا يرى عالمه إلا من خلال أنبوبة ضيقة ، وكل ما حولها مظلم ، وتبع ذلك ظهور نوبات من الجنون على أب وابنه ، ثم ما لبثا أن لفظا أنفاسهما ، وفي السنوات التسع التي تلت ذلك ، ظهرت الأعراض ذاتها على حوالي ١١٠ نسمة ، توفى منهم ٣٦ شخصا ، ثم حصل الصمم والعمى بمعظم الذين عاشوا ، ولقد جاءت المواليد في هذه القرية بمرض غريب أطلق عليه اسم « مرض ميناماتا » ، وعليهم ظهرت تشوهات خلقية مختلفة ، ثم ظهر المرض في مدينة أخرى مجاورة اسمها نيجاتا ، وأصاب خمسين من سكانها ، فمات منهم ١٦ فرداً ، في حين أن كثيراً من الأطفال بدأت فيهم الأعراض بدرجات متفاوتة .

ولقد بدأت التحريات العلمية والطبية تأخذ مجراها للكشف عن سر هذا المرض الغريب ، انه

يشبه أعراض التسمم بأحد مركبات الزئبق ، لكن ما هو مصدره ، وكيف انتقل إلى الناس ؟ .. هذا هو السؤال الذي يبحث عن جواب .

ولم تدم الحيرة طويلاً ، اذ تبين أن أحد المصانع القريبة من القرية كان يصب مخلفاته في مياه خليج ميناماتا ، وكذلك فعل مصنع آخر بالقرب من مدينة نيجاتا .. وطبيعي أن الناس هناك لم يكونوا يستخدمون الماء الملوث للشرب ، لأنه غير صالح للاستعمال الآدمي ، لكن المركب السام قد انتقل اليهم عن طريق الأسماك التي عاشت في الخليج الملوث ، ولقد كان طعامهم الأساسي يتكون من منتجات البحر ــ أي من الأصداف والطحالب والأسماك ــ والذين أكلوا منه أكثر ، ظهرت عليهم الأعراض أعظم ، ولقد انساب السم الى الأطفال الرضع من خلال لبن أمهاتهم ، كما أنه قد تداخل في الأجنة أثناء تكوينها ، وأحدث بها تشوهات تختلف شدتها باختلاف تركيزاتها في الحوامل !

ولقد وجد العلماء أن تركيز هذا المركب السام في دماء الضحايا قد وصل الى أكثر من مائة مرة من التركيز المسموح به في أية معايير دولية ، والغريب أن عنصر الزئبق قد تحول الى مركب أكثر سمية (ميثيل الزئبق) بواسطة كائن بكتيري يعيش على الرسوبيات الكائنة في قاع الخليج ، فزاد ذلك الطين بلة !

ولم تكن هذه هي الحالة الوحيدة التي انتقل فيها السم من مياه البحار عن طريق الكائنات المائية التي يستخدمها الانسان كطعام ، بل ظهرت حالات أخرى في أماكن متفرقة من العالم ، منها على سبيل المثال لا الحصر ما ظهر في شحنات الأسماك التي اصطيدت من بحيرة سانت كلير بالقرب من ديترويت بكندا ، اذ احتوت على نسب من ميثيل الزئبق السام تقارب ما تم اكتشافه في اليابان ، وثبت أن البحيرة ملوثة بنفايات صناعية تحمل أملاح الزئبق ، ومن ثم حرمت الحكومة الكندية الصيد من البحيرة ، وحذرت السكان القاطنين على شواطئها بعدم تناول أية أطعمة مصدرها البحيرة .

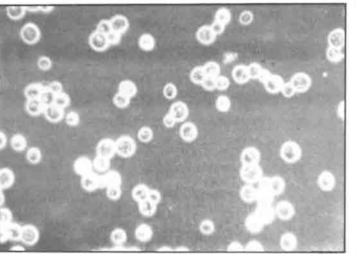
ولم تكن بحيرة سانت كلير هي البحيرة الوحيدة الملوثة ، بل لقد ثبت أن التلوث بهذا المركب أو غيره ، قد شمل بحيرات كثيرة في كل من كندا وأمريكا الشمالية .. وأن ٣٣ بحيرة من الخمسين المنشورة هناك قد حظر فيها الصيد ــ على حسب ما يذكر الكاتب العلمي جون هيناهان في دراسته المنشورة بالكتاب السنوي للعلم والمستقبل ــ ويضيف أن كثيراً من الأنهار التي تصب في بعض هذه البحيرات تحمل اليها تلك السموم من صناعات مختلفة ، ولقد حذرت الولايات التي ظهرت فيها السموم الأهالي من تناول أية أسماك أو محاريات تعيش في هذه الأنهار .

وطبيعي أن تتجه الشكوك الى الأسماك المعلبة والمطروحة في الأسواق ، اذ عندما بدأت التحاليل الكيميائية تأخذ مجراها ، اكتشف العلماء وجود مركبات زئبقية في كثير من المعلبات ، وبتركيزات تفوق المسموح به بأضعاف مضاعفة ، ومن ثم سحبت من الأسواق ، لكن بعد أن ظهرت بعض الأعراض التي تشير الى حدوث تسمم زئبقي راجع الى استهلاك بعض هذه المعلبات ، بالإضافة إلى الأسماك الطازجة ، خاصة عند الذين يتخذونها بمثابة الغذاء المفضل لانقاص أوزانهم .

مصادر التلوث المائي كثيرة

والواقع أن هذه الأمثلة لا تمثل إلا قليلاً جداً من كثير ، فطبيعة التلوث تعتمد أساساً على مصدر التلوث ، وحيثما وجد الانسان ، وجد التلوث ، وكلما زادت أنشطته المدنية والصناعية والكيميائية ، زاد التلوث تبعاً لذلك .. والتلوث أنواع ، فقد يكون حرارياً أو اشعاعياً أو كيميائياً أو بيولوجياً ، فالتخلص من مياه التبريد الساخنة في مصادر المياه ، هو من أنواع التلوث الحراري الذي قد يبيد فيها الحياة ، والتلوث الإشعاعي قد ينتج من المواد الاشعاعية التي تجد طريقها الى البيئة ، وقد تلوث هواءها وماءها وأحياءها ، والتلوث الكيميائي ناشيء من نفايات الصناعات الكيميائية الكثيرة والمتنوعة والتي تزيد زيادة مطردة كل عام ، ويكفينا مثلاً حادثة الهند الأخيرة التي راح ضحيتها الآلاف ، وغني عن القول إن هذه النفايات الصناعية هي مشكلة المشاكل ، لأن التخلص من موادها الضارة على البيئة ، والسامة بالنسبة للحياة ، يحتاج الى تكاليف كثيرة ، مما يشكل عبئاً على الانتاج ، ولهذا فكثيراً ما تتخلص المصانع من نفاياتها السائلة في مصادر المياه (شكل ٤ ، ٥) سواء في القنوات أو الترع أو الأنهار أو البحار والمحيطات ، ولقد تسبب ذلك في كوارث كثيرة لا يتسع لذكرها المجال ، لكنها ــ في النهاية ــ تنتهي غالباً في جسم الانسان عندما يتناول منها تركيزات جد ضئيلة في الماء والطعام ،وبمرور الأيام والأعوام ، يتجمع الضئيل مع الضئيل ، وقد يعبر عن نفسه بكوارث جسام .

خذ على سبيل المثال المواد البترولية التي تلوث البحار ، ثم تلفظها الشواطئ ، فنراها على هيئة تلوث واضح لا يختلف عليه اثنان ، ذلك أن ما تتقبله البحار من البترول الخام ، يربو على عشرة ملايين من الأطنان كل عام .. بعضها يأتي من حوادث تحطيم ناقلات البترول ، أو من ملء خزاناتها بالماء ، ثم تفريغها فيه بما حملت من بقايا بترولها ، أو مما يتسرب ما بين ضخ وتفريغ ، أو من آبار البترول البحرية نتيجة خلل طارئ(شكل ٦) .. الى آخر هذه الأحداث التي نسمع عنها كل آن وحين ، وترصدها الطائرات على هيئة بقع من الزيت قد تغطي مساحات هائلة من سطح البحار ، وتعلن لها حالات الطوارئ ، كلما



شكل (٣) من واحدة من المستعمرات التي تنمو في الأطباق (انظر شكل ٢) ، يمكن التعرف على أفرادها تحت عدسات الميكروسكوب ، والصورة لكائن الخميرة الذي عزل من الماء ، وكان دليلنا لنوع التلوث الذي حدث .

شكل (٤) نفايات مصنع للأصباغ ، وتراها هنا تخرج بألوانها المخففة ، لتصب في احدى مصادر المياه دون معالجة ، ومثل هذه النفايات من أخطر السموم التى تؤثر في الكائنات المائية ، وقد ينتقل أثرها الى الكائنات البرية .. ومنها الانسان .



شكل (٥) الصورة لا تحتاج إلى تعليق ، فهي معبرة أوضح تعبير ، وشاهدة على مدى استهتار الانسان ببيئته التى كانت نظيفة ، فلوثها ودنسها بهذه النفاية الصناعية القذرة .

تحركت واقتربت من الشواطئ .

وقد يمكن أن يمر كل هذا مرور الكرام ، لكن الواقع غير ذلك ، اذ أن بعض مكونات البترول ذات خواص سامة على الأحياء البحرية ، وأحياناً ما تمتصها الطحالب وتركزها في أنسجتها ، وعندما تعيش عليها الأسماك ، فلا مناص من امتصاصها في أجسامها ، لتنتقل بعد ذلك الى الانسان عندما يتناولها كطعام ، ولا زالت البحوث قائمة ، لتحلل وتسجل وتستنتج ، لكن مما لا شك فيه أن النتائج في غير صالحنا ، طالما كان الانسان يسيئ الى بيئته ، ولا يراعي التوازن المضبوط الذي جاء عليه كوكبنا من قديم الزمن ، وقد يزيد الخلل في الموازين ، فتقلب عليه الموائد بما حملت !

والغريب أن أعظم الدول تقدماً ، هي أكثرها تلوثاً .. فما من بحيرة أو نهر أو شاطيء بحري قريب من أنشطة الانسان المدنية والصناعية الا وله نصيب من التلوث بالفضلات الآدمية ، أو النفايات الصناعية ، مما يشكل عبئاً على البيئة المائية ، وقد يتضاعف هذا العبء الى الدرجة التي تصبح فيها بعض الأنهار أو البحيرات عقيمة من الحياة ، اللهم إلا من ميكروبات ترتع فيها وتتكاثر ، فلا يفوح منها الا كل كريه وفاسد .. هذا رغم القوانين والتشريعات التي تحرم صب المخلفات في مصادر المياه العذبة والمالحة .

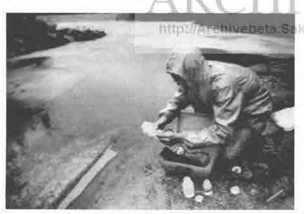
المياه مصدر من مصادر الأمراض

وكما كان الماء مصدراً أساسياً للحياة . إلا أنه قد يحمل في ثناياه بذور الموت ، فالمعروف منذ زمن طويل أن كثيراً من الأمراض المعوية الخطرة مثل التيفود والباراتيفود والكوليرا والدوزنطاريا والتهاب الكبد الفيروسي وما شابه ذلك ، قد تنتقل عن طريق المياه الملوثة بميكروبات هذه الأمراض ، ولولا عمليات التنقية التي تتم في محطات المياه ، لانتشرت الأوبئة ، وعمت المصائب .. ذلك أن معظم مصادر المياه العذبة لا تخلو الآن من تلوث بفضلات الانسان (شكل ٧) وقد تحمل بعض هذه الفضلات ميكروبات الأمراض المعوية من مرضى مصابين بها ، فتنتشر بين الأصحاء ، فيمرضون ، ويزيد العبء على المياه ، فتزيد الأمراض .. وهكذا يمكن أن تسير مثل هذه الأمور في حلقة مفرغة ، لكن حمداً لله أن وضع الانسان لذلك حدوداً وقائية بينه وبين البلاء الذي جلبته عليه المدنية بالنفايات الكثيرة المختلفة التي تنساب كسيل دافق .



شكل (٦) حتى البحار لا تخلو الآن من تلوث بترولي له أثره الضار على حياة الكائنات فيها ، وترى في الصورة « نافورة » البترول الخام تندفع من بئر بحرى نتيجة خلل طارىء ، أو اهمال وارد كثيرا ما يتكرر في أية صورة من الصور .

شكل (٧) في كل يوم ، بل وفي كل ساعة ، تجمع عشرات ومئات الألوف من عينات المياه في العالم ، حيث ترسل الى المعامل المختلفة ، لاجراء التحليلات عليها ، ولمعرفة ما أصاب مياه هذا الكوكب من كوارث ظاهرة وخافية .



والواقع أن هناك بحوثاً كثيرة تجري في معامل العلماء المنتشرة على هذا الكوكب ، وفيها تتحدد الأضرار التي يمكن أن تأتي من آلاف المركبات التي تنطلق من حولنا ، حتى يتسنى وضع المعايير والحدود لتلوث البيئة بمثل هذه المركبات الغريبة التي لم تعرفها أرضنا في عمرها الطويل .. اذ أنها في أحيان كثيرة تنساب الى أجسام الكائنات الحية ــ بما في ذلك الانسان ــ خاصة وأنه قد ثبت أن بعض هذه المركبات تأتيه عن طريق الماء الذي يشربه ، أو الذي يدخل في تجهيز طعامه ، ثم تتجسد خطورة ذلك في تداخل هذه المركبات في العناصر الوراثية ، أو التفاعلات الحيوية ، التي تتم في الكائنات الحية ، فتحدث فيها طفرات سيئة ، وأمراض معروفة أو مجهولة ، خاصة في المراحل الأولى لتكوين الأجنة .

ومعروف أن الماء يأتي في المرتبة الثانية بعد الهواء في أهميته للكائنات الحية ، ذلك أن الماء يدخل كوسيط هام في كل العمليات الحيوية ، والحفاظ عليه من التلوث ، هو حفاظ على الحياة ذاتها ، لكن يبدو أن الحصول على كوب من الماء النقي الخالي من أي تلوث طفيف أصبح حلما بعيد المنال ، ولا مبالغة في ذلك .. صحيح أن ماء الشرب المنقى يبدو للعين وكأنما هو ماء صاف زلال ، لكن ذلك لا يمثل الواقع ، إذ تكمن فيه غالباً بعض الملوثات الكيميائية بنسب ضئيلة ، ولا تكتشفها الا التحليلات الكيميائية الدقيقة ، وقد لا تشكل هذه النسب خطورة على الحياة الآن ، لكن كل شيء آخذ في الزيادة بمرور الأعوام .. فالأنشطة الصناعية ، والمواد الكيميائية ، والتكدسات السكانية ، والنفايات بكل أنواعها تزيد باستمرار ، ولقد بدأت الدول النامية ــ ومنها الوطن العربي ــ في إقامة عدد من الصناعات الثقيلة ، وما لم تؤخذ الاحتياطات الكفيلة بالحد من تلوث البيئة ، فإن ذلك كفيل بحدوث خلل في محيطها الحيوي ، طال الزمان أو قصر ، ولن يحيق الخلل الا بمن بدأه ، ولابد أن يدفع ثمنه ، وقد يكون باهظاً ، خاصة اذا أصاب الناس في أغلى ما يطلبون .. نعني الصحة والحياة ، فمعظم النار من مستصغر الشرر ــ كما يقولون ــ وفي ذلك الكفاية لقوم يفقهون .

عبد المحسن صالح

حول مؤتمر اللغة العربيّة



بقلم: عبد الرزاق البصير

ليتنى أملك قدرة تمكننى من رسم صورة متكاملة أو قريبة من التكامل لما قام به مؤتمر المجمع اللغوى فى هذا العام من نشاط خصب يملأ نفس كل مؤمن بقوة الأمة العربية وما تملكه من قدرة تمكنها من مقاومة هذه التحديات الخطيره التى تكتنفها من كل الجهات . فلقد كان تعريب التعليم هو القضية التى دارت حولها بحوث المؤتمر ــ وهى قضية خطيرة لأن الفرد اذا لم يعتقد بأن لغته قادرة على مواكبة الحياة فان ارتباطه بأمته وايمانه باستحقاقها للحياة لابد وأن يعتريهما الوهن ــ وبهذا يصبح انتماؤه لأمته واهيا يمكن أعداء هذه الأمة من زعزعته الأمر الذى يزيد فى تمزيق وحدتها .

ويحق للفرد العربى أن يتساءل عن سبب تأخر انتهاء علمائنا من علاج هذه المشكلة فى حين أنها أصبحت من المسلمات عند جميع الأمم الحية فالمثقفون من الهنود والفيتناميين وغيرهم مما يسمى بالعالم الثالث لاينشغلون كما ننشغل نحن بهذه القضية لأن التعليم باللغة القومية أمر مفروغ منه عندهم .

مقــاومة الاستعمــار لتعزيز اللغة العربية

ومن المحقق أن سبب تأخرنا فى علاج هذه المشكلة يعود الى ما غرسه أعداؤنا المستعمرون فى نفوس الكثيرين من أن لغة القرآن لغة غير قادرة على الملائمة للحياة المعاصرة ، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، وانى اكتفى هنا بما رواه الدكتور رمسيس جرجس الأستاذ فى كلية الطب فى القاهرة أنه ، عندما قامت الثوره المصرية على الاستعمار الانجليزى قبل أكثر من نصف قرن كان من ضمن مافكرنا فيه اصدار مجلة طبية عربية تسجل مايقوم به المصريون فى مختلف فروع الطب من ابحاث واختبارات ، وكان أستاذ الجراحة اذ ذاك انجليزيا ، فهاج لهذا الخاطر وأخذ يحاجتى فى ذلك مؤكدا أنه مشروع فاشل ، وسيقضى على الطب فى مصر قضاء مبرما ، فقلت له ولكن العرب سبقوا فدرسوا هذا العلم بالعربية وعنهم نقل الأوربيون فأسف لما وصلت اليه عقليتى من تدهور ، ودعا لى بالتوفيق

ولم يقتصر هذا الايحاء من الانجليز فى مصر وانما امتد فى كل بلد عربى رسخت فيه أقدامهم حتى وقر فى بعض النفوس أن هذا القول الى جانب الصواب ، أما فرنسا فانها مضت الى أبعد من ذلك حيث جعلت لغتها هى اللغة الأولى واللغة العربية هى اللغة الثانية فى المغرب العربى الى حد أصبح التعليم بلغة القرآن مشكلة كبيره احتاجت الى بذل جهود مضنية لنصبح كسائر الأمم مؤمنين بقدرة لغتنا معتزين بها . ويقال مثل ذلك فى ايطاليا التى رسخت أقدامها فى ليبيا ، ولا يفوتنا أن نشير هنا الى أن رواسب ثقيله كانت تملأ بعض النفوس من الأجيال الماضية التى عاشت تحت ظل الحكم التركى لكن اللغة العربية كذبت هذا القول وأثبتت أنها بعكس مايصفه أعداؤها من أنها ضعيفه . فهى لغه حيه ولود مؤهلة للنهوض بأثقل الأعباء وللاضطلاع بأعظم التكاليف ، لاتنوء بحمل ولا تشكو اعياء على كرّ الجديدين .

بدأت آمالنا تتحقق

وان مما يملأ النفس سرورا وغبطة أن قرارات حاسمه قد صدرت بتعريب التعليم فى كل مراحله فى جميع البلاد العربية على وجه التقريب .

ولقد كانت البحوث التى ألقيت فى مؤتمر المجمع اللغوى تؤكد بالأدلة التى لاتقبل الشك ان اللغة العربية أمانة فى أعناقنا وأن من الخيانة لها بأن يكون التدريس بغيرها من اللغات فى العلوم التطبيقية ــ فإن اللغة اليابانية والصينية والفارسية والعبرية لاتملك من القوة والقدرة مثلما تملك لغة القرآن حيث أن النحت والاشتقاق قاعدتان أساسيتان من قواعدها وهما قاعدتان تيسران وضع المصطلحات العلمية وتعريبها بكل سهوله اذا صدق الايمان بها . ولعل ماوضعته مجامع اللغة العربية من ألوف المصطلحات فى الجيولوجيا والفيزيقا والطب والهندسة وغيرها من العلوم التطبيقيه دليل صادق يعزز غيره من الأدله على حيوية لغتنا المجيده . ثم أنها كانت لغة العالم المتمدن كله أيام ازدهار الحضارة العربية الاسلامية . من هذا تتضح أهمية مؤتمر المجمع اللغوى فى هذا العام . أما أننى عاجز عن رسم صورة متكاملة لأعمال المؤتمر فلأن القلم مهما بلغت قدرته لايستطيع أن يصور مايحدثه حسن الالقاء من تأثير فى النفوس التى تتذوق الأحاديث التى يخرج أصحابها الحروف من مخارجها الصحيحة ، بطريقة هادئة .

ولقد كنت أردد فى نفسى وأنا أستمع الى تلك الأحاديث الطلية من أولئك العلماء الأعلام حول تعريب التعليم قول ابن الرومى :

وحديثها السحر الحلال لو أنها
لم تجن قتل المسلم المتحرز
شرك النفوس وفتنه ما مثلها
للمطمئن وعقلة المستـــــــوفــز
ان طال لم يملل وان هى أوجزت
ود المحدث أنها لم توجــز

فأنت ترى أن ابن الرومى قد أقر بعجزه بطريقة غير مباشره عن رسم صورة صادقة لتأثير حلاوة الحديث فى النفوس على الرغم من أنه من أقوى وأقدر الشعراء على التصوير.

أهمية هذا المؤتمر

بقى أن أشير الى أن ما ذكرته ليس الا لمحة بسيطة لما دار فى مؤتمر المجمع من أحاديث علمية رفيعة تضم أجل الفوائد وأعظمها ، ألقاها علماء تضم جوانحهم عقولا مستنيرة ـ معاصرة ترفض الجمود كل الرفض ، فالذين يصفون أعضاء المجمع بأنهم يقصرون نشاطهم الذهنى على تأخير الخبر أو تقديمه أو تقديم الفاعل على الفعل الى ما هنالك من جمود بعض علماء النحو أو أنهم يضيعون وقتهم فى الجناس والطباق والالتفات وغيره من الفنون البديعية والصنعة الكلامية ، يظلمون علماءنا كل الظلم ، فإن فيهم المتفوقون فى الطب والهندسة والصيدله والفيزياء والكيمياء ، على أن ذلك كله لم يضعف قدرتهم اللغوية ، وقد يكون من حقهم أن أذكر نقاشا دار حول مصطلح علمى فى علم التقنية حيث أقترح ـ بعضهم أن يسمى تلقائيا ، فكان أن قال الخبير أن التلقائية أمر غير موجود فى العلوم التطبيقية اذ أن كل نشاط لابد وأن يعود الى سبب من الأسباب العلمية ، فالعلاقة السببية أصل من أصول العلم لايصح أبدا اغفاله . وهذا تنبيه الى نقطة ليتها ترسخ فى النفوس لأننا اذا آمنا بذلك فلا بد لنا من أن لانقبل أى خرافة من الخرافات وبذلك تزول كثير من الأوهام التى يروج لها بعض الناس تحت أقنعة من التظاهر بنصره الدين الحنيف ، في حين أن الاسلام جاء ليطهر النفوس من خبائث الخرافات والأوهام ، وبالجملة فإن هذا المؤتمر قد حفل نشاطه بأمور مهمه جدا منها مايمس لغة القرآن من حيث تعزيزها وتقويتها بالمصطلحات العلمية العديدة ، ومنها ما يمس تعريب التعليم الذى كان هو موضوع المؤتمر فى هذا العام كما أشرنا الى ذلك قبل قليل .

أليس من المستغرب أن لاتهتم وسائل الاعلام المرئية بصورة خاصة والمسموعة والمقروءة بصورة عامة بوقائع هذا المؤتمر ليكون الناس على صلة قوية به ... لا فى جمهورية مصر وحدها وانما فى جميع أقطار الوطن العربى ، لأن المواضيع التى دارت حولها الأحاديث لاتقل أهمية عن اى موضوع من المواضيع التى تنشرها وسائل الاعلام ، إن لم تفوقها أهمية ومكانة .

عبد الرزاق البصير ـ الكويت

لا بديل ليومي «١»

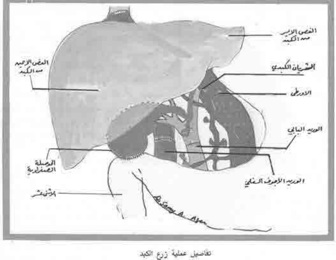
شعر: محمد القيسي



أكتفي بالكلامْ ،
فآخذ منك الكلامْ
أكتفي بالصدى
فيجيء الحمامْ
أكتفي بيديكِ اللتينْ
تزهرانْ
وسطَ هذا الحطامْ
أكتفي بالغناء فيشرقُ فيكِ المكانْ
أكتفي بالقوامْ .
أكتفي بالأصابعْ
أكتفي بالشوارعْ
أكتفي بالزحامْ
أكتفي أيها الدمُ والأرجوانْ
أكتفي بالبريقْ
أكتفي بحجار الطريقْ
أكتفي بارتعاشة روحي وأسعى
أكتفي بالذي يكتفيه الغريقْ
أكتفي بالذي أكتفيه ،

فيفزعُ هذا الصنوبر مني
ويفزعُ حتى الكلامْ
يفزعُ الصدرُ ، كيفَ أنامْ
يفزعُ الأقحوانْ
يفزعُ العابرونَ إلى يومهم
في صباح الطعامْ
يفزعُ البَابُ والنافذةْ
تفزعُ الطاولةْ
يفزعُ المقعدُ الخشبيّْ
يفزعُ الطيرُ والريحُ ، تفزع فيَّ العظامْ
تفزعُ اليابسةْ
فاستقري إذن واهدئي
لا بديل ليومي
لا بديلَ لتفاحتي الناضجةْ
لا بديلْ
وإلى أبدِ الأبدينَ ، إلى أبدِ الآبدينَ ،
تظلينَ لي
وتظلينَ أنتِ اليمامْ .

هامش : (١) مقطع من قصيدة طويلة بعنوان «الوقوف في جرش»



تفاصيل عملية زرع الكبد



زَرْع الكبد .. أمل جديد يفتح الطريق المسدود!

بقلم: الدكتور سامي عزيز

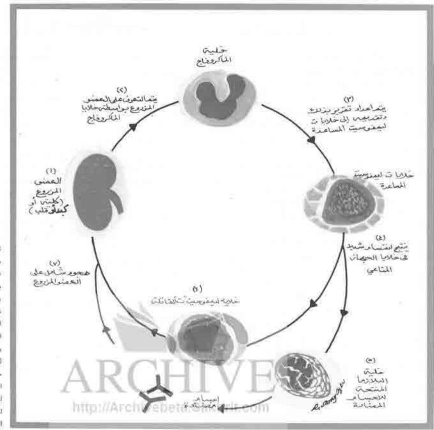
تعنى حالات الفشل الكبدي وأمراض الكبد المزمنة بالنسبة للطبيب والمريض . الدخول في طريق مسدود .

فالعلاج الحالي رغم كل التقدم الطبي الذى توصل اليه في ميادين الطب المختلفة لا يعنى الشفاء .. إنه مجرد محاولة لتخفيف آلام المريض . والحقيقة أنه منذ سنوات مضت كان علاج حالات الفشل الكلوى لا يختلف كثيرا . إلا أنه في خلال السنوات العشر الأخيرة تم انجاز الكثير لمرضى الفشل الكلوى . وأهم هذه الانجازات :

- الكلية الصناعية بأحجامها المختلفة .
- الغسيل البريتوني الذى يمتاز بقلة تكاليفه .
- نجاح عمليات زرع الكلى .

وهذه الآمال العلاجية الواسعة التى تفتحت بالفعل أمام مرضى الفشل الكلوى تجعلنا نفكر بجدية في طرق مماثلة لعلاج مرضى حالات الفشل الكبدى .

ويعتبر زرع الكبد من أهم هذه الأهداف التى تسعى اليها مراكز طبية متخصصة في جهات مختلفة من العالم . إن نجاح مثل هذه العمليات يعنى ببساطة ايجاد وسيلة علاجية فعالة تفتح أبوابا واسعة من الأمل أمام كل مريض .



تقوم خلايا الماكروفاج (نوع خاص من كريات الدم البيضاء) بالتعرف على العضو المزروع واعداد تقرير بذلك . ويرسل التقرير إلى خلايا « ليمفوسيت ت المساعدة » . وينتج عن ذلك انقسام شديد فى خلايا الجهاز المناعى منتجا نوعان من الخلايا : (١) خلايا ليمفوسيت « ت » القاتلة (٢) خلايا ليمفوسيت ب التى تتحول إلى خلايا البلازما المنتجة للاجسام المضادة . ويتعرض بذلك العضو المزروع لعدوان شامل من الأجسام المضادة وخلايا الليمفوسيت « ت » القاتلة وخلايا الماكروفاج

ويعتبر « ب والش » أول من فكر فى عمليات زرع الكبد .. فى سنة ١٩٥٥ أجرى عدداً من عمليات زرع الكبد على الكلاب ، ولكن النتائج التى توصل اليها لم تكن مرضية بالمرة .

ومع أواخر سنة ١٩٦٤ أجرى « والش » وعدد من مساعديه أول عملية زرع كبد فى انسان . وعاش بعدها المريض لمدة ١٦ يوما . وفى سنة ١٩٧٤ وحدها تم إجراء ٢٢٧ عملية زرع كبدي فى مراكز مختلفة من العالم (معظمها فى امريكا) والنتائج تشير إلى نجاح ١٥ عملية ، وبلغت أطول مدة عاشها المريض بعد عملية زرع الكبد خمس سنوات .

وتشير التقارير التى أجريت مع بداية الثمانينات إلى أن نسبة النجاح فى عمليات زرع الكبد أصبحت بمعدل نجاح ٩ عمليات من بين ١٨ عملية زرع كبدي .

وبلغ متوسط الفترة التى عاشها المريض بعد العملية من ١٤ شهراً إلى خمس سنوات، وبمقارنة هذه النتائج بعمليات زرع الكلى نجد أن من بين ١٩٠٠٠ عملية زرع كلوى نجحت ٧٨٠٠ عملية ، ووصلت أطول مدة عاشها المريض بعد عملية زرع الكلية له الى ١٨ سنة . وهذه النتائج لم يتوصل اليها الأطباء الا بعد كفاح طويل . لذلك فالأمل معقود على تحقيق نتائج مماثلة فى عمليات زرع الكبد فى المستقبل القريب .

زرع الكبد .. لمن ؟

وهناك شروط عامة يجب توفرها فى المريض قبل ترشيحة لمثل هذه العمليات وأهم هذه الشروط :

- مراعاة ألا تزيد سن المريض عن ٤٠ سنة .
- أن يكون خاليا من الالتهابات البكتيرية والفيروسية والفطرية المختلفة وقت العملية .
- أن تكون حالته النفسية فى وضع طيب خاصة وأن المريض بعد العملية يحتاج الى فترات من العلاج بالعقاقير المثبطة للجهاز المناعي .
- استبعاد حالات مدمني الكحوليات التى أدى الادمان فيها بالاضافة إلى الفشل الكبدى الى اضطرابات نفسية وعصبية .
- استبعاد الحالات غير المتقدمة والتى يمكن أن تعيش فترة اطول بدون اجراء زرع كبدي .

أما أهم أمراض الكبد التى يفضل فيها إجراء مثل هذه العمليات فهى :

- السرطان الكبدى الأولى : وينتشر هذا النوع من السرطانات فى آسيا ووسط أفريقيا . إذ يمثل حوالى ٣٠٪ من السرطانات المعروفة لديهم . أما فى الولايات المتحدة وأوروبا فالصورة مختلفة (يمثل سرطان الكبد الأولى أقل من ٢٠٪ من مختلف السرطانات المنتشرة هناك) . ويرجع سرطان الكبد إلى العديد من الأسباب أهمها :
- التهابات الكبد المزمنة الناتجة عن كثرة تناول المشروبات الكحولية وبعض الأمراض المتعلقة بالايض .
- التهاب الكبد الناتج عن الفيروس « ب » .
- بعض المواد مثل « الافلاتوكسين » الموجودة بكثرة فى طعام القبائل الأفريقية والآسيوية .
- بعض الهرمونات وخاصة هرمون الذكورة مما يفسر لنا السبب فى انتشاره بين الرجال عن النساء بنسبة ٤ إلى ١ .
- ثاني أوكسيد الثوريم الذى أستخدم فى

التصوير الراديولوجي حتى منتصف الخمسينات وتسبب في حدوث سرطان الكبد الأولي في معظم الحالات التي تعرضت له بعد أكثر من ١٥ سنة .

وتجدر الاشارة هنا إلى أن بعض المراكز تنصح بعدم اجراء عمليات زرع للكبد نظرا لسرعة حدوث الانتشار السرطاني بعد تناول العقاقير المثبطة للجهاز المناعي بعد العملية .

ـ سرطان القنوات المرارية : يتميز سرطان القنوات المرارية ببطء شديد في النمو وتأخر حدوث الانتشار السرطاني . لذلك فالمريض يمكنه أن يعيش فترة أطول بدون الحاجة إلى إجراء زرع كبدي . ولكن في المستقبل القريب ومع تحقيق نتائج أفضل في عمليات زرع الكبد ، ستتغير الأحوال ويفضل إجراء عملية زرع كبدي بمجرد اكتشاف المرض وقبل حدوث أي انتشار سرطاني .

ـ انسداد القنوات المرارية : يفضل هنا إجراء عملية زرع الكبد خاصة وأن نتائج العملية أفضل بكثير من ترك المريض .

ـ الالتهاب الكبدي النشط : يرجع الالتهاب الكبدي النشط إلى عدة أسباب أهمها :

• الاصابة بالفيروس ب أو الفيروس الذي تم عزله حديثا وهو لا يحمل صفات « أ » ولا صفات «ب» ، ويسميه البعض بالفيروس «جـ» وغالبا ما تتم العدوى به عن طريق نقل الدم .

• بعض المسهلات التي تحتوي على مادة الاوكسي فينستين .

• كما ثبت حاليا أن بعض العقاقير ربما تكون مسئولة عن ظهور هذا المرض عند استخدامها لفترات طويلة مثل : المثيل دوبا (المستخدم في علاج ارتفاع ضغط الدم) وعقار ايزونازيد (المستخدم في علاج الدرن) وعقار نيتروفيرانتين (المستخدم في علاج التهابات المسالك البولية) .

ـ الاضطرابات الايضية لعنصر النحاس (مرض ولسن) : حيث تتراكم كميات كبيرة من عنصر النحاس في نسيج الكبد يؤدي إلى حدوث تليف وفشل كبدي . وقد يصاحب ذلك بعض الاضطرابات العصبية نتيجة تراكم عنصر النحاس في الجهاز العصبي .

ـ الفشل الكلوي المتلازم مع الفشل الكبدي .

ـ بعض حالات الفشل الكبدي .

ـ الامراض الايضية المرتبطة بالكبد .

اعداد المريض للعملية

قبل إجراء العملية يجب إجراء العديد من الفحوص التي بلا شك تفيد في تقييم حالة المريض العامة والاختيار الافضل للكبد الذي يناسبه من الناحية المناعية حتى لا يتم طرده وفشله في تأدية وظيفته ، وأخيرا مساعدة الجراح عند إجراء العملية وأهم هذه الاختبارات :

• تحديد حجم الكبد بالموجات فوق الصوتية .

• تحديد توزيع الدم في الكبد باستخدام المواد المشعة .

• استخدام الأشعة لتصوير الاوعية الدموية المغذية للكبد بعد حقنها بمادة ملونة .

• تحديد فصيلة دم المريض .

• عمل مزرعة لخلايا الدم الليمفاوية الخاصة بالمريض .

• اختبارات وظائف الكبد المختلفة ونسبة هيموجلوبين الدم وسرعة النزيف والتجلط وسرعة ترسيب الدم .

كبد من .. لمن ؟

لا يوجد بالطبع شيء اسمه التبرع بالكبد .. لذلك ليس هناك من سبيل للحصول على الكبد سوى حالات الوفاة ومنذ سنة ١٩٦٨ اعتبرت (في العديد من المراكز الطبية) تغيرات رسام الدماغ الكهربائي وليس توقف ضربات القلب دليلا على تحديد لحظة الوفاة . فليس المهم توقف ضربات القلب كما كان يظن في الماضي بل المهم هو تغير تسجيل رسام الدماغ الكهربائي إلى خط مستقيم بدون أي ذبذبات كدليل على حدوث الوفاة .. فالموت إذن يبدأ في المخ وليس في القلب .. وأخذ الكبد مبكرا من الجثة يتيح فرصة أكبر لنجاح عملية زرعه في شخص آخر .. ولكن يجب أخذ اقرار من اقاربه حتى تتم هذه العملية في شرعية تامة وبموافقة أهله . ومدى شرعية زرع الاعضاء وطرق تحديد لحظة الوفاة من الموضوعات التي كثر الحديث عنها وتعددت الآراء فيها ولا يتسع المجال هنا بالطبع للتحدث فيها ، وسنلقي عليها الضوء من خلال مقال آخر قريب بإذن الله .

وعادة يتم نقل المتوفى فورا إلى المستشفى التي يحتجز فيها المريض المحتاج إلى زرع الكبد ويفضل الابقاء على الكبد في مكانه حتى يتم الانتهاء من رفع الكبد المريض غير المرغوب فيه مما يتيح فرصة أكبر لنجاح عملية الزرع . أما في حالة الاحتفاظ بكبد المتوفي لحين زرعه بعد فترة فإنه يتعين أولا إجراء تصوير بالاشعة للشريان المغذي للكبد بعد حقنه بمادة ملونة حتى يتضح مساره . وبعد فصل الكبد عن الجثة تبدأ تغذيته بسوائل الدكستران (١٢ لترا تقريبا للكبد الواحد) من خلال الشريان الكبدي والوريد البابي المتصلين به (يجب الابقاء على هذه الأوعية متصلة بالكبد حتى يسهل زرعه في المريض) . كما يحتاج الكبد إلى غرف خاصة مجهزة بالاوكسجين للمحافظة على أنسجته في حالة صالحة .

ويجب أن تتوافر الشروط الآتية قبل الاقدام على عملية الزرع :

ـ أن يتفق المتوفي (صاحب الكبد) والمريض المراد زرع الكبد فيه في فصيله الدم .

ـ أن يتفق المتوفي والمريض في فصيلة الانسجة .

ـ أن يوافق أهل المتوفي والمريض المراد زرع الكبد فيه على إجراء العملية .

ـ أن يكون صاحب الكبد خاليا من السرطانات والامراض المعدية والتقيحات وغيرها .

تفاصيل العملية :

التفاصيل الدقيقة لمثل هذه العمليات تختص بها كتب الجراحة المتخصصة في هذا المجال .. وسنكتفي هنا بالاشارة إلى بعض الامور التي قد تهم القارىء (شكل رقم ١) . في البداية يتم ربط الوريد البابي والوريد الاجوف السفلي في المريض المراد زرع الكبد فيه لفترة تتراوح من ٥٠ إلى ٩٠ دقيقة ، ويتم أثناء ذلك توصيل الوريد البابي (المتصل بالكبد المراد زرعه) مع الوريد البابي الخاص بالمريض ، كما يتم توصيل الوريد الأجوف السفلي أسفل وأعلى الكبد المراد زرعه ، ويلي ذلك توصيل الشريان الكبدي المتصل بالكبد مع الشريان الكبدي للمريض .

وهنا يأتي الدور على أصعب وأدق خطوات العملية ، وهي توصيل القناة المرارية : فمعظم المضاعفات التي قد تسبب الوفاة بعد العملية قد يكون سببها :

ـ ضيق وانسداد القناة المرارية .

ـ التهاب القنوات المرارية .

ـ تكوين خراج وتقيحات في القناة المرارية .

ويمكن الاستغناء عن توصيل القناة المرارية نظرا لصعوبته وصعوبة توصيل الشريان الخاص بهذه القناة ، وذلك باستخدام الطريقة التي ابتكرها الجراح « ستارذل » ، إذ قام بتوصيل الحويصلة المرارية نفسها بالاثنى عشر (انظر الشكل) بدلا من توصيل القناة المرارية التي تنتهي هي الأخرى بالاثنى عشر . ويعتبرهذا الحل في حد ذاته وسيلة جراحية نافعة توصي بها بعض المراكز الطبية المتخصصة ولو أنها غير محببه ولها عيوبها . وتجدر الإشارة إلى أن هناك طرقاً جراحية أخرى حديثة تم ابتكارها واستخدامها في العديد من المراكز المتخصصة ولا يسمح المجال هنا بمناقشتها .

ولكن هل يمكن زرع كبد جديد وترك الكبد المريض في مكانه ؟

في البداية ، تم تجريب هذه الطريقة على حيوانات المعمل . وفي سنة ١٩٧٠ قام « فورتنر » وعدد من مساعديه بتجريبها على الانسان . وتمتاز هذه الطريقة على الطريقة التقليدية بعدة مزايا أهمها :

ـ يمكن بهذه الطريقة مساعدة كبد المريض للقيام بوظيفته بدلا من الاستغناء التام عنه . لذلك يستحسن استخدام هذه الطريقة في حالات الفشل

الكبدي غير التام .

ـ لا تعرض هذه الطريقة المريض لمضاعفات واخطار عملية الزرع التقليدية . لذلك يفضل استخدامها في حالة تدهور صحة المريض العامة .

ـ في حالة طرد الجسم للكبد المزروع تستمر حياة المريض معتمدة على كبده الاساسي . لذلك يفضل استخدام هذه الطريقة في حالة احتمال حدوث طرد للكبد المزروع .

ـ إجراء الزرع بهذه الطريقة أيسر من الطريقة التقليدية ، ولا يحتاج إلى مهارة وخبرة .

تثبيط الجهاز المناعي للجسم :

عادة ما توصف هذه العقاقير قبل القيام بالعملية بثلاثة أيام . ويستمر تناولها بعد العملية وتعدل الجرعة بحسب استجابة جسم المريض لها ، ووضع الكبد المزروع وأهم هذه العقاقير :

ـ ازاثيوبرين .
ـ سيكلوفوسفاميد .
ـ بردنيزون .

وتشير الأبحاث إلى أن عقار «الازاثيوبرين» لايستطيع أن يثبط الجهاز المناعي للجسم عند اختلال وظائف الكبد . لذلك في حالة طرد الجسم للكبد المزروع يفضل عدم استخدام عقار (الازاثيوبرين) ويستبدل بجرعات كبيرة من عقار (البردنيزون) .

ولكن لماذا يجب تثبيط الجهاز المناعي للجسم ؟

قد يحدث طرد مبكر للكبد المزروع حيث يرتفع مستوى البليروبين في الدم مع ارتفاع مستوى بعض الانزيمات الدالة على وظائف الكبد . وتشخيص ذلك قد يحتاج إلى أخذ عينة من الكبد بابرة رفيعة وفحصها تحت الميكروسكوب حيث يمكن دراسة خلايا الكبد والتغيرات الحادثة فيها (شكل رقم ٢) .

ـ الطرد المزمن (المتأخر) للكبد المزروع ويمكن تشخيصه بدراسة التغيرات الحادثة في جدران الشرايين . وقد وجد أن هذه التغيرات ترجع إلى وجود أجسام مضادة ضد أنسجة الكبد المزروع قام بتكوينها الجهاز المناعي للجسم وترسبت على جدران الشرايين ، مما يؤكد دور الأجسام المضادة في طرد الكبد (تحدث الأجسام المضادة تليفاً كبدياً ينتهي بفشله في تأدية وظائفه) .

ـ ثلث الحالات التي تعيش بعد العملية عرضة لحدوث انسداد في القناة المرارية أو التهابها وربما تكوين حصوات مرارية بها .

ـ تثبيط الجهاز المناعي للجسم يجعل المريض أكثر عرضة للاصابة بالميكروبات والفيروسات والفطريات المختلفة . وقد يحدث عن ذلك تسمم دموي ينتهي بالوفاة .

ـ جلطة الشريان الكبدي الأيمن ، مما ينتهي بغرغرينا . وموت أنسجة الكبد التى تعتمد في تغذيتها على فروعه

ـ يكثر حدوث سرطان الأنسجة الليمفاوية في الكبد المزروع .

> • مع بداية الثمانينات أصبحت نسبة النجاح في عمليات زرع الكبد : نجاح ٩ عمليات من بين ١٨ عملية .

> • زرع الكبد .. لمن ؟ وعلى أى أساس يتم نقل الكبد من انسان إلى آخر ؟

زرع الكبد .. ماذا حققنا فيه ؟

تصل نسبة الوفاة بعد العملية مباشرة إلى ٣٠٪ وترجع الوفاة هنا إلى أحد الأسباب الآتية :

ـ حدوث نزيف شديد .
ـ انسداد الشريان الكبدي .
ـ انسداد الوريد البابي .
ـ توقف القلب .

ومن أهم المشاكل التي تواجهنا بعد زرع الأعضاء (الكلى أو القلب أو الكبد أو الرئة) فشل هذه الأعضاء ، وتوقفها عن العمل بعد زرعها (طرد الجسم لها) .

ويلعب الجهاز المناعي وخاصة الخلايا الليمفاوية «ليمفوسيت ت» دوراً هاما في هذا الفشل . لذلك قد نلجأ إلى اضعاف الجهاز المناعي وتثبيطه حتى لايقوم بعملية الطرد للجسم المزروع . وفي البداية لجأ العلماء إلى تعريض جسم المريض المراد نقل عضو إليه إلى أشعة إكس . ولكن تعرض الجسم كله لأشعة اكس له مضاعفاته الخطيرة ، إذ تقل مقاومة الجسم ويصبح عرضة للإصابة بالأمراض البكتيرية أو الفيروسية أو الفطرية المختلفة مما قد يؤدي إلى الوفاة . وتم التوصل بعد ذلك إلى العقاقير المثبطة للجهاز المناعي ، وأول هذه العقاقير عقار «ازاثيوبرين» الذي استخدم لأول مرة سنة ١٩٦٢ مع مركبات الكورتيزون . وحديثاً تم التوصل إلى العديد من هذه العقاقير المثبطة للجهاز المناعي مثل السيكلوفوسفاميد وغيرها . وأحدث هذه العقاقير وأقلها مضاعفات عقار «السيكلوسبورن ايه» الذي تم استخدامه أخيراً بنجاح .

زرع الكبد .. هل له مضاعفات ؟

هناك عدد من المضاعفات التي قد تحدث فور الانتهاء من العملية . وأهم هذه المضاعفات :

• نقص مستوى السكر في الدم .
• توقف تجلط الدم .
• اختلال مستوى عناصر الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والماغنسيوم وغيرها .

ويجب الإسراع في مواجهة هذه المشاكل وذلك بالوسائل الآتية :

ـ ضبط مستوى العناصر المختلفة وذلك بحقن الكميات المطلوبة منها في الوريد وتكرار قياسها من حين لآخر ، ضبط مستوى السكر في الدم ، حقن محاليل الزلال في الوريد في الأيام الأولى بعد العملية ، وصف بعض المضادات الحيوية .

وتشير التقارير التي أجريت مع بداية الثمانينات إلى أن نسبة النجاح في عمليات زرع الكبد أصبحت بمعدل ٩ عمليات من بين ١٨ عملية زرع كبدي ، ويبلغ متوسط الفترة التي عاشها المريض بعد العملية من ١٤ شهرا إلى خمس سنوات .

ولاشك أن أمراض الكبد المزمنة وحالات الفشل الكبدي ـ كما سبق وذكرنا ـ تعني بالنسبة للطبيب وللمريض الدخول في طريق مسدود .

وليس هناك من وسيلة علاجية فعالة سوى زرع كبد جديد . وأمراض الكبد المزمنة معروفة في بلداننا العربية . وأهم هذه الأمراض :

• الفشل الكبدي الناتج عن بعض الطفيليات مثل البلهارسيا المعوية في مصر والسعودية وغيرهما من البلدان العربية .
• الالتهاب الكبدي النشط الناتج عن الإصابة بالفيروس «ب» .
• سرطان الكبد الأولي .
• الفشل الكبدي التلازم مع الفشل الكلوي .

لذلك ما أحوجنا إلى انشاء بنك عربي مشترك رأس ماله الكبد الذي هو بدون شك أغلى من الذهب لكل مريض مصاب بداء الكبد . وما أحوجنا إلى المشاركة بأبحاثنا العربية في هذا المجال .

سامي عزيز



الحيلة والشجاعة في القصص الشعبية

بقلم : عباس خضر

ريشة : سلطان السليطي

يحدث كثيرا فى القصص الشعبية أن يقع البطل فى مأزق حرج لا تجدى فيه الشجاعة وحدها ، وعندئذ لابد من الحيلة . وكان أبو زيد الهلالى يجمع بين الأمرين : الحيلة والشجاعة .

وفى « سيرة الأميرة ذات الهمة وابنها عبد الوهاب » نرى صاحب الحيلة شخصا آخر غير البطل الشجاع ، وهو يحتال للبطل وينقذه بالحيلة من المهالك ، وأحيانا لا يستمع اليه البطل ويهزأ برأيه فيقع فى المحظور ..

« أبو محمد البطال » هو صاحب الحيلة الايجابية . وأقول « الايجابية » لأن ثمة صاحب حيلة آخر يستخدم حيله للإيقاع بقومه لصالح الأعداء .. هو « عقبة » المنافق الذى يضمر الكفر ويتظاهر بالاسلام ، يتقرب الى ملك الروم عدو المسلمين ويدبر له الحيل للتغلب على الجيش الاسلامى الذى يقوده البطل الشجاع « عبد الوهاب » ابن الأميرة ذات الهمة ، فهو يماثل من يطلق عليهم فى العصر الحديث « طابور خامس » وهو ـ كما تقول القصة « يأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر العصير » .

القناصة

« القناصة » امرأة من أحسن النساء وجها وأعدلهن قامة ، وأشد بأسا من الأبطال الرجال .. تقيم فى حصن أقيم على جبل شامخ ، وتحت يدها خمسة آلاف فارس ، تقطع الطريق على القوافل وتأخذ الأموال وتأسر الرجال ، فاذا لاح لها من بينهم شاب مليح تتزوج به ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع تقتله . ولما كانت غاراتها تمتد الى مكة والعراق عزم عبد الوهاب أن يسير اليها بألف فارس



من رجاله .

التقى عبد الوهاب بالقناصة فى الميدان . حملت عليه وغافلته وسددت اليه طعنة كادت تقضي عليه ، ثم ضربت حصانه فقفز من تحته ووقع هو على الأرض ، ثم أخذته أسيرا ، ونازلت من برز إليها من فرسان عبد الوهاب ، فتغلبت عليهم وأخذت بعضهم أسرى ، وكان فى جملتهم « أبو محمد البطال » .

قالت القناصة لعبد الوهاب :

ـ من أى العرب أنت ياغلام ؟

ـ من بنى كلاب الكرام .

ـ سمعت عنك أنك أسمح الناس كفا وأنك موصوف بالشجاعة وما رأيت منها شيئا فى هذه الساعة ..

ـ إنك طعنتنى غدرا ولم تأسرينى مثل ما تؤسر الأبطال .

ـ لولا هذا الجرح لدعوتك الى القتال وأفسحت لك المجال .

ـ ابعثى الى بعض أصحابى الذين فى أسرك كى يخيط لى الجرح .

التفتت الى رجالها وقالت :

ـ إئتوه بصاحبه الذى عندكم فى الاعتقال

حيلة البطال

أحضروا أبا محمد البطال فلما دنا من عبد الوهاب همس له :

ـ اعلم أن هذه المرأة جبارة ، وأخشى عليك منها وأنت بهذه الحالة .

ـ إذا ملكت سيفى ودرعى فسترى العجب ، خيط لى هذا الجرح قبل أى كلام .

خاط البطال جرح عبد الوهاب ووضع عليه الأدوية النافعة ، فوجد فى نفسه راحة ، وكان ذلك فى آخر النهار . فلما أصبح اليوم التالى استعد للمبارزة .

تقدم البطال من القناصة بعيدا عن عبد الوهاب وقال لها :

ـ أيتها السيدة . لقد تعبت مع هذا الجاهل ، إذ قلت له : ان هذه المرأة لو اجتمع عليها كل من فى الأرض يريدون بها سوءا لما وصلوا اليها ولا قدروا عليها ، ولكنه لم يسمع كلامى .. وأمعن فى حيلته فقال يمدحها :

ألا إننى قد طفت جمع العوالم
وقد نظرت عيناى جمع المعالم
فلم أر يوما مثل بنت مزاحم
ولا فى السخى أسخى ولا فى المكارم
لقد شرفت قناصة الأسد فى الوغى
وقرت بذا أهل الندى والمكارم

فسرت بهذا المديح وقالت له :

ـ لافض الله فاك ولا كان من يشناك ، لقد أخطأنا فى حقك أيها الشاعر الأديب ، إذ أسرناك ، إن شئت تقيم عندنا وان شئت تعود الى قومك .

ـ شكرا لك أيتها السيدة العظيمة .

واستمر البطال يمثل على القناصة أنه معها ، وفى الوقت نفسه جعل يدبر الأمر لصالح قومه ، حتى انتصر القوم على القناصة وجيشها ، واقتحموا حصنها وأخذوا الأموال والأسلاب ، انتصرت

الشجاعة والحيلة معا على جبابرة كانوا مفسدين فى الأرض .

يخدع هارون الرشيد

أما « عقبة » فقد عرف بخيانته ولؤم نفسه ، وكان يجيد النفاق حتى ليرى كأنه النفاق عينه .. استطاع أن يخدع « هارون الرشيد » ويجعله يؤمن ببركته ويوقن بسداد رأيه ، وكذلك السيدة زبيدة زوجته التى تقر به وتتبرك به .. والأمر هنا ليس تاريخا تحقق أحداثه ، وإنما هو قصص فنى يركب الخيال إلى حيث يريد ، وهو يقول لنا : بما أن هارون الرشيد يجاهد فى سبيل الله ويحرص على سلامة الأمة الاسلامية ويحمي حدود هامن إغارات الروم ، وبما أن هذا هو كذلك هدف بنى كلاب القادمين من البادية وعلى رأسهم ذات الهمة وابنها عبد الوهاب ، فالجميع متعاونون متجهون إلى غاية واحدة هى الجهاد وحماية الثغور الاسلامية . وبنو كلاب ينزلون فى ضيافة الرشيد ، ويعسكرون فى بغداد ، وتأتى جيوش خراسان فتنضم اليهم وتتوحد الصفوف .

ويصاحب بنى كلاب بنو سليم المتاخمون لهم فى بادية الحجاز ، وعقبة من بنى سليم ، وطالما كان أداة شقاق بين القبيلتين ، هو يستطيع أن يأكل على مائدتين : مائدة خليفة المسلمين ومائدة ملك الروم .

حيلة خيانة

كانت هناك مدينة اسمها « ملطية » تقع على الحدود بين بلاد الاسلام وبلاد الروم ، وكانت مثار نزاع بين الفريقين .

أراد عقبة أن يكيد للمسلمين ويقدم خدمة لملك الروم فجعل يخطط كي يستولي الروم على ملطية وينتزعوها من أيدى المسلمين : ارسل ابنه إلى ملك الروم ينبئه بخلوها من المقاتلين العرب ويحرضه على غزوها ، فاستعد جيش الروم للتحرك إليها ، وفى نفس الوقت أذاع بين المسلمين فى بغداد ــ بواسطة أتباعه الذين يستأجرهم بالمال ــ أن عبد الوهاب أسرته القناصة وقتلت معظم الأبطال الذين كانوا معه . فأمر الرشيد بتحرك القوة المرابطة فى ملطية واتجاهها إلى حصن القناصة لإنقاذ عبد الوهاب ومن معه .

وعلى هذا خلت ملطية من الرجال المدافعين ، وصارت سائغة للروم وقد استردها العرب بعد ذلك وبعد أن هزموا الروم وأخرجوهم منها ، وانكشفت حيلة عقبة الزنيم .

أسلوب ركيك

وبعد

نلاحظ أن سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب غنية المضمون ولكنها ركيكة الأسلوب كغيرها من القصص الشعبية ، وتجد أسلوبها يخلط العامية بالفصحى ، وهذا مثال منها :

« وكتب (عقبة) فى عاجل الحال كتابا الى منويل ملك الروم يأمره بالخروج الى ملطية وقد ذكر له فى الكتاب يقول يامنويل اعلم انى دبرت واحسنت التدبير حتى اخليت لك الأرض ولا بقى قدامك من يمانع ولا من يقاتل واعلم أن هذه الركبة آخر الركبات وانك لا تقصر فى ذلك » .

وقد كان هذا الاسلوب يناسب القراء والسامعين من أفراد الشعوب العربية فى زمن مضى كانت فيه هذه الشعوب محرومة من التعليم ، أما الآن وقد تغيرت الأحوال وانتشر التعليم ــ وسينتشر أكثر ــ فقد صارت هذه اللغة الركيكة غير صالحة لقراءة الأجيال الجديدة ، ولا تستسيغها أذواقها ، وهذا يهدد تلك القصص بالانقراض ، ولا ينفع فى إحيائها دراسات ولا ندوات ، بل هى تكاد تنقرض لولا أعمال أدبية مستمدة منها اشرت إليها فى مقال سابق بالدوحة (عدد مارس ١٩٨٥) وقد قرأت أخيرا كتابا لنجيب محفوظ عنوانه « ليالى ألف ليلة » وهو قصة طويلة مستمدة من جو ألف ليلة وليلة ، وهى من أحسن ما كتب روائينا المقتدر ، غاص فيها على معان إنسانية عميقة بأسلوب وتعبيرات أدبية رائعة ، وهدف إلى مضمون كبير ، وسار إلى أن جعل « معروف الأسكافى » يتولى حكم المدينة ويتخذ أعوانه من أمثاله الفقراء المخلصين . واستعان نجيب فى ذلك باضافة خيال جديد فيه الجن أخيارا وأشرارا يتصارعون إلى جانب أبطال واقعيين ، يسدد العفاريت الصالحون خطى المخلصين ، ويحاول أشرار الجن إفساد المجتمع الانسانى عن طريق استغلال النزوات فى الناس ، متخذين فى ذلك وسائل منها « طاقية الإخفاء » .



مصادرة ألف ليلة

وبمناسبة ألف ليلة نذكر أن قضية تثار الآن فى القاهرة ، إذ ضبطت السلطة مطبعة تطبع كتاب « ألف ليلة وليلة » وصادرته لأنه يحتوي على ألفاظ وعبارات تخدش الحياء العام . والواقع أن الكتاب يحتوى فعلا على تلك الألفاظ والعبارات ، وهو يطبع مشتملا عليها من قبل ويتداول هكذا ، ولم يصادر قبل ذلك ، ومثله فى ذلك بعض كتب التراث الأدبية مثل العقد الفريد والأغانى . وهى كتب متداولة كذلك .

لا أريد أن أدافع عن طبع هذه الكتب ونشرها « بعبثها » فأنا أميل الى تنقيتها من تلك الشوائب . كانت هذه الكتب تكتب بالأيدى ولا يقرؤها الا الخاصة ، أما الآن فهى تنتشر وتصبح بعد الطبع فى يد كل قارىء صغيرا أو كبيرا . وأذكر ان الأستاذ احمد بهجت تلقى رسالة من والد طالبة فى كلية الآداب كلفها الأستاذ ضمن الطلاب والطالبات أن يقرأوا جزءا من ألف ليلة وليلة تمهيدا لدراسته ، ونشر الأستاذ بهجت هذه الرسالة فى بابه اليومى بالأهرام « صندوق الدنيا » وفى الرسالة يقول الأب إن ابنته انزعجت مما رأته فى ألف ليلة من ألفاظ وعبارات تخدش الحياء ..

وأذكر أن أستاذا من الرواد الأوائل ، هو الشيخ الخضرى ، أخرج كتابا اسمه « مهذب الأغانى » استخرجه من كتاب « الأغانى » للأصفهانى وطهره من تلك الألفاظ والعبارات وأراح القارىء من « العنعنات » الطويلة التى تقول « عن فلان عن فلان .. الخ » .

فماذا علينا لو فعلنا مثل ذلك فى ألف ليلة وليلة وغيره من أدب الجماهير وأدب الخاصة ؟ وأرى أن تصاغ القصص الشعبية صياغة جديدة تحقق أمرين : أحدهما تنقيتها من الألفاظ والعبارات التى تصدم الذوق العصرى ، والآخر صياغة عربية فصيحة سليمة بأقلام مقتدرة ، وبهذا تنقذ مما كادت تصير إليه من الانقراض ، فليس من المعقول أن يتقبلها قارىء اليوم بتلك الركاكة التى تبدو فى الفقرة التى نقلتها فيما سبق .

وينبغي أن تقرر ــ بعد تلك الصياغة ــ فى المدارس كى يستفيد منها الطلاب مضمونا وشكلا . مضمونا من حيث ما تشتمل عليه من قيم عربية الجذور ، وشكلا من حيث اللغة العربية التى نشكو الآن من اضمحلالها حتى على أقلام الأدباء ...

ولاشك أن هذه القصص الشعبية من تراثنا الأدبى الذى يجب أن تهتم به المؤسسات الثقافية فى البلاد العربية الى جانب اهتمامها بالتراث الأدبى الفصيح . وبعض التراث الشعبى خير من أشعار أبى نواس وأضرابه ، إن كنتم تنصفون .

عباس خضر

شخصية عربية

محمد علي الطاهر
كاتب وطني ومناضل حر لا يهدأ

بقلم: فتحي رضوان



محمد علي الطاهر يقف أمام مقر جريدة الشورى التي أسسها في مصر

كانت للقاهرة في الفترة ما بين الحربين العالميتين التي انتهت أولاهما في نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وانتهت الثانية في ابريل سنة ١٩٤٥ ، مزايا وخصائص ، لا تتمثل فقط في الشوارع والميادين ، والعمائر الحديثة ، والمساجد والأسبلة والتكايا القديمة فحسب ، بل كان لها الى جانب هذه المعالم المادية ، معالم بشرية ، تتمثل في عدد من الشخصيات يعرفها أهل القاهرة بأسمائها أو بصفاتها وأسلوبها في الملبس ، وطريقتها في الكلام .

وكان في القاهرة عدد من هذه الشخصيات الفذة ، أكثرها من أهل مشرق الوطن العربي ، أعني الشام بأجزائه الثلاثة : سوريا ولبنان وفلسطين ، والعراق ، وباقيها من المغرب ، أعني ليبيا التي كانت تسمى في تلك الفترة طرابلس الغرب نسبة لمدينة طرابلس عاصمة الشقيقة ليبيا الآن ، ثم تونس والجزائر ، والمغرب وكنا نعرفه باسم مراكش ، وقد كان من بين هذه الشخصيات التي لعبت أدواراً في موطنها الأصيل فتعقبها الظالمون بجورهم وعسفهم ، فرحلوا الى مصر ، فاستقبلتهم حكوماتها بالترحاب والحفاوة لا حباً فيهم ، ولا عطفاً على قضيتهم ، بل لأن الحكم كان في تلك البلاد : في المشرق والمغرب معاً ، إما حكماً عثمانياً (تركيا) وإما حكماً فرنسياً . والحكم في مصر بريطاني وان كان رأس الاستعمار الأوربي ، الا أنه كان منافساً للاستعمار الفرنسي ، يكرهه ، ويود أن يقتلعه من الوجود ..

كان من بين هؤلاء الأبطال اللاجئين الى القاهرة ، شاب فلسطيني اشتغل بالسياسة منذ فجر صباه ، فنقم عليه الحكم العثماني كما نقم على المصلح الكبير عبد الرحمن الكواكبي ، فجاء الى القاهرة ناجياً بحياته وبعقيدته السياسية ، وعاش في العاصمة المصرية ، حتى قامت الثورة الكبرى في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فاختلف معها ، فترك مصر وذهب الى لبنان ، حتى توفاه الله . ذلك هو محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى ، والذى أقض مضاجع البعض ، بقلمه ، وأزعج خاطرهم ، وتشدد في نقدهم ، كلما لم يعجبه شيء من قراراتهم أو مواقفهم بالنسبة لقضية بلاده التي وقف عليها نفسه وقلمه ولسانه . وأولئك جميعاً أقصى الغاية في الحدة والشدة والاندفاع والعنف .



محمد علي الطاهر

كاتب وطني ومناضل حر لا يهدأ

مخلص لمبادئه

لم أعرف محمد علي الطاهر إلا في الفترة الأخيرة من الأربعينات ، فعرفت انساناً قصير القامة ، نحيفاً غاية النحافة ، كثير الحركة ، ذرب اللسان ، قلقاً لا يستقر في جلسته ولا في وقفته ، يكاد يكون صورة من عصاه التى لا تفارقه فهو في مثل طولها ، وفي مثل نحفها وهي تستقر في يده ، كما أنه لايستقر في يد الأيام ، له عينان واسعتان ولكن الحول أضعف أثرهما ، ولو كانتا في موضعهما الطبيعي ، لكانتا عينين نفاذتين تصدران الشرر الى نفس السامع له والواقف أمامه ، دمه خفيف ، كان جديراً بأن يجعله في موضع السخرية من عارفيه ، لولا أنه كان انساناً جاداً مخلصاً لمبادئه ، شديد الوفاء لمن يصادقهم ، شديد العداء لمن يخاصمهم .

وقد وفد الى مصر خلال الحرب العالمية الأولى أو بعدها ، وهى الحرب التي اندلعت نارها سنة ١٩١٤ (أغسطس من تلك السنة) واستمرت حتى أبرمت معاهدة الهدنة بين المتحاربين في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من الشهر الحادى عشر سنة ١٩١٨ ، وقد بقي محمد علي الطاهر في مصر ، حتى خرج أو أخرج منها عقب الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، يعني أنه بقي في مصر نحو ٣٨ عاماً ، وقد علمت أن الكثير من أبناء عائلته وفدوا مثله الى مصر ، وأقاموا كأهلها ، وكان منهم ابن عمه الدكتور حسني الطاهر الذى مارس الطب في مدينة المنصورة .

وقد أسس في مصر جريدة (الشورى) واتخذ لها مقراً في شارع عبدالعزيز أمام إحدى أشهر دور السينما في مصر ، وهى سينما (أوليمبيا) ، وهى لا تزال تعرض أفلامها التى يحبها الشعب المصرى ، والتى كانت في يوم من الأيام أفلام رعاة البقر ، التي كان أبطالها على ألسنة كل شباب الحارات والأزقة منذ وضعت الحرب أوزارها أمثال (توم ميكس) ، (آرت اكورد) و (ادى بولو) .

ولم تكن جريدة (الشورى) جريدة فحسب ، وانما كانت فوق ذلك نادياً سياسياً ، يتردد عليه أول ما يتردد كبار رجالات عرب المشرق وعرب المغرب الذين يأتون لزيارة القاهرة لأيام قليلة ، والذين يقيمون فيها كلاجئين سياسيين ، ويتردد على نفس الدار عدد غير قليل من الزعماء المصريين الذين تجمعهم الشؤون العربيه وكان في مقدمة هؤلاء محمد صلاح الدين (باشا) الذى كان وزير خارجية مصر في آخر وزارة وفدية قبيل اندلاع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وأحمد حسين زعيم مصر الفتاة وصحفيون أمثال أبو الخير نجيب وأحمد قاسم جوده الذى كان كاتباً وفدياً من جناح نجيب الهلالى ، ثم انتقل الى جناح مكرم عبيد باشا ثم عمل مع الثورة واختير نقيباً ثم توفاه الله في مقتبل العمر بعد أن وظف في الأمم المتحدة .

في معتقل الجيزة

وقد اعتقل محمد علي الطاهر في كل حرب تقوم : اعتقل ابان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، وأودع لفترة طويلة في معتقل بالجيزة قريب من كوبرى عباس . ثم اعتقل في الحرب العالمية الثانية ، وأخيراً أعتقل في ٢٤ يوليو ١٩٤٩ في عهد وزارة ابراهيم عبد الهادى زعيم السعديين وأودع في معتقل بصحراء مصر الجديدة كان أصلا معسكراً أمريكياً اسمه (الهايكستب) وكان اعتقاله في ٢٤ يوليو ١٩٤٩ ، واستمر حتى ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٩ أى نحو نصف شهر ، ولكن هذه الأيام القليلة ، التى لم تصل الى ثلاثة أسابيع أثمرت أثراً أدبياً جميلا . هو كتابه المعنون (معتقل هايكستب) وهو كتاب عدد صفحاته بالفهرست ٦٨٠ صفحة ، وصف فيها ما جرى له منذ زاره مندوبو الشرطة المصرية بعد ظهر يوم ١٢ يوليو ، ليحملوه وهو مريض يشعر بالضعف ، ولا يكاد يستطيع أن يقف على قدميه الى قسم من أقسام شرطة القاهرة ، يحمل إسماً جميلا ، يدعو الى انشراح الصدر ، وراحة الخاطر ، لأنه (روض الفرج) ولكن هذا الاسم كان عند اعتقال محمد علي الطاهر من أسماء الأضداد ، فقد أودع في قاعة ضيقة لا يجدد هواءها سوى كوة في أعلى جدارها عجز الهواء الضعيف الخارج منها عن أن يبدد رائحة متصلة بهذه القاعة ، فكاد يختنق ، ولم ينقذه الا أنه حمل في اليوم التالى في سيارة من طراز (البوكسفورد) الى الصحراء ليودع في معتقل الهايكستب مع الاخوان المسلمين ، فترامت الى سمعه قصص التعذيب الحقيقية والمتخيلة ، ورأى بعيني رأسه نماذج من التعذيب اليومي للمعتقلين منهم أستاذ الجامعة والمحامي والطبيب وعالم الأزهر والصحفي والشاب الطالب ، فقد كانوا جميعا محرومين من زيارة الأهل ، ومن قراءة الصحف ، ومن تناول طعام المنازل ، ومن نعمة التحقيق معهم ليعرفوا ماذا نسب إليهم ، والى متى سيبقون هكذا مهملين ، ولكن هذه الفترة القصيرة من هذا الاعتقال الذى لم تصب محمد علي الطاهر خلالها ، لا كلمة ولا ركلة ، ولا حتى قرصة ولا دفعة ، ألهمته هذا الكتاب الحار بل المتقد ، والذى حركت وقائعه في نفس محمد علي الطاهر المستقلة ، والتى لا تهدأ الا إذا هاجمت أحداً أو جماعة ، أو أعداء بالجملة . وأغلب الظن أن السلطتين المصرية والانجليزية قد اتفقتا على الزج به في المعتقل لمقالات شديدة كتبها دفاعاً عن وطنه فلسطين ، وهجوماً على من اتهمهم بأنهم تسببوا في فاجعة وطنه ، وهم زعماء معروفون وساسة ذوو مكانة ، فضلا عن شواظ من نار صوبها الى ضابط شرطة من ضباط ما كان يعرف في مصر بالقلم السياسى .

وكاتب ساخر

والحق أن محمد على الطاهر ، استطاع أن يثبت لتاريخ الأدب العربى انه كاتب هجاء ، ولكنه أيضا كاتب وصاف ، وأخيرا هو كاتب ساخر يضحكك حتى تدمع عيناك ، وأنا أنقل إليك قصة بطيخة الشيخ عبد المنعم النمر . قال محمد على الطاهر في كتابه الطريف بعنوان سرقوا البطيخ يا محمد :

« في أحد الأيام طاف البشير ينبأ هو أن بطيخة قد ظهرت في مزرعة الأستاذ النمر ، فهرول الرفاق إليها يتفرجون ، وصرنا كل يوم نطوف حول البطيخة العزيزة ونمتع النظر برؤيتها الى أن كبرت وأصبحت في حجم البيضة ثم نعود اليها فنجدها بعد مدة في حجم البرتقالة ، وكنا نتواصى بها خيراً ، وقد بلغ من عناية الأستاذ النمر ببطيخته العصماء أنه خاف عليها من اللمس فأقام بجوارها عموداً من الخشب ، وثبت عليها ورقة مكتوباً عليها « اللمس ممنوع » .

وكبرت البطيخة وكان الأستاذ النمر يحرسها في الليل حتى الفجر ، وفي النهار يتردد عليها متفقداً الى أن باتت في حجم البرتقالة الكبيرة . وفي أحد الأيام أصبحنا ، فاذا الأخبار تتواتر وهى تنعى البطيخة فتقاطرت الوفود الى عزبة الشيخ عبد المنعم ، فوجدناه واقفاً أمام شجيرة البطيخ وهو محزون يضرب كفاً بكف ، فأخذ الزملاء يعزونه ويهونون مصابه ويأخذون بخاطره » .

واذا كانت هذه الصورة الضاحكة ، نموذجاً من أدب الطاهر الساخر ، فانى ناقل إليك سطوراً من مقال نشر لمحمد علي الطاهر في جريدة النداء في ٢٦ يوليو ١٩٤٥ ، وكان الأستاذ الطاهر في المعتقل يوم نشر المقال عن فلسطين وأهلها في هذا اليوم الذى صادف عيد الفطر ، ليكون نموذجاً لأدب الطاهر السياسي : سيفرح في هذا العيد أربعمائة مليون من

المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلا أهل فلسطين ، فانهم في حداد دائم وفي حزن ويتم .

يرتدى المسلمون الجديد من الملابس الزاهية ومنها المزركش بالأحمر والأخضر والأبيض وما الى ذلك من كل لون بهيج الا أهل فلسطين فانهم لا يجدون ما يستر أجسادهم ولو وجدوه ، لما رضوا بالسواد بديلا . جميع الكائنات من انسان ووحش وطير تجد مأوى تسكن اليه ، وتطمئن فيه الا أهل فلسطين ، فهم طائرون مفزعون ، ويخذلهم الأولياء ، ويتفرج عليهم الأصدقاء .

واذا	فروا	فليس	لهم مفر
وان	عادوا	فليس	لهم مقر

يطلبون الرحمة فلا يرحمون ويطلبون الموت فلا يلبون .

واذا كان الوطن العربى يظن أو يتصور أن اليهود يقبلون برجوع عربى واحد من المشردين ، الى فلسطين فهو في ضلال ، لأن اليهود ينظفون الآن فلسطين من كل عربى بقى فيها ، وكلما تسلل عربى عائداً إليها من إحدى الضواحي أمسكوه وضربوه ، وسلبوا ملابسه ، ثم طردوه الى أقرب دولة عربية .

الاختلاف مع الحسيني

وقد هاجم الطاهر الدول العربية كلها ، متهما اياها بالتقصير والتقاعس ، وأصلى الجامعة العربية بنار حامية ، واختلف مع زعيم فلسطين ورئيس المجلس الاسلامى فيها المرحوم السيد محمد أمين الحسيني ، فلم يترفق في نقده إياه ، مع حبه له ، واعجابه بمزاياه ، مما أحنق عليه أكثر الناس ، وأبعدهم عنه ، وقد قال لى أحد سفراء لبنان انه قال للمرحوم محمد علي الطاهر : أنت تتعب العدو والصديق ، ولكنك تتعب الصديق أكثر فأقره الطاهر على ذلك وقال : أنا لى في الصديق عشم وانا اطلب من الصديق الكثير لأنى أحسن الظن به . وقد وصف أحد خصومه ، فكان وصفاً بليغاً يدل على قدرة الطاهر البيانية وحسن تحليله للنفوس وتصويره للأشخاص ، ولو شاب حكمه شيء من القسوة ... قال « الطاهر » في وصفه لخصمه :

« ان صداقتى له ــ ولا أقول صداقته لأنه يعاشر ويصاحب فقط ولا يصادق ــ بدأت منذ كان يسمى الشاب الأديب ، فهى صداقة قديمة بدأت له منى قبل ثلاثين عاماً ، ولكن صديقى لا يحب أن يقوم بواجبات الصداقة ولا الزمالة ، ولا بتكاليف المودة ، فهو يريد أن يكون ذلك كله من جانب واحد ، وان الواجب على الخلق أن يحبوه ، ودون أن يحبهم ، وأن يحيطوه بالوداد دون أن يمنحهم شيئاً من الوداد ، كما أنه لايبالى بشعور اخوانه ويطلب أن يراعوا شعوره ، ولو كلمت انساناً عنه ، وعلم بذلك أو قال له أحد شيئاً أحس به ، فانه يسخط ويحفظ عليك تلك الجريمة . والأغرب من ذلك انه لايعاتبك ولا يصارحك ولا يظهر عليه أنه يحمل لك موجدة على تلك الزلة » .

وفي الكتاب الذى نقلت لك منه هذه السطور الضاحكة والزاعقة ، مصوراً للأستاذ محمد علي الطاهر متخفيا في زى بدوى وفي ملابس أزهرى ، وفي صورة رجل فقد احدى عينيه ، وذلك أثناء هربه من وجه الانجليز وهو في مصر بعد اعلان الحرب العالمية الثانية ، وقد عجز الانجليز عن وضع أيديهم عليه ، حتى استطاع أن يصل الى مكتب رئيس الوزراء مصطفى النحاس فأطلق سراحه .

أمر هام

ومن فضائل الأستاذ محمد علي الطاهر ــ رحمه الله ــ انه كان يعلم بأنباء العالم الاسلامى والوطن العربى ، وكان يسخر معلوماته لخير بلاده ، من ذلك أنه اتصل بى ذات يوم في منزلى في الصباح المبكر وطلب منى أن يوافينى الى مكتبى في القاهرة لأمر هام لا يحتمل تأجيلا ، وأطعت أمره وذهبت الى مكتبى ، فأفضى الى بنبأ هام حقاً خلاصته أن الأمير محمد بن عبد الكريم قائد وزعيم منطقة الريف في شمال المغرب ، الذى اعتقله الفرنسيون ، في احدى جزر المحيط الهندى المملوكة لهم نحو عشرين عاماً ، ابتداء من سنة ١٩٢٦ التى أسر فيها الزعيم ، وهيأت مقراً له في باريس ، وأن وصوله الى باريس واستقراره ، يجعله رهينة في يد الاستعمار الفرنسى ، وقد تضرب به الحركة التحررية المغربية فلابد من استيطانه في مصر وهو في طريقه الى أوروبا مروراً بقناة السويس من جنوبها في السويس الى شمالها في بورسعيد ، وأن مرور الزعيم في مياه مصرية لمدة أكثر من ست ساعات يمكن الحكومة المصرية من إقناعه بالنزول الى البر المصرى ، ومن ثم يبقى في مصر وبين اخوانه المصريين الى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا . قال لى الأستاذ محمد علي الطاهر هذا الكلام وكل جارحة فيه تتحرك ، وهو نفسه يكاد يقفز في الهواء من الفرح بأنه الواسطة في هذه الخطة العظيمة .

وانتقلت الى حماسته ومضيت في الحال أخاطب رئيس الديوان الملكى وكنت أعرفه جيداً وكان آنذاك ابراهيم عبدالهادى باشا وجاءنى الرد مخيباً للآمال (اتصلوا بالحكومة) وأسرعت الى رئاسة مجلس الوزراء وطرقت باب المرحوم عبدالرحمن الجديلى وكيل الوزارة للشئون الدينية وكان مقرباً لرئيس الوزراء محمود النقراشى ، فأفضى إليه تليفونياً بما أخبرته به ، فطلب مذكرة بالموضوع ، فكتبتها على الفور وأرسلت الى النقراشى رئيس الوزراء فاتصل بلا تمهل بمحافظة السويس وبورسعيد ــ وفي السويس رفض الأمير عبد الكريم العرض وكان في أسوأ حالاته الصحية : بدنياً ونفسياً ، ولكن في المسافة بين السويس وبورسعيد ــ هدأت نفس الزعيم ، واستطاع عدد غير قليل من زعماء المغرب المقيمين في مصر ، أن يقنعوه وأن يبصروه بخطر الذهاب الى باريس ليكون في قبضة أعدائه ، وفي بورسعيد نزل الزعيم ، ومضى في الحال الى القاهرة ، وقبطان الباخرة الفرنسية ينذر ويهدد ولا أحد يسأل عنه ، وبقى معنا الزعيم المغربى حتى توفاه الله بين أهله وصحبه وفي كل مرة أذكر هذا الذى فعلناه ، أترحم على محمد علي الطاهر ، وأقرأ على روحه الفاتحة فاقرأوها معى ، فقد كان عمله مجرد نموذج لوطنية تلقائية وسرعة حركة .

رحمه الله رحمة واسعة ، ونفعنا بمآثره وبما خلف من التقاليد والسوابق الرائعة .

فتحى رضوان



صورة تذكارية لمحمد علي الطاهر أثناء حديثه مع مفتى فلسطين الحاج أمين الحسيني

• • لم يذكر لنا التاريخ حالة واحدة من حالات تمرد البحارة على سفينة عربية قبل ألف سنة بينما كان التمرد على سفن الأسبان والبرتغال أمرا شائعا في عصر الكشوف الجغرافية الكبرى • •



بقلم: الدكتور أنور عبد العليم

عرف العرب منذ أكثر من ألف سنة الطريق الملاحي من موانىء الخليج إلى سواحل الهند والصين عبر المحيط الهندى شرقا وإلى الساحل الافريقى غربا مستعينين بالتيارات الموسمية المنعكسة التى عرفوا سرها بالخبرة والتجربة الذاتية . وفى ذلك يقول ابن خرداذبة (٢١١ ــ ٣٠٠ هـ) فى كتاب « المسالك والممالك » الذى يرجع زمن تأليفه لعام ٨٤٦م :

« وسئل اشتيامو [١] البحر عن المد والجزر فذكروا أنه إنما يكون فى بحر فارس على مطالع القمر وأنه لا يكون فى البحر الأعظم إلا مرتين فى السنة : مرة يمد البحر فى شهور الصيف شرقا بالشمال ستة أشهر ، فإذا كان ذلك طما الماء فى مشارق البحر بالصين وانحسر عن مغارب البحر . ومرة يمد فى شهور الشتاء غربا بالجنوب ستة أشهر ، فإذا كان ذلك طما الماء فى مغارب البحر وانحسر بالصين » كما اتقنوا فن الملاحة الفلكية بالنجوم واهتدوا بها فى « أودية البحر ».

وفى كتاب « عجائب الهند » أوصاف وحكايات طريفة تتعلق بمعالم هذا الطريق الذى كان يبدأ من البصرة أو الأبلة ويمر بالبحرين فعمان ثم ساحل الدكن والسند ثم تحط المراكب بميناء صغير جنوب بومباي هو ميناء صيمور ومنها إلى ساحل المليبار وبعده تخترق المراكب المضيق بين جزيرة سيلان وجنوب الهند ثم تقف للتموين عند رأس كومرين ثم تسير بحذاء ساحل الشول (كروماندل) شرقى الهند وبعده تخترق بحر هرقند (خليج البنغال) وتحط على جزر لنجبالوس (وهى جزر نيكوبار) ثم تتجه جنوبا إلى مضيق ملقا بين الملايو وسومطرة (وهي إحدى جزر الزابج وتسمى جزيرة الذهب أيضا) ثم تتجه السفن بعدها شمالا نحو سواحل الهند الصينية وكمبوديا مارة بجزيرة شيومه . ثم تحاذى السواحل الشمالية إلى موانى خانفو (كانتون) وخانجو (تشوان تشو ــ فو) والمرجح كذلك أن المراكب العربية وصلت إلى جزر اليابان وهى بلاد « السيلاهى » السالف الحديث عنها فيما يتعلق بجزر الوقواق وعلى سواحلها شاهدوا السرطانات العملاقة التى تعيش فى بحر اليابان وشمال المحيط الهادى .

أما عن الطريق الملاحى إلى الساحل الافريقى فيرد فيه ذكر بلاد الزنج وبلاد البجة (السودان) وقنبلة (كمبالا) وسفالة (على خط عرض ٢٠ جنوب خط الاستواء) . وفى بحر القلزم (البحر الأحمر) يرد ذكر كمران (جزر بجنوب البحر الأحمر) واليمن وجدة وأيلة (بقرب العقبة) وغلافقة (ميناء اليمن) . هذا وقد تحدث مؤلف الكتاب عن الجزر فى بحر الهند باستفاضة وطرافة ومنها جزيرة سيلان وجزر اندمان وجزر الديبجات (اللاديف واللكاديف) ويسميها المؤلف أيضا جزر الكستج وكان عدد سكانها على وقته نحو ٣٠,٠٠٠ نسمة . وعن جزيرة سيلان أو سرنديب يقول مؤلف كتاب العجائب :

« ومن الجزائر الموصوفة التى ليس مثلها فى البحر جزيرة سرنديب وتسمى السهيلان وطولها نحو مائة فرسخ ودورها (أى استدارتها) ثلاثمائة فرسخ وفيها مغاص اللؤلؤ النقى ، إلا أنه صغار ومهما كان منه كبار فهو ردىء . وجبلها حصين وهو جبل الياقوت والألماس ويقال ان هذا الجبل هو الذى هبط عليه آدم عليه السلام . وبها السنباذج (الفيروز) الذى يخرط به البلور والزجاج ، وقشور أشجارها القرفة المرتفعة وهى القرفة السهيلانية الموصوفة ، وحشيش هذه الجزيرة أحمر يصبغ به الثياب والغزل وهو صباغ يفوق البقم

الجو حديثا ينم عن تجربة ومعاناة حقيقية ، وأحيانا يذكر أسماء من هلك من الربابنة في البحر . ولا تكاد تخلو قصة من قصص عجائب الهند من مغامرة بحرية . تأمل هذه المغامرة لمركب خرج من الخليج قاصدا ميناء صيمور بالهند ونكتفي بسرد أسطر قليلة منها :

« ومن مصائب البحر المشهورة التي أثرت الى يومنا هذا ما حدثني به بعض التجار قال : خرجت في مركب من سيراف في سنة ست وثلاثمائة نريد صيمور وكان معنا مركب عبد الله بن الحنيد ومركب سبأ .. وهذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر ، ومن المراكب الموصوفة في البحر ونواخذتها مشهورون ، لهم . فلما سرنا أحد عشر يوما رأينا آثار الجبال ولوائح أرض سنداق وتانه وصيمور وأخذنا في الاستعداد لأنا قدرنا أنا نصبح من غد الأرض .. ثم جاءتنا الريح من الجبال فلم تضبط الشرع وأخذنا الخب والمطر والرعد والبرق ونزل الرجال يتزفون الجمة [٣] ، ولم يزل الأمر يتزايد إلى أن مضت ستة أيام وكاد المركب أن يغوص في البحر .. » .

وفي موضع آخر يقول : « ومما أجمع عليه البحريون ولم أجدهم ينكرون شيئا منه وهو أن بعض المراكب الخارجة إلى الصين أصيب في اللج وسلم منه ستة أنفس أو سبعة على الشراع ومكثوا أياما في البحر ثم وقفوا على جزيرة وأقاموا بها شهورا حتى كادت نفوسهم تتلف من ضيق الصدر » .

وعن بحر سرنديب يقول : « ومن البحار الخبيثة الصعبة الشديدة التي تقل السلامة فيها بحر غباب سرنديب وهو ثلاثمائة فرسخ وفيه من التماسيح أمر عظيم . وفي ساحل هذا البحر النمور والبوارج الذين يقطعون في هذا البحر (يقصد قراصنة الهنود) إذا ظفروا بمركب أكلوا أهله » .

وعن بحر بربرة يقول المؤلف : « وأجمع البحريون على أن بحر بربرا وهو سبعمائة فرسخ وهو في الطريق إلى بلاد الزنج من أعظم البحار خطرا ، وللزنج في هذا البحر جزائر عظيمة والماء فيه على ما يقال يجري جريانا شديداً (أي به تيار خطر) والمراكب تقطعه في سبعة أيام » .

ويضيف المسعودي قوله عن بحر بربرة بأن الملاحين العمانيين يصفون موج هذا البحر بالجنون ولهم في ذلك أرجوزة مشهورة فيها هذان البيتان :

بربره وحفوني ومـوجك المجنـون
حفوني [٤] وبربرة وموجها كما تره

ويستطرد المسعودي بقوله : « وآخر مرة ركبت فيها (هذا البحر) من قنبلو إلى عمان سنة ٣٠٤ هـ على مركب أحمد وعبد الرحمن أخوي عبد الرحيم



كانت الخبرة والتجربة الذاتية هي العامل الهام في رحلات العرب إلى الهند والصين منذ أكثر من ألف عام

والزعفران ويتعجب منه . وقيل إن بسرنديب نحو مائة ألف قرية » .

والحق أن هذا وصف جغرافي مركز يحمد عليه مؤلف هذا الكتاب وقد أوضح فيه أهم معالم الجزيرة ومنه نعلم كذلك أن البلور والزجاج كان يقطع بنوع من الأحجار الكريمة الصلبة تشتهر بها سيلان كما تشتهر بتوابل القرفة التي هي لحاء أشجار معلومة . أما الحشيش الذي يشير إليه المؤلف وتستخرج منه صبغة للثياب وخيوط الغزل فربما كان نباتات القبذل وجذور هذه النباتات وخشبها يحتوي على مادة التنين **Tanic Acid** الذي يستخدم في صباغة الملابس والخيوط إلى اليوم ويسمى هذا النبات باسم « ريزوفورا **Rhizophore** » وينمو على شكل غابات في التربة الطينية على سواحل البحار الاستوائية حيث تكثر الأمطار .

وعن استخدام المواد المحلية في صناعة القوارب وعن وجود نوع من الطمي يشبه الغراء على احدى الجزر يقول المؤلف :

« وأخذنا طينا من طين الجزيرة مثل الغراء وأصلحنا فيه دقلا [٢] من الشجر وسوينا حبالاً من خوص النارجيل (جوز الهند) وشراعا ليفا (من الليف) وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة وملأنا معنا ماء وسرنا نحو خمسة عشرة يوما حتى وقعنا بقرية من قرى الصنف » .

أهوال الملاحة

ويحدثنا المؤلف عن أهوال الملاحة في عرض البحار حين تشتد الريح وتتلاطم الأمواج ويكفهر

جعفر الصيرفي بميكان وهي محلة من سيراف وفيه غرقا بمركبهما ومن كان معهما. وقد ركبت عدة مرات في عدد من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم وأصابتني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة فلم اشاهد أهول من بحر الزنج».

وحتى البحر الأحمر نفسه الذي قد يبدو بحرا ساكنا لا تؤمن عواقبه[5]. وفي ذلك يقول مؤلف العجائب: «وحدثني بعض الربابنة ويقال له عمران الأعرج أنه خرج من عمان في مركب مع عدة مراكب إلى جدة في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة فوقع علينا في بعض الأيام ريح عظيم فرمينا بعض الحمولة وتخلف بعض المراكب وأصيب البعض وسرنا فلما صرنا بين كمران و... (ناقص في الأصل) وقع بنا خب عظيم وريح عظيم هايل مختلف فقطعت الأناجر ولم تضبط المراسي، وحملتنا الرياح وكان معنا عدة مراكب من عدن وغلافقة وعثر[6] ومنها جلبة جديدة وحسنة من غلافقة فرأيتها وقد طرحتها الريح والأمواج على جبل البحر ونزلت الأمواج عنها فانقلبت فعهدى بالأمتعة والناس يتساقطون إلى البحر من فوق الجبل وغرقت فما سلم منها أحد».

الملاحون العرب ومرض الاسقربوط

من المعلوم أن مرض الاسقربوط أو «مرض البحارة» كان واسع الانتشار بين ملاحي القرون الوسطى الذين يقضون شهورا طويلة بالبحر لا يتناولون فيها الطعام الطازج وبخاصة من الخضروات والليمون والموالح الأخرى بسبب نقص فيتامين «جـ» الموجود بهذه الخضروات ولم يكن هذا السبب معروفا في ذلك الوقت بطبيعة الحال.

ولما كانت رحلات الملاحين العرب الطويلة إلى الهند والصين تستغرق شهورا طويلة من السفر في البحر وقد تمكث المركب في الماء في رحلة الذهاب والعودة إلى الصين لأكثر من سنتين فمن غير المستغرب أن يبحث الانسان عن احتمال الاصابة بهذا المرض اللعين بين الملاحين العرب. وهو الذي طالما أودى بحياة الملاحين الاسبان والبرتغال على سفن بأكملها، فترى هذة السفن هائمة في المحيط بدون ركاب حتى اطلقوا عليها بحق «سفن الأشباح».

بيد أننا من تحليلنا لقصص وأخبار الرحلات البحرية في «عجائب الهند» على كثرتها لم نعثر سوى على حالتين مرضيتين: إحداهما حالة تسمم واضحة نتيجة أكل البحارة في إحدى الرحلات لسمكة من الأسماك السامة[7]. ومثل هذه الأسماك معروفة في البحر الأحمر وفي البحار الاستوائية الأخرى، وغالبا ما تكمن سميتها في غددها الجنسية أو في الكبد وأحيانا في العضلات وفي الجلد. وبعض هذة الأسماك سمها مميت وهو يقاوم الحرارة فلا يفسد بالطهي أو الشوى.

أما الحالة الأخرى فغير مؤكدة بالنسبة لمرض الاسقربوط وإن عزاها البحارة أنفسهم لأكلهم لحم طير مسموم. وتتلخص القصة في أن جماعة من البحارة تحطمت مركبهم وسبحوا على شراع لستة أيام في البحر حتى وصلوا إلى جزيرة وأقاموا بها شهوراً (ولم يذكروا في الحكاية شيئا عن الطعام الذي كانوا يأكلونه على الجزيرة ومن المعلوم أن بعض جزر المحيط الهندي قد تخلو من الفواكه كلية وقد تكون جزرا مرجانية ليس عليها نبات) وفي أحد الايام تمكنوا من اصطياد طائر كبير ثم اوقدوا عليه نارا وأكلوا منه حتى شبعوا وفي اليوم الثالث خرجوا للوضوء في البحر «فجعلوا لا يمسون شيئا من أبدانهم إلا تساقط الشعر عنه» فظنوا أن هذة الحالة نتجت عن تسمم لحم الطير غير أن المرض زال بعد أيام ونبت شعر أجسامهم مرة أخرى».

كما لم يؤثر عن الملاحين العرب في ذلك الزمن وصفهم لأعراض مرضية تنبىء عن إصابات بمرض الاسقربوط، مما يجعلنا نجزم بأن هذا المرض لم يكن معروفا عندهم. وربما كان مرد ذلك لاعتمادهم على التمر والعجوة اعتمادا أساسيا في سفرياتهم البحرية وهذة الفاكهة المجففة غنية بالفيتامينات ولم تكن معروفة على مائدة طعام الملاحين الأوربيين في العصور الوسطى.

مواثيق الشرف والأمانة

تعكس القصص الملاحية في عجائب الهند مواثيق الشرف والأمانة ومراعاة العهود التي كان يقطعها الربابنة العرب على أنفسهم متعهدين فيها — أمام الله وضمائرهم قبل كل شيء — بالمحافظة على أرواح الركاب وبضائع التجار وأموالهم وايصالها الى مقصدها سالمة. وفي سبيل ذلك كان الربان يضحي بوقته وصحته ونومه

• عن طريق التمر استطاع الملاحون العرب تجنب الأمراض البحرية الخطيرة

لإسعاد الركاب، وكان آخر من يغادر السفينة إذا حم القضاء وأوشكت على الغرق.

تأمل قول ذلك الربان الذي أوشكت سفينته على الغرق وأصاب ركابها هلع شديد فطلبوا إليه أن يغرق السفينة ليريحهم من دوار البحر والموت البطيء الذي يرونه محدقا بهم. ترى بماذا أجابهم هذا الربان الشجاع في هذه الرحلة؟ اجابهم بالكلمات الاتية:

«اعلموا أنه قد يجرى على المسافرين والتجار أهوال هذه أسهلها وأرحمها. ونحن معشر الربابنة علينا العهود والمواثيق ألا نعرض سفينة إلى العطب وهي باقية لم يجر عليها قدر. ونحن معشر ربابنة السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها فنعيش ونموت قليلا منها.. فاصبروا..» وقد نجت السفينة بالفعل في النهاية.

هذا ولم يذكر لنا التاريخ — فيما نعلم — حالة واحدة من حالات تمرد البحارة على سفينة عربية قبل ألف سنة، بينما كان التمرد على سفن الاسبان والبرتغال أمرا شائعا في عصر الكشوف الجغرافية الكبرى. وحتى بحارة كولمبس تمردوا عليه وكادوا يفتكون به بعد أن وضح كذبه وسوء تقديره للمسافة التي كان قد قدرها للوصول إلى الهند.

تأمل قول استاذ أمريكي[8] منصف متخصص في هذا الموضوع:

«إن الربابنة الاسبان والبرتغال كان أغلبهم شرذمة من المغامرين الجهلاء يسعون وراء الثراء والشهرة وكانوا يلجأون لوسائل غير مشروعة لايهام الملاحين بقرب الأرض التي كانوا لا يعلمون عنها شيئا. ومن تلك الوسائل تزويرهم للخرائط الملاحية غير الدقيقة التي كانت في حوزتهم، ومحو الجزر من عليها لوضع البحارة أمام الأمر الواقع. ومع هذا فقد تكررت حالات العصيان على تلك السفن وبخاصة بالنسبة لرحلات كولمبس وماجلان».

أما عن أهداف تلك الرحلات الحقيقية وعن مستوى البحارة فيضيف الاستاذ الامريكي قوله «إن أهداف هذه المغامرات البحرية الكبرى التي كان يشجعها الملوك والأمراء سواء الحقيقية منها وهي الحصول على الذهب والثراء — أو الظاهرية وهي التعلل بنشر المسيحية، فلم يكن أي منها يهم بحارة تلك السفن في كثير أو قليل، فقد كان هؤلاء البحارة أميين لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون حتى فنون البحر».

أما الاسباب الحقيقية التي دفعتهم إلى العمل على تلك السفن مجهولة القصد فلم يكن سوى الأجر

المرتفع من ناحية ثم الهرب من الظلم الاجتماعى الذى كان سائدا فى أوربا وقتئذ وغالبا ما كان هؤلاء البحارة ينتهزون فرصة رسو السفينة على جزيرة فيهربون منها .

ونحن نعتقد بأن عاملى الصدفة والحظ قد لعبا دورا كبيرا فى عصر الكشوف الملاحية المذكورة بالإضافة إلى الدعم المادى الكبير الذى جازف ملوك اسبانيا والبرتغال بدفعه للملاحين واستردوا مقابله أضعافا مضاعفة .

ظاهرة الأعاصير الحلزونية

وصف العرب الأعاصير الحلزونية التى طالما صادفتهم فى رحلاتهم فى المحيط الهندى وصفا طريفا وهم يطلقون عليها اسم التنين لما تحدثه من رعب وتدمير ويشبهونها أيضا بالحيات . ومادمنا بصدد المقارنة بين القديم والحديث فسنعرض هنا نصين يتعلقان بهذه الظاهرة يفصل بينهما أكثر من ألف سنة : أما النص الأول فمستخرج من كتاب عجائب الهند موضع دراستنا الحالية ويجرى على لسان الربان هكذا :

« وحدثت أن فى البحر حيات يقال لها التنين عظيمة هائلة إذا مرت السحاب فى كبد السماء على وجه الماء خرج هذا التنين من الماء ودخل فيه . لما يجد فى البحر من حرارة الماء لأن ماء البحر فى الشتاء يسخن كالمرجل فيسجن هذا التنين ببرودة السحاب فيها وتهب الرياح على وجه الماء فترفع السحاب عن الماء ويستقل التنين فى السحاب وتتراكم (السحب) وتسير من أفق إلى أفق فإذا استفرغت مما فيها من الماء خفت وصارت كالهباء وتفرقت فقطعتها الرياح فلا يجد التنين ما يتحامل علية فيسقط إما فى بحر واما فى بر . فإذا أراد الله بقوم شرا أسقطه فى أرضهم فيبتلع جمالهم وخيلهم وأبقارهم ومواشيهم ويهلكهم .. وقد حدثنى أهل البحر والسفارة ــ تجار وربابنة ــ أنهم ابصروه يعبر على رءوسهم اسود ممدودا فى السحاب فلما تراخى هبط إلى أسفل ورسب .. فتبارك الله أحسن الخالقين » .

والغريب فى هذه الأعاصير الدوارة أن وسطها أو ما يعبر عنه علماء الارصاد الجوية اليوم بعين الأعصار تكون مفرغة الهواء فيمكنها بذلك أن تمتص ماء البحر وما فيه من اسماك وغيرها ثم تسقطه على البر أو فى البحر مرة أخرى . وقد عبر عن ذلك ملاحو رحلة التاجر سليمان بقولهم : « وينشرع من السحاب لسان طويل يلعق ماء البحر فيغلى له ماء البحر مثل الزوبعة . فإذا ادركت الزوبعة المركب ابتلعته . ثم يرفع ذلك السحاب فيمطر مطرا فيه قذى البحر . فلا أدرى أيستقى السحاب من البحر أم كيف هذا » .

• ألوان رائعة من الشجاعة والأمانة والمحافظة على العهود فى تاريخ الملاحة العربية

أما الصورة المقابلة لهذا الوصف القديم فوصف لاعصار حلزونى شوهد فوق بحر العرب فى شهر أغسطس سنة ١٩٦٤ خلال البعثة الدولية للمحيط الهندي كما رآه الدكتور كولين راماج C. Ramage استاذ الارصاد الجوية فى جامعة هاواى . يقول الاستاذ :

« فى هذا الشهر شاهدنا اضطرابا فى الجو فوق بحر العرب بريح بلغت سرعتها نحو ١٢٠ كم / ساعة ما لبثت حدتها أن زادت بعد يومين . فخرجنا على طائرة من طراز دي ــ سي ــ ٦ متجهين صوب الاعصار من مطار بومباى . وعندما اقتربنا منه خيل إلى أن الطائرة ستتحطم فقد سقطنا فجأة فى الجو نحو مائة متر فى ثانية واحدة .

وعندما تجاوزنا عين الاعصار تحركت الرياح من جهة الجنوب جنوب غرب بسرعة ٢٠٠ كم / ساعة منعكسة فى الاتجاه المضاد أى من الشمال شمال شرق . وكان القمر الصناعى تيروس ــ ٦ المخصص للأرصاد الجوية قد صور الاعصار قبل أن نطير نحوه بثلاث ساعات . ولما قارنا الصور التى حصلنا عليها من الطائرة للاعصار بصور القمر الصناعى رأينا منظرا مجسما لاعصار حلزونى استوائى لأول مرة . وفى عين الاعصار مساحة صافية قطرها نحو ٢٠ كيلو مترا تغلفها جدران من السحب ترتفع لنحو ١٥ كم فى الجو . وقد وصلت سرعة الاعصار نحو ٥٠٠ كيلو متر / الساعة ! » .

وعلى الرغم من التقدم التكنولوجى المذهل الذى درس بواسطته هذا الاعصار الأخير فإن سبب حدوث هذه الأعاصير قد فطن إليه القدماء وهو نفس السبب المعروف اليوم ألا وهو تقابل ريحين من اتجاهين متضادين .

وفى هذا الصدد يقول القزوينى فى عجائب المخلوقات « إنه التنين (الاعصار) ريح تدور حول نفسها كالمنارة فأكثر تولدها من تقابل ريحين مختلفى الهبوب » .

المصطلحات اللغوية والملاحية

ويزخر الكتاب بالمصطلحات اللغوية والملاحية التى يستطيع القارىء الفطن أن يهتدى إليها بين السطور أثناء قراءته لقصص عجائب الهند ومنها ما هو معروف ومستخدم إلى اليوم ومنها مايتوق رجال العلم واللغويون إلى معرفته . وإليك جانبا من هذه المصطلحات والمفردات على سبيل المثال :

يقال جنح المركب جنوحا أى لمس اليابسة أو قاع البحر وسطحة فى الهواء

جِشُّ الموج : صوت الموج

خطف الربان يخطف خطوفا : أى نشر الشراع للابحار ومثلها شرع أى نشر الشراع أيضا

رأس الماء : هو ما نعبر عنه اليوم باسم سطح الماء

ضبى الموج بالمركب : أى لعب بها .

طرح الانجر : أى قذف المرساة (والانجر من أصل لاتينى Ancre)

عطب المركب : اى أصابها العطب

عدة المركب : أدواتها

علقت مراسيه بالمكان : أى اشتبكت مثلما تشتبك فى الشعب المرجاني مثلا

غب أو غبة وجمعها أغباب : خليج

صبر المركب : أثقله بالحجارة ليحكم اتزانه فى الماء

نجل المركب : نظفها مما علق بها من أوساخ وأعدها للسفر ومنها الصفة نجلاء

الجلبة مركب كبير من مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي تخاط ألواحها بالحبال وجمعها جلاب

بطن : يستعمل فى الملاحة ليدل على خليج صغير يشبه البطن يخرج من البحر إلى البر

مرسى : ميناء صغير تحميه الشعب المرجانية من ناحية البحر .

كما يحتوى الكتاب أيضا على كلمات أعجمية دخلت العربية وكانت شائعة الاستعمال بين الملاحين منذ ألف سنة وأكثر ، ومنها ما هو مشتق من الفارسية مثل :

ناخداه أو ناخودا:وهو سيد المركب أو صاحبها وتطلق مجازا على الربان أيضا .

اشتيام : وهو رئيس الملاحين أو الربان ويسمى أيضا المعلم وتطلق الأخيرة على المهرة من أرباب الصنائع .

نارجيل : شجر جوز الهند

ومن المصطلحات ما هو مشتق من الهندية مثل :

قرينة السفينة أو سيفها: وهى العمود الفقرى للسفينة الذى تثبت الألواح عليه وتبقى كالسيف فى قاع المركب وتكتب أيضا بالكاف « كرينة » وهى من كرانا الهندية .

زام : وجمعها أزوام وهى وحدة للمسافة تساوى مسيرة ثلاث ساعات بالشراع أى ما يقرب من ١٢ ميلا

بارجة : سفينة هندية وأصلها بيرجة أو بيرة

دونيج : وجمعها دوانيج وهى القوارب الصغيرة

باناتى : بحار صغير القدر على السفينة .

بلنج أوبلنك : وهى قمرة السفينة ويظن أن أصلها يرجع للغة الملايو

ثلاج : كلمة هندية تعنى البركة أو المستنقع .

اللغة العربية والمصطلحات العلمية

بقيت كلمة لابد منها قبل أن نختم هذا المقال تتعلق بلغة تدريس العلوم الحديثة والتقنية فى الجامعات . والحق أن واقعنا أمر مؤسف مخز حين نرى أغلب الجامعات العربية تقوم بتدريس الطب والهندسة وما اليها باللغات الأجنبية : بالفرنسية فى جناح الأمة العربية فى المغرب وبالانجليزية فى جناحها فى المشرق بما فيها أغلب دول الخليج .

ولقد نسينا أو تناسينا أن اللغة العربية لغة حية دقيقة متطورة استوعبت المصطلحات العلمية والتراكيب الفنية الأجنبية فى علوم اليونان والسريان والهنود والفرس واللاتين منذ أكثر من الف سنة وأغلب هذه المصطلحات والتراكيب لم يكن معروفا لدى العرب من قبل . وصارت اللغة فى نحو قرن من الزمان فى صدر الاسلام لغة عالمية تؤلف بها علوم الدين والسياسة والفلسفة والتجارة والادارة والطب والفلك والرياضيات . واستطاعت أن تفرض نفسها على اللغات المحلية فى الأمصار بل وقضت تماما على لغات كالسريانية . وما لم يجد له العرب من المصطلحات العلمية أو الفنية مثيلا فى لغتهم اشتقوا له بديلا أو نحتوا له اسما على صورته أو حتى اخذوه كما هو مثلما فى كلمات فيزيقا واسطاطيقا وموسيقى وهيولى وغيرها . حتى فى المصطلحات الملاحية لم يجد الملاحون العرب حرجا من استخدام كلمات هندية وفارسية فى لغتهم كما رأينا آنفا .

وفى عصر النهضة العلمية المصرية التى اعقبت خروج الحملة الفرنسية من مصر كان محمد على يعين المترجمين للأساتذة الأجانب لترجمة محاضراتهم فى الطب والهندسة على الطلاب ثم أرسل البعثات العلمية لأوربا وعاد أعضاؤها وفى حقيبتهم الكثير من الكتب المترجمة للعربية أو مشروعاتها فى شتى العلوم والفنون وذلك فى الثلث الأول من القرن الماضى الذى واكب صحوة بلد نام آخر هو اليابان ـ فأين نحن الآن من اليابان وعلومهم كلها ومدارسهم وجامعاتهم تدرس باليابانية وهى لغة لا يفهمها من سكان الأرض قاطبة سواهم وحدهم ولكن ذلك لم يمنعهم من غزو العالم ببضائعهم .

ومما يبعث على الأسى والخجل أننا نسينا أو تناسينا أمر استخدام اللغة العربية للتدريس فى الجامعات والمعاهد العليا فأصبحنا نغط فى سبات عميق منذ أكثر من خمسين سنة وإذا استيقظنا من سباتنا لفترة فإننا لنجادل بعضنا فى نفس الموضوع : أيهما أفضل هل تعريب الطب والهندسة أم تدريسها باللغات الأجنبية ؟ وكل فريق يدلى بنفس الحجج وهكذا دواليك يأخذنا الحماس لفترة ثم يخبو ونحن فى مكاننا « محلك سر » وإذا بحثنا فى لب المشكلة لوجدنا أن أغلب المعارضين لفكرة التدريس فى المعاهد العليا والكليات العلمية بالعربية هم أولئك الأساتذة الذين لا يعرفون لغتهم ولا يجيدون حتى تلك اللغات الأجنبية التى يتشدقون بها ويتعللون بنقص المراجع باللغة العربية أو يلقون بالمشكلة على عاتق مجامع اللغة العربية والواقع أن الصلة مقطوعة بين هذه المجامع وبين الأساتذة الممارسين للتدريس بالفعل لا ندرى عن عملهم شيئا ولا يدرون عن عملنا شيئا مما فتح باب الاجتهاد الشخصى فى التعريب فأصبح للكلمة الواحدة أو المصطلح الواحد معنى فى بلاد الشام وآخر فى مصر وثالث مختلف فى بلاد المغرب وكأنما آلى العرب على أنفسهم الا يتفقوا حتى على لغتهم . ولابد من الاشارة كذلك إلى فريق ثالث من المعارضين لتدريس العلوم الحديثة بالعربية وهم أولئك النفر الذين قضوا سنوات قليلة فى معاهد الغرب ففتنوا بالحضارة الغربية وتنكروا للغتهم وأصالتهم ولووا ألسنتهم .

والأدهى والامر أن لغة الجدل قد امتدت أيضا إلى الأدب والفن فصرنا نسمع عن دعاة كتابة المسرحيات باللغة العامية وعن انصار مسرح اللامعقول والمسرح الصامت والممثل الفرد وعن أنصار فلسفات بائدة منهارة كانت نتيجة القهر الذى عانته أوربا عقب الحرب العالمية الثانية ثم صحت أوربا من غفوتها ونحن لازلنا نتشدق بهذه الفلسفات وبمعايير وأساليب فى الأدب والنقد عفا عليها الزمن .

أنور عبد العليم

الهوامش

(١) اشتيامو جمع اشتيام وهى كلمة فارسية معربة تعنى الربان الخبير بالملاحة أو المعلم وفى هذا النص ترى أن العرب قد استعملوا اصطلاح المد والجزر بمعنيين الأول هو ظاهرة ارتفاع سطح البحر وانخفاضه كل يوم وليلة مرتين تبعا لقوة جذب القمر والمعنى الثانى يفيد التيارات البحرية الناشئة بفعل الرياح الموسمية والتى تتجة نحو القارة الهندية أى الى الشمال الشرقى فى المحيط الهندي صيفا وتعكس اتجاهها فى فصل الشتاء أى تتجه نحو الساحل الافريقى أى الى الجنوب الغربى .

(٢) الدقل هو صارى السفينة فى المحيط الهندى

(٣) الجمة : قاع المركب الذى يتجمع فيه الماء الناشع من البحر . ويتولى الملاحون نزحه كلما تجمع .

(٤) حفونى أو حافونى هى رأس جردفون على القرن الافريقى .

(٥) صادف الرحالة الاندلسى ابن جبير بحرا مضطربا أثناء عبوره من عيذاب إلى جدة فى شهر يولية سنة ١١٨٣ م (انظر رحلة ابن جبير) وقد أعجبه حذق الملاحين العرب وهم يعبرون إلى المرسى بين الشعاب المرجانية الخطرة وفى ذلك يقول « وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء (الربابنة) والنواتية فى التصرف بالجلبة أمرا ضخما . يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد ويأتون فى ذلك بعجب يضيق الوصف عنه » وهذه شهادة طيبة لملاحى الجزيرة .

(٦) عثر (بفتح العين وسكون الثاء) ميناء صغير باليمن على ساحل البحر الاحمر .

(٧) يقول الملاح الذى أكل السمكة السامة فى هذه القصة يصف أعراض المرض « فلما حصل لحمها فى جوفى التهب فى ظهري مثل النار ثم صار بطول ظهرى كعمود من نار وانتشر فى بدنى واتعبنى . فأنا من ذلك الوقت والى يومنا هذا على هذه الصورة » ويضيف الراوى قوله « وكان له منذ أكل السمكة سنين طويلة » ويبدو الصدق واضحا فى وصف أعراض التسمم .

(٨) هو الأستاذ جون هيل الامريكي فى كتابه المنشور بالانجليزية بعنوان « عصر الكشوف الملاحية الكبرى » المنشور فى سلسلة كتب لايف بنيويورك عام ١٩٦٦ .



دعوات في ملتقى الفجر

شعر: يعقوب السبيعي

قفي تقف الأرض والأزمنه ... وتسعى لموقفك الأمكنه
قفي تزهر التُّربُ في لحظة ... وتغرق في عطرها سوسنه
قفي تمنح الشمس أكنافها ... لأدنى أمانينا الموهنه
قفي تهتك النفس أشعارها ... وتهجر كامنها مكمنه
قفي يهدم القلب أضلاعه ... ليبني على موقف مسكنه
لقد كان أنسك يجتاز من ... بعيد مسافاتنا المحزنه
وتبدي قلوب هواها الذي ... يصح بأعماقها المثخنه
أرى كل أزمنة النور في ... غيابك سوداء مستهجنه
فأهرب منها الى حالة ... من الوجد ترحل بي مذعنه
اليك فأنت يقين مضى ... ليصنع مجد الرؤى المؤمنه
وأسعى لمرآك من منتهى ... وجودي، ومن آخر الأزمنه
تدل عليك المنى مثلما ... تدل على نارها الأدخنه
ويخضع لي الدهر في رحلتي ... لأقطع في كل يوم سنه
أنادي ولا صوت لي خارجي ... شموخ فمي يعجز الألسنه
قفي واسفري أن لي نظرة ... ترى الله ميسرة ميمنه
وقوفك وصل كريم لمن ... يرى البعد مبخلة مجبنه
وان حياة هوى شطرها ... ولم تقفي، لم تكن محسنه
فويل لها ان بي غير ما ... تراه من الخيبة المعلنه
اذا امتنعت في المنى رغبة ... فعندي لها ثورة ممكنه
ستقنع مني برجع الصدى ... اذا هتفت نزعة الهيمنه
قفي، يبلغ الكون غاياته ... ويغفو على كفك اللينه

الكويت

أحمد محمّد عطيّة

أمين صالح

صوت منفرد في أدب البحرين



• أمين صالح

أمين صالح أديب عربى مجدد ، وصوت خاص منفرد فى أدب البحرين القصصى . له حتى الآن أربع مجموعات قصصية : « هنا الوردة .. هنا نرقص » (١٩٧٢) . « الفراشات » (١٩٧٧) . « الصيد الملكى » (١٩٨٢) « الطرائد » (١٩٨٣) ، ورواية « أغنية ألف . صاد الأولى » (١٩٨٢) . اتهمه نقاده بالغموض والتغريب والتعالى على الواقع المحلى وعدم استيعاب قضاياه الاجتماعية . أما هو فقد دافع عن نفسه قائلا : « الكثيرون لم يستوعبوا قصصى لأنها ــ حسب وجهة نظرهم ــ غامضة .. ما أريد أن أوضحه هنا ، هو أننى لم أكن أصوغ عالما مألوفا بمعالمه ومنشآته وشخوصه الواقعية المعروفة ، وانما كنت أصوغ واقعا آخر ، واقعا قصصيا ، غير منفصل حتما عن الواقع الذى نعيشه . فالجذور واحدة ، والقوانين والعلاقات كذلك ، الاختلاف هو فى طريقة العرض والتناول ، ولم أكن أسجل الأحداث اليومية التى يشاهدها أو يقرأ عنها الناس ، بقدر ما كنت أقوم بعرض لصراع الإنسان ضد واقع يمارس ضده شتى أنواع القهر ، وذلك فى شكل قصصى ، مهتما بخلق الصور القصصية التى تعبر عن ذلك » (مجلة الاقلام مايو ١٩٨٠) .

فقد تسبب اتجاه أمين صالح للتجديد والبعد عن النقل الفوتوغرافى التقليدى للواقع فى اتهامه بالتغريب والتعالى على الواقع والبعد عنه ، كما كتب الكاتب البحرينى عبد الله خليفة قائلا : « قاد تجريد الشخصيات والأحداث من واقعها المحلى والعربى الكاتب إلى سيطرة أجواء قراءاته ومشاهداته لنتاج الثقافة الغربية . كان التصور السابق أن القاص يقطع الجذور الاجتماعية والوطنية لكائناته الفنية أنه يجعلها مطلقة ، مجردة ، غير محددة الجهات . ولكن اتضح أن ثمة واقعا آخر يجذبها ، ويجعلها تدور فى فلكه .فغدت هذه الكائنات تعيش فى أجواء غريبة ، فانقطعت عن واقعها الذى تستمد منه الماء والضوء ». (مجلة الكاتب العربى العدد الرابع ١٩٨٢) .

فى حين قال الناقد السورى عبد الله أبو هيف : « ليس التجريب كله نافعا ، وليس التجديد كله مناسبا . ولابد للقاص أن يحتضن شواغل جماعته الانسانية داخل عملية السرد مما يوفر لإبداعه صيرورة شاملة للوضع الاجتماعي والسياسى بعد ذلك . وهو ما تجاهله أمين صالح أثناء تجربة الكتابة » (المرجع السابق) .

والناقد الوحيد الذى أنصف أمين صالح هو الناقد البحرينى ابراهيم عبد الله غلوم الذى تحمس لتجربته القصصية الجديدة قائلا : « إنها تجربة تنحو نحو ازاحة كثير من تراكمات التراث الواقعى التقليدى . وتتخطى المعوقات التى تفرضها المقولات الواقعية الجامدة لانها بما تتفتح عليه من قيم ووسائل . وبما تمنحه من حرية سنجدها تحرر العمل القصصى من تفاصيل الواقع اليومى التى أبعدته عن اكتساب الوعى الشعرى بالحياة ، وتعيد خلق الواقع ، لا من خلال تفاصيله ومظاهره الخارجية ، ولكن من خلال منطقه الداخلى الذى يكشف عن حقائق جوهرية كامنة لا يمكن استبصارها بالرصد الظاهرى ، بل لابد لها من وسائل تعبيرية جديدة . » (القصة القصيرة فى الخليج العربى ص ٦٤٦) .

وهنا نحاول اكتشاف حقيقة التجديد فى تجربة أمين صالح الأدبية المنفردة والمتميزة . ان الجديد فى تجربة أمين صالح القصصية هو استبعاد الحكاية أو « الحدوته » المسلسلة زمنيا ، واستخدام مفردات الواقع ومعطياته استخداما غير واقعى فى نسج علاقات جديدة متداخلة توحى ولا تصرح ، من خلال لغة غنية بالإيحاءات أقرب إلى لغة الشعر ، لغة تومىء وتعطى الانطباعات . لذا يكتنف قصصه الغموض ، ويلفها جو خاص أقرب إلى التجريد ، وفى سبيل ذلك يعمل القاص على عدة مستويات ، الوعى واللاوعى ، المونولوج الداخلى والصور المتدفقة المتتابعة المأخوذة من الواقع لتشكل لوحات غير واقعية ، ولكنها تحتج على الظلم والقبح فى ذلك الواقع .

الفـــراشــات

ففى قصة « الفراشات » ، التى منحت مجموعته القصصية الثانية عنوانها ، نجد مكونات الواقع البحرينى فى مشاهدات امرأة لعودة البحارة إلى الشاطىء ، فى حين تجوس الذاكرة فى ذكريات عالم البحر وعذابات البحارة وأشواقهم . غير أن القصة تفتقد الترابط والتناغم بين مستوياتها الواعية واللاواعية ، إذ تسودها فوضى غير منظمة ، وليس تيار الوعى هو فوضى اللاوعى ، ولكنه تنظيم دقيق لما يدور فى اللاوعى ، وتوظيف له .

صياغة الواقع بتفاصيل غير واقعية للاحتجاج ضده وادانته ، هذه أيضا من سمات تجربة أمين صالح المتفردة ، والتى أخذها عن التعبيريين . كما فى قصته « انفعالات طفل غير محاصر » التى تتشكل من عدة مقاطع يتنقل فيها بين الواقع المعاش والتراث العربى القديم وينتقى فيها إحدى شخصياته المضيئة أبى ذر الغفارى ، فى حين تتابع صور عذابات الإنسان العربى وتعبر هذه الأقصوصة عن الواقع المؤلم فى حياة إنسان قائلة : « فى وطن ما . اضطر شخص ما .. أن يبيع ذراعه الوحيدة بعشرة قروش ، وذلك بعد مساومة فاشلة (أما ذراعه الأخرى فقد نسيها يوما فى أمعاء رجل سمين أثناء مشاجرة بينهما ، ويقال ان الرجل السمين يملك نصف المدينة ، ويصر على أن يمتلك نصفها الآخر) لم يكن فى وسع هذا الشخص أن يفعل شيئا آخر سوى أن يبيع ذراعه ، فهناك تنتظر أفواه جائعة وحلوق جافة تقتات البرسيم وقصاصات الورق ، خلسة ، فى الحظائر . وهو يدرك جيدا أن القانون يعاقب من يعتدى على الملكية الخاصة . وفى أثناء رجوعه ، فكر الشخص فى أن يشترى ـ بالقروش العشرة ـ خمسة أرغفة وطبقا من الفول ، ثم انتبه إلى أنه بدون ذراعين ، فاكتأب وجلس على الرصيف وهو يفكر فى طريقة يستطيع بها أن يحمل الفول والأرغفة إلى زوجته وأطفاله .. (الفراشات ص ١٦ ، ١٧) .

ويسيطر جو الرعب وصيغة الحلم على قصص أمين صالح ، كما هو الحال فى قصص التعبيريين ، احتجاجا على الواقع المخيف ، كما فى قصة « اللافتة » وبطلها كهل يحمل لافتة مدونا عليها كلمات لبريخت فى مسرحيته « جاليليو » ، الكلمات تقول : « لتكن الأشياء كما هى .. ولكن ليس هذا سببا من أجله تظل كما هى . ان كل شىء فى حركة » . وعندما يسأله الشرطى : « هل تعتقد أنك وحدك ستغير العالم ؟ يجيبه الكهل : لا ولكن لا أريد أن يغيرنى العالم » ويحدثنا مونولوجه الداخلى عن رفض ما يجرى حوله ويلتقطه شخص الراوى فى القصة من الطريق لينام فى بيته فى صمت داخلا خارجا حاملا لافتته الاحتجاجية . أما الراوى فإنه رافض للبلادة فى واقع حياته كموظف فى احدى المؤسسات المرفوضة من قبل الكهل ، إنه يحلم بتنظيم هذا العالم البليد : « أذهب إلى العمل متأخرا كالعادة وأتبادل مع الموظفين أحاديث أليفة وأشرب الشاى وأفتح السجلات والملفات وينتابنى الضيق والملل وأسأل نفسى : ماذا يحدث لو تحولت إلى مسخ يقرض المقاعد والسجلات بشراهة ؟ » (الفراشات ص ٢١) بينما يمضى الكهل حاملا لافتته الاحتجاجية ويلقى مصرعه بحربة ضارية فى ظهره ، وعلى مقربة منه ترقد اللافتة ملطخة بالدم ، فاغرة الفم فى تساؤل مرعب » (الفراشات ص ٢٢ ، ٢٣) .

وأمين صالح لا ينقل الواقع ولكنه يعيد صياغته بانتقاء الصور الواقعية وغير الواقعية ، الممكنة والمستحيلة . كما يفعل التعبيريون معنيا عمله بالتصوير وليس بالسرد ، ويتميز احتجاجه بالوعي والعمل ضد صور القهر والاستغلال والكبت والظلم . وتمثل قصته « ارتجافات عناقيد الماء فى الهواء » هذا النهم القصصى فى اعادة صياغة الواقع والحلم بواقع جديد ، كما تحلم « أسماء » بطلة القصة التى سجن ابنها .

ويلعب الاطفال دورا هاما فى قصص أمين صالح ، انهم البراءة والامل والرؤية الثاقبة ، كما فى قصة « الأشجار تزهر فى الحى الهادى » ، حيث ترسم الطفلة الوردة وتسلمها للحارس كى يرسلها لأبيها . غير أن الحارس المعادى للجمال والطفولة والبراءة يمزق الورقة المرسومة ويلقى بها تحت عجلات القطار الحديدية الحادة : « وفى داخل القطار مسافرون فقدوا ذاكرتهم .. وداعا . » وهنا يتشكل الواقع فى صور جديدة « فطائر البحر يجهش بالبكاء معظم الوقت » ، « وفقد اللعب براءته » ، « شاخت الطرقات » . ورسمت الطفلة وردة مرة أخرى فى جوفها شمس تضحك . « ثم جاء أبوها وداعب صدغيها فنزعت خصلة من شعرها ووضعتها فى راحة يده التى صارت واحة فسيحة على حوافها تنمو أشجار ، والأشجار تزهو فى الحى الهادىء الذى لم يعد هادئا منذ أن خرج الأهالى من بيوتهم ثم التفوا حول سارية ايار ، وأعلنوا موت الصبر والخوف وقالوا : نريد قمحا . فاستعان أصحاب الأراضى بالجنود ، والجنود جاءوا بعد أن أمروهم باستعمال القوة عند الضرورة ، واستعملوا القوة ، وسقط رجل ثم نهض ، وسقطت امرأة ثم نهضت ، وسقطت الطفلة ثم نهضت ورسمت على سارية ايار شمسا تضحك داخل وردة ، وأخبرت أمها أنها رسمت وردة أخرى » (الفراشات ص ٣٥) وهكذا فالأمل فى مستقبل أفضل وفى امكانية صنعه وارد دائما فى قصص أمين صالح التعبيرية . فهو لا يبتعد عن

صوت منفرد في أدب البحرين

الواقع ولكنه ينطلق من صميم الواقع ليعيد خلقه وابداعه ويتمثل فى نهجه الانتقاء والابتكار والخلق الجديد . ولعل غرابة الصور غير الواقعية واعادة تركيب الواقع بشكل تعبيرى هو الذى صدم نقاده الواقعيين الذين ألفوا السير على الواقعية التقليدية .

التعبيرية

تتميز قصص أمين صالح بالتعبيرية ، بتطويرها للواقعية واطلاقها العنان للخيال . فهى تقدم الواقع بتصوير واقعى لا يعنى بوصف تفاصيله المعروفة ، بل تتمثل الواقع وتعبر عنه من خلال رؤية القاص وتعيد خلق الواقع وصياغته بغية سبر غوره والكشف عن جوهره وعن بذور المستقبل الكامنة فى طياته .

والتعبيرية ظاهرة فنية وأدبية ظهرت فى ألمانيا فى أوائل القرن العشرين كاحتجاج على افتقاد الانسانية وضياع الإنسان فى المجتمع الاوروبى ، ورفضا للمصير الذى يساق إليه الإنسان فى اتون اشعال نيران الحروب الاستعمارية وسيطرة المال والآلية والنفعية وضياع الإنسان فى المدن الكبرى وسطوة أجهزة القمع والتعذيب . وتطلعت التعبيرية إلى انسانية جديدة يتحقق معها كبرياء الإنسان وكرامته وأمنه وأفراحه . وقد أبدعت التعبيرية أعمالها فى الرسم والنحت والشعر والقصة والرواية . وتميز انتاجها القصصى بالانجاز والتكثيف والدفقة الشعرية والعناية بالخيال . ويذكر الدكتور ناصر الحانى - فى كتابه « المصطلح فى الادب الغربى » : « أن الاسلوب التعبيرى عنيف ولا يعرف الانسجام والتنسيق » ويضيف : « ويعنى التعبيريون عناية فائقة بالخيال الذى يصير الجماد ذا حياة ويصف الإنسان وقد صيرته المكائن والآلات جمادا لا حياة فيه . » (ص ٣٦ و ٣٧) .

وتميزت التعبيرية أيضا بالعناية بالأطفال ورسومهم وأدبهم ، وبالشعر والاحتجاج على نوعية الحياة المدنية البورجوازية وبالتعلق بفكرة اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة . ويوضح الدكتور عبد الغفار مكاوى ، فى كتابه « التعبيرية فى الشعر والقصة والمسرح » ، أن التعبيريين عملوا على « التغلغل إلى الأعماق الدفينة فى الإنسان ، بكل ما يختلج فيها من ظلال وأسرار واحساسات مبهمة . وفضلوا التدفق المحموم على الوضوح الصارم ، والنشوة والعنف على التعقل والنظام . » (ص ١٢ و ١٨) .

وقد اهتم التعبيريون بتيار الوعى والمونولوج الداخلى وتناول المحال كما لو كان حقيقيا . كما قال الكاتب الالمانى التعبيرى « كارل انيشتين » : « يجب أن نتناول المحال (أو العبث) كما لو كان



واقعة حقيقية . » ولعل أشهر الكتاب وأقربهم إلى التعبيرية هو القاص والروائى « فرانز كافكا » . وقد اشتهرت قصص كافكا ورواياته برواية « تفاصيل دقيقة عن حادثة غير واقعية » كتحول القومسيونجى فى قصته « التحولات » إلى خنفساء وآثار هذا التحول على العالم الخارجى المحيط به فى العمل ومع الأسرة والأصدقاء . وهذا هو ما يفعله أمين صالح فى قصصه التعبيرية .



الصيد الملكى

ويجنح أمين صالح فى قصص مجموعته الثانية نحو التركيب والتعقد . ويزداد عالمه المتفرد تميزا بتراكيبه الواقعية والمستحيلة ، مطلقا العنان للخيال ، منطلقا من الواقع المدان لديه ، كما فى مجموعة حكاياته « مواكب لساكنات التلال » . فى هذه الحكايات يكشف القاص شخصياته ونوازعها المكبوتة ، مستعينا بتراكيبه اللامعقولة على إدانة الواقع . الشخصيات بلا أسماء ، ومع وجود القص والحكى الا أن الصور غير المعقولة تفتقد الحكاية المسلسلة والزمن المحدود .

ففى الحكاية الاولى « فى مكان ما ، فى بيت مهجور وفسيح » ، يهتم حارس ليلى بامرأة ويتابعها من ثقب الباب فى غياب زوجها . ذلك الزوج الطيب الذى يتبرع من راتبه المحدود لأهل زميله المعتقل سرا . وبينما الزوج فى عمله الشاق المرهق ، يحاول الحارس الاعتداء على الزوجة فتطعنه الزوجة بسكين حادة دفاعا عن نفسها .

وفى حكاية « الفارس يعبر .. ويدخل من النافذة خلسة » ، ثمة فارس للسيرك ، يمارس عمله بنجاح ليحضر عشاء كل ليلة إلى زوجته فى نهاية كل عرض ، حتى يدعوه صاحب السيرك لتقديم عروضه لجمهور خاص مكون من ثلاث شخصيات ، الجنرال والمأذون والمقاول . وذلك مقابل أجر سخى ، فوافق فارس السيرك ، فى حين أصيب الأطفال فى السيرك بخيبة الامل لغيابه :

« لو أتيح له أن يشهد عيون الاطفال المأهولة بالخيبة وقت غيابه ؟ لو تريث قليلا وسأل ؟ » (الصيد الملكى ص ١٧) وعندما يقدم الفارس عروضه يفاجأ بأنه وقع فى مصيدة وأنه معتقل ومجبر على تقديم عروضه فى سجنه لتسلية الجنرال والمأذون والمقاول . وتتفرع ثلاث حكايات فرعية تكشف بشاعة تصرفات هذه الشخصيات ولا معقوليتها ولا انسانيتها . حتى تنهيهم الزوجة بقتلهم .

وفى قصة « بابا نويل لا يحب الدمى » يعبر أمين صالح عن كراهية صبى لأبيه لانه طرد أمه وأوهمه بوفاتها فى هذه الصورة : « هناك رجل ممدد على ظهره فى الحظيرة ، أشبه بالميت ، أو ربما هو ميت ، انه ساكن تماما . وفوق صدره يجثم ديك وينقر عينيه على مهل . يرتفع المنقار فيتقطر الدم قطرات قطرات على وجه الرجل . وبين الفينة والفينة يحرك الديك رأسه يمينا ويسارا متباهيا بانتصاره وسطوته . غير أنه لا ينتبه لوجود صبى فى العاشرة من عمره يقف خلف السياج واضعا يديه فى جيبى بنطلونه ، وينظر دونما اكتراث . يستمر الديك فى التهام المقلتين والجفنين ويبدأ فى محو الأهداب ، ولا يكف الا بعد أن يصير موضع العينين مجرد حفرتين صغيرتين عميقتين يفور الدم منهما بغزارة عندئذ يشعر بحضور شخص ما . فيلتفت نحو الصبى الذى لا يبدو عليه أى انفعال . يرمقان بعضهما لفترة ثم يغمز الديك فيبتسم الصبى ويغمز له بدوره . بعد ذلك يستدير متجها صوب البيت وهو يصفر مغتبطا ومنتشيا . صرخ الاب بقسوة ! لماذا لا تأكل ؟ رفع الصبى بصره عن الأطباق الموضوعة أمامه على المائدة وهمس بصوت مرتعش : لقد شبعت ياأبى . هم بأن يقول له بثبات ودون وجل (لقد رأيتك يا أبى ميتا والديك يأكل عينيك) ، ولكنه آثر أن يصمت خوفا من أن ينال صفعة أو يتلقى شيئا حادا فى مكان ما من جسمه . (الصيد الملكى ص ٤٦ و٤٧) وتمضى القصة برفض الصبى لهدايا بابا نويل لأخته ثم استيلائه على مسدس أبيه واطلاقه الرصاص فى الهواء على كل هذا العالم .

هكذا يفرز الواقع قصصا مرعبة فى مخيلة القصاص أمين صالح . ويستمر هذا المناخ الكابوسى فى قصصه ، كما فى قصته « للشهادة أيضا مداران » التى تعبر عن صدمة الصيادين بواقع جثة رجل مشوه الوجه بالطعنات فى شباكهم بعد أن صورت القصة خروجهم للصيد جماعات فى البحر والحلم بيوم وفير الصيد بأسماك البحر . ويفر الصيادون رعبا من الجثة ، فى حين يظل « يونس » مع الجثة التى تخاطبه وتطلب منه اللعب معها ، وترى الجثة تنهض وتجرى ثم تهبط ليحتويها الحوت .

وفى قصة أمين صالح يتجاهل الجميع الجثة ويحتويها الحوت . وفى هذه القصة « للشهادة أيضا مداران » يتحدث الحوت عن الحقيقة كاملة قائلا : « جاءنى يخبىء جراحه تحت سترته .





أغلفة المجموعات القصصية الثلاث التى صدرت لأمين صالح .. وغلاف رواية « أغنية ألف صاد »

والعرق ينضح بغزارة من جلده وهمس : (أغثنى ، دعهم يكفون عن ملاحقتى .) ربطت جبينه بقماش مبلل ومسحت على أنفاسه لئلا تجهده الحمى ، بعد قليل غاب عن الوعى واستسلم لعربدة الهذيان ، تراءى لى أنه بلا بيت ولا أصدقاء . الا أنه ليس كذلك . فقد أخذ لسانه يدون أسماء وتواريخ وطرقات سمعت عنها . خلته سيموت فى حضرتى : غريقا ، نائيا عن كل شىء ، محروما من صلاة يتيمة أو دمعتين حبيبتين . من يكون مثلى لا يخذل لاجئا ، أنا الرابض خارج التناقض والصراع . أتفرج دائما وأتدخل أحيانا ، وبالذات فى مثل هذه الظروف ، أجزم : هذا رجل لم يضل طريقه ولكن ضله النصر . سأحمله إلى الجانب الآخر كى يحتفل به معارفه ويشاطروه لحظاته الأخيرة . (الصيد الملكى ص ٧٦) بهذا تحدث الحوت فى قصة أمين صالح .

الطرائد

وفى أحدث مجموعاته « الطرائد » تميل قصصه إلى القصر والتكثيف والشاعرية وتقل مظاهر الغموض والابهام ، ومن ثم يظهر السرد القصصى بدلا من المونولوج الداخلى ، ولكن تظل للقصة ايقاعاتها الموسيقية والشعرية . كما يتمكن القاص من محدودية الزمن والموقف . فتصور قصة « موعد للقاء ، موعد للفراق » لقاء بين حبيبين لفهما الصمت والذكريات والحلم . وتصور القصة من خلال صمت الحبيبين ذكريات الحب الجميلة عبر صور متدفقة ، ثم يطول الصمت بينهما إلى حد يحتم الافتراق فيفترقان بدون كلمة واحدة متبادلة . « أخيرا ، قامت ، وبوقوفها شطرت كل الأشكال التى رسماها سويا . عندئذ تعرت الأماكن . طمست الطرقات رفيف رجل وامرأة اعتادا السير معا ، وذاذا سقطت المرآة فتناثرت الانعكاسات وذابت الصور . راقبها وهى تغيب ، تغيب ، تغيب .. ثم نهض بدوره وغاب . فى هذا المكان ، جاء الرجل ، وبعده جاءت المرأة . مكثا جالسين دقائق ثم مضيا كل فى طريقه دون أن ينطقا بكلمة » (الطرائد ص ٩) .

وتعبر قصته « المطهر » عن رجل سئم حياته اليومية ومدينته ، وتعدد القصة مظاهر السأم والاحباط من التكرار اليومى لعاداته حتى خرج على عاداته ومواعيده فتأخر فى الاستيقاظ من النوم ومزق وجهه بشفرات الحلاقة فأغرق قميصه بالدم ، وخرج بدمه غير مبال بملاحظات الناس ودهشتهم لمظهره الدموى ، « انه يعبر عن ازدرائه لكل من يصادفه ، من بشر وحيوانات وأشياء ، بنظراته الباردة والتواء شفتيه ، بوسعة أن يركل قطة بلا خوف من راصد يرصده . بوسعه أن يهجم على شرطى المرور ، بوسعه أن يلجم الاسفلت ويحوله معجونا يكوره ويقذف به على سطح عمارة يفجرها . ولكنه لم يفعل شيئا من هذا القبيل ، وانما ظل سائرا » (ص ١٢) وتختتم القصة بانتحار بطلها تحت عجلات الباص ، « والذين شاهدوا الحادث أقسموا انهم سمعوا الرجل ينشج ، وأن دموعه فضحت المطهر الذى كان يتقنع به ، وبدا كطفل ضائع فقد أمه فى محطة ما » (ص ١٣) هكذا تحتج القصة على ضياع الانسان ووحدته وقهره فى عالم المدينة الحديثة : بالصور والموقف وأقل الكلمات والزمن المحدود واللحظة المكثفة والمعبرة .

فشخصيات أمين صالح شخصيات معذبة ، وهى فى كشفها لعذابها ومعاناتها انما تعرى الواقع الذى تعيشه مرغمة . وهى شخصيات بلا أسماء ، ايماء لعموميتها وتمثيلها لأزمة الانسان فى احباطاته وتمزقه وحصاره ، كما ظل الشاب المجهول ينزف فى قصة « امرأة خلف النافذة » ، الدماء تنزف من جسده بعد طعنه ، وعدم جدوى الاستغاثة فلا أحد يبالى به : « إنه يدرك جيدا استحالة وصول الاستغاثة . فلا أحد يصغى ، والنزف أرهق جسده وعطل عضلاته . لقد أطلق الصرخات فور تلقيه الطعنات ولكن لا أحد استجاب » (ص ١٦) لم يشعر به أحد رغم أن دماءه النازفة أخذت تغمر الأرض والجدران ، حتى أطلت امرأة جميلة من نافذة قريبة تشير إليه غير شاعرة بأنه يموت .

أغنية أ . ص

وفى روايته « أغنية ألف صاد . الأولى » يواصل أمين صالح تركيب عالمه التعبيرى المنفرد مجسدا محنة الانسان المعاصر وانسحاقه فى دوامة الحياة اللاانسانية وطموحه لعالم جديد مغاير . وفى هذه الرواية يضرب أمين صالح عرض الحائط بكل أسس الرواية المتعارف عليها فى العالم ، فلا شخصيات محددة المعالم ، ولا زمن ، فالامكنة والازمنة متداخلة . والواقع المصور مضطرب مختلط ، الممكن والمستحيل جنبا إلى جنب مع المعقول واللامعقول .

وقد تحدث أمين صالح عن شخصياته قائلا : « أنا اختزل كل الأسماء ، وكل الأوصاف فى كائن بشرى معين ، هذا الكائن أو هذا الانسان — سواء كان رجلا أو امرأة أو طفلا ، يعبر التخوم والاسوار . انه يعاشر الشجر والبحر والأرض والفضاء والصحراء ، ينام فى الغابة وفى المجارى ، يرافق الوقت ، يسامر النجوم ، إنه ليس شخصا ولكنه كل شخص يحتوى هذه الصفات وهذه الخصائص . واذا كان لابد من وضع اسم لهذا الرجل أو هذه المرأة أو هذا الطفل فليكن أ . ص ولكن دون جواز سفر أو بطاقة شخصية . أمام الخوف واليأس والإحباط والاغتراب ، لا تهم الاسماء » (الاقلام مايو ١٩٨٠) ومن هنا جاء اسم « أ . ص » ، إنه تجميع لشخصية الانسان المعاصر المغترب المحبط المسحوق تحت وطأة الآلية والوحدة واللاإنسانية .

تعتمد الرواية على بناء من الصور غير المعقولة ، التى يقصد بها الاحتجاج ورفض الواقع العربى المعاصر ، وفى بعض الفقرات يستخدم الكاتب بعض المعلومات الوثائقية والاحصائيات ويلعب الخيال الدور الأكبر فى صياغة هذه الصور .

فنحن نتابع كل أزمان الانسان المعاصر ، من خلال شخصية « أ . ص » بطل الرواية العام وسرده المصور وصوره المتداخلة مع الامكنة والأزمنة المتغيرة ، والتى تفتقر إلى التضافر والتمازج ، بحيث تعدو هذه الرواية القصيرة (٩٦ صفحة) مفككة البناء ، مسطحة الشخصيات ، طموحه لاستيعاب هموم الانسان المعاصر . فهذا هو عالم أمين صالح وصوته المنفرد فى أدب البحرين القصصى .

أحمد محمد عطية

المتحف والبحث العلمي



واجهة متحف قطر الوطني الشرقية . حيث يبدو جانب من بحيرة المتحف التي يستخدمها البيولوجيون لإجراء بحوث علمية في استزراع الأسماك والقشريات

يرجع ثقاة المؤرخين ، أن أول متحف علمي عرفه الناس ، هو ذاك الذي أنشأه بطليموس سوتر الأول (٣٢٣ ــ ٢٨٥ ق.م) بمدينة الاسكندرية ، على ساحل البحر المتوسط ، بحر الروم ، قرب الركن الشمالي الغربي لدلتا النيل ، بمصر .. وجعله بمثابة (جامعة مفتوحة) لدراسة الفنون والآداب والعلوم ، وأودع فيه كذلك معرضاً لكل ماكان قد جمعه الاسكندر المقدوني في مختلف حروبه من المخطوطات ، وبدائع المصنوعات ، وغرائب المخلوقات ، ونوادر المقتنيات من الجواهر والعطور والدروع والسيوف والحراب والمجانيق والسروج ، واللجم ..

بقلم: درويش مصطفى الفـــار

سمى بطليموس ذلك المتحف باسم ، لم يسبقه إليه أحد ، اتخذه تيمناً بالميوزات التسع ، الأصنام التى كان الأغريق يتخذونها ، فى وثنيتهم ، آلهة من دون الله ، ويرمزون بها ، للموسيقى ، وقصص الأبطال ، والحب ، والشعر ، والخطابة ، والتاريخ ، والمسرح ، والرقص ، والفلك ، منذ كان تنجيما ورجماً بالغيب .. فسماه (الميوزيون) ، ثم حرف الرومان تلك التسمية فأصبحت (ميوزيوم) بمعنى مكتبة أو معهد دراسي يعمل فيه المبرزون من العلماء والباحثين ..

ولقد اشتهر من بين علماء (متحف الاسكندرية) ذاك ، جماعة لا ينساهم تاريخ العلوم ، فيهم أرشميدس (٢٨٧ ــ ٢١٢ ق . م .) ، واقليدس (٣٠٠ ق . م .) ، وأبو لليتوس (٢٦٠ ــ ١٩٠ ق . م .) واراتو سثينوس ، وهذا الأخير ، هو أول من حاول قياس محيط الأرض بتجربة مشهورة باسمه فى تاريخ العلوم ، قام بها بين الاسكندرية وأسوان (٢٧٦ ــ ١٨٤ ق . م) ..

واختفت كلمة (ميوزيوم) بعد خراب متحف الاسكندرية ذاك ، من جراء القلاقل والفتن والاضطرابات والحروب والثورات التى ضج بها القرن الثالث الميلادى ..

ثم عادت الكلمة الى الظهور فى القرن السابع عشر ، فى أوروبا وأمريكا ، ولا أدرى متى استخدمت كلمة (متحف) فى لغتنا ؟!!

وتنتشر المتاحف اليوم فى أنحاء الدنيا ، لا يحصيها عد ، ويكفى أن نتبين ذلك مما كتبه (ادوارد الكساندر) سنة ١٩٧٨ فى كتابه (مسيرة المتاحف) حيث قال : « يبلغ عدد المتاحف بمختلف أحجامها وتنوع تخصصاتها أكثر من خمسة آلاف متحف فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبه (مليون) زائر ! !

ولا يزال علماء المتاحف ، فيما بينهم ، يختلفون ، فى تعريف ماهية المتحف ، وطبيعة وأهداف رسالته فى المجتمع ، ولهم فى ذلك مجالات وطرف وملح لا تخلو أحياناً من التلاحى والصخب ..

ولقد اختط « متحف قطر الوطنى » خطته من بين تلك النظريات العديدة المتباينة ، وبلور شخصيته محلياً وعالمياً ، كمنشأة حضارية ، تحاول التعبير عن (البيئة القطرية) بأبعادها العربية والاسلامية والإنسانية ، براً وبحراً فى الماضى والحاضر ، لتخدم أهدافاً ثلاثة أساسية هي :

١ ــ الترويح والسياحة ..
٢ ــ التعليم والثقافة ..
٣ ــ البحث العلمى المتقدم ..

الهامور المنقط



سمكة الجين



حجر منقوش بلغة الأنباط ، كان يظن أنه اكتشف فى جنوب غرب شبه جزيرة قطر ، ولكن النظرة العلمية الفاحصة لهذا الحجر أكدت أنه غريب عن الطبقات القطرية ، وأدى ذلك إلى معرفة أنه ليس حجراً تاريخياً قطرياً بعد حوالى سبع سنوات طوال

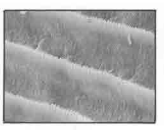
• وذلك يعنى خدمة ، العامة ، والخاصة ، وخاصة الخاصة ، بالمقياس العلمى ..

ولقد قطع المتحف ، منذ أن افتتحه حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر فى الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٥ (١٩٧٥/٦/٢٣) شوطاً محموداً فى مضمار الترويح والتعليم ، وطرق باب البحث العلمى المتقدم ، حسب ما لديه من إمكانات متاحة فى الأفراد والأجهزة ، طرقاً هيناً ليناً ، بإصرار يصبو الى تحقيق الغرض الثالث ، ايماناً بحاجة كل المجتمعات النامية ، ومنها دولة قطر ، بادية وحاضرة ، الى انتشار روح البحث العلمى ، فى التفكير والأداء ، وعلاج المشاكل والتأمل فى بديع صنع الله فى هذا الكون الرحب ، الذى تنطق كل دقائقه وتفصيلاته بوحدانية خالقة وتفرده سبحانه ..

• فأصدر المتحف صحيفته العلمية (الريان) خدمة لنشر الأبحاث العلمية المتقدمة (باللغة



سطح قشرة سمكة الهامور ، كما تبدو تحت المجهر الالكترونى ، مكبرة ، عشرين ، الف مرة !



سطح قشرة سمكة ، الجين ، كما تبدو تحت المجهر الالكترونى ، مكبرة (٣٠٠٠) مرة

العربية) فى كل أبواب العلم التى تمس البيئة براً وبحراً ، انساناً ونباتاً وحيواناً وجماداً ..

• ووضع مشروع (اطلس قطر العلمى) الذى تحدثت عنه مجلة الدوحة فى عدد سابق ..

• وصاغ التصور العلمى لمشروع « معهد الدوحة لدراسة المسكوكات الاسلامية » بحيث يصبح مركز بحث علمى يستخدم فيه الباحثون جميع أنواع الأجهزة العلمية التى يمكن أن تمت بصلة الى آفاق دراسة المسكوكات (أنظر الدوحة عدد مارس سنة ١٩٨٥) ..

• ولقد وطد المتحف ، ما وسعه الجهد ، رغم تشعب وتقليدية الأوضاع الادارية ، علاقته مع الكثير من الهيئات العلمية المحلية والعالمية ، للتعاون فى مجالات البحث والتفكير العلمى ، فكان من بعض نتائج تلك الاتصالات على سبيل المثال :

١ ــ التوصل ، ولأول مرة فى تاريخ البحث العلمى ، بالتعاون مع (كامبريدج إنسترومنت المحدودة) الى أن (قشور الأسماك) قد تصبح أداة علمية مفيدة فى مضمار تصنيف الأنواع والتمييز بينها ، إذ أسفرت دراسة قشور بعض الأنواع عن أن استقصاء أسطح قشور السمك تحت المجهر الالكترونى ، يظهر أشكالاً من التضاريس على تلك السطوح تختلف من نوع الى آخر ، وتحتاج تلك البادرة الى زيادة فى الدراسة والبحث ، للتثبت من حقيقة جدواها العلمية الاكاديمية ..

٢ ــ التثبت من احتمالات نجاح استزراع الأسماك والقشريات فى البيئة البحرية القطرية ، اذا توفر اتخاذ الأساليب والوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك الهدف الانتاجى العظيم ، إدارياً وبشرياً وتنظيمياً ..

٣ ــ النجاح فى زراعة وتنمية الطحالب (الزرقاء الخضراء) التى تصلح غذاء للأسماك وذلك فى القسم البحرى من المتحف ..

كما وان المتحف يبذل جهداً ، قدر استطاعته وامكاناته المتاحة ، للتجريب زراعة نباتات جديدة فى حديقته ، بحيث تصبح هذه الحديقة فى خدمة غرضين متكاملين : الغرض الجمالى والغرض العلمى ..

ومن طريف ما صادفه المتحف ، فى أثناء تناوله لقضية البحث العلمى بين جدرانه ، الكشف عن حقيقة حجر منقوش بلغة الأنباط ، حصلت عليه لجنة المتحف أثناء أضطلاعها بتجميع المعروضات فيما بين سنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٧٥ ، ووضع فى ركن خاص من المتحف باعتبار أنه نقش نبطى وجد فى تلال جنوب قطر ..

ومن منطلق ضرورة النظرة العلمية المجردة عن العواطف ، خضع ذلك الحجر للفحص العلمى ، فثبت أنه لا يشبه أى نوع من الحجارة الظاهرة على سطح الأرض تحت علم قطر ، لا فى شبه الجزيرة على سعتها ، ولا فى الجزر القطرية الواقعة فى المياه الإقليمية : حوار ، وحالول ، وشرعوه ، والاسماط ، والعالية والسافلية وغيرها ، فتسرب الشك فى كونه نقشاً قطرياً ، واستلزم ذلك بالضرورة ، إجراء التحريات التى تشبه أعمال (سكوتلاند يارد) حتى ثبت يقيناً ، أن ذلك الحجر ، لم يعثر عليه أحد فى الأرض القطرية ، ولكنه كان قد نقله ناقل ، أثناء رحلة صيد فى البيداء بين سوريا والعراق !!!

ولعل الكثيرين من الناس ، وخاصة فى مختلف أنحاء الوطن العربى ، لم يدركوا بعد مدى الفرق بين (المتحف) و (المعرض) من حيث أن المتحف كائن حى مستمر التطور والنمو ، وهذا لا يتأتى له إلا إذا تحقق فيه السير على طريق البحث العلمى ، بتوفير الأفراد والأجهزة والمكان ..

• وإن متحف قطر الوطنى ، لكى يبلغ استكمال رسالته ، التى ترتكز كما اسلفنا فى صدر هذا المقال ، على أثاف ثلاث ، هى الترويح والتعليم والبحث العلمى ، لكى يخدم العامة والخاصة وخاصة الخاصة ، ويشيع روح التفكير العلمى الجاد فى الحياة والتخطيط وفهم حقائق الكون ، بدل إضاعة الوقت فى الأمور التى تشغل المجتمعات المستهلكة (بفتح اللام أو كسرها ، سواء بسواء) .

• ليتطلع الى إرساء قاعدة بحث علمى بين جدرانه على أساس عام غير فردى يتصدى فيه الشباب المتعلم الغيور ، لمختلف أبواب البحث العلمى فى جميع الفروع التى يعبر بها متحف قطر الوطنى عن بيئته ، كما أسلفنا وصفها ، فى تنسيق وتنظيم ، يعيدان الى البحث العلمى فى الوطن العربى هيبته وفعاليته التى تنقلنا الى مرحلة الاستغناء عن التبعية والتسول والاستجداء ، والخضوع ..

• وليس المقصود من إضافة مرفق للبحث العلمى المتقدم فى متحف قطر الوطنى هو تحويل هذه المؤسسة الحضارية إلى (مستودع) لتفريخ (الشهادات) والألقاب العلمية ، ولكن المقصود هو إيجاد مجال يثبت فيه الإنسان العربى ، قدراته ، واصالته فى الفكر العلمى ، مما يساعد على تحطيم كل حواجز (الشعور بالنقص) التى تغمر أقطار الوطن العربى ، على سعته ، من جراء الهزائم المتتالية المتشابكة ، الناجمة دون أدنى شك عن إهمالنا لروح البحث العلمى الصحيحة ، فى كل ميادين الحياة المعاصرة ، منذ أن دالت دولتنا فى الأندلس (١٤٩٢ م) وانقلبنا إلى فرق وطوائف ، حيث تفرقت بنا السبل عن سبيل الله ..

إن الأمل معقود ، بعد أن بلغ متحف قطر الوطنى عامه الهجرى العاشر ، فى أن يتحقق بناء ثالثة الأثافى التى ترتفع بها المتاحف كما اسلفنا ، بانشاء مختبرات ومعامل لأغراض البحث العلمى ، فى كل المجالات التى يعبر عنها هذا الصرح الحضارى الفريد ، الذى يحق لدولة قطر أن تعتز به محلياً واقليمياً وعالمياً .

درويش مصطفى الفار

قصـــائـــد

شعر: عـــزت الطـــيرى



(١)

مجنونٌ شبَّاكى
بعصافيرِ الصبحِ
لكنَّ عصافير الصبحِ تجئُ
بشبابيكٍ أخرى

(٢)

دق الهاتف في منتصف الليلِ ،
فقلتُ
من يطلبني في منتصف الحزنِ
أصحابي رحلوا
وحبيبي ضاع بمنتصف الدربِ
لكنَّ الهاتف ظل يدقُ ويعوى
حتى أيقظ نصفَ دجاجات البيتِ
فسحبت غطائي وغفوتُ

(٣)

أيها المطر الموسميُّ
تفاجئُنا موسماً
وتغادرنا موسماً
ثم تتركنا دمعةً في العيونْ
أيها المطر الموسميُّ
أنتَ لا موسميٌ .. ولا بجنونْ

(٤)

سيدتي الشمسْ
أنا زهرة عباد الشمسْ
إن غبتِ أموت ! !

(٥)

قالت أمي
تشبه لأبيك كثيراً
لكنْ لم تفصح في أيِّ الأشياء
وبكتْ
فتساقط من عينيَّ
محضُ سؤال ! !

(٦)

قال الطفلُ
حين أطالب أبي
بشطيرة حلوى
يُحضر أوراقاً
يرسمها لى
ويزخرفُها
ويعود فيأكلها ! !

(٧)

قالت زوجى
مسكينٌ زوجى
يسهر طول الليل يناطح ثور الشعرِ
ويعود ليوقظني
يُسمعني أحلى أغنيةٍ في لون عيوني الزرقاء
وضفيرة شعرى الشقراء
مسكين زوجي
لا يدرى أن عيوني سوداء ! !
وضفيرة شعرى سوداء ! !
لا يدرى ! !
مسكين زوجي
مسكينٌ
زوجى ! !



في أول مصنع قطري ترتفع المداخن معلنة استمرار الانتاج والعطاء

جانبا من جوانب المصنع الكبير الذى يستمر تشغيله بطاقة انتاجية عالية

من هنـــا بدأت الصنــاعــة في قطـــر

قلعة للنهضة والتقدم على شواطئ الخليج

بقلم : السيد حجازي • تصوير : أمين بدوي



من ميناءخاص للتصدير يبيع المصنع يصل الانتاج القطري الى كل انحاء العالم

الصناعة هي دليل التقدم وعنوان النهضة ، وهي أيضا برهان على تحدى الصعاب وعلى قوة ارادة الدول وفرض هيبتها واحترامها ..

هذه هي الحقيقة التي أصبحت واضحة ومؤكدة ولاسبيل الى نكرانها ..

فمهما كانت موارد الدولة ، أية دولة ، ومهما كانت قوتها في كافة الميادين ، يبقى الأصل في اظهار التفوق كامنا في مشروعات التصنيع ، والوصول بها الى الجودة المطلوبة ، وانتشار انتاجها خارج الحدود ..

ولقد كانت هذه الحقيقة هي التي وضعتها قطر أمامها ، حتى تصبح دولة صناعية بكل مافي الكلمة من معان ..

وكان الطريق الى ذلك صعب المراس ، ولكنه كان ضروريا وحتميا ، من أجل تحقيق الهدف ..

وبدأت مسيرة التصنيع في دولة قطر على أسس سليمة ، وقوية ..

وكان هذا المصنع الذي زرناه هو أول مصنع قطري .. وأول مشروع يرى النور منذ سنوات طويلة ، لتبدأ به مسيرة التصنيع القوية ، والمزدهرة ..

هذا المصنع يعرف باسم « قافكو » وهو يعني الشركة القطرية للأسمدة الكيماوية ..

وقد كانت جولتنا فيه بين أقسامه ، ووسط عماله ومهندسيه وفنييه ، شاملة ، وحافلة ، وممتعة ..

فكيف وجدنا أول مصنع في قطر ؟

ان الصورة ترسم واقعا حيا ، يسعد النفس ، ويطمئنها على مستقبل هذا البلد الطيب ..

وهذه هي الصورة التي خرجنا بها ، بعد جولة يوم كامل داخل قافكو .

كانت بداية الجولة فى أول مصنع قطرى مع الرجل الذى عاصر نشأته ، وخطط له ، وأشرف على التنفيذ ..

هذا الرجل هو المهندس محمد المسحال المدير العام لمركز التنمية الصناعية ، وهو المركز الذى يأخذ على عاتقه الاشراف على كافة مشروعات التصنيع فى قطر ، والتخطيط لها على أسس علمية سليمة ..

الانجاز الكبير

ان المهندس محمد المسحال يتحدث باعتزاز عن بداية التجربة بكل ما فيها من تفاصيل تعكس الارادة والتصميم على إقامة هذه القلعة الصناعية فى أم سعيد ..

يقول وهويسترجع ذكريات ستة عشر عاماً : ان ما حدث بكل المقاييس يعتبر إنجازاً كبيراً مشرفاً من كل النواحي ..

فالواقع أن الانطلاقة نحو التصنيع كانت ضرورة ملحة ، لكن كان السؤال هو كيف تكون البداية ..

ظل هذا السؤال يلح على الجميع وهم يفكرون فى إقامة المصنع الأول الذى يكون مناسباً للظروف المحلية ، ويخدم كافة الأهداف الاقتصادية .. ويقدم النموذج الذى يمكن أن تحتذيه المصانع الأخرى التى تأتى من بعده ..

وبالفعل خرجت الصورة كما خطط لها ..

هكذا يؤكد المهندس محمد المسحال ويضيف ان اختيار المكان الذى يقام عليه المصنع كان أمراً غاية فى الأهمية ، فلابد أن يكون قريباً من ميناء للتصدير ، وفى نفس الوقت يكون قريباً من أماكن الغاز الطبيعى (المادة الخام) فى منطقتى دخان وحلول ..

وهكذا أختير هذا المكان الذى يقام عليه المصنع الآن ، بحيث يحقق هذين الهدفين ، ويعمل حساباً للتوسعات المستقبلية بداخله : ومن حوله أيضاً ..

ويسرح الرجل بخواطره عبر الأفق ويتذكر ..

ان هذه المنطقة التى كانت مجرد رمال فى الصحراء ، تحولت بفعل الارادة والتصميم الى منطقة صناعية ، تستشرف آفاق المستقبل ، وتصنع الركيزة الأساسية للتقدم والنهوض ..

التحدى الحقيقى

ويضيف الرجل قائلاً ان هذا هو التحدى الحقيقى ..

فالتفوق الصناعى هو الذى يحدد مسيرة الدولة ، أية دولة ..

ولقد كان اصرار سمو أمير البلاد المفدى الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى على بداية هذه المسيرة القوية ، تأكيداً على أن قطر تعرف طريقها الصحيح والسليم ..

وهكذا أعطى سموه اشارة البدء فى الطريق ، وتابع الصورة خطوة بخطوة ، حتى أصبحت بالشكل الذى وصلت إليه : مزدهرة ، مشرقة ، مطمئنة ..

وكان هذا كما يقول المهندس المسحال يعنى أن التقدم الحقيقى يكمن فى الصناعة ، وأن العقل العربى قادر على التفوق فى هذا المضمار ، وليس كما يتصوره البعض عقل فرض عليه ألا يدخل العصر الحديث ..

وكان هذا يعني أيضاً أن دولة قطر تختار طريق التقدم بما يتلاءم مع ظروفها ، وأنها تعرف كيف تحصل على التكنولوجيا وتعمل على التكيف معها ، وتسلك في ادارة المصانع الأسلوب العلمي السليم ، وتحافظ على هذه المصانع وتعمل على تطويرها ، وتسوق المنتجات بالطرق الاقتصادية السليمة ..

فالتصنيع هو عملية متكاملة تحتاج الى كل هذا وأكثر منه ، وقد وعت دولة قطر هذه الحقيقة ، وعملت على تحقيقها ، ولاتزال ، انطلاقاً من أن التصنيع وإن كان طريقاً صعباً إلا أن الإنطلاق العربي من خلاله ضرورة تحتمها ظروف البقاء ، والتطور ، والاستمرار ..

وهكذا تأسست في البداية شركة قطر للأسمدة الكيماوية ، بناء على موافقة وتوجيهات حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير البلاد المفدى ..

عصر التصنيع الثقيل

والحقيقة أن هذه الشركة كما يقول المهندس المسحال تشكل جزءاً هاماً من التنمية الصناعية المعتمدة على استغلال وتطوير الثروات الطبيعية في البلاد ، وبتأسيسها بدأ عصر التصنيع الثقيل ..

وكانت هذه الشركة التى تأسست فى منتصف عام ١٩٦٩ أول من استخدم الاحتياطى الضخم من الغاز الطبيعى لتصنيعه وتحويله الى مادة تجارية يمكن الإستفادة منها .. وكان لابد من استخدام أحدث الطرق التكنولوجية والعلمية ..

لذلك قامت قطر باختيار أفضل ما توصلت اليه التكنولوجيا الحديثة والمهارات البشرية من أجل انشاء قافكو ، وبدأت التجربة تحقق نجاحاً إثر نجاح ، حتى وصلت الى ما وصلت اليه من تقدم ملحوظ ..

● تكاليف اجمالية وصلت الى أكثر من ألف مليون ريال قطرى وانتاج عالى المستوى

● أرقام قياسية خلال عام ١٩٨٤ : أكثر من ٦ آلاف طن من الأمونيا وأكثر من ٧ آلاف طن اليوريا

● التصدير مباشرة الى ثلاث عشرة دولة والهند المستورد الأول تليها الصين وماليزيا

● أكثر من ألف عامل ومهندس وفنى من بينهم مائة وثمانون قطريا فى أقسام الانتاج والكمبيوتر والتعبئة ..

● مساكن خاصة ورعاية صحية ونادٍ حديث ووحدة اسعاف كاملة .. وروح الأسرة تسود بين كافة الجنسيات













محمد خطاب — صالح الطويل — ناصر بخيت — حامد أحمد — غازي حسن

ولقد قامت عدة شركات ذات شهرة عالمية في التصميم والبناء باخراج المشروع الى حيز الوجود، وتم بناء مصنعي الأسمدة في المنطقة الصناعية في مدينة أم سعيد على بعد ثلاثين ميلاً من جنوب العاصمة الدوحة..

أنشيء المصنع الأول بالتعاون بين قطر وشركة نورسك هايدرو النرويجية، وشركة ديفي باور جاز البريطانية. وبنك هامبروز البريطاني الذي ساعد في تمويل المشروع الذي بلغت تكاليفه الاجمالية ٣١٠ مليون ريال قطري..

وبدأ هذا المصنع الأول في الانتاج عام ١٩٧٤ بطاقة انتاجية مقدارها ٩٠٠ طن من الأمونيا و ١٠٠٠ طن من اليوريا يومياً..

وكخطوة أخرى في مجال استغلال ورفع قيمة الثروات الطبيعية المتوفرة في البلاد، ونظراً للطلب المتزايد على منتجات الشركة في الأسواق العالمية، تقرر القيام بتوسيع المشروع وزيادة الطاقة الانتاجية..

ومن هنا تم بناء مصنعين جديدين للأمونيا واليوريا، مما ضاعف الطاقة الانتاجية للشركة الى ١٨٠٠ طن أمونيا، و ٢٠٠٠ طن يوريا يومياً..

التكاليف الاجمالية

وقد بلغت التكاليف الاجمالية المستثمرة في مشروع التوسع حوالي بليون ريال قطري، وبذلك تصبح كافة التكاليف الاجمالية المستثمرة للمصنعين الأول والثاني حوالي ١٣١٠ مليون ريال قطري..

ولقد باشر المصنع الثاني الانتاج في أبريل عام ١٩٧٩، واستطاع خلال شهور وجيزة تخطي الطاقات الانتاجية المتوقعة..

الى جانب هذا كانت الحكومة قد قدمت كافة التسهيلات اللازمة من تعبيد الطرق وانشاء مرفأ حديث لرسو السفن، مما يسهل عملية تصدير الانتاج الى الخارج، وكذلك مد خط أنابيب لنقل الغاز الطبيعي اللازم للمصنع من حقول النفط في دخان..

وبلغ رأس المال المساهم للشركة ــ والكلام للمهندس محمد السحال ــ ٥٧ مليون ريال قطري، تم زيادته أخيراً الى حوالي ٩٢ مليون ريال موزعة على المؤسسة العامة القطرية للبترول بنسبة ٧٠٪، وشركة نورسك هايدرو النرويجية بنسبة ٢٥٪، وشركة ديفي باورجاز البريطانية، بنسبة ٣٪، وبنك هامبروز ليمتد البريطاني بنسبة ٢٪..

ولقد قامت شركة قطر للأسمدة الكيماوية بتوقيع اتفاقية مع شركة نورسك هايدرو لتزويد المصنع بالخبرات الادارية والفنية اللازمة لتشغيل المصانع، ريثما يتم اعداد وتدريب الكوادر الادارية والفنية الوطنية. كما وقعت مع نفس الشركة اتفاقية ثانية للقيام بتسويق الانتاج عالميا..

خط أنابيب

ويأتي الغاز الطبيعي الذي يشكل المادة الخام ومصدر الطاقة لتشغيل المصانع من حقول النفط في دخان بواسطة خط أنابيب يبلغ طوله حوالي ٨٠ كيلومتراً وقطره ٢٤ بوصة. ويحتوي الغاز على نسبة عالية من الميثان (حوالي ٧٠٪) الذي يتم تحويله الى أمونيا، ومن ثم الى سماد اليوريا.

وتزيد كمية الغاز الطبيعي التي يزود بها المصنع عن ١٠٠ مليون قدم مكعب يوميا..

وتعتبر اليوريا المنتجة من مصانع الشركة من أفضل الأسمدة، حيث تصل نسبة النتروجين فيها إلى حوالى ٤٦.٣٪ بالاضافة إلى أنها سهلة الاستعمال والنقل..

ويختتم المهندس محمد السحال حديثه معي بقوله: وأترك لكم الوقوف على كل شيء هناك بأنفسكم، وعلى الطبيعة.. فان الصورة من خلال الرؤية الواقعية تعطي الانطباع الحقيقي..

ولقد كانت هذه الكلمات خير تعبير عن الواقع الذي لمسته.. فطوال الطريق الى أم سعيد، والى قافكو أول مصنع قطري يرى الوجود منذ سنوات طويلة، كانت مشاعر الاعجاب تستولي على النفس، والاحساس بالزهو يطغى على أي احساس آخر..

ان مداخن المصانع تعلن عن حركة لا تهدأ، وأصوات الماكينات تخترق الصمت وترحب بالزائرين، والآلات الضخمة، والمباني القامة والتجهيزات في كل مكان. كل هذا يعني أن التصنيع القطري أصبح حقيقة واقعة، تثلج الصدر، وتملأ النفس بالاعتزاز..

الحقيقة المبهجة

وهكذا دخلنا المصنع الأول في قطر وكلنا رغبة في أن نقترب من الحقيقة المبهجة أكثر وأكثر..

ولقد كانت الحقيقة فوق كل التصورات والتخيلات..

فما رأيناه هو عمل كبير وعميق ومستقبلي بكل الأبعاد والمقاييس..

وها نحن الآن في وحدات انتاج الأمونيا، أولى الوحدات التي زرناها في المصنع، بصحبة الاستاذ علي فخرو مدير العلاقات العامة..

ان طاقة انتاج هذه الوحدات هي ٢ في ٩٠٠ طن يومياً..

ويدخل الغاز الطبيعي اليها قادماً بالأنابيب من دخان بكمية ٧٢٨,١٦٦ قدم مكعب في الساعة لكل وحدة. ويتم ضغطه الى ٦٥٠ رطلاً في ضاغط الغاز الطبيعي..

والعمليات الفنية التي تجري هنا كثيرة تنتهي باستخلاص الأمونيا السائلة من الغازات المبردة بواسطة الامتصاص بالماء وبالتقطير بعد ذلك..

وهذه الأمونيا المنتجة تستعمل لتصنيع سماد اليوريا، حيث يستخدم ٦٠٠ طن أمونيا من أصل ٩٠٠ طن (الطاقة الانتاجية اليومية) لتصنيع ١٠٠٠ طن من اليوريا. ويخزن الجزء المتبقي في خزان الأمونيا المبرد الى ٣٤ درجة مئوية تحت الصفر، تمهيداً لتصديرها للخارج في ناقلات خاصة..

وندخل بعد ذلك وحدات انتاج اليوريا..

ويتولى الأستاذ علي فخرو الشرح والتفصيل..

إن الطاقة الانتاجية لهذه الوحدات هي ٢ في ١٠٠٠ طن يومياً..





المهندس محمد سعيد السحال

علي فخرو



في قسم الكمبيوتر يؤدي الشباب القطري دوره باقتدار

وفي الوحدة الأولى تتم عدة عمليات فنية دقيقة تنتهي بتجميع حبيبات اليوريا ، ونقلها الى مستودعات التخزين ..

أما في الوحدة الثانية فتتم عدة عمليات فنية أخرى ، بحيث تتحول اليوريا الى حبيبات مباشرة بعد عملية التبخير ..

وهناك أيضاً وحدات المصنع المساعدة ..

ومنها محطة توليد الكهرباء ، ومحطات ضخ مياه البحر ، ومحطات تقطير المياه ، ومصانع انتاج النتروجين وتشمل مصنعين بقدرة انتاجيه كلية ٢٠٠٠ متر مكعب في الساعة . كما توجد ثلاثة مجزءات لمركب الأمونيا لتزويد المصنع بغاز الهيدروجين اللازم أثناء بداية التشغيل ..

هذه المستودعات

وهناك كذلك المستودعات وأماكن التخزين والشحن ..

فيها يخزن سائل الأمونيا في خزانات خاصة سعتها الاجمالية ٤٧,٠٠٠ طن . ولكل خزان نظام خاص به للتبريد يعمل تحت كل الظروف ، للمحافظة على درجة حرارة منخفضة تصل الى ٣٤ درجة مئوية تحت الصفر . ولكل خزان مضخاته الخاصة لتصدير الأمونيا السائلة الى الناقلات مباشرة ..

وهناك مستودعان لتخزين اليوريا ، الأول لتخزين اليوريا السائلة وتبلغ سعته التخزينية ١٣٥,٠٠٠ طن ، والثاني لتخزين اليوريا المعبأة في أكياس وتبلغ سعته ٥٠٠٠ طن وملحق به وحدة أوتوماتيكية لتعبئة اليوريا في الأكياس ..

وتشحن اليوريا الى المستهلكين إما سائبة أو معبأة في أكياس ، حيث توجد معدات خاصة لهذا الغرض على رصيف الميناء تصل طاقة التعبئة فيه الى ٥٨٠ طناً في الساعة من اليوريا السائبة ..

وأسأل خلال الجولة داخل قافكو عن الانتاج والدول التي تتصدر قائمة التصدير ، ويجيء الجواب من مدير المشاريع عبدالرضا عبدالرحمن ، وهو أول قطري يصل الى هذا المنصب داخل المصنع ..

إن الانتاج وصل في عام ١٩٧٨ الى أعلى نسبة انتاجية في تاريخ قافكو ، حيث تم انتاج ٢٥٦,٠٠٠ طن من سماد اليوريا ، و ٢٠,٠٠٠ طن من الأمونيا ..

وقد تم وضع مخطط للانتاج لعام ١٩٧٩ ، بحيث تصل كمية الانتاج الى ٤٢٠,٠٠٠ طن من اليوريا ، و ٣٢٠,٠٠٠ طن من الأمونيا ..

وقد أمكن فعلا تجاوز هذه الأرقام قبل انتهاء ذلك العام ..

فقد بلغت كمية الانتاج لغاية أواخر شهر نوفمبر عام ١٩٧٩ حوالي ٤٣٠,٠٠٠ طن من اليوريا ، محققة بذلك نسبة استغلال للطاقة مقدارها ٩٢٪ . كما بلغت كمية الانتاج لأول ١١ شهراً ولغاية أواخر شهر نوفمبر ١٩٧٩ بالنسبة للأمونيا ٣١٥,٠٠٠ طن ، محققة بذلك نسبة استغلال للطاقة مقدارها ٧٩٪ ..

وهنا تجدر الاشارة الى أن الوصول الى هذه النسبة من استغلال الطاقة بالنسبة لمصانع الأمونيا واليوريا يعتبر انجازاً كبيراً ، ويبعث على الارتياح والاطمئنان على نجاح هذه الصناعة المتسمة بالعمليات التكنولوجية الرفيعة المستوى ..

زيادة كبيرة

لكن ماذا عن المبيعات والارباح ؟

هكذا أسأل وتجيئني الاجابة من الأستاذ علي فخرو ..

لقد بلغت قيمة المبيعات من الأمونيا واليوريا ٥٤٢ مليون ريال قطري في عام ١٩٨٤ . وكان هذا بزيادة قدرها ٤٢٪ عن العام الذي قبله ..

وتعود أسباب هذه الزيادة الكبيرة الى زيادة في الأسعار ..

في قسم انتاج اليوريا يقف الشباب امام أحدث الأجهزة الدقيقة



وتمضى مسيرة العطاء داخل المصنع الذى بدأت به مسيرة التصنيع الثقيل في قطر

داخل المطعم الحديث يتناول الجميع طعامهم الصحي النظيف

فقد بلغ متوسط هذه الزيادة في السعر ٣٥ دولاراً أمريكياً للطن الواحد..

كما أن الطاقة الانتاجية للمصنع زادت بنسبة ٧,٥٪ في ذلك العام..

وهكذا وصلت أرباح التشغيل الى ٢٦٠ مليون ريال قطري. وكان الربح الصافي ١٧٠ مليون ريال قطري بعد خصم الاستهلاكات..

ولقد كانت أرقام الانتاج في الحقيقة خلال عام ١٩٨٤ أرقاماً قياسية في المصانع الأربعة التي تضمها قافكو..

فقد فاقت كمية الانتاج الطاقة التصميمية لها..

وكان الانتاج في ذلك العام ٦٣٢,٠٠٠ طن من الأمونيا و ٧٣٤,٠٠٠ طن من اليوريا..

وهذا يشير الى زيادة قدرها ٤٦,٠٠٠ طن من الأمونيا و ٤٩,٠٠٠ من اليوريا عن عام ١٩٨٣..

وكانت أرقام التصدير في عام ١٩٨٤ أيضاً تشير الى تقدم ملموس..

فقد بلغت ٧١٦,٠٠٠ طن من اليوريا و ٢٠٢,٠٠٠ من الأمونيا..

وكان هذا التصدير موجهاً الى ثلاث عشرة دولة..

وقد جاءت الهند في مقدمتها باعتبارها المستورد الأول من الأمونيا بنسبة ٦٠٪ واليوريا بنسبة ٤٠٪..

ثم تبعتها الصين وماليزيا..

وتأتي بعد ذلك سنغافورة وهونج كونج والولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك واستراليا..

قلعة للنهضة والتقدم على شواطئ الخليج

وهكذا يفرض الانتاج الجيد نفسه ، ويحمل اسم قطر الى جميع أنحاء العالم ..

العنصر البشري

لكن ماذا عن العاملين من مهندسين وفنيين وعمال الذين يقفون وراء هذا الانجاز الضخم العملاق ؟ ..

إن هناك كما عرفت ١١٠٠ ما بين عامل ومهندس وفني ومدير ورئيس قسم ..

والعنصر القطري يضم مائة وثمانين ، موزعين على كافة الأقسام ، وقد تلقى أغلبهم تدريبات في الخارج في انجلترا وأمريكا وفي النرويج ..

والتقي ببعض هؤلاء القطريين الذين يعدون طليعة القوى العاملة الفنية ..

أولهم محمد خطاب ..

انه يعمل في المصنع منذ إنشائه ، وعاصر خطواته خطوة خطوة ، وهو الآن مشرف وردية ، وقد حصل على دورة تدريبية باللغة الانجليزية في انجلترا لمدة سنة ..

وهو لايجد بأساً من القول بأنه بدأ عاملاً بسيطاً في المصنع ، وتدرب على عدة أعمال فنية ، وهو يمارس عمله الآن بقسم التعبئة ، ويسكن في سكن مؤثث خاص كبقية الفنيين والمهندسين وكبار الموظفين ..

لكن هكذا يقول محمد إن العنصر القطري وبالذات الذي يثبت وجوده في حاجة الى مزيد من التشجيع ، والى أخذ فرصته الكاملة في الترقي ، والى تولي المناصب القيادية ..

إن هذا في رأيه هو الذي يتيح للجميع تحمل المسئولية بالكامل ، والعطاء السخي بلا حدود ..

ويؤمن على كلامه غازي محمد حسن الذي درس في بريطانيا الهندسة الكيمائية ، وهو يعمل منذ عشر سنوات في قسم انتاج اليوريا ..

إن غازي يعمل بهمة ونشاط ويؤدي واجباته بكل ما تتطلبه من جهد ومسئولية ، ولكن مايركز عليه هو أن يأخذ فرصته في تحمل المسئولية بالكامل ، وأن يحصل على موقع قيادي بعد هذه الخبرة المعقولة في رأيه ..

أما حامد أحمد ملا حامد فقد درس العلوم في أمريكا ، وهو الآن يعمل في قسم الكمبيوتر ، ويؤدي واجبه في عمله الحساس بكل همة ونشاط ..

لكنه هو الآخر يركز على ضرورة أخذ فرصته في العمل القيادي ..

ويقول إنه لا فرق اطلاقاً بين الخبير الأجنبي والعنصر القطري ، بل أن الأخير يتفوق اذا ما أتيحت له الفرصة ، وأخذ موقعه الذي يستحقه ..

وفي قسم المشتريات التقيت مع صالح الطويل الذي درس في أمريكا لعدة سنوات ، وهو يرى أن مجال عمله لا يتناسب مع دراسته ، وهو لذلك يطالب بالاستفادة به في موقع مناسب ..

أما ناصر فرج بخيت في قسم الصيانة المدنية فقد تدرب في أمريكا وانجلترا ، ويعمل في هذا القسم منذ ثلاث عشرة سنة ، وهو يتطلع الى الحصول على مركز متقدم ، وفي رأيه أن الأجور لا بأس بها ، وأن الطموحات نحو الأفضل موجودة وقائمة ..

أما محمد عبدالرحمن الصايغ في قسم المشتريات فهو يركز على أن عمله يتلخص في شراء الماكينات وقطع الغيار من الخارج ، وأنه يكتسب خبرات متطورة ، تؤهله لتولي موقع مسئول في السنوات المقبلة ..

ويرى هؤلاء الأخوة أن هناك بعض الملاحظات الأخرى التي يطرحونها كنوع من النقد الذاتي .. أهمها أن المساكن الخاصة بالقطريين لا تتناسب مع العادات القطرية ..

وهم لذلك يطالبون بمراعاة هذه المسألة ..

كما أن هناك ملاحظات أخرى على نوعية الأثاث الخاص بهذه المساكن ، وعدم إفساح المجال أمام العنصر القطري للإلمام بالمشاكل الفنية ، والاشتراك في حلها ، وتعيين بعض الأجانب في وظائف غير فنية .. في شئون الموظفين مثلاً ..

روح الأسرة

وكل هذه الملاحظات في رأيهم لا يمكن أن تنال من جمال الصورة ، أو تغطي على المكاسب والانجازات وهي كثيرة وعميقة ، وشاملة ..

كما أنهم لا ينكرون روح الأسرة التي تسود بين النرويجيين والعرب من مصريين وفلسطينيين وغيرهم والهنود والقطريين داخل المصنع ..

إن هذه الروح هي التي تجمع بين الكل برباط لا ينفصم عراه ..

وهم يقضون أوقات فراغهم في النادي الذي أقيم على أحدث طراز ، ويقدم خدماته على مدار الأربع والعشرين ساعة ..

كما أن المطاعم التي تقدم لهم الوجبات الثلاث داخل المصنع صممت على أحدث مستوى ، وتراعي كل وسائل النظافة والصحة والتغذية التامة ..

وفي هذا الصدد فان العيادة الطبية داخل المصنع تضم كفاءات طبية ، واستعدادات صحيةكتلك التي يضمها مستشفى كبير شامل ..

هذه العيادة يتولى العمل فيهـا فريق طبي يرأسـه الدكتور النرويجي تيريه ايلنجسن رئيس القسم الطبي ، وتعاونه مجموعة من الفنيين والمرضين على رأسهم أسعد أبو عجيئة ..

وتقدم للمرضى كل الخدمات والأدوية اللازمة ، كما يتم فحصهم دورياً ، والاطمئنان على صحتهم باستمرار ..

اضافة الى ذلك فان وحدة الاسعاف تقوم بواجبها على خير وجه ، وكذلك وحدة الاطفاء الكاملة ..

وهناك الكثير من الخدمات التي يوفرها المصنع لكل العاملين فيه بلا استثناء ..

وهؤلاء أيضاً

وهناك أيضاً الكثير من الأخوة الذين التقينا بهم ، وهم يؤدون دورهم بكفاءة واقتدار واخلاص ..

نذكر منهم :

المهندس مصطفى عمر كبير المشرفين بقسم التعبئة ، وابراهيم جاسم المالكي بقسم المختبر ، وحمد النعيمي وعفيفي عبدالرب ، وحسام جوهر رئيس وردية اليوريا ، ومحد بدوي مدير النادي ، ومحمد عبدالغني المهندس الميكانيكي ..

إن هؤلاء وغيرهم يستحقون كل تحية وتقدير وهم يشاركون في وضع لمسات حية وقوية في مسيرة قطر الواثقة في مجال التصنيع الثقيل ، داخل أول مصنع قطري ..

وماذا بعد هذه الجولة التي استمرت يوماً كاملا داخل قافكو ؟

ونحن في طريق العودة وفي نفس الطريق الذي قطعناه في الصباح في طريق الذهاب ، كان نفس الاحساس بالزهو قد ازداد وتضاعف وأضيف اليه احساس بالثقة والاطمئنان والقدرة على مواجهة تحديات المستقبل وصعابه أيضاً ..

فالأساس موجود ..

الأساس يكمن هنا في تلك القلعة الصناعية في أم سعيد ..

انها طريق التقدم الحقيقي المملوء بالهناء والسعادة ، الحافل بكل ما يطمئن النفس على مصير الأجيال القادمة ..

السيد حجازى

أطيار المساء ..

شعر: عبد الستار سليم



ما دامت الطرقات تفضى ــ دائماً ــ للنهر
والغابات تبتلع الروافد
من يستجيب لصوتك المبتل
بالدمعات ، حتى لو دعونا باسمه
المسطور ــ سرا ــ كل أشياء السؤال ؟!

فى قاع هذا العالم الموبوء بالإسفلت
والعربات .. والأسواق فى حلق الطريق
مهما تطرز جيد هذا اليوم بالدمع
المهان ، فلن تجود الشمس بالبشرى ،
ولن تأتى إلى « يعقوب » ــ يومــا ــ
بالقميص

(ها كل ما فى قلبى المفتون
بالأنواء ، والأسماء ، صلى جاثيا ،
والبرق يكوى سوطه النارىُّ
ظهر الأفق ، والغيمات باقية
بوجه الصيف حتى بعد أن رحل
الشتاء)
وأنا ــ الذى قد .. متُّ مقتولا
بنصل الريح ــ فوق جبينى المشدوخ
تاج .. من عذابات الحروف
السود ، والليل الكئيب ،
وبالسدود محاصر .. حتى تعبت
من الحصار .. ! !
وشبعت ركضاً فوق أعمدة
المشانق . كيف ألهج بالثناء ؟!
(فى المد أو فى الجزر ، هل
سيظل يترك شاطئيه
البحر فى الحالين أم .. ؟)
ضاعت حروف الإسم ، وارتعشت
خيوط الشمس .. كان الوجه ــ من ريح
الشتاء ــ بلا عيون
وبلا ملامح
فالأذى الليلى قد محق
النتوء
وعلى طبول الزنج .. ماتت
ــ فوق أرصفة الغروب ــ جميع
أطيار المساء .

ما حققته هذه المؤسسة الكبيرة في الأردن خلال تسعة أعوام من عمرها يستحق الاعجاب والاعتزاز والوفاء لها اسماً ورمزاً...

جامعة اليرموك

جامعة عصرية تقوم في إربد عاصمة الشمال الأردني وتحمل اسماً من الأسماء الخالدة في التاريخ

بقلم: نبيل خالد الأغا



لقطة جزئية لجامعة اليرموك التي تضم في رحابها ستة عشر الف طالب وطالبة.

انسجاماً مع فلسفة التطور الحضاري والانساني، واتساقاً مع روح النهضة الشاملة التي تشهدها المملكة الأردنية الهاشمية تم انشاء جامعة «اليرموك» في مدينة إربد، عاصمة الشمال الأردني، والتي تبعد مسافة ثمانين كيلو متراً عن العاصمة الأردنية «عمان».

صدر قرار تأسيس الجامعة في عام ١٩٧٦، وهو نفس العام الذي استقبلت فيه أول فوج من طلابها، لتصبح الجامعة الثانية في المملكة بعد «الجامعة الأردنية» الرائدة التي تأسست عام ١٩٦٢ م.

ولقد أحسن المسئولون الأردنيون صنعاً حينما اختاروا «اليرموك» اسماً لهذه الجامعة الفتية، تيمناً بما لهذا الاسم الخالد من دلالات رائعة في قلوبنا ونفوسنا، مرتبطة بذلك الانتصار الحاسم الذي احرزه جند الاسلام بقيادة سيف الله خالد بن الوليد على جحافل الروم، فكان فاتحة خير للمد الاسلامي الكاسح خارج تخوم شبه الجزيرة العربية. وربما لا يعرف الكثيرون بأن حرم جامعة «اليرموك» الحالي هو نفس الموقع الذي حدثت به معركة اليرموك عام ١٣ هـ.

وربما لا يعرف الكثيرون أيضاً بأن نهر اليرموك ذاته لا يبعد أكثر من أربعة عشر كيلو متراً عن الموقع الحالي للجامعة.

وضمن اطار الارتباط بين الدلالات التاريخية والعصرية للنهر والجامعة، فإن درب العطاء مازال ممتداً بين المنبعين، هذا يفيض بالخير والخضرة وذاك يفيض بالعلم والمعرفة.

بعض طالبات الجامعة في احدى الصالات الرياضية

بعض الفرق الرياضية الطلابية



داخل مكتبة الجامعة

انطلقت ذات صباح صيفي مشرق الضياء ، متجهاً برفقة الأخ غسان الزميلي ــ أحد خريجي كلية التجارة بجامعة اليرموك ــ الى مدينة اربد العربية الأبية .. وبعد أن أمضينا ساعة وربع الساعة في الطريق الممتد الى مثلث مدينة الرمثا ، لاحت امامنا مساكن موظفي الجامعة .. ومن ثم مباني الكليات المختلفة ..

انها المرة الأولى التي ادخل فيها هذا الصرح الجامعي العظيم ، شعرت بموجات من الزهو والافتخار تسري في كياني ، وتمنيت أن تعمر كل مدننا العربية الاسلامية بمثل هذا الصرح العلمي العظيم .

كان الأخ محمد الشبول مدير دائرة العلاقات العامة بانتظارنا في مكتبه ، لم أكتمه غبطتي وسعادتي بما ارتسم للوهلة الأولى في بصري وفكري من مظاهر الحياة الجامعية ، ثم رافقته في جولة استطلاعية في رحاب الجامعة .

أهمية الموقع

لقد وقع الاختيار على المنطقة الشمالية من المملكة لاحتضان الجامعة ، لأن بالمنطقة تجمعاً سكانيا كثيفا يبلغ ثلث العدد الاجمالي لسكان الأردن البالغ ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف نسمة حسب احصائية عام ١٩٨٣ . وتقع على مفرق الطرق الرئيسية التي تربط أكبر مدن المملكة بعضها ببعض . كما تربط الأردن بسوريا وتركيا وأوربا ، وتمتد حتى ميناء العقبة في الجنوب . ومن شأن هذا الموقع أن يسهم في تطوير المنطقة الشمالية من البلاد ، ويعمل على توزيع مكاسب التنمية الاجتماعية والاقتصادية لتشمل هذه المنطقة الحيوية .

لقد جاء انشاء جامعة اليرموك بمساحة (٣٦٠٠) فدان تلبية لحاجات المجتمع الأردني من القوى البشرية التي يتطلبها توافق خطط التنمية ، والتي لم يكن بمقدور التعليم الجامعي في الأردن تأمينها لعدم توفر فرص التعليم الجامعي المناسب والمطلوب للاعداد المتزايدة من خريجي الدراسة الثانوية ، وقد بلغ عدد الذين يدرسون في الخارج عام ١٩٧٦ ، (وهو نفس العام الذي تم فيه افتتاح الجامعة) ما ينيف عن خمسين ألف طالب وطالبة ، يستنزفون جزءاً كبيراً من الدخل القومي بالعملة الصعبة .

كما جاء انشاؤها ضرورة حتمية لايجاد نواة علمية وثقافية قادرة على انتاج الأبحاث والدراسات اللازمة لتقدم العلم والمعرفة ، وتوظيف ذلك في دفع عجلة التقدم التكنولوجي في العالم العربي . وتوفير فرص التعليم المستمر للراغبين في ذلك . ورفع مستوى التعاون الثقافي والتفاهم بين دول العالم .

هذا .. وعندما بدأت الدراسة في الجامعة قبل تسعة أعوام كانت كلية العلوم والآداب هي أول كلية

جامعة اليرموك

جامعة عصرية تكون في إربد عاصمة الشمال الأردني وتحمل اسماً من الأسماء الخالدة في التاريخ

يتم انشاؤها . وقد التحق بها يومئذ (٦٤٠) طالباً وطالبة . وحوالى ثلاثين عضو هيئة تدريس .

وخلال هذه الفترة الزمنية القصيرة استطاعت الجامعة أن تقفز بالتعليم الحالى فى الأردن قفزة هائلة فى الكم والكيف معاً . فهى تضم فى العام الدراسى الحالى ١٩٨٤ ــ ١٩٨٥ م بين جدرانها حوالى ستة عشر ألف طالب وطالبة منهم حوالى ألف يدرسون الدراسات العليا لدرجتى الدبلوم والماجستير ، كما بلغ عدد أعضاء هيئة التدريس (٥٥٠) عضواً ، وحوالى ألف موظف وموظفة .

ويشكل الأردنيون الغالبية العظمى من أعضاء الجهاز الاكاديمى . اما النسبة الثانية وتبلغ حوالى ٢٣ بالمائة فهى عربية مصرية وفلسطينية وعراقية وسورية ، والنسبة الأقل غير عربية .

وقد أوفدت الجامعة منذ انشائها أكثر من (٢٥٠) مبعوثاً للحصول على درجة الدكتوراه فى مختلف التخصصات وقد عاد منهم حوالى مائة مبعوث والتحقوا بالعمل بالجامعة .

كليات الجامعة

تضم الجامعة حالياً عشر كليات هى :

كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية ــ كلية العلوم ، كلية الاقتصاد والعلوم الادارية ــ كلية الهندسة ، كلية الصيدلة ــ كلية التمريض ــ كلية الصحة العامة والعلوم الطبية المساندة ــ كلية الطب ، كلية الزراعة ــ كلية الطب البيطرى وطب الأسنان .

كما نص قانون جامعة اليرموك على أن تتكون الجامعة بالاضافة الى الكليات من معاهد ومراكز علمية تساهم بالتعاون مع مختلف الكليات فى تحقيق أهداف وطموحات الجامعة وبذلك تم انشاء المراكز التالية : مركز الدراسات الأردنية ، مركز اللغات ، مركز الحاسب الالكترونى والمعلومات ، مركز البحوث والتطوير التربوى ، مركز الدراسات الاسلامية ، مركز الدراسات العبرية ، مركز الطاقة ، مركز الخدمات الاجتماعية ، مكتب اليرموك الاستشارى ، معهد الآثار والانثربولوجيا ، معهد الديبلوماسية والعلاقات الدولية .

وهناك دورات تأهيلية تعقدها الجامعة ــ حسب حاجة التنمية فى الدولة ــ للقيادات التربوية ، للعاملين فى البنوك وللفنيين والحرفيين ويتم ذلك فى المدن والقرى من أجل رفع مستوى الاداء ، وتنمية الانسان الأردنى ليكون أكثر فاعلية فى المجتمع .

تمثل الهيئتان الأكاديمية والادارية الركيزة الأساسية للجامعة ، تكمل أعمالها ومهماتها بعضها البعض ، ليحققا معاً الهدف المشترك وهو السير فى بناء الجامعة وتحقيق أهدافها وغاياتها ، التى تصب فى نهاية المطاف فى خدمة الأمة العربية الإسلامية .

هذا .. وتتمثل الهيئة الادارية بالدوائر التى تضم كل منها عدداً من المديريات والأقسام تم تحديد واجباتها ومهامها بشكل دقيق ييسر طبيعة العمل ، ويسهل عملية العطاء ، وهذه الدوائر هى : مكتب رئاسة الجامعة ، دائرة العلاقات الثقافية والعامة ، دائرة التنمية والتخطيط ، دائرة شؤون الطلبة ، دائرة القبول والتسجيل ، دائرة المكتبة ، دائرة المكتب الهندسى ، دائرة الادارة والخدمات ، مكتب الارتباط .

وقد تكون مهمة هذه الدوائر واضحة المعالم لدى كرام القراء ، لكن بالنسبة لمكتب الارتباط فيعتبر صلة الوصل بين مقر الجامعة فى مدينة إربد والعاصمة عمان اذ أن وجود الجامعة فى شمال الأردن فرض وجود مكتب لها فى عمان يكون صلة الوصل بين الجامعة والدولة بمؤسساتها الرسمية والخاصة ، ويقوم هذا المكتب باستقبال وداع ضيوف الجامعة الذين تم استضافتهم للاستعانة بآرائهم حول مخططات الجامعة المعمارية ومناهجها الأكاديمية ، مثلما يقوم المكتب بتأمين ما تحتاجه الجامعة من لوازم مختلفة .



الدكتور مازن العرموطي مدير دائرة الصحافة والاعلام

خدمات طلابية

وحرصاً من الجامعة على توفير أقصى درجات المساعدة والرعاية لطلابها فقد قامت بانشاء دائرة خاصة بهم تحمل اسم ، دائرة شؤون الطلبة والطالبات ، وتتفرع من هذه الدائرة عدة مديريات تختص كل منها برعاية ناحية من نواحى الحياة الجامعية وهى : مديرية الخدمات الطلابية وفيها قسم رعاية الطالب ويشمل التأمين الصحى ، والقروض ، والمنح ، والتشغيل ، والمساعدات ، وقسم أحوال الطلبة ويشمل مساعدتهم فى الأمور الشخصية كاشتراكات صناديق البريد الجامعية ، وتنظيم اشتراكات المواصلات ، والمساعدة فى حل قضايا السكن وغير ذلك .

كما حرصت الجامعة على توفير السكن الملائم للطالبات . فهناك عدة مساكن تتسع لحوالى (٢٠٠٠) ألفى طالبة ، تدفع الطالبة مبلغ مائة دينار أردنى (حوالى ٤٠٠ دولار) فى بداية كل فصل دراسى ، أى بواقع (٢٥) ديناراً شهرياً لغرفة واحدة من سريرين . وتستطيع الطالبة أن تتناول وجبات الطعام الرئيسية فى مقاصف الجامعة بأسعار مخفضة .

ومن أجل اكتساب الخبرات الحياتية ، وبناء الشخصية الطلابية القوية فقد اهتمت الجامعة باقامة الجمعيات الطلابية التى تعمل على تنظيم المحاضرات والندوات المختلفة ، وتنظيم برامج الزيارات والرحلات الطلابية الى الجامعات العربية والأجنبية ، واقامة الحفلات الاجتماعية المختلفة .

تفاعلات وطموحات

وفى اطار المخطط الشامل لتوسعة حرم



نصحي محمد شعشاعة سنة ثانية ــ طب

إيناس حسن فلفل سنة ثالثة صيدلة

بين قطر والأردن علاقات تعليمية وثيقة



محمود سرحان الخبير التعليمي بسفارة قطر بعمان

كان لابد لي وأنا أجمع مادة الكتابة عن القمم الثقافية في الأردن ، أن أزور مبنى السفارة القطرية في عمان حيث التقيت بالأخ الأستاذ محمود سرحان الخبير التعليمي هناك ، فطلبت منه أن يحدثني عن العلاقات الثقافية بين الأردن وقطر ، فقال :

ان العلاقات الأخوية الوثيقة القائمة الآن في المجال التعليمي بين البلدين الشقيقين قطر والأردن عميقة وممتدة الجذور ، لكنها ازدادت رسوخاً وعمقاً في عام ١٩٧٢ م عندما تم توقيع أول اتفاقية ثقافية بين عمان والدوحة ، وقد نصت بعض بنودها على تبادل المناهج والخبرات والمشاورات ، بما يخدم تطور العملية التعليمية بين الطرفين .

وكذلك اهتمت الاتفاقية بافتتاح مجال التعاون المثمر في قطاع التعليم العالي بين جامعة قطر والجامعات الأردنية ، فبالإضافة الى تبادل الأساتذة الزائرين بين البلدين وتبادل البحوث والاستشارات نصت أيضاً على أن تقبل كل جامعة في البلدين عدداً من الطلبة المبتعثين من احدى الدولتين للدراسة في مختلف التخصصات بالدولة الأخرى ، اضافة الى ضرورة تبادل الزيارات الطلابية من أجل توطيد عرى المحبة والاخاء بين شباب الجامعات .

وعن مدى التطبيق العملي لبنود هذه الاتفاقية قال الخبير التعليمي : نحمد الله تعالى على أن جميع بنود وفروع الاتفاقية يتم تنفيذها نصاً وروحاً ، من قبل الطرفين الشقيقين ، ونحن هنا ـ بالمكتب التعليمي ـ نستهدي في رسم وتنفيذ سياسة التعاون الثقافي بتوجيهات معالي وزير التربية والتعليم الشيخ محمد بن حمد آل ثاني ، والذي قام في الآونة الأخيرة بزيارة رسمية الى الأردن والتقى خلالها بمعالي وزير التربية والتعليم الأردني ، وبمعالي رئيس الجامعة الأردنية ، وبسعادة رئيس جامعة اليرموك ، وبعدد آخر من كبار المسئولين الأردنيين .

هذا وقد تم الحاق برنامجين اضافيين للاتفاقية ، البرنامج التنفيذي الأول الذي وقعه في عمان سنة ١٩٧٩ م سعادة وكيل وزارة التربية والتعليم الأستاذ عبد العزيز ابن تركي وقد نفذ بحذافيره .

والبرنامج التنفيذي الثاني الذي وقعه في الدوحة بالعام الماضي سعادة الأمين العام لوزارة التربية الدكتور عبد اللطيف عربيات ، وكلا البرنامجين يتضمنان بنوداً ايجابية ترسخ العلاقات الثقافية بين القطرين الشقيقين . وفي ختام اللقاء أعرب الأستاذ محمود سرحان عن تقديره العظيم « للأخوة المسئولين في الأردن الذين يقدمون التسهيلات المطلقة لدولة قطر سواء في الجامعات أو في وزارة التربية والتعليم ، ولكل ما نحتاجه في هذا المجال لابنائنا الطلبة القطريين »

كما أننا نقوم هنا بتنظيم حضور أعداد متزايدة من الموظفين القطريين للالتحاق بدورات تدريبية متعددة التخصصات ، ومن مختلف الوزارات القطرية .

هذا ، وقد امتد التعاون ـ اضافة إلى مجال التعليم ـ فشمل تبادل الزيارات الطلابية في مجالي الرياضة والكشافة ، مما يعد تدعيما لروابط الاخاء والصداقة بين شباب الدولتين الشقيقين .

« ان مجال التعاون القائم بين البلدين هو واحد من المجالات التي رسم خطوطها صاحب السمو الأمير المفدى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني بتعاونه مع جلالة أخيه الملك الحسين من أجل سمو ورفعة الشعبين الشقيقين . واننا لندعو الله تعالى أن يوفق أمتنا لما فيه خيرها وسؤددها » .

الجامعة ، فهناك خطة طموحة لهذا التوسع ، فقد تم انجاز كامل مراحل البنية التحتية التي تشمل الطرق وخطوط المواصلات والاتصالات والكهرباء والجسور ، كما سيتم انجاز كافة مباني ومنشآت كلية الهندسة والخدمات العامة في نهاية العام الحالي .

ولم يقتصر المخطط الشامل لموقع الجامعة الرئيسي على توفير المباني والمختبرات اللازمة للتدريس في الكليات المذكورة بل اشتمل أيضاً على انشاء الكثير من الخدمات والمرافق العامة التي تساعد الجامعة على القيام بدورها ، وتزيد من تفاعلها مع المجتمع المحلي . فاشتمل المخطط على مكتبة بحجم مليون كتاب ، ومجموعة مدارس نموذجية من الحضانة حتى المرحلة الثانوية تتسع لستة آلاف طالب ، وبتجمعات سكنية للطلبة والأساتذة والموظفين والمرضات ومدينة رياضية تحتوي على مدرج سعته ستين ألف مشاهد ، ومركز نشاطات للطلبة ـ وفندق للخدمات والتدريب على ادارة الفنادق والمطاعم .

وعند اكتمال هذا الحرم سيبقى حرم الجامعة الحالي في مدينة اربد امتداداً للحرم الجامعي الرئيسي لتوفير الطاقات البشرية ولخدمة المجتمع بالاضافة الى جامعة مسائية .

هذا بالنسبة لأحد جوانب طموحات جامعة اليرموك .. وتفاعلها مع الواقع والمستقبل . أما بالنسبة لتفاعلها الحالي خارج الحدود الاقليمية ، فالجامعة حرصت على عقد اتفاقيات كثيرة للتعاون مع الجامعات العربية والعالمية عن طريق تبادل الأساتذة والخبرات والمشاركة في البحوث والبرامج ذات الاهتمام المشترك ، فقد عقدت اتفاقيات تعاون ثقافي وعلمي مع العديد من الجامعات والمؤسسات العلمية ، العربية والدولية ، منها اتفاقيات توأمة مع جامعات تشرين في الجمهورية العربية السورية ، والتكنولوجية في بغداد ، وبرمنجهام في الباما ، وجورجيا التكنولوجية ، ونيويورك التكنولوجية ، كما عقدت اتفاقيات مع جامعات ليدن الهولندية ، وباريس في كراتيل ، وايوا الأمريكية ، ومع المركز الدولي للبحوث التنموية في كندا ، بالاضافة الى العديد من مشاريع



طالبتان ترتديان الزي الشرعي داخل المعمل

الاتفاقيات مع عدد من الجامعات في العالم . وقد ساهمت الزيارات الرسمية العديدة المتبادلة بين المسؤولين في جامعة اليرموك والكثير من الجامعات والمؤسسات العلمية في تعزيز أواصر التعاون بين الجامعة وتلك المؤسسات .

كما أن الجامعة عضو في اتحاد الجامعات العربية ، والاتحاد الدولي للجامعات والمجلس الدولي للاتحادات العالمية .

وحرصاً من الجامعة على الاستزادة من الخبرات والأفكار ومواكبة التقدم العلمي في العالم ، فقد شاركت واستضافت العديد من المؤتمرات والندوات العربية والدولية التي ناف عددها على المائة .

مع رئيس الجامعة

عندما التقيت بالدكتور عدنان بدران رئيس الجامعة حدثني عن الفلسفة التي تنتهجها جامعة اليرموك في مسيرتها الانسانية الخيرة فقال : ان للجامعة فلسفة محددة ، أولها أنها تعنى بالتدريس النوعي وليس على حساب الكم .

والفلسفة الثانية انها تعنى بأمور العلوم والتكنولوجيا وتركز عليها لتنمية الأردن ، وللسعي في تنمية الوطن العربي بربطه بالتخصصات العلمية والتقنية والتكنولوجية التي تحتاجها خطة التنمية العربية .

اما الفلسفة الثالثة فإنها تعنى بتنمية المجتمع ، وتتفاعل معه . لذا فإن التخصصات التي تدرس في الجامعة لها علاقة وطيدة بالتنمية وبالمجتمع معا .

والفلسفة الرابعة انها تعنى بتنمية الكوادر البشرية في سلم التعليم العالي ، سواء أكانت هذه الكوادر على مستوى الكليات الفنية المتوسطة . أو على مستوى درجة البكالوريوس أو الماجستير أو الدكتوراه ، كما انها تعنى باستحداث التخصصات التي تحتاجها خطة التنمية .

والفلسفة الخامسة لهذه الجامعة انها تعنى بالتعليم المستمر وخدمة المجتمع ، فهما جزء مهم من الاطار التكويني للجامعة .

اما الفلسفة الأخيرة فهي أن جامعة اليرموك تعنى بالبحث العلمي التطبيقي الذي له علاقة تنموية .

ومن هذا الأطار العريض للفلسفات قامت الجامعة بتنمية دوائرها الاكاديمية ـ وكلياتها وخططها الدراسية لتحقيق ما ورد في فلسفة مميزة ومحددة ، فباشرت الجامعة في تأسيس كلية العلوم بمختلف تخصصاتها ، وهي تحتوى الآن على دوائر الفيزياء ، والرياضيات والكيمياء والعلوم الحياتية وعلم الحاسب الالكتروني ودائرة الاحصاء ، وعلوم الأرض ، والعلوم البيئية . وتضم كلية العلوم أيضاً دراسات عليا بدرجة الماجستير . بالاضافة الى دراسات البكالوريوس .

وتقوم كليات العلوم بالاضافة الى مهماتها الأساسية بتقديم خدماتها الى الكليات العلمية التطبيقية الأخرى بالجامعة .

كذلك أسست الجامعة في مرحلتها الأولى كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية . ودائرة اللغة الانجليزية وآدابها . بالاضافة الى دائرة العلوم الانسانية والاجتماعية .

هناك أيضاً دوائر مختلفة تتبع حالياً كلية الآداب فيها : دائرة التربية التي تعنى فقط بالدراسات العليا لدرجتي الدبلوم والماجستير وتأهيل المعلمين في قطاعات التربية والتعليم ، ودائرة الصحافة والاعلام وتعنى بتحضير الكوادر البشرية المؤهلة بدرجة البكالوريوس في حقول الصحافة والاعلام المختلفة . وكذلك دائرة التربية الرياضية ، ودائرة الفنون الجميلة .

ثم باقي الكليات التي ذكرناها آنفاً .

لقد راعت جامعة اليرموك في الخطط الدراسية المختلفة في كلياتها ودوائرها اعتماد نظام الساعات المعتمدة . ويتفاوت عدد الساعات بين تخصص وآخر ، فمثلا : يبلغ الحد الأدنى لنيل درجة البكالوريوس في العلوم والآداب (١٣٠) ساعة معتمدة ، بينما الحد الأدنى لنيل درجة البكالوريوس في طب الأسنان حوالي (٢٠٠) ساعة معتمدة ، لذلك فالتفاوت كبير بين تخصص وآخر .

بالاضافة الى ذلك فالجامعة تعنى بالبحث العلمي . وهناك عمادة البحث العلمي والدراسات العليا . وتقوم الجامعة بتخصيص ميزانية سنوية لدعم البحوث العلمية لأعضاء هيئة التدريس . كما تقوم الدولة بتخصيص جزء من ميزانيتها في المجلس القومي للتخطيط لدعم البحوث العلمية التطبيقية .

واشار الدكتور بدران في حديثه إلي : انه لأول مرة في تاريخ المنطقة سيعمل الحاسب الالكتروني في اخراج معجم لسان العرب بأسلوب حديث ، حيث ساهم بهذا العمل كل من الدكتور خليل عمايرة من دائرة اللغة العربية وهو صاحب الفكرة والدكتور أحمد أبو الهيجاء من دائرة هندسة الكمبيوتر . وستقوم الجامعة بدعم هذا المشروع لاخراجه الى حيز الوجود لشعورها بواجب تنمية لغتنا العربية القومية .

وأضاف رئيس جامعة اليرموك أن الجامعة قامت مؤخراً بتأسيس وحدة بحوث اللغويات وتهدف الى تنمية وتطوير تدريس اللغة العربية في كافة المراحل الدراسية ، لاننا نشعر ان هناك ضعفاً



عاماً في اللغة العربية من قبل خريجي الجامعة والمرحلة الثانوية .

دائرة الصحافة والاعلام

ضمن جولتي في رحاب جامعة اليرموك توجهت الى دائرة الصحافة والاعلام التي بوشر التدريس فيها مع بداية العام الدراسي ٨٠ — ٨١ ، وحول المنهاج الدراسي قال الدكتور مازن العرموطي مدير الدائرة : عندما أنشئت الدائرة ووضع لها منهاج متوازن ضمن التخصصات الرئيسية المطلوبة للتطور الاعلامي والمهني في الأردن . ولغايات البحث والتخصص بدأنا بجهاز محدود من حيث العدد وتنوع التخصصات . ونجحنا الى حد ما في أن نعين عدداً من المختصين في المجالات الدقيقة كالأفلام الوثائقية والاخراج الصحفي ، والتصوير والبحث .

وأضاف الدكتور مازن : من الناحية العلمية قمنا بتأسيس مختبرات تكميلية في مختلف مجالات تخصص المهنة ، وتعتبر الأفضل من مثيلاتها في المنطقة . فيوجد مختبر التحرير الصحفي ، والبحث الاعلامي ، والاذاعة والتليفزيون والتصوير الفوتوغرافي ، كما قمنا بتغذية جداول المحاضرات باستضافة محاضرين متخصصين ، وعاملين في المهنة في الداخل والخارج .

وعن نشاطات مكتبة دائرة الصحافة والاعلام قالت الآنسة ليلى الخضراء أمينة المكتبة : لقد أخذت المكتبة منذ إنشائها بتأمين كل ما يتعلق بمجال تخصصها من كتب ودوريات ومطبوعات ، وعندنا ما يزيد عن اربعمائة عنوان باللغتين العربية والانجليزية ، بالاضافة الى اشتراكنا بأفضل الدوريات العربية والعالمية .

كما تقوم المكتبة باعداد الأرشيف الصحفي ، وعماده الهدية القيمة التي قدمها لنا السيد أحمد راتب غنيم (أبوابراهيم) وهي عبارة عن أرشيف كامل لكافة الصحف الأردنية التي صدرت منذ عام ١٩٦٠ م . اما بالنسبة للمترددين على المكتبة فإن عددهم يربو على الخميس طالباً وطالبة يومياً ، ويتضاعف هذا العدد أثناء الامتحانات .

ومن المعلوم أن الدائرة تصدر صحيفة أسبوعية تحمل اسم « صحافة اليرموك » وهي غنية بمواضيعها رفيعة بمستواها ، جيدة بتحريرها وإخراجها .

التجربة الجامعية

تقول الطالبة إيناس حسن فلفل الطالبة بالسنة الثالثة بكلية الصيدلة : لقد تلقيت تعليمي الابتدائي والاعدادي والثانوي في مدارس قطر ، وتبلورت عندي فكرة دراسة الصيدلة منذ اخترت الفرع العلمي في مدرسة آمنة بنت وهب الثانوية بالدوحة ، وقد تحققت أمنيتي في الدراسة بجامعة اليرموك بالقسم الداخلي .. واني لأشهد بأنها جامعة رفيعة القيمة وتستحق الثقة ، وتستحق كل السمعة الأكاديمية الممتازة التي تتمتع بها في الأوساط الثقافية . وتؤكد إيناس بان الدراسة في كلية الصيدلة تحتاج للمذاكرة المتأنية لساعات طويلة لانها دراسة علمية ، وتحتاج الى المتابعة والتواصل . وهي في هذا المجال تشعر بالاطمئنان والراحة للعطاء الممتاز الذي تستشعره من قبل أساتذتها بالكلية .

والتجربة الجامعية بالنسبة لإيناس تعني الاعتماد على النفس والثقة بها ، وبناء التفكير العلمي والاعتداد بالذات واحترام الآخرين .

ويقول الطالب نصحي محمد ميسرة شعشاعة الذي يدرس بالسنة الأولى في كلية الطب البشري : أنا أردني من مواليد الدوحة ، وكان معدلي في الثانوية العامة أربعة وتسعين في المائة . كانت أعز الامنيات عندي أن ادخل كلية الطب . فحمداً لله الذي حقق لي هذه الامنية ، ويرى نصحي أن الدراسة في الجامعة ممتعة . والطلاب تربطهم بأساتذتهم علائق مودة حميمة مما يسهل لديهم عملية الاستيعاب والتلقي .

ويرى أيضاً بأن التجربة الجامعية مشوقة ومثيرة ، خصوصاً وأنه حديث العهد في ممارستها ، ولم يكتشف بعد آفاقها الرحيبة .



رئيس الجامعة يتحدث للدوحة .



مناقشة حرة في احدى الندوات بالجامعة

ويشعر بأن عليه واجباً لابد وأن يؤديه نحو أسرته ووطنه ، ودراسة الطب تتيح له التعرف على أسرار الجسم البشري ، كما تتيح له مزيداً من التأمل والدراسة والمعرفة .

... وبعـد .

فان الحديث عن جامعة اليرموك ممتع .. وطويل .. لكن الحيز المتاح قليل .. وكان بودي أن اتحدث عن عمادة البحث العلمي والدراسات العليا التي تقوم بنشاط فعال في مضمار تطور البحوث العلمية التي توليها جامعة اليرموك عناية خاصة . وأن أتحدث عن مكتبة جامعة اليرموك التي تضم أكثر من مائة وعشرة آلاف مجلد . وتشترك في أكثر من ألفي دورية منتظمة . وتقدم خدماتها لأكثر من سبعمائة مستعير يومياً . اضافة الى انها تواكب تطور علم المكتبات بصورة مشرفة .

وكذلك وددت الحديث عن دائرة العلاقات الثقافية والعامة التي يرأسها الأستاذ مجيد غنما والتي تبرز صورة الجامعة في ثوب جميل تستحقه ، وتعمل على توثيق علاقة الجامعة بكافة قطاعات المجتمع المحلي والخارجي .

ورغبت أيضا أن اتحدث عن باقي كليات الجامعة . ومع العديد من الأساتذة الاكفاء الذين صنعوا لاسم جامعة اليرموك باقة من التقدير والأعجاب في كافة الأوساط الأردنية والعربية والعالمية .

ان ما حققته جامعة اليرموك خلال تسعة أعوام من تاريخ ميلادها يستحوذ على اعجاب المرء ، واعتزازه بهذه المؤسسة العربية الكبيرة التي يجتهد كل مسئول فيها وكل طالب بها أو خريج منها على الوفاء لها ، وما أبدع ما قاله رئيس الجامعة في نهاية حديثه للدوحة : ان مستقبل الأمة العربية الآن هو على مقاعد الدراسة في الجامعات العربية ، وان أية رعاية نعطيها لهذه الدراسة نكون قد اسهمنا في خلق قيادات مؤهلة وواعية للأخذ ايجابياً بمسيرة هذه الأمة في الطريق الصحيح . فعلينا الاهتمام الكامل بالطالب الجامعي العربي وتوفر كافة فرص العطاء لتنميته روحياً وعربياً واسلامياً .

نبيل خالد الآغا



بقلم: جمال قطب

جميلة الجميلات



الفنان العالمي جوزيوا رينولدز (١٧٢٣ – ١٧٩٢)

الفنان النابغ الذي وهبه الله عبقرية فذة وألمعية نافذة .. هو ثروة تاريخية تعتز بها الدول كأندر وأثمن ما أثمر عنه غرسها الإنساني عبر القرون !

فنرى أن دول الشمال الأوروبي مثلاً تفخر بمدينة (انتويرب) أو (دلفت) وغيرهما لأنها أنجبت هذا الفنان أو ذاك .. وفي ايطاليا ، تمثل المدن التي ترعرع فيها أساطين الفن مزارات تاريخية .. يعتز بها الايطاليون كاعتزازهم بروائع الفن التي جادت بها قرائح الفنانين أنفسهم .. وفي فرنسا ، ربما تحتل قرية صغيرة في الريف من الأهمية ما تحظى به الابداعات التي لاتقدر بمال في متحف اللوفر ، ذلك لأنها مسقط رأس الفنان الذي أبدع تلك اللوحات الخالدة !

وفي انجلترا .. تتباهى قرية بوليمبتون **Plympton** بأن فنانها العالمي الأشهر جوزيوا رينولدز قد ولد فيها .. وهو أعظم من أنجبتهم انجلترا من مصوري الأشخاص **Portraits** طوال تاريخها الفني العريق .

ولد رينولدز في ١٦ يوليو ١٧٢٣ .. وتلقى تعليمه في مراحله الأولى ببلدته على يد والده الذي كان يعمل مديراً لاحدى مدارس اللغات .. ثم ذهب إلى لندن ليلتحق بمرسم فنان شهير آنذاك إسمه توماس هادسون ، وكان ممن اشتهروا برسم الأشخاص في محيط العائلات الراقية ولا سيما فتيات المجتمع الارستقراطي في العاصمة البريطانية . وما إن اكتملت شخصيته الفنية المستقلة حتى عاد إلى مسقط رأسه وافتتح مرسمه بها متخصصاً في رسم الشخصيات دون غيرها .

وأتيح له بعد بضع سنوات من الممارسة الدائبة ، ظهر فيها اسمه كفنان له أسلوبه المميز ، أن يزور دول البحر الأبيض المتوسط برفقة أحد الضباط البحريين الكبار وهو (الأدميرال كيبل) بعد أن توطدت الصداقة بينهما ..

وبذلك تحقق أمل فناننا رينولدز في زيارة روما ومشاهدته إبداعات فناني عصر النهضة الذهبي الأبطال .. ومما يذكر أن الساعات الطويلة التي كان يقضيها يومياً في الدراسة والتأمل داخل حجرات الفاتيكان الباردة قد تسببت في البرد الذي ألم به ونتج عنه إصابته بالصمم الكامل ! وعاد رينولدز واستقر بعد ذلك في لندن .. وكان علية القوم يتوافدون على مرسمه أملاً في أن يحظوا برسم صورهم من أنامله الملهمة .. وتألق الفنان كما لم يتألق فنان غيره .. وحظي بشهرة عالية واسعة .. وعرف عنه ولعه بالكشف عن سر اللون .. ومن المعروف أن الفنانين في تلك العصور كانوا يصنعون ألوانهم بأنفسهم ، ويتنافسون في الكشف عن مواد طبيعية وكيماوية جديدة تكسب ألوانهم رونقها وثباتها ونضارتها .. بل اعتبروا هذه الأبحاث من أسرارهم التقنية الخاصة التي يحرصون على الاحتفاظ بها مدى حياتهم ! ويحكي عن رينولدز أنه ضحى بمقتنياته الخاصة من اللوحات العالمية التي احتفظ بها لغيره من الفنانين الكبار .. وأذابها ليكتشف سر الأصباغ والزيوت والشموع التي استخدمت في تركيبها !

وكان الفنان دائب البحث والعمل بجهد فائق لا يصدق ! فقد ترك لنا في مذكراته أنه كان يبدأ العمل مع الفجر ، ولا يتوقف إلا عندما يحل الظلام .. ثم يقضي معظم الليل مع أصدقائه في المجادلات وتبادل الرأي على أضواء الشموع ، وأنه كان يرسم نماذجه بمعدل ست جلسات في اليوم الواحد . وإذا حسبنا سنوات عمره التي مارس فيها إبداعه بهذه الجدية والحماس .. وجدنا أنه قد رسم في حياته نحو ثلاثة آلاف لوحة !

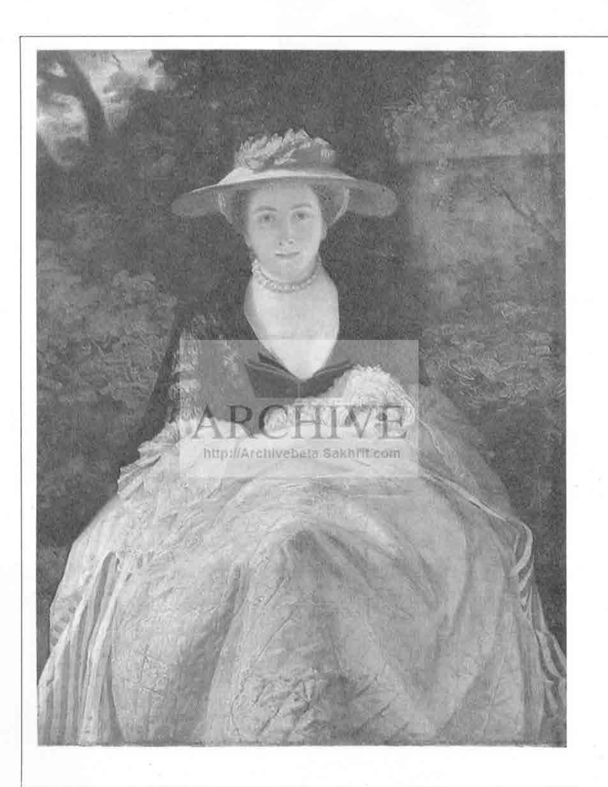
وقد كتب (ماسون) شاعر القرن الثامن عشر ، وكان صديقاً لرينولدز :

« كان دائماً يعمل .. إن لم يكن منهمكاً في رسم أحد الأشخاص ، تجده يضع لمسات على لوحة أتم رسمها من قبل ، يبدأ أولاً في تنظيف قماش اللوحة بفرشاته ، ثم يرسم بسرعة الخطوط الخارجية للنموذج الذي يرسمه .. ثم التفاصيل والملامح .. كل هذا بالفرشاة ، فهو لا يحب أن يرسم خطوطه بغير ألوان فرشاته .. ثم يستخدم بعد ذلك مجموعة ألوانه وهي عادة : الأبيض والأحمر والأسود .. هذا في الجلسة الأولى ، أما في الجلسة الثانية فإنه يضيف إليها الأصفر الاسباني وفي الجلسات التالية ، يضع أصعب ألوانه وهي لون البشرة واللمسات الأخرى في اللوحة كلها » .

استمرت شهرة رينولدز وتمكنه من فن الصور الشخصية .. حتى أصبح زعيم المصورين عن جدارة .. وعندما تأسست الأكاديمية الملكية في ديسمبر ١٧٦٨ تم انتخابه رئيساً لها ، وبعد ذلك بعدة شهور ، منح لقب (فارس) وعرض الملك جورج الثالث أن يجلس أمامه ليرسم صورته .

وظل الفنان رئيساً للأكاديمية حتى ١٧٩٠ .. وافتتح خلال هذه السنوات عدة مدارس فنية للتصوير والنحت والعمارة . وهذه هي فروع الابداع الثلاثة التي تأخذ بها الأكاديمية الفنية اليوم .

ولم يكن رينولدز فناناً مصوراً فحسب ، بل كان مفكراً يعتز بآرائه ونظرياته في الفن والفلسفة .. وظل في تألقه وتدفق إبداعه حتى تدهورت صحته ، وخاصة بعد أن فقد البصر في إحدى عينيه عام ١٧٨٩ .. فاضطر إلى اعتزال التصوير إلى أن مات في فبراير عام ١٧٩٢ .. وعلى الصفحة المقابلة نرى نموذجاً من أعمال رينولدز الشهيرة وهي إحدى سيدات المجتمع البريطاني .. وكانت مثلاً أعلى للجمال في عصرها ، أو جميلة الجميلات وتدعى نيللي أو بريون .. وكان الفنان كذلك يعتبر هذه اللوحة من أعظم لوحاته التي أبدعها طوال حياته .



كتاب الشهر

عرض وتقديم : حسني شحادة



غلاف كتاب العلوم فى الاسلام



العلوم في الإسلام

- في عهد المأمون رُسِمَت أول وأدق خريطة للعالم!
- التراث الضخم الذي تركه ابن سينا عن عملية تولّد الفلزات والمعادن
- عرف الغرب لأول مرة علم الحساب من الخوارزمي

ظهرت قبل الاسلام حضارات كثيرة ، سادت فترة ثم بادت ، بعد أن أنتجت علوماً فى مختلف مجالات المعرفة ، وبلغت درجات متباينة من الكمال ، وقد نظر المسلمون إلى تلك الحضارات بعقلية ايجابية من خلال ايمانهم المطلق بضرورة العلم والتعلم ، فنقلوا ما أنجزته تلك الحضارات من أعمال جليلة ، وترجموا معظم أمهات الكتب العلمية القديمة إلى العربية طيلة مائة وخمسين عاماً ، امتدت من القرن الثاني للهجرة الى القرن الرابع للهجرة ، وبذلك نشأ التزاوج بين الروح التى برزت من وحى القرآن الكريم ، وما ورثه المسلمون من علوم الحضارة ..



خزان مياه قرب القيروان فى تونس بنى فى القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى)

وكتاب العلوم في الاسلام الذي ألفه سيد حسين نصر باللغة الانجليزية ، ونقله إلى العربية مختار الجوهري ، وحقق نصوصه وضبط ألفاظه العلمية والفنية ، الدكتور محمد السويسي ، الأستاذ بالجامعة التونسية ، ونشرته دار الجنوب للنشر بتونس ، قد أصبح سفراً جليلا لكل من يريد أن ينهل من تاريخ العلوم في الاسلام .

ويقع الكتاب في مائتين وخمسين صفحة من الحجم الكبير ، ويتضمن خمسة أبواب ، ومعجماً للمصطلحات ، ومجموعة فريدة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية ، ولوحات تصويرية نادرة .

العلوم الاسلامية

لقد أرسى الاسلام قواعد ، ومبادىء للتربية ، صالحة على مر الأيام ، وتداول السنين ، تربية تهدف الى تحرير العقل من الوهم ، وتحرير النفس من الخوف ، وتحرير الجسم من الخضوع ، وتحرير الانسانية من العبودية ، حيث أصبحت المعرفة أساس التفاضل بين الناس ، « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . صدق الله العظيم .

لقد تربى المسلمون على نهجين رئيسيين ، يستطيع المسلم من خلالهما تحصيل المعرفة : أولهما : الحقيقة الوحي بها ، والتي تنتقل بعد الوحي من جيل الى جيل ، وهي العلوم النقلية . والثاني : هو العلوم التي يحصل المسلم عليها بواسطة العقل الذي وهبه الله اياه ، على مستوى الادراك والعقل ، وقد اصطلح المسلمون على تسميتها « العلوم العقلية » .

وعندما واجه المسلمون هذا الكم الهائل من العلوم التي وجدت قبل الاسلام والتي وصلت عن طريق الترجمة ، الى جانب هذا البحر الزاخر من العلوم النابعة من معين الوحي الآلهي الذي لا ينضب ، أقبل العلماء المسلمون يصنفونها ليساهموا في التوفيق بين العلم والدين ، وكان الكندي أول من تصدى لذلك في كتابه « أقسام العلوم » ، ولكن الفضل يرجع الى « أبي نصر الفارابي » الذي وضع كتابه « إحصاء العلوم » ، ثم تبعهم « ابن سينا » ، وإخوان الصفا ، وابن رشد ، وإمام المؤرخين « ابن خلدون » ، الذي أورد في مقدمته بحثاً علمياً عن تصنيف العلوم .

وعندما اتسعت دولة الاسلام ، واندمجت فيها شعوب مختلفة النفسيات والملكات والذهنيات ، قامت حضارة الاسلام ، وأهتم العلماء المسلمون بدراسة الكونيات .. وقد قام علم الكونيات ، وعلم الهيئة الاسلاميان ، في جميع أشكالهما ، كأرضية ، ومنبت ، وأساس لعلوم الاسلام المتنوعة .



الفلكيون في اسطنبول في القرن العاشر للهجرة (١٦ م)

الخرائط والموسوعات والرحلات العربية

وقد جاءت دراسة الجغرافيا الإسلامية ، طبقاً لرؤيا الاسلام للعالم ، وتتركز قبل كل شيء على أرجاء الاسلام الفسيحة ، لأن الاسلام حين صبغ العالم الطبيعي من حوله ، بالصبغة الاسلامية ، ضم في الواقع كل ما عرفته الحضارات السابقة ، فأقدم الكتب الجغرافية الاسلامية ، ترجع الى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، في خلافة « المأمون » ، وفي عهده رسمت أول خريطة للعالم ، سميت الصورة المأمونية ، وقد شاهدها الحسن المسعودي ، واعتبرها أكثر دقة من خريطة « بطليموس » ، وظهرت أيضاً ، عدة مؤلفات علمية في الجغرافيا كتب بعضها فلاسفة كالكندي والسرخسي ، وأخرى فلكية ووصفية على شكل رحلات ككتاب ابن خرداذبة « المسالك والممالك » ، وصورة الأرض لمحمد بن موسى الخوارزمي ، والأعلاق الخطيرة لابن رسته ، وتقدم علم الجغرافيا خلال القرنين الرابع والخامس ، تقدماً كبيراً ، حيث ساهم المؤرخون مثل أحمد اليعقوبي في الكتابة في الجغرافيا ، وكذلك علماء الطبيعة ، أمثال أبي الحسن المسعودي ، الذي ألف دائرة معارف تجمع علوم الكونيات والتاريخ والجغرافيا ، وعنوانه : « مروج الذهب » . ثم فتح باباً جديداً في الجغرافيا الاسلامية ، هو جغرافية البحار ، حيث أقبل البحارة المسلمون ، يمخرون البحر بسفنهم الى البلاد البعيدة ، حتى وصلوا الى جزيرة جاوة ، وسومطرة ، والهند ، والصين . فنشأت قصص شعبية ، وأوصاف علمية ، لهذه



لوحة تمثل صقر الصيد في متحف تبكابي باسطنبول .. وقد اهتم المسلمون بدراسة كل ما يتعلق بالطيور الجارحة.

الرحلات البحرية مثل أخبار الصيد ، وأخبار الهند ، لسليمان التاجر ، وعجائب البحار ، وبلغت دراسة الجغرافيا الاسلامية أوجها في مؤلفات أبي الريحان البيروني ، في كتابه « تحديد نهايات الأماكن » ، وكتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » ، وكتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، و « القانون المسعودى » .

ومنذ القرن السادس الهجرى ، الثاني عشر الميلادى ، تقدم علم الجغرافيا الاسلامي وتنظم على يد العلماء المسلمين ، فظهرت الموسوعات مثل « نخبة الدهر » للدمشقي ، و « عجائب البلدان » للقزويني ، و « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للادريسي ، و « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، و « تحفة النظار » لابن بطوطه .. وغيرها .

ولعل أروع ما ظهر في تلك الفترة من المؤلفات الجغرافية ، عمل الخرائط ، فكانت خريطة العالم للادريسي تمثل قمة علم رسم الخرائط في الاسلام ، وقد أسهم العلماء المسلمون في علم « الجيوديسيا » اى علم قياس الأرض ، وقياس قطر الكرة الأرضية على يد فريق كان يرأسه « موسى بن شاكر » .

العلوم الطبيعية

وقد لعبت العلوم الطبيعية دوراً رئيسياً كمصدر تتكامل فيه علوم معينة للطبيعة الوصفية ، كعلم المعادن ، وعلم الجيولوجيا ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، وقد عملت على دمج صور خاصة من المعرفة التابعة للنظام الطبيعي في المبادىء العالمية للماورائيات ولطبيعة الكون . فعالجت هذه الوضعيات على أنها إشارات ، وآيات من آيات الله ، من الواجب أن يعتبرها الباحث أكثر من أن يحللها فحسب .

وكانت كتابات المسلمين تتراوح بين الموسوعات مثل « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، والملخصات في وصف الكون كامثال القزويني والدمشقي ، والكتب الجامعة بين التاريخ ووصف الكون للمسعودى ، والكتب الأدبية ، كمؤلفات الجاحظ ، والى الدراسات والفلسفة كالشفاء لابن سينا ، ولكنها جميعها تتحد في اهتمامها بالربط بين المظاهر الكونية والفلسفة ، ودراسة الطبيعة ، والقوى الروحية الداخلية التى تسيطر على كل ميدان .

وتدل مؤلفات المسلمين على وضوح فهمهم لمظاهر التدرج في التغييرات الجيولوجية ، وللانقلابات العظمى ، التى حدثت على سطح الأرض ، كتحول الأراضي الى بحار ، أو تحول البحار الى أرض ، وتدل أيضاً على فهم الكوارث كالزلازل ، وعلى أهمية الصخور كوثيقة للتاريخ الجيولوجي للأرض .

وكان أبرز ما اكتشف في تلك الفترة ، اكتشاف البيروني أن سهل وادي الكنهج في الهند ، يتكون من طبقات رسوبية .

ولا سبيل الى تناول الجيولوجيا عند المسلمين بالبحث دون ذكر اهتمامهم بالمياه الجوفية ، وقنوات المياه ، مثل أبحاث الكرخي في كتابه حضارة المياه الجوفية ، حيث نرى المزج بين المعارف النظرية والعملية ، وبين الاختصاصات التى تتراوح بين الرياضيات والجيولوجيا .

واضافة لذلك فقد ورث المسلمون تراثاً ضخماً من المؤلفات في علم المعادن ، فقد تناول ابن سينا بالتفصيل عملية تولد الفلزات والمعادن ، ووصفها في كتابه « الشفاء » ، وفي الجزء الثاني من كتاب القانون وكذلك البيروني في كتابه الجماهر في علم الجواهر .

وتبدأ مؤلفات العلماء المسلمين في علم النبات متقدمة منذ القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد ، برسائل جابر بن حيان ، في علم النبات والفلاحة ، فجمعوا المعلومات عن شكلها وخواصها وأسمائها . ولعل أهم مؤلفاتهم في القرن الثالث للهجرة ، كتاب النبات ، لأبى حنيفة الدينورى .

أما علم الحيوان عند المسلمين ، بمعناه الواسع ، فيشمل جميع نواحي الحضارة الاسلامية ، من الفقه الى الأدب ، ومن الفن الى الطب ، فظهر علم الحيوان في صورته الحقيقية ، بالتوحيد بين مصادره المتعددة التى ورثها الاسلام

عن الحضارات السابقة ، فكتب عن الحيوان علماء اللغة في كل من البصرة والكوفة ، أمثال النضر بن سهل ، والأصمعي ، وابن الاعرابي ، وأبي عبيد بن سلام ، وأبي حاتم السجستاني ، على أن أبرز الذين كتبوا في علم الحيوان الأديب الجاحظ في مؤلفه الموسوعي كتاب الحيوان . كما اهتم الفيلسوف الكندى ، والفارابي ، وابن قتيبة بهذا العلم ، وكان أهم مؤلف اسلامي في الفترة المتأخرة هو « حياة الحيوان الكبرى » لكمال الدين الدميري ، الذى كتب في القرن الثامن للهجرة ، فلخص كل الدراسات السابقة عن الحيوان .

وإن كل من ألقى نظرة أولى الى الحضارة الاسلامية ، وعلى علوم الاسلام ، يدرك المكانة الممتازة التى تحتلها الرياضيات في تقاليد العلوم الاسلامية . فالفنون ، والعمارة تتخللها الأشكال البلورية والهندسية ، ويظهر الولع بالحساب والرموز العددية في كل الفنون التشكيلية والسماعية ، وخاصة الشعر والموسيقى .

إن هذا الولع والحب للرياضيات ، وخاصة الهندسة والعدد ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجوهر الرسالة الاسلامية ، أى مبدأ التوحيد .

وكان للعلماء المسلمين فضل السبق في نقل الارقام ، فهذا الخوارزمي ، يضع كتابه « الجمع والتفريق بحساب الهند » ، وهو الكتاب الذى انتقل الى بلاد الغرب ، فعرفوا منه الحساب لأول مرة ، « فاللوغرتم » في اللغة الانجليزية ، و « جوارزمو » في اللغة الأسبانية ، هو تحريف لاسم الخوارزمي . وفي القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، ألف أبو الحسن الاقليدسي ، كتاب « الفصول في الحساب الهندي » ، وكتب أبو الحسن النسوي ، كتاب « المقنع في الحساب الهندى » .

أما الهندسة ، فقد بدأت دراستها عند المسلمين منذ أوائل العصر العباسي ، فقد أثار اهتمام المسلمين بالهندسة ، أعمال بني موسى في بغداد ، وخاصة كتاب « معرفة مساحة الاشكال » ، كما كتب ثابت بن قرة في القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد ، عن التكعيب والتربيع ، وطور حساب التكامل ، وحساب التكافؤ .

وكذلك كان نبوغهم في حساب المثلثات المستوية والكروية ، فكانوا أول من عبر عن التوابع المثلثية تعبيراً واضحاً ، فكان « حبش بن الحاسب » أول من استخدم الظل ، كما كان يعرف توابع الجيب وجيب التمام . وكان أبرع تقدم ظهر على يد « أبي الوفاء البوزجاني » الذى ألف كتاب « المجسطي » حيث برهن نظرية الجيب ، في المثلث الكروي ، وكذلك البيروني ، ونصر الدين .

أما الجبر فيعتبر المسلمون أو من ابتكر هذا العلم ، على يد العالم الاسلامي ، محمد بن موسى الخوارزمي ، في كتابه « المختصر في حساب الجبر والمقابلة » في القرن الثالث الهجرى ، ثم تبعه في القرن الرابع ، أبو كامل شجاع ، فابتكر معادلات تشتمل على خمسة مجاهيل ، وقسم الكرة « أبوعبد الله الماهاني » و « الخوجندي » وبلغ تطور الجبر أوجه بظهور جبر الشاعر « عمر الخيام » ، فقد صنف المعادلات الجبرية حتى الدرجة الثالثة ، وحل هذه المعادلات ، حلولا هندسية .

ولم تكن الرياضيات محدودة بعالم المادة ، كما هي الحال في الرياضيات المعاصرة ، بل كانت في الواقع ، أشد ارتباطاً بعالم صور الحياة ، ثم تتجاوزها الى النماذج العليا .

ويطلق المسلمون على علم الفلك اسم « علم الهيئة » ، أو « علم النجوم » ويختص برصد النجوم الثابتة ، والكواكب السيارة ، وصنع آلات الرصد واستعمالها . وعلم الفلك قديم عند العرب ، فقد كان لعرب الجاهلية تقاليد في مراقبة السماء ، فيعرفون النجوم والأبراج ، وأنشأوا علماً يتصل بمنازل القمر ، وأطلقوا عليه « علم الأنواء » وبقي ذلك حتى ظهور فجر الاسلام ، فهذب العلماء المسلمون هذا العلم ، فهذا ابن قتيبة الدينوري يضع « كتاب الأنواء » ، واتخذ المسلمون التقويم القمرى في تسيير حياتهم الدينية الى يومنا هذا .

وهناك مؤلفات عربية كثيرة في علم الفلك ، من

مازال هناك كيميائيون في عدة دول اسلامية ، يزاولون أعمالهم بنفس ماكان متبعا في عصور ازدهار العالم الاسلامي

أهمها ، «التذكرة في الفلك» لنصر الدين الطوسي ، و«القانون المسعودي» للبيروني ، و«نهاية الادراك» للشيرازي ، وفي عصر المأمون ، أقام الفلكيون كثيراً من الارصاد المبتكرة ، ومن أبرزها ، قياس دائرة خط الزوال قرب الموصل ، وقدم أبو معشر الفلكي البلخي «دراسة في علمي الفلك والتنجيم في مؤلفه الشهير ، «كتاب الألوف» ، وأسهم محمد بن موسى الخوارزمي في علم الفلك ، وفي القرن الرابع الهجري ، استمر النشاط العلمي في دراسة الفلك ، من قبل علماء مثل «أبي سهل الكوجي» في كتابه «علم الفلك» .

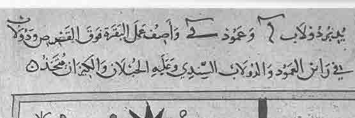
ويعود أول سجل للأرصاد الفلكيه في العالم الإسلامي الى سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م حين رصد «أحمد النهوندي» حركة الشمس ، ومضت قرون قبل ظهور المرصد كمؤسسة علمية مستقلة ، فمع إنشاء مرصد المراغة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، دخل تاريخ المراصد مرحلة جديدة ، وتبعه مرصد استانبول ، ومن أهم الآلات الفلكية الاسلامية «الإصطرلاب» ، ويرجع أصله الى أيام عرب الجاهلية . وأقدم كتاب عربي عن الإصطرلاب ، كان في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد ، وقد اخترع جابر بن افلح آلة شاملة تستخدم في الفلك كما في الرياضيات والفيزياء ، ثم تبعهم مظفر شرف الدين الطوسي ، باختراع الإصطرلاب الخطي «العصا» لتبسيط الآلة .

وقد تناول عدد كبير من علماء المسلمين وفلاسفتهم الفيزياء ، وانتجوا ثروة فكرية حوت أعمق فلسفة ، فبرع ابن سينا في مؤلفاته «فن السماع الطبيعي» ، و«الشفاء» ونتيجة لذلك نشأت عدة مدارس فكرية حول مبادىء الفيزياء ، وكانت المدرسة الأكثر شيوعاً ، المدرسة المثالية ، المنسوبة الى أرسطو ، وقد تناولها ابن سينا ، بالدراسة المستفيضة ، في كتابه الشفا ، وتناولها نصر الدين الطوسي في شرح الاشارات والتنبيهات لابن سينا . المدرسة الثانية ، هي مدرسة المناوئين للمثالية ، ومنهم محمد بن زكريا الرازي ، والبيروني ، وأبي البركات البغدادي ، أما الثالثة فهي مدرسة المتكلمين ، وهي تهتم مباشرة بمبادىء الفلسفة الطبيعية ، كالنظام الأشعري ، والباقلاني ، ثم كانت مدرسة رابعة ، أنشأت فيزياء متميزة خاصة بها ، وهي مدرسة الاشراقيين ، وقد وضع السهروردي ــ مؤسسها ــ أساس فيزياء الضوء ، في كتابه حكمة الاشراق ، وتبعه قطب الدين الشيرازي ، وقد رفضت هذه المدرسة نظرية أرسطو في تشكيل المادة .

ونظراً لتطور الفيزياء ، نجد أن إسهام المسلمين في موضع القوة والحركة ، أي الميكانيكا والديناميكا ، يمثل مكانة رئيسية في اهتمام مؤرخي العلوم ، وكذلك أسهم العلماء المسلمون ، بقدر وافر وهام في فرع «البصريات» ، فكتب الكندي ، بحثاً في البصريات ، وتبعه آخرون كالتبريزي ، وابن سينا ، والبيروني ، فناقشوا سرعة الضوء ، بينما درس غيرهم مثل حنين بن اسحاق ، والرازي ، تشريح وظائفية العين ، كما كتب ابن الهيثم كتابه المناظر ، في تشريح وفسيولوجيا العين ، وكتبوا أيضاً في انعكاس الضوء ، وانكساره .

علوم الحياة

وقد استمد مفهوم الطب والصيدلة والجراحة ، قوته الروحية من رسالة الاسلام ، من خلال الأوامر التي جاء بها القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وكان معظم الفلاسفة المسلمين ، أطباء مهرة ، مثل الكندي ، ابن سينا ، وابن رشد ، ويذكر أن الخليفة الوليد الاول ، هو أول من أقام مستشفى في الاسلام ، في القرن الاول للهجرة/



أجهزة آلية مختلفة من صنع العالم الاسلامي «الجزري» وهي موثقة في كتابه «معرفة الحيل الهندسية»

السابع للميلاد ، ولكن هارون الرشيد ، هو أول من أسس مستشفى حقيقيا ، مجهزاً بكل المستلزمات ، في بغداد في القرن الثاني للهجرة ، ثم انشئت المستشفيات في سائر البلاد الاسلامية .

وكان للطب الاسلامي فروع مختلفة تتصل به ، كعلم التشريح ووظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، والطب الباطني ، والكحالة أو طب العيون ، والجراحة .

ثم تطرق المؤلف الى تاريخ الطب الاسلامي ، وتطوره ومصادره ، والطب النبوي من نشأته الى ابن سينا ، ثم الطب الاسلامي بعد ابن سينا ، ثم بحث في الصيدلة ، والأدوية المفردة ، والأدوية المركبة ، والطب الاسلامي العام .

إلى جانب العلوم التي ذكرت سابقاً والتي كانت تسمى العلوم « المفتوحة » أو « المدركة » ، تشتمل العلوم الاسلامية نوعاً من العلوم ، أطلقوا عليه اسم العلوم « الخفية » ، أو « الغريبة » ، وظلت هذه العلوم سراً محجوباً ، لا يعرفه إلا علماؤها ، وذلك للحفاظ على المجتمع من استعمالها ، لأنها قد تكون وسائل خطرة ، تنشر الفوضى ، في العالم الخارجي الطبيعي ، ومنه البشرى .

هذه العلوم هي تطبيقات لعلوم الكونيات ، ولا يمكن فهمها إلا على ضوء باطني ، ينطوي على النظريات الميتافيزيقية ، اللازمة لتوضيح الرموز التي تحتويها تلك العلوم ، وتحتوى على الكيمياء وسائر العلوم المشابهة .

والحديث عن الكيمياء ، يعني الحديث عن تحويل الأشياء ، لوجود عامل رمز اليه القدماء باسم « حجر الفلاسفة » ، فكانت الكيمياء منهجاً كاملا في النظرة الى الأشياء ، فهي في ذات الوقت علم الكون ، وعلم النفس ، وترتبط بالصناعة والتعدين من ناحية ، والطب الروحاني من ناحية أخرى ، وتقوم على مبدأ يتلخص في أن كل شيء في كل شيء ، وأن كل شيء يتداخل مع كل شيء .

وقد بلغت الكيمياء الاسلامية ذروتها في أوائل القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد ، في عهد جابر بن حيان ، فوضع نظرياته في « المجموعة الجابرية » ، التى تعتبر انجازا هاما في تاريخ الاسلام . وقد فتح محمد بن زكريا الرازي ، طورا جديداً في تاريخ الكيمياء الاسلامية ، فهو الرائد الذي حول الكيمياء القديمة ، إلى الكيمياء الحديثة ، وظلت كتبه ، مثل كتاب « الأسرار » و « سر الأسرار » و « المدخل التعليمي » ، تدرسها الأجيال ، ومن أبرز مساهمات الرازي في الكيمياء ، تصنيفه للجواهر .

وأبرز الرسائل الاسلامية في الأجهزة الكيميائية ، رسالة عن الصنعة وعون الصنعاء ، لأبي الحكيم الكاثي في القرن الخامس للهجرة ، وأهم كتاب في الكيمياء في تلك الفترة ، كتاب « العلم المكتسب في صناعة الذهب » لأبي القاسم العراقي .



خريطة ابن حوقل التي تمثل غرب آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط



طبيب أسنان يزاول عمله

وتمثل الزراعة الأساس الاقتصادي الذي قامت عليه الحياة في العالم الاسلامي . وقد ورث المسلمون خبرة آلاف السنين التي عرفتها حضارات غرب آسيا وحوض البحر المتوسط ، وبلاد الرافدين ، وبلاد نهر النيل وغيرها .

ولعل أول من ألف في الزراعة باللغة العربية هو الطبيب الشهير ، يوحنا بن ماسويه ، الذي تناول موضوع الزراعة في كتابه « الأزمنة » ، ثم تلاه تلميذه ، حنين بن اسحاق .

وفي وقت مبكر من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد ، ظهر مؤلف هام لأحمد بن أبي وحشية ، بعنوان « الفلاحة » وجمعه تلميذه أحمد الزيات ، سنة ٣١٨ هـ ٩٨٠ م ، وفي القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، كتب أبو عمر بن الحجاج الأشبيلي عدة رسائل في الزراعة ، أشهرها « المقنع » ، ثم صدرت كتب كثيرة في القرون اللاحقة .

وسوف تظل هذه العلوم تحمل في طياتها أهم رسالة بعثت الى الجنس البشرى ، الذى هو في أشد الحاجة الى تعميق الايمان برسالة التوحيد ، والى الحياة والمعرفة ، حسب النور الذى بعثته هذه العقيدة دوماً على الوجود الانساني .

حسني شحادة



جامع بئر السبع

في الأصحاص السادس ، من سفر التثنية ، من توراة اليهود الوضعية ، وعد الرب اليهودي الخاص « يهوه » أبناء شعبه المختار بأن يشق الطريق أمامهم باتجاه فلسطين .. « ناراً آكلة ، يبيد الشعوب ويذلها تثنية ٩ : ٣ » وبأن يجيء بهم في بلاد الأعداء هذه .. « إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنوها ، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأوها ، وآبار محفورة لم تحفروها ، وكروم وزيتون لم تغرسوها » .. وقياساً على هذه الروح العدوانية الصارخة منذ نيف وألفي سنة . فلا ريب أن أحبار اليهود المعاصرين قد أضافوا الى هذه القائمة من الغنائم الفلسطينية الباردة أصنافاً جديدة لم تكن قائمة في ذلك الزمن السحيق . من مثل قولهم ــ بمقتضى واقع الحال ــ : « ومساجد لم تعمروها » ومآذن لم ترفعوها ، وزخارف إسلامية لم تنقشوها » ! ! ..

إن هذا في حقيقة الأمر هو ما تشهد به الصورة المقابلة لجامع مدينة « بئر السبع » الذى تكاد حجارته الصماء أن تنطق بعمرها العربي الفلسطيني المديد منذ مئات السنين .. وبرغم ذلك فإن سائحاً أجنبياً ــ أو فلنقل حتي عربياً ومسلماً أيضاً ، من حيث أصبح ذلك ممكناً في هذا الزمن العربي ــ لو أدركته صلاة الظهر أو العصر مثلا في بئر السبع ، وساقته قدماه الى مدخل هذا المسجد المظلل بالأشجار الباسقة ليؤدي ما عليه من فرض ، فإنه سيفاجأ على الفور بلافتة بالعبرية والانكليزية تقول له إن هذا هو « متحف النقب الاسرائيلي » . ولسوف يلتقطه الدليل الإشكنازى الوافد لتوه من أحياء « الغيتو » اليهودية في وارسو ، أو براغ ، أو بوخارست ، أو في جهنم نفسها ، ليشرح له بالتفصيل كيف أن بلدية المدينة قد أسست هذا المتحف عام ١٩٥٣ ، أى بعد خمس سنوات مما سيصفه بـ « حرب استقلال اسرائيل عام ١٩٤٨ » ، ولربما استدرجه أيضاً الى داخل « المسجد ــ المتحف » ليريه فيه آثار « بنى اسرائيل » ، ليس من مجرد العصور العربية الخالصة التى تعاقبت خمسة آلاف سنة على تراب فلسطين ، وإنما كذلك على بعض العُبيّ ، والحصر ، والسيوف ، وأسرجة الخيول ، وأرحال الجمال ، المصادرة جميعها منذ أول البارحة فقط من قبائل الطائية ، والقضاعية ، وبنى عدى ، والحناجرة ، والجبارات ، والترابين ، والتياهة ، والعزازمة ، من عرب النقب في أقصى جنوب فلسطين ! ! ..

ليس السؤال الآن : كم هي عشرات المساجد الفلسطينية التى تحولت إلى متاحف أو مرابع يهودية ، في جملة ما قد تحول من ملامح الوطن الرئيسية بهذا الشكل الدميم الذميم ، بقدر ما يختزل السؤال الجدي نفسه في مجرد كلمتين اثنتين :

ــ وماذا بعد ؟! ..

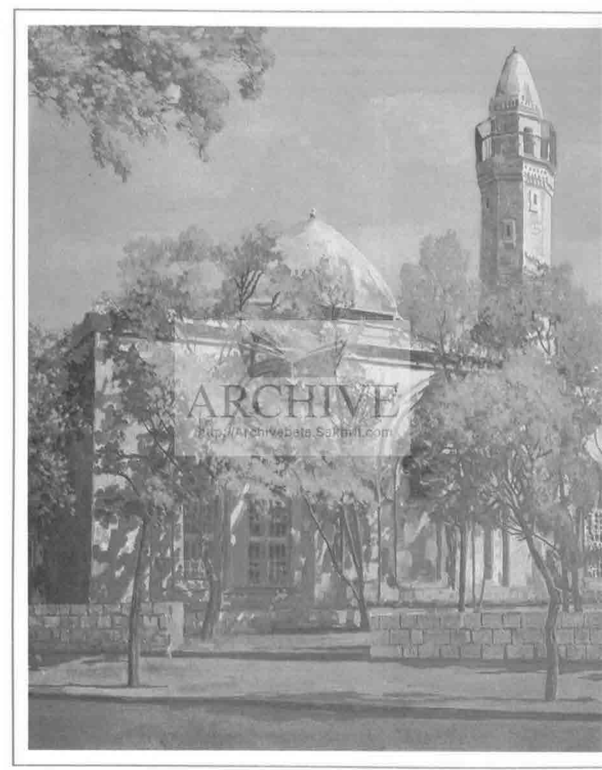
يجيب على هذا السؤال الجاد ــ بشكل ساخر ــ ميثاق لاهاى الذى تعتمده منظمة اليونسكو فيما يتعلق « بحماية الآثار والممتلكات الثقافية والحضارية في حالات النزاع المسلح » . وبقدر ما أسعفني الجهد فقد أحصيت أربعة عشر قرارا لمنظمة اليونسكو عن فترة السنوات الأربع ما بين عامى ١٩٦٨ و ١٩٧١ ، فيما يتصل بدوس « اسرائيل » بأقدامها على ميثاق لاهاى « العتيد ! ! » فوق أرض فلسطين ، ألا وهى القرارات التى تنطوي جميعها على هذا المقطع ذاته من أغنية الشيطان : « إن اليونسكو تعيد تأكيد قلقها بشأن عدم تنفيذ قراراتها السابقة في هذا الخصوص » ! ! .. ويالهول غضب الولايات المتحدة الأمريكية إن تعدى علماء اليونسكو الأفاضل هذه العبارة المعلبة ، إلى أية صيغة أخرى تناقش الأساس الأخلاقى الباطل الذى تقوم عليه عضوية « اسرائيل » في المنظمة . فعندئذ سيرغى السيد الأمريكي ويزبد ، ويهدد المنظمة بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ! ! ..

على أن السؤال المؤرق ما يزال قائماً على حاله :

ــ وماذا بعد ؟! ..

أم ترى يجمل بسجايانا العربية الحميدة المتسامحة أن نستأني قليلاً ــ أو ربما قليلا جداً ــ ريثما يتحول المسجد الأقصى ــ أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى الرسول الأعظم ، ومعراجه الى السماء ــ الى كنيس يهودى حاشد بالحاخامات ، وتتلى فيه ، عن آي الذكر الحكيم ، أسفار التوراة ! ! ..

يوسف الخطيب



● باريس تقيم أكبر معرض لأعمال الفنان رينوار ●● صراع البصّاصين في القرن العاشر الهجري ●●● أفضل كتاب في تاريخ الأدب الياباني يضعه مؤلف أمريكي ● المرأة التي تطير في الليل .. رواية هندية أمريكية

عام ١٩٨٥م
عام رينوار



لوحة للفنان رينوار بريشته

يقام فى باريس فى الفترة من يونيو الى أغسطس من العام الحالى معرض لأعمال الفنان رينوار. سيقام المعرض فى القصر الكبير « لوجران باليه » ويضم أروع مختارات لرينوار تبلغ ١٠٠ لوحة زيتية و ٥٠٠ من الرسوم والاسكتشات. وهذا الحدث يثير اهتماماً كبيراً فى الأوساط الفنية فى فرنسا والعالم وينعكس هذا الاهتمام فى الصحف والمجلات الفرنسية التى أطلقت على عام ١٩٨٥ « عام رينوار ».

واستعداداً لهذا المعرض الكبير تصل تباعاً هذه الأيام على باريس لوحات ورسوم رينوار الموزعة فى

كان رينوار يعشق تصوير الحياة والعلاقات الأسرية فى لوحاته .. اللوحة بعنوان : شقيقتان (١٨٩٧)

بقلم: محمد العزب موسى



فتيات البيانو: من اللوحات الهامة للفنان العالمى رينوار، وقد رسمها عام ١٨٩٢

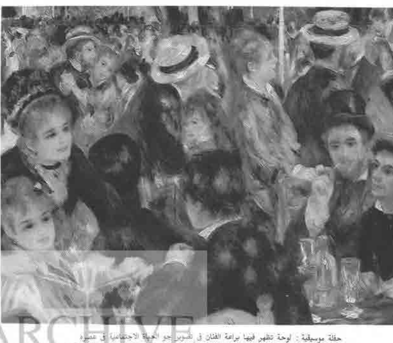
مختلف العواصم والمتاحف والمجموعات الخاصة، من ستوكهلم وسان باولو وبرلين وسان فرنسسكو وبوستن ونيويورك وميناپولس وشيكاغو ولندن بالاضافة الى المجموعة الكبيرة الموجودة فى متحف «دورساى» و«لورنجرى» بباريس.

وينتظر أن يجتذب معرض رينوار ملايين الزوار من عشاق الفن من فرنسا وخارجها باعتباره أول معرض ضخم متكامل يضم أعمال هذا الفنان العظيم الذى استطاع أن يجسد البهجة والجمال فى لوحات خالدة تنتزع اعجاب المشاهدين حتى لو لم يكونوا من نقاد الفن وعشاقه. وتستعد باريس من الآن لاستقبال هذا الحشد الهائل من الزوار المنتظرين مما يجعل من عام ١٩٨٥ بحق «عام رينوار» على حد تعبير الصحف الفرنسية.

* * *

ينتمى رينوار الى المدرسة التعبيرية Impressionism التى سيطرت على فن التصوير خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ولكنه اختط لنفسه خطاً مستقلا فى الأسلوب والموضوع مما جعله متميزاً عن باقى الفنانين، أو صاحب نزعة مستقلة داخل هذه المدرسة. فمن حيث الأسلوب لم يكن رينوار يلجأ الى توزيع الألوان بضربات قصيرة من الفرشاة كما يفعل معظم الفنانين التعبيريين بحيث تبدو لوحاتهم مبرقشة بعشرات البقع اللونية والضوئية الصغيرة، وانما كان يعتمد على الخط الانسيابى المحدد الملامح. ومن حيث الموضوع كان يركز أساساً على البشر رجالا ونساء وأطفالا وليس المناظر الطبيعية كما يفعل زملاؤه. ومع ذلك ظل رينوار واحداً من ألمع أعضاء المدرسة التعبيرية وأكثرهم استقلالاً.

ولد بيير ـ أوجست رينوار فى مدينة «ليموج»



حفلة موسيقية : لوحة تظهر فيها براعة الفنان في تصوير جو الحياة الاجتماعية في عصره

الصغيرة يوم ٢٥ فبراير ١٨٤١ في أسرة من صغار الحرفيين . كان أبوه خياطاً له سبعة أبناء . وانتقلت الأسرة إلى باريس في ١٨٤٥ ، وكشف رينوار موهبته في الرسم في سن مبكرة ، مما جعل والداه يلحقانه وهو في سن الثالثة عشرة بمصنع للخزف حيث تعلم أن يزين الصحون الخزفية بباقات الزهر . وبعد ذلك بدأ يرسم ويلون مراوح السيدات والستائر ذات الصور الدينية التي تعلق في الكنائس .

وبمبادرة شخصية من نفسه قرر رينوار أن يتعلم أصول الرسم ، وكان قد تمكن من ادخار مبلغ قليل من المال استطاع به الالتحاق في عام ١٨٦٢ بالدروس الليلية لمدرسة الفنون الجميلة حيث درس الرسم والتشريح . كما أخذ دروساً في ستوديو شارل جلير وهو رسام سويسري كان تلميذاً للفنان إنجرز وهو من أعظم فناني الكلاسيكية الجديدة في القرن التاسع عشر .

ولم يكن رينوار راضياً عن الأسلوب الأكاديمي لاستاذه السويسري . ولكنه تقبل الدراسة للحصول على مبادىء المعرفة الأولية اللازمة لأي فنان . وفي ستوديو شارل جلير تعرف رينوار بمجموعة من شباب الفنانين الذين كانوا يشاركونه الرغبة في انشاء فن جديد أكثر التصاقاً بالحياة ومتحرر من التقاليد القديمة . ومن هؤلاء الشبان كلود مونيه ، وبول سيزان ، وكاميل بيسارو ، ونشأت بينهم صداقة قوية .

كانت تقاليد الرسم في ذلك الوقت تقضي بأن تتم كل لوحة داخل الاستديو ، حتى إذا كانت صورة طبيعية . ولكن رينوار واصدقاءه الشبان قرروا الثورة على هذا الأسلوب ، وخرجوا في ربيع ١٨٦٤ الى غابة فونتنبلو حيث كرسوا أنفسهم للرسم مباشرة عن الطبيعة .

وقبل هؤلاء الشبان كانت غابة فونتنبلو قد اجتذبت فناناً آخر هو ادوارد مانيه الذي رسم في عام ١٨٦٣ لوحته الشهيرة « الغداء على العشب » المحفوظة الآن بمتحف اللوفر في باريس . ولكن مانيه آثار في ذلك الحين لغطا شديداً لأن موضوعه وأسلوبه كانا يختلفان بشدة عن المألوف وصمد مانيه للثورة العاتية التي هبت حوله مؤكداً الحاجة الى أسلوب جديد يجعل فن التصوير أكثر التصاقاً بالحقيقة ، وهذه الشجاعة جعلته زعيماً لحركة جديدة في أعين هؤلاء الشبان الصغار ، ومن هنا بدأت روافد التعبيرية تتجمع ، حتى تمكن هؤلاء الفنانون التعبيريون الشبان من اقامة أول معرض لهم بعد عشر سنوات في عام ١٨٧٤ ولكنه كان مستقلا عن صالون العرض الرسمي . وأثار هذا المعرض الأول للحركة التعبيرية ضجة هائلة وصلت الى حد الفضيحة . ولكن الحركة كانت قد ولدت .

وفي البداية لم يتحمس النقاد الفنيون للوحات التعبيرية وكان من الصعب أن تجد لوحة تعبيرية مشتريا يدفع فيها ثمناً طيباً مما جعل هؤلاء الفنانين وأمثالهم يعيشون في ضنك مادى ، ولكن رينوار وجد خطا مختلفاً . فقد أدى ميله الى رسم الأشخاص ، وخاصة أسلوبه في اظهار نعومة البشرة إلى الاستقلال عن زملائه الذين الزموا أنفسهم برسم المناظر الطبيعية . ولذلك تلقى رينوار عدة طلبات لرسم الوجوه ، وبفضل الناشر جورج شاربنتييه دخل رينوار مجتمع الطبقة المتوسطة العليا حيث رسم لوحات كثيرة لسيدات وأطفال هذه الطبقة . ثم أقام له شاربنتييه معرضاً خاصاً في « جاليرى الحياة الجديدة » عام ١٨٧٩ ، وأصبح رينوار أستاذاً في فنه ، ومعترفاً به من النقاد .

* * *

غير أن رينوار لم يلبث أن انقلب على التعبيريين . ففيما بين عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ قام الفنان بعدة رحلات الى الجزائر وايطاليا واقليم بروفانس الفرنسي كان لها تأثير كبير على فنه وحياته . فقد اقتنع بأن الاقتصار على استخدام التكنيك التعبيرى لم يعد كافياً بالنسبة له ، فإن الضربات الصغيرة بالفرشاة مع الألوان المتناقضة جنباً إلى جنب لا تساعده على ابراز جمال البشرة ونعومتها . كما اكتشف أيضاً ان اللون الأسود لا يستحق هذا الازدراء الذى ينظر به إليه زملاؤه التعبيريون ، ففي بعض الأحيان يكون له تأثير قوى ويبرز جمال الألوان الأخرى . وأثناء رحلته في ايطاليا اكتشف رينوار فن رفائيل والكلاسيكيين العظام ، وما فيه من جمال الرسم ونقاء اللون ووضوح الخط مما يبرز جمال الجسم البشرى . وفي نفس الوقت أخذ يقرأ للنقاد الفنيين القدامى من عصر النهضة من أمثال شنتينتو شينيني ووجد نفسه يتجاوب مع أفكارهم ، وكان لكل ذلك تأثير قوى عليه بلغ حد الأزمة النفسية . وأحس أنه حتى الآن يسير في الطريق الخطأ ، وعليه أن ينفصل عن التأثيريين الذين أصبحوا في نظره محل شك كبير .

وكل الأعمال التي نفذها رينوار بين عامي ١٨٨٣ ـ ٨٤ أصبحت تتميز بأسلوب جديد أطلق عليه نقاد الفن عنوان « فترة انجرز » لبيان تشابهها مع أسلوب انجرز الذى سبق أن درسه رينوار في ستوديو شارل جلير وثار عليه : فها هو يعود الآن مرة أخرى الى الكلاسيكية الجديدة ، ولكن تجربته مع التعبيرية لم تذهب سدى ، اذ ظل محتفظاً بالألوان الكثيرة الزاهية .

واستمر رفضه القوى للتأثيرية حتى حوالى عام ١٨٩٠ وخلال هذه السنوات قام بعدة زيارات الى جنوب فرنسا حيث اعطته طبيعة هذه المنطقة ذات الشمس المشرقة تشجيعاً أكبر للانفصال عن التأثيريين الذين ارتبطوا فى وجهة نظره باجواء الضباب والبرودة . لقد أعطته منطقة جنوب فرنسا مناظر تتفجر بالألوان والمشاعر ، وفى نفس الوقت جعلته يبتعد عن الوقوع فى براثن القواعد المتزمتة للكلاسيكية . وأثناء وجوده فى جنوب فرنسا رسم صبايا بائعات كباقات الزهور جامعاً بذلك كل خبراته وتجاربه الفنية معاً ابتداء من رسم الزهور على الأطباق ومروراً بالتعبيرية والكلاسيكية الجديدة مع الثورة على كل ذلك فى نفس الوقت .. لقد اكتشف نفسه .. أصبح رينوار .

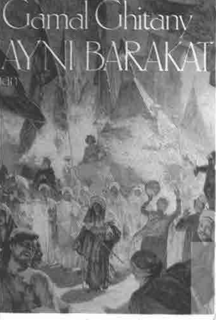
وتحسن مركزه المالى تحسناً كبيراً ، وتزوج فى عام ١٨٩٠ من اليس شاريجو ، وأقام معرضا فنيا فى عام ١٨٩٢ نجح نجاحاً ساحقاً . لقد ضمن الآن مستقبله ، وتعكس أعماله فى تلك الفترة احساسه بالأمن والتفاؤل والثقة فى المستقبل .

* * *

بعد ذلك بعامين أصيب رينوار بأول نوبة روماتيزم ، وتكررت عليه نوبات المرض ، وأصبح يقضى مزيداً من الوقت فى جنوب فرنسا حيث يلائم الجو صحته ثم قرر فى عام ١٨٩٩ ان يستقر نهائياً فى قرية « كان » الصغيرة واشترى مزرعة أسرة « كوليت » حيث أمضى بقية حياته . وفى عام ١٩١٠ لم يعد قادراً على المشى وأخذت صحته تتدهور ، ولكنه لم يتوقف عن الرسم ، وعندما تيبست أصابعه ولم يعد قادراً على الامساك بالفرشاة . كان يربط الفرشاة فى يده . ويرسم !

وبالرغم من مأساته الصحية استمرت رسومه تعكس موقف المرح المتفائل ازاء الحياة ، ولكنه لم يعد راضياً عن اختيار موضوعاته من الباريسيات البرجوازيات اللاتى لا تفارقهن الابتسامة ، واقتصر فى سنواته الأخيرة على رسم زوجته وابنائه وخادمته جابرييلا وأزهار وثمار حديقته . وفى عام ١٩١٥ توفيت زوجته بعد أن عادت من « جيرارد مير » حيث ذهبت لرؤية ابنهما جان الذى أصيب بجراح خطيرة فى الحرب . وعاش رينوار بعدها أربع سنوات أخرى حتى مات فى « كان » يوم ٣ ديسمبر ١٩١٩ ، وله من العمر ٧٨ عاماً . ولكن قبل وفاته بعدة أشهر ، فى أغسطس ومن نفس العام ، استطاع الذهاب الى باريس لحضور الاحتفال بإحدى لوحاته الشهيرة التى اشترتها الدولة . وفى هذه المناسبة أخذه بعض الأصدقاء على كرسى متحرك وتجولوا به لآخر مرة فى أروقة اللوفر حيث القى نظرة أخيرة على الروائع التى ألهمته وظل مولعا بها طيلة حياته .

ترجمة فرنسية لرواية "الزيني بركات"





المؤلف : جمال الغيطانى .. وغلاف روايته « الزينى بركات » بعد أن ترجمت إلى الفرنسية فى باريس

صدرت فى باريس مؤخراً رواية (الزينى بركات) للكاتب المصرى جمال الغيطانى . الرواية صدرت عن دار « لوسوى » احدى دور النشر الكبرى فى فرنسا ، وتعتبر أول رواية عربية تنشرها « لوسوى » التى قدمت من قبل أعمالا لكبار الأدباء غير الفرنسيين من أمثال جارثيا ماركيز وسولجنستين وجونتر جراس والايطالى ايتالو كالفينو .

بدأت ترجمة الرواية منذ عام ١٩٨٠ عندما قدم الدكتور جمال الدين بن شيخ أستاذ الأدب العربى بجامعة السوربون مشروعا بترجمتها الى « لوسوى » ، وجرت مفاوضات بينه وبين الدار استغرقت ستة شهور تم فى نهايتها الاتفاق على ترجمة الرواية . واختار الدكتور جمال الدين ابن شيخ أحد تلامذته الفرنسيين لترجمتها ، وأنجز جان فرانسوا فوركاد ترجمة « الزينى بركات » فى أربع سنوات وذلك نظراً لصعوبة النص الذى استخدم فيه المؤلف تعبيرات قديمة ترجع الى العصر العثمانى .

الرواية صدرت فى يناير الماضى ، ومنذ صدورها لم تنقطع أجهزة الاعلام الفرنسية وكذلك الأوساط الأدبية الفرنسية عن الترحيب بها . وقد زار المؤلف باريس بمناسبة صدور الرواية وأجرى عدداً من اللقاءات الصحفية مع الصحف والمجلات الفرنسية ، كما ألقى محاضرة فى جامعة السوربون (ايكول سوبيريير نورمال) على طلبة شهادة الاجرجاسيون والدكتوراه الذين يدرسون العربية .

تدور أحداث الرواية فى القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) . بالتحديد فى السنوات العشر التى سبقت الغزو العثمانى لمصر . وتبدأ أحداث الرواية بعزل على بن أبى الجود متولى حسبة القاهرة بعد تزايد ظلمه فى الخلق . ثم يلى ذلك قرار بتعيين الزينى بركات بن موسى متوليا للحسبة ، ويفاجأ الناس بأن الزينى بركات يرفض المنصب الجديد الذى يجعله متحكماً فى رقاب العباد والبلاد ، ويبكى بين يدى السلطان لأنه يخشى أن يظلم أحداً من الخلق .

ويأتى هذا الموقف مفاجأة حادة لزكريا بن راضى كبير البصاصين فى السلطنة خاصة وأن التقارير المتوفرة لديه تؤكد أن الزينى بركات دفع برطيلا كبيراً للسلطان لكى يعينه فى هذا المنصب ، ويدرك كبير البصاصين انه أمام داهية جبار لم يتعامل مع مثله من قبل .

يتمسك الناس بالزينى بركات . فلأول مرة يرون من يرفض منصباً . ويلجأون الى الشيخ أبو السعود الجارحى ضمير العصر ليضغط على الزينى كى يقبل المنصب . ويقوم سعيد الجهينى الطالب الأزهرى المثالى وتلميذ الشيخ أبو السعود بالتوسط

حتى يقبل الزينى بركات .

وتحت ضغط الشيخ أبو السعود والحاج الناس يقبل الزينى بركات تولى حسبة القاهرة ، ويرتعد زكريا بن راضى خوفاً من الرجل الجديد الذى يختلف عن كل من عرفهم ، خاصة عندما يعلن الزينى بركات ان مصالح الناس قد تهددت بالتجسس . وأنه سوف ينشيء جهازاً يتبعه خاصاً بالبصاصين ليقيم العدالة بين الناس . ويبدأ صراع مرير بين الزينى بركات وزكريا بن راضى .

وشيئاً فشيئاً يتكشف أن الزينى بركات ما هو إلا داهية جبار يبغى تكريس كل الأوضاع القائمة واستغلالها لصالحه ولكن من خلال عملية خداع واسعة وذكية جداً ، بحيث يبدو الظلم عدلا ، والفساد صلاحاً ، ويستخدم كافة الأساليب حتى أن عدوه اللدود زكريا بن راضى يضطر الى الاعجاب به فى بعض المواقف .

ولم يلبث أن يتضخم نفوذ الزينى بركات ويتدخل لتطوير عمل البصاصين ، ومن ذلك انه يعقد مؤتمراً سرياً لكبار البصاصين فى العالم حتى يمكنه أن يتجسس عليهم وهم فى دياره ويستفيد من أساليبهم وحيلهم الجهنمية .

وشيئاً فشيئاً تتوحد مصالح زكريا والزينى حتى أن الشيخ أبو السعود عندما يأمر بالقبض على الزينى بركات بعد أن اكتشف حقيقته يكون الساعى الأول لانقاذه هو زكريا بن راضى .

فى نفس الوقت يتم تدمير سعيد الجهينى بوسائل جهنمية شتى بحيث يتحول الشاب المثالى الحالم بعالم أفضل الى بصاص تابع لزكريا .

يصبح الزينى بركات هو الرجل الأول فى السلطنة المملوكية ، ويقع الغزو العثمانى لمصر ، وتزول السلطنة المملوكية ، وتتحول مصر الى مجرد ولاية تابعة للآستانة ، والعجيب ان الزينى بركات يستمر فى نفس مناصبه وكأن شيئاً لم يتغير ، يستمر ولكن فى عالم خرب مدمر ، فبعد أن تم تدمير الانسان وحريته دمرت حرية الوطن ، وفقد استقلاله .

استخدم المؤلف فى النص العربى لغة تراثية مستوحاة من كتابات المؤرخين فى القرون الوسطى ، كما استوحى من حوليات التاريخ تكنيكاً جديداً على الرواية العربية حيث استبدل بالفصول السرادقات والتقارير البوليسية . ولكن المؤلف اخترع أساليب بوليسية لم تكن مستخدمة فى القرون الوسطى بل إن بعضها مستوحى من المستقبل ، وهذا يجعل الرواية خارج اطار التاريخ بالرغم من ثوبها التاريخى ، ويجعلها صرخة ضد القهر الانسانى فى كل زمان ومكان .



كاتبة أمريكية تفتخر بأصلها الهندي

الكاتبة الأمريكية « ايجناسيا بروكر » التى تحاول أن تصحح بعض المفاهيم الخاطئة عن الهنود الحمر

ايجناسيا بروكر كاتبة أمريكية من أصل هندى أحمر تحاول أن تشعل نار الكبرياء فى نفوس بنى جلدتها . انها فخورة بكونها هندية وارثة للتراث الحضارى العظيم لشعوب الانكا والمايا والازتك ورسالتها الى شباب الهنود الحمر الذين تحاضرهم باستمرار فى مدارس مينا بوليس : افخروا بكونكم هنوداً .. ان العالم المتحضر يعكف الآن على دراسة تاريخنا وحضارتنا وفنوننا ويرى أننا استطعنا أن ننجز أشياء كثيرة وان طرقنا كانت صحيحة .

وأهم قيمة هندية تصر على أن تبثها بين الشباب هى « الاحترام » : تمسكوا بأن تحترموا كل شيء .. احترموا الغابة ، والأرض ، والنباتات ، والحياة الحيوانية ، واحترموا آباءكم وكل انسان .

وايجناسيا بروكر مدرسة ، ومؤلفة ، وعاملة محترفة فى ميدان الحقوق الانسانية والمدنية . وقد حصلت فى شهر فبراير الماضى على جائزة تقديرية من الاتحاد النسائى فى نيويورك لنشاطها الجم فى ميدان الخدمة العامة .

وهى أرشيف حى للحكايات والأساطير التى ترامت إليها من ماضيها القبلى السحيق . وتذكر انها عندما كانت طفلة فى قبيلة « أوجيبواى » التى تحيا فى معزل « الأرض البيضاء » بولاية مينيسوتا أثناء العشرينات كانت شغوفة بالاستماع الى الحكايات والأساطير التى تقصها أمها وجدتها وعجائز المنزل . وعندما كبرت واصلت طيلة حياتها هواية جمع القصاصات من الصحف والمجلات عن الهنود الحمر وتسجيل كل ما تحصل عليه من معلومات وملاحقات ، انتظاراً لليوم الذى تجلس فيه وتضع كتاباً عن تراث شعبها » . وهو هدف كان يثير سخرية من حولها . ولكنها عاشت كي تحول هذا الحلم إلى حقيقة ، فأصدرت فى عام ١٩٨٣ رواية طويلة بعنوان « المرأة التى تطير فى الليل » وهى قصة حياة جدتها منذ مولدها فى منتصف القرن التاسع عشر حتى وفاتها فى أوائل الثلاثينيات . وقد أدركتها ايجناسيا وهى طفلة وصبية صغيرة .

والرواية تدور بأسلوب « حكايات جدتى » أى الحكاية التى تقصها الجدة على أحفادها الصغار وهى تصف آلام عصر الانتقال الذى عاناه الهنود الحمر عندما ارغموا على تغيير حياتهم التقليدية فى الغابة كي يأخذوا « بالأساليب الجديدة » للرجل الأبيض ، وما صحب ذلك من انتزاع عنيف للجذور وصدمات وخيبات أمل دون أن يفقد هذا الشعب تفاؤله وشعوره بقوة واستمرارية تقاليده ومثله العليا .

وتعكف ايجناسيا بروكر فى الوقت الحاضر على كتابة عمل جديد يصور فترة الانتقال الثانية من المعازل الى الحياة فى مدن القرن العشرين ، وهى الفترة التى شهدتها هى نفسها ، وتأمل أن تساعد بهذا العمل القراء الهنود والبيض على السواء على تصحيح بعض المقولات الخاطئة المؤسسة على سوء الفهم أو تشويه المعلومات حيث أن البيض ، كما تقول ايجناسيا ، مازالوا متمسكين بكثير من الخرافات عن الهنود الحمر .

« الفجر الغربي » أفضل كتاب عن الأدب الياباني

هذا الرجل يستحق أن يكون نموذجاً للصبر في ميدان الدراسات الأدبية . لقد أمضى ٤٣ عاماً في دراسة الأدب الياباني قبل أن يصدر كتابه الكبير « الفجر الغربي » الذي عده الملحق الأدبي لصحيفة نيويورك تايمز واحداً من أحسن ١٥ كتاباً صدر في العالم خلال عام ١٩٨٤ .

انه الناقد والباحث الأمريكي دونالد كين الذي استطاع بكتابه « الفجر الغربي » (٢٠٠٠ صفحة في جزءين) أن يقدم أفضل وأكمل دراسة للأدب الياباني في أية لغة بما في ذلك اللغة اليابانية نفسها .

واللغة اليابانية من أكثر لغات العالم صعوبة ، ومن النادر أن يجيدها غير ياباني قراءة وكتابة ونطقاً . ولكن صعوبتها ذابت أمام اصرار رونالد كين الذي درسها بهواية وشغف .

ولد دونالد كين في نيويورك ويبلغ الآن الثانية والستين من العمر ، ويعمل استاذاً للأدب الياباني في جامعة كولومبيا الأمريكية ، وقد كرس حياته لدراسة الثقافة اليابانية : إذ بدأ في دراسة اللغة اليابانية في صيف ١٩٤١ ، بعد حادثة بيرل هاربر الشهيرة ، بدافع من الفضول وحب الاستطلاع ، وكان ذلك مع صديقين آخرين وتحت اشراف معلم ياباني في جبال نورث كارولينا . وبعد أن أنهى دراسته الجامعية في عام ١٩٤٢ التحق بالبحرية الأمريكية حيث أمضى ١١ شهراً في دراسة مكثفة للغة اليابانية في مدرسة اللغات الأجنبية التابعة للأسطول ، ثم أرسل الى بيرل هاربر عام ١٩٤٣ ليتولى ترجمة الوثائق اليابانية التي يستولى عليها الجيش الأمريكي واستجواب الأسرى اليابانيين » .

وبعد الحرب عكف كين على اصدار بعض ترجمات للأدب الياباني للقراء الغربيين » .

يقول دونالد كين في حديث أدلى به الى صحيفة « هيرالد تريبيون » (١٥ فبراير ١٩٨٥) ان الناس يسألونني دائماً : ماذا بربك جعلك تهتم بهذا الشيء ؟! لماذا لم تكرس نفسك لعمل من الأعمال التي يقوم بها الرجال ؟ ثم يضحك ويضيف : ولكن على أية حال أصبحت الآن حياة الباحث في الثقافة اليابانية أسهل مما كانت عليه منذ ٢٠ عاماً ربما بفضل المعجزة الاقتصادية اليابانية .



الناقد والباحث الأمريكي دونالد كين

ويتحدث كين عن احترافه للأدب الياباني فيقول : عندما تخرجت في جامعة كولومبيا التقطت بالصدفة كتاباً يابانياً لأجرب نفسي في قراءته ، كان كتاباً للفيلسوف الياباني هيراتا أتسوتاني الذي عاش في القرن الماضي ، ولحسن حظي كان سهلا جداً ووجدت متعة في قراءته . لو كان قد وقع في يدي كتاب آخر صعب لربما لم اكن قد واصلت اهتمامي بالثقافة اليابانية .

وواصل كين دراساته العليا في اللغة اليابانية حتى حصل على الدكتوراة من جامعة كولومبيا عام ١٩٤٨ وعين مساعد محاضر للغة اليابانية بجامعة كامبردج ، بانجلترا ، حيث بقى هناك خمس سنوات ، ثم سافر إلى اليابان ودرس في جامعة كيوتو لمدة عامين (١٩٥٣ ـ ١٩٥٥) وعاد بعد ذلك الى كولومبيا حيث يقوم بالتدريس خلال فصل الربيع بين شهرى يناير ويونيو من كل عام ، أما بقية العام فيقضيه في شقته بطوكيو المطلة على حدائق « فوروكاوا » الشهيرة .

وفي عام ١٩٦٩ تفرغ كين لوضع كتابه الموسوعي عن تاريخ الأدب الياباني « الفجر الغربي » وقد صدر منه جزءان حتى الآن يتناولان القرن الأخير من الأدب الياباني ، ويقول كين في مقدمته « ان ما كتبه في الأدب الياباني منذ عام ١٨٦٨ حتى الآن يتجاوز في كميته كل ما عاش من الأدب الياباني خلال الألف سنة السابقة على ذلك التاريخ ، وليس هناك من يستطيع قراءة كل هذا الأدب أو حتى يرغب في ذلك » .

ويضيف كين : قبل منتصف القرن التاسع عشر كان الأدب الياباني في حالة كئيبة ، ولكن فيما بعد نفذت المؤثرات الأدبية الأوربية مثل المدرسة الطبيعية والنزعة الرومانسية الى الكتاب اليابانيين وأثرت فيهم بشدة الى درجة أن هذه الحركات استوعبت تماماً خلال جيل واحد .

وما أن حل العقد الثاني من القرن العشرين حتى كان الكتاب اليابانيون قد تجاوزوا الواقعية الأوربية للقرن التاسع عشر ، وأصبحوا في مقدمة المجددين الأدبيين في العالم .

ومن هنا جاء اسم الكتاب « الفجر الغربي » أو « الفجر يطلع من الغرب » ليحكي في جزئيه قصة هذا التحول الكبير في الأدب الياباني بعد انفتاحه على الغرب . وهذان الجزءان هما في الواقع الجزءان الثالث والرابع من الدراسة المطولة التي يعكف عليها كين ، أما الجزء الثاني فقد صدر في عام ١٩٧٦ ويغطى الأدب الياباني قبل العصر الحديث من عام ١٦٠٠ الى عام ١٨٦٧ ، ويعمل كين حالياً في كتابة الجزء الأول الذي يغطى الفترة من القرن الثامن الميلادى الى عام ١٦٠٠ ، ويتوقع أن يستغرق تأليفه إذا امتد به الأجل خمس سنوات .

وحصل كين على عدة جوائز عن هذا الكتاب من جهات يابانية عديدة ، فقد حصل على وشاح الشمس المشرقة من الطبقة الثالثة ، وجائزة ياماجاتا بانتو التي يقدمها حاكم أوزاكا ، وجائزة من المؤسسة اليابانية بطوكيو . ولكن ربما يكون أكبر اعتراف بقيمة عمله أن بدأت ترجمته الى اللغة اليابانية حيث لا يوجد له نظير في تاريخ الأدب الياباني . وهذا يذكرنا كذلك بفضل بعض المستشرقين الغربيين على الأدب العربي .

محمد العزب موسى

فنان عربي مسرحه الدنيا

عبد القادر فراح يروي رحلته الفنية

بقلم: الفريد فرج



بيئة الفنان .. الجزائر حول بداية القرن العشرين .. جمال الملابس القديمة



مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير (تصميمات فراح)

يستقبلني عبد القادر فراح فى بيته بشمال لندن .. بغرفة العمل أو الاستديو.

حوائط الغرفة مغطاة بأرفف تحمل آلاف الكتب ، وتزاحم الكتب عشرات الأقنعة المسرحية والأقنعة الفولكلورية الأفريقية .

ـ يجب أن يقرأ الفنان كثيراً .. ثم يجب عليه بعد ذلك أن ينسى ما قرأه ، وأن يحرر مخيلته مما هو تقليدى ..

ويعد فراح لى القهوة بالطريقة الجزائرية ، ويزيح أوراقاً متراكمة على المنضدة الصغيرة أمامى ليفسح مكاناً لكاسات القهوة ، ويرحب بى بطريقة الجزائريين الودودة المتحفظة ..

ـ من أنت ؟

فيضحك من مفارقة تخيلها ويقول :

ـ يسألنى الأوروبيون هذا السؤال بمعنى : « كيف يمكن لعربى أن يكون فناناً فى بلادنا » ؟ .. وهم من أدبهم لا يفصحون عما بنفوسهم من عجب . ولكنك أنت قد تعرف من أنا بلا عجب .. اننى واحد من هؤلاء الشباب المحبين للفن والذين قد تكون صادفتهم فى القاهرة أو الجزائر أو بغداد أو دمشق فى الأربعينات أو الخمسينات متمردين على الوضع الثقافى والسياسى الذى كرسه الاستعمار فى بلادنا .

أنا أحد هؤلاء الشباب .. ولعلك تعرفنى وتعرف الظروف التى نشأت فيها .

ولدت فى قرية قصر البخارى بالجزائر عام ١٩٢٦ .. إبان الحكم الاستعمارى الفرنسى ، ولم يكن أى جزائرى فى ذلك الوقت يملك الوسيلة ليتلقى العلم كما يريد . وكانت سياسة فرنسا ساعية الى محاربة وتدمير التقاليد الاسلامية أو العربية الثقافية .. والى تجريد الشخصية الجزائرية من مقوماتها الوطنية ، مما أدى إلى اشتعال حرب التحرير .

لم يكن فى نواحينا مدارس عربية .. اللهم الا مدرسة أطفال لتحفيظ القرآن .. ينتقل الطفل بعدها الى المدرسة الفرنسية .

وعندما نزلت جيوش الحلفاء الى الجزائر عام ١٩٤٢ .. أغلقت المدارس وتحولت الى ثكنات عسكرية ، وهام التلاميذ على وجوههم .

فى هذه الفترة من صباى اشتريت بعض الأدوات وقررت دراسة الرسم ..

وبانتهاء الحرب خيرنى أبى بين السفر الى القاهرة لدراسة اللغة العربية أو السفر الى أوروبا لدراسة « هوايتى الفنية التافهة » ..

عبد القادر فراح فنان عربى جزائرى يعتبر واحداً من أكبر المصممين المسرحيين للديكور والملابس المسرحية فى أوروبا .

وقد نال من الشهرة والنجاح مالم يكن يخطر له على بال وهو يتعلم الرسم فى صباه بالجزائر .

وحصل على جوائز أحسن تصميم مسرحى على التوالى فى سنوات ١٩٥٩ ـ ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ ـ ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ ـ ١٩٧٩ ـ ١٩٨٢ .. فى فرنسا وانجلترا والنمسا .

ورفض قبول جائزة وزارة الثقافة الفرنسية عام ١٩٥٩ احتجاجاً على الحرب الاستعمارية الفرنسية فى الجزائر ..

وقد صمم الديكور والملابس لعشرات المسرحيات فى أشهر الفرق المسرحية فى العالم من بينها المسرح القومى الفرنسى بستراسبورج وفرقة شكسبير الملكية والمسرح القومى للمكسيك وبورجتياتر بفيينا ..

وأحدث فراح من الأساليب المجددة فى التصميم ما أثر عنه واتبع من بعده فى مختلف المسارح مما نوهت إليه بالعدد الماضى .

هذا هو حجم العمل ونوعيته .. فمن هو الرجل ؟

عبد القادر فراح يروي رحلته الفنية

ولكن أبى مات عام ١٩٤٦ ولم يترك للاولاد الا القليل من المال مما لا يكفى للدراسة بأوروبا ..

وقد وقعت حادثة بينى وبين أمين متحف الفن الحديث بالجزائر آلمتني بعمق . كان ذلك الأمين أستاذاً فرنسياً متخصصاً فى تاريخ الفن الايطالى . وكان بعض الزوار الدنماركيين قد اشتروا بعض لوحات لى من معرض أقمته على نفقتى وأنا لم ابلغ سن العشرين بعد ، واطلعوا أمين المتحف على اللوحات التى اشتروها واستطلعوا رأيه فيها .. فقال لهم : لماذا تشترون من فنان عربى ؟ يجب ألا تشجعوا فناناً عربياً ، لأن العرب كسالى ومواهبهم كالصواريخ تضيء لحظة ثم تنطفىء بسرعة .

وكنت احترم هذا الرجل جداً وأقرأ دراساته باعجاب ، فتأثرت مما قال ، وقررت فى أعماقى أن أثبت له خطأه فعزمت على السفر الى باريس لدراسة الفن .

تربيتى

تسألنى عن تربيتى فى بلادى قبل السفر الى باريس .

قصر البخارى قرية جزائرية صغيرة تقع بين البحر والصحراء فى الهضبة الجزائرية . وهى ترتفع فوق الجبل وتشرف على جرف .

جدى انشأ بها زاوية يعلم بها الأطفال .

والفرنسيون أقاموا بها مركزاً لتجنيد وتدريب « البصاصين » وعملاء الإفساد .. فى بيئة كانت فى الأصل بيئة للاسلام السمح .

وبلى القرية واد يجرى فيه نهر صغير أقام عليه الفرنسيون مستوطنة أوروبية انتهكت جمال الطبيعة وسياق الأفق .

وكان الجبل القريب من قريتنا يسمى جبل « بورار » .. وقد كان مرمح الأمير عبدالقادر وفرسانه فى القرن التاسع عشر .

المنطقة تحيط بها الغابات .. وكانت أمى تحكي لى القصص عن « روبين هود » جزائرى اسمه « بن سهل » روض الأسد ويسرق الأغنياء ليعطى للفقراء .

إننى انتمى الى جيل لم يدرك هويته مبكراً فى الطفولة .. وكانوا فى المدرسة الفرنسية يلقنوننا ونحن أطفال أن « أسلافنا الغاليين شقر الشعور زرق العيون ولحاهم طويلة ويعيشون من الصيد وقراهم تقام على أعمدة فى الماء » ! .. ولم يكن من بيننا أحد أزرق العينين ولم يكن حولنا ماء أو بيوت مقامة على أعمدة !

الجيل الذى جاء بعدنا من الأطفال الجزائريين تلاميذ المدارس الفرنسية صحح الدرس ، فكانوا اذا وجه اليهم المدرس السؤال أجابوا : « أسلافهم غاليون شقر .. الخ » .

كان الفرنسيون مدققين جداً فى عدم تعليم الجزائريين . وكنا ننتزع المعرفة بصعوبة ولا حيلة لنا الا بذلك . وكانت تسيطر علينا فى المدرسة الفرنسية روح المنافسة للتلاميذ الفرنسيين ، وكنا نريد دائماً أن نثبت تكافؤنا معهم أو امتيازنا عليهم .. وكنا ندرك فى ذلك السن المبكر أن شيئاً ما غير مستقيم فى حياتنا .

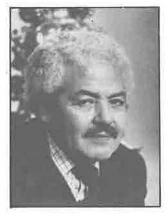
كان لى أخوة كثيرون .. خمس بنات وخمسة أولاد ، وكنا فى قلق كأننا نبحث عن مهرب . كان المذياع مهربنا ونافذتنا على العالم البعيد . والقاهرة كانت هى الثمرة المحرمة علينا .. ومنذ استطعنا التقاط اذاعة القاهرة بأجهزة الراديو .. كانت تلك الاذاعة توقظ وعينا وتملأنا بالشعور بالعزة بأننا عرب ، حتى وان كان الفرنسيون يحكموننا .

وكان العمل السياسى السرى قد بدأ .. قبل سنوات من اشتعال حرب التحرير ، وقد بدأ كل شخص فى هذا الجو يحدد اختياره ويستطلع نفسه ويقرر اتجاهه ، وكنا متحمسين لاقتناص الأنباء والمعلومات من الخارج .

كانت بعض الأفلام المصرية تصل الى دور السينما بالجزائر من وقت الى آخر . وان كنا قد نحكم على بعضها الآن بأنها كانت أفلاما رديئة .. فانك لا تتصور حماسنا لها فى ذلك الوقت من الأربعينات . فقد كانت بالنسبة لنا ذريعة للدفاع عن الهوية . وكانت بشرى للاستقلال والقدرة على التعبير عن النفس باللغة القومية .

هذه تجربة شخصية .

وأنا لا أنسى أبداً تجربتى ، فهى النبع الكبير لأفكارى الآن ..



الفنان العربى عبد القادر فراح

الف ليلة وليلة ..

وتجربتى ترجع الى زمن مبكر عن هذه السنوات أيضاً . وتربيتى بدأت فى البيت .. ومع الف ليلة وليلة والأدب العربى ..

ففى طفولتى المبكرة ، وبعد أن كنا نأوى الى غرفة الأولاد ، وأبى وأمى يظنان أن الأطفال قد غرقوا فى النوم .. كنا نلتف حول بعضنا ونحن فى غاية اليقظة . واختى الكبرى حليمة تحكي لنا الف ليلة وليلة .. ليلة بعد ليلة ، بأجزائها الأربعة واشعارها المثيرة .. وكانت تنتقل بنا بعد شهور مع الف ليلة .. الى ابى زيد الهلالى تروى لنا قصته ليلة إثر ليلة ، وتنشد الأشعار .. ونحن مسحورون ..

وقد قرأت لنا حليمة أيضاً اشعار الجاهليين من الكتب ، وانشدت لنا بعضها من الذاكرة ..

كنا ونحن اخوتها نعاملها كملكة فى النهار .

وكانت حليمة قوية الحافظة ، نهمة للقراءة ، وكانت تملك فيضاً لا ينتهى من كتب اجدادى المطبوعة والمخطوطة ، والتى كانت قد آلت الى أبى ويحفظها بعناية فى مكتبة كبيرة .

أمى أيضاً كانت تقرأ . فأثناء النهار كنا نقعد حولها ومعنا حليمة ونصغى لها وهى تقرأ لنا .

كان أبى فقيها يحتكم إليه الناس فى القرية .. كان قاضياً ليست له صفة رسمية ، يتقدم إليه الناس بقضاياهم ويرضون بأحكامه طواعية ، وينفذونها بلا سلطة تلزمهم بذلك . والفرنسيون لم يعجبهم ذلك فانذروا أبى عدة مرات بعدم الفصل فى قضايا الناس .

كان أبى يقرأ كتب الفقه والأدب العربى القديم . وكانت أمى تحب قراءة الأدب والقصص ، بينما كانت حليمة تهوى الحكايات الخيالية . أما نحن الأطفال بين سن الخامسة والعاشرة فقد كنا نهوى الحديث عما سمعناه من حكايات ، واعادة تمثيلها فى الخلاء .. ونتخيل الجن والأشباح ونخاطبها ونتخيل اننا قاعدون فى القصور أو نمتطى الجياد الى ميدان القتال .

الماضى والحاضر

يحدث الآن وانا مستغرق فى عملى أن أتذكر شيئاً مما حفظته الذاكرة منذ أيام الطفولة . فيشحذ مخيلتى ويهدينى لحل مشكلة فى التصميم الذى أنا عاكف عليه .

أعتقد أن المرء فى الشباب وفى الصبا لا يدرك ما فى محيطه من عناصر ايجابية ، وربما ضاق الشاب بحياته بحيث يريد الفرار .. وهو لا يدرك قيمة الأشياء التى تحيط به الا بعد تخلصه منها وتحولها عنده الى مجرد ذكريات . اننى ادرك الآن أن أشياء كنت أرفضها فى صباى وشبابى لأنها غير عصرية أو لا تمت للحضارة والتقدم والثقافة العالية ـ هذه الأشياء ـ قد أعطتنى فى الواقع الكثير مما أملكه من قدرات .



فراج مع تلاميذه فى المركز القومى للمسرح بتراسبورج بفرنسا .. تصميم الأقنعة

وبعد إقامتى وعملى بأوروبا كل هذه السنين أشعر فجأة بالحاح المقارنة بين الجديد والقديم ، وأكتشف أن آرائى فى الشباب كانت أحياناً متحيزة ومبتسرة ، وازداد مع الأيام تسامحاً ووعياً بالجوانب الطيبة التى كان يتميز بها الناس فى الشرق من حولنا فى الماضى .

لقد عرفت فى الجزائر أثناء طفولتى بستانياً عجوزاً قبيح الهيئة ، وكان قد عثر فى احدى الواحات الجنوبية على مخطوط أندلسى مهلهل موضوعه زراعة الزهور . وكان يعتز بهذا المخطوط ولا يطلع عليه أحداً . وكنا نسخر منه لذلك ونسخر من هوايته زراعة الزهور . واذكر أن جماعة من الهولنديين مروا ذات مرة بقريتنا واجتذبهم منظر زهوره فأخذوا يفحصونها باهتمام ودهشة ، وتحدثوا إليه طويلا عن طريقته فى زراعتها . ولكن حتى ذلك لم يجعلنا نكف عن السخرية منه ومن زهوره !

دائر أبراج الفلك

سافرت الى باريس لأتعلم الرسم .

كان أبى قد مات ولم يترك لنا غير مال قليل ..

اضطررت فى باريس أن أقوم بأكثر الأعمال مشقة بالأجر الزهيد لأقيم أودى وأتمكن من التجول بين المتاحف والمعارض وأواصل الرسم فى غرفتى الصغيرة .

وبعد سنة من العناء والمشقة كلفتنى احدى المدارس فى بلدة فونتنبلو برسم السقف لقاعة الاحتفالات بالمدرسة .

وقد تركت لى المدرسة حرية اختيار الموضوع ، فاخترت أن ارسم دائر أبراج الفلك .. وهو موضوع من مواضيع الرسم للعصور الوسطى .

قضيت عامين فى انجاز هذه اللوحة الكبيرة ، وكنت أرقد على السقالات بظهرى وأرسم رافعاً ذراعى لفوق .

وقد زينت اللوحة بزخارف اسلامية الطابع ، وإن كنت حررت التصميم من تقاليد العصور الوسطى وطبعتها بأسلوبى .

وقد اثارت هذه اللوحة ، واثارت طريقة عملى بها فضول الناس ، فكان الزوار يفدون الى المدرسة للفرجة على أثناء العمل . وقد هيأ لى ذلك فرصة التعرف على الكثيرين من محبى الفنون أو الفنانين ، وكان من بين زوارى بالمدرسة بعض الفنانين من رجال المسرح الذين دعونى للعمل بالمسرح .

فى ذلك الوقت لم أكن قد شاهدت الا القليل من المسرحيات أو أفلام السينما .. ولم أكن أعرف عن هذا الفن الا أقل القليل .

حياتى فى المسرح

وأول من اجتذبنى للعمل فى المسرح مخرج هولندى كلفنى بعمل تصميمات الديكور والملابس عام ١٩٥٢ لأوبرا « شمشون ودليلة » بمسرح أوبرا أمستردام .

ولم أكن على معرفة حقيقية لتقنيات المسرح .

وقد ساعدنى العمال والفنيون كثيراً على فهم أسرار الصنعة وكيفية هدم المعبد وسقوط اجزائه على المنصة . فضلا عن تقنية تغيير المنظر .

وصرح لى المخرج فيما بعد أنه اختارنى لأنه كان يبحث عن فنان للتصميم يملك الخبرة بالصحراء وحياة البدو والتقاليد الشرقية ، وله أسلوب جديد غير مألوف فى أوروبا .

وصممت لهذه الأوبرا أربعة مناظر وحوالى ٣٠٠ قطعة ملابس .

ومنذ ذلك التاريخ وجدت نفسى أكثر انغماساً فى العمل بالمسرح وأقل انتاجاً فى مجال الرسم ..

فى الواقع لم تنقطع صلتى بالمسرح منذ ذلك الحين . فقد نجحت فى تصميم المسرحية وتلقيت بعدها كثيراً من العروض .

فى سنوات ١٩٥٥ الى ١٩٦١ عينت أستاذاً ورئيساً لقسم التصميم بالمركز القومى الفرنسى للمسرح بستراسبورج . وكنت انتقل كثيراً بين فرنسا وانجلترا وأقوم أحياناً بالتصميم لفرقة شكسبير الملكية .

ولكن السفر من فرنسا واليها أصبح أكثر صعوبة مع احتدام الحرب الجزائرية ، وكان لكل جزائرى فى فرنسا نشاط وطنى طبعاً ، والشرطة تلاحق الجزائريين ، وعانيت الضيق والمضايقات من تعنت الشرطة الفرنسية .

فى تلك الظروف دعانى الفنان الانجليزى بيتر هول للالتحاق بفرقة شكسبير الملكية ومغادرة فرنسا نهائياً . وكنت وقتها أصمم الملابس والديكور لمسرحية تشيكوف « بستان الكرز » للفرقة .. فقبلت العرض وانتقلت الى انجلترا .

صممت للمسرح فى بلاد كثيرة ، واشتغلت أستاذاً للتصميمات المسرحية بكندا وفرنسا بعد ذلك ، ولكنى لم أترك فرقة شكسبير أبداً .

إننى أفيق الآن فأجد نفسى قد قضيت أكثر من ثلاثين عاماً فى المسرح بين فرنسا وانجلترا وهولندا والمانيا والنمسا وايطاليا والمكسيك والولايات المتحدة وكندا .. ومرة واحدة بتونس حيث صممت مسرحية عطيل لافتتاح مسرح المركز الدولى بالحمامات .. فأعجب من نفسى وأنا اتقصى رحلة عمرى من قصر البخارى إلى « باربيكان » فرقة شكسبير بلندن .

أعجب أيضاً من خيالى وتصوراتى التى امتزجت فيها أحلام الف ليلة وليلة بأحلام المسرح الأوروبى الحديث .

واتساءل دائماً .. واتطلع دائماً . واشتاق دائماً ، واتذكر دائماً ، وأعمل كثيراً ..

الأقنعة المسرحية

انتهى حديث عبدالقادر فراج ..

وشملنا بعض الصمت .. كانت تتطلع الينا فيه من فوق جدران الكتب أقنعة مسرحية من صنعه وأقنعة قديمة من مقتنياته ، وأقنعة فولكلورية زنجية وصينية .. تطل علينا وتحيطنا .. ضاحكة باكية غاضبة طيبة .. ملونة وملساء : سوداء وبيضاء .. كلها تتطلع نحونا بألف تعبير ، ولكن بعيون مجوفة ..

الفريد فرج

متحف النباتات : حيث مئات الأنواع من الأزهار الملونة

رسالة جنيف من : فاروق اباظة



قصة أجمل وأعظم مدينة صغيرة في العالم

مدينة وَرْدِيَّة يلتقى فيها السياسيون والحالمون والباحثون عن الصفاء !

- إنها عريقة فى حيادها ، لم تلوث أرضها ــ بعد ــ أدخنة القنابل طوال الحروب البشرية الطاحنة !
- اقتحمها يوليوس قيصر ، واستمرت تحت الاحتلال الرومانى حوالى خمسة قرون !
- فى المدينة اشتغل « جان جاك روسو » صبياً عند صانع للساعات !
- تحفة معمارية إسلامية يمثلها مسجد جنيف ، وفى المؤسسة الإسلامية مدرسة لتعليم اللغة العربية !
- لماذا يعتبرها العرب مدينة مفضلة لعقد المؤتمرات التى تناقش أهم القضايا العربية ؟

جنيف عروس إتحفت بوشاح طرز بأزاهير الروابي وورود الوديان يحتضنها الجبل الأبيض بقمته ذات الجلال تغطيها نتف الثلوج البيضاء وتنحدر سفوحه مع ينابيع البللور الذائبة في مياه بحيرة « ليمان » ... إلى جنيف يأتي السياح قادمين من كل أطراف الدنيا ليغسلوا في رباها وخضرتها هموم ما مضى من العمر وينفضوا عن كاهلهم شوائب مدنية الحديد والدخان والرصاص ، فهنا هدوء حالم مغلف بالصفاء ، منشط للتأمل ، داخل « بانوراما » صيغت بنمنمات من الجمال الخالص والألوان الرائعة ، فقد كانت الطبيعة زائدة في كرمها عندما ألبست جنيف ازارها الوردي الذي تفردت به بين مدن الدنيا ..

ومن هنا .. من جنيف ارتفعت أجراس السلام والحرية معلنة انتهاء سنوات النار بعد أول حرب كونية عرفها العالم ، وبعدها ولدت عصبة الأمم في ٢٥ نوفمبر عام ١٩٢٠ .. إن الجرس الأثري الصغير الذي ارتفعت دقاته في ذلك اليوم وصيغ من حطام مدفع قديم مازال يعرض ضمن مقتنيات متحف المدينة التي قالوا عنها إنها أجمل وأعظم المدن الصغيرة في العالم ، فهي مازالت تتمتع بنقاء الهواء غير الملوث ، كما أن شوارعها وميادينها خالية من هوس الحركة الصاخبة والزحام الخانق .

وجنيف اشتهرت أيضا بأنها المدينة التي تكرم الإنسان مهما اختلف لونه وجنسه ودينه ، ففيها ينطلق فكره حرا من كل قيود ويتعمق إحساسه بالسلام والأمان ، فهي البعيدة عن التعصب والصراعات والاغتيالات ، عريقة في حيادها الذي احترمته كافة الدول ، فلم تلوث أرضها بعد أدخنة القنابل طوال الحروب البشرية الطاحنة ، وحرصت على أن تحتضن المؤسسة التي تسهم بنشاطها المتنوع في صياغة حياة جديدة للبشر مفعمة بالحلم والأمل فوق هذه الأرض التي ضاقت ببؤر العنف والصراعات ..

والمدينة العريقة لها مذاقها الخاص عند السياح العرب ، وقد سجل مطارها خلال هذا العام استضافتها لثلاثين ألف سائح عربي أغلبهم من دول الخليج ، ولذلك اختلطت اللافتات المكتوبة بالحروف اللاتينية مع اللافتات المكتوبة باللغة العربية فوق واجهات الفنادق والمطاعم والحوانيت ومراكز بيع التذكارات ومراسي الزوارق واليخوت على شاطىء البحيرة وكتيبات الدعاية السياحية والتجارية ، وذلك بعد أن أصبح السائح العربي هو المفضل في سوق السياحة السويسرية .



كرنفالات الأعياد .. دائما تجدها في المناسبات الهامة في المدينة التي تنعقد فيها أهم المؤتمرات وتوجد بها أهم المنظمات العالمية

قيصر يقطع الجسر

وتاريخ المدينة العريق تمتد جذوره إلى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد .. كانت وقتها مدينة صغيرة قابعة على ضفاف بحيرة ليمان .. ترتكز على أعمدة مغروسة في مياه المستنقعات التي تحيط بها وينتشر سكانها على ضفتي البحيرة ونهر الرون .

وكانوا يعيشون على صيد السمك والحيوانات قبل أن يمارسوا الزراعة ..

ويتحدث عنها التاريخ لأول مرة عام ١٩٥٨ قبل الميلاد حيث كانت قبائل الهلفاس والتي تشكل سكان سويسرا الأصليين تتراجع أمام هجمات القبائل الجرمانية نحو الجنوب . كما أن يوليوس قيصر قاد هجومه مقتحما المدينة ومحطما لجسرها الوحيد الذي كان يربط بين شطريها ، ولأهمية هذا الجسر أصبح رمزا لها ومحور علاقاتها بالعالم باعتباره وسيلة الاتصال بين شمال أوروبا وجنوبها .

وخضعت جنيف للاحتلال الروماني الذي استمر من القرن الأول قبل الميلاد إلى نصف القرن الخامس الميلادي ، وتميزت هذه الحقبة بالازدهار الواضح في بناء القصور وتخطيط الشوارع والأسواق ومصادر المياه ، غير أن هجمات البربر المتعاقبة التي بدأت في القرن الثالث أدت إلى سقوط جنيف وتحولت إلى عاصمة للبورجانديين ، ولكن ملكها رودلف الثالث الذي لم يعقب وريثا للعرش سلمها إلى الامبراطورية الرومانية عام ١٠٢٤ ، وولى عليها الإمبراطور الروماني أسقفاً ليحكمها ، وتميزت هذه الحقبة بالازدهار الاقتصادي ، وتحول سوق جنيف إلى محطة للتجارة الأوروبية إلى أن أقدم الملك لويس الحادي عشر على نقل النشاط الاقتصادي إلى مدينة ليون الفرنسية .

وظلت جنيف محط أطماع السافوى القريبة منها ، وانقسم أهلها إلى ملكيين فضلوا الانضمام إلى السافوى ، واتحاديين يتنازعهم الأمل في توحيد سويسرا .. وفي عام ١٧٩٨ ضمت فرنسا اليها جنيف وجعلت منها عاصمة للمنطقة ولكن جنيف فضلت الانضمام إلى الاتحاد السويسري وكانت ضمن آخر ثلاث مقاطعات ضمت إلى الاتحاد ومنحت استقلالها عام ١٨٤٨ .

مرفأ الحرية

ولم تكتسب جنيف شهرتها من كونها مهبطا لجمال وسحر الطبيعة فقط ، ولكنها تمثل أيضا واحة ظليلة لعشاق الحرية والهاربين من هراوات القهر والتسلط ونيران الحروب ، فدورها الثقافي والاقتصادي والسياسي جعلها عاصمة للعالم كله .

وهي أيضا مهبط الأمل للمنكوبين ، فلم تحدث كارثة في أركان الأرض إلا وكانت جنيف سباقة إلى مساعدة ضحاياها ، وجمعية الصليب الأحمر الدولية ولدت على أرضها وتضم في عضويتها ١٢٠



المقاهي المنتشرة في كل شارع من شوارع جنيف

جمعية وطنية للهلال والصليب وما يقرب من ٢٢٠ مليون عضو . وصاحب الفكرة هو « هنري دونان » الذي شاهد في إحدى رحلاته معركة حربية بين النمساويين والفرنسيين وأحس بمأساة القتل الجماعي والدماء والأشلاء والجرحى الذين يصرخون من آلام جراحهم . وعاد ليؤلف كتابا اختار له عنوان « تذكار من سلفرينو » وبمشاركة أربعة من مواطنيه تأسست جمعية الصليب الأحمر عام ١٨٦٣ ، وتلى ذلك توقيع اتفاقية جنيف عام ١٨٦٤ التي نظمت نصوصها القوانين المتعلقة بمعاملة أسرى الحروب .. وظلت جنيف حتى اليوم المقر الرئيسي للمؤسسة الدولية . وكان أول هذه المؤسسات التي اختارت جنيف مقرا لها مكتب العمل الدولي عام ١٩١٩ . ويوجد بها الآن ٩٧ بعثة دولية ، وقد قال « ولسن » رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إبان الحرب العالمية الأولى بمناسبة اختيار جنيف مقرا لعصبة الأمم عام ١٩١٩ ليس هناك بلد في العالم كسويسرا المحايدة ولهذا أختيرت لتكون مكان اللقاء للشعوب الساعية إلى السلام ..

وبالاضافة إلى المنظمات الدولية الحكومية هناك العديد من الجمعيات الأهلية الخاصة التي اتخذت من جنيف مقرا لها . ولذلك دلالة من أن هذه المدينة العريقة تسعى إلى أن يعيش العالم في وفاق ورفاهية وحرية . وتؤكد أيضا بأن الدولة التي تحترم حيادها قادرة أكثر على العطاء .

وعلاوة على مكتب العمل الدولي يوجد ضمن مكاتب الأمم المتحدة بجنيف منظمة حقوق الانسان ومنظمة الأغذية والزراعة ومكتب تنسيق الإغاثة عند الكوارث وصندوق الأمم المتحدة للطفل ومركز مراقبة المخدرات ومفوضية اللاجئين ، بالاضافة إلى المنظمات الدولية مثل المنظمة الدولية للحماية المدنية والاتحاد الدولي للاتصالات اللاسلكية والمنظمة العالمية للملكية الفكرية والمنظمة الأوربية لنشر الثقافة . ومنظمة الصحة العالمية ، ومكتب التربية الدولي . وأغلب هذه المنظمات والوكالات يضمها قصر الأمم الذي يزوره ١٥٠ ألف سائح سنويا . وشارك في تصميم عمارته أكثر من مهندس عالمي . فجاء خليطا يجمع بين النمط الأوروبي والأمريكي والآسيوي . حتى خامات البناء تم جلبها من دول عديدة . وتزين جدرانه لوحات رائعة لمشاهير الفنانين العالميين . ومن بينها لوحة للفنان الأسباني « خوزيه ماريا » سجل فيها بشاعة الحروب ونتائجها المدمرة . والمبنى يتحول في ساعات العمل إلى خلية نحل فهو يضم كافة الأجناس وممثلين لكل شعوب الأرض .

متاحف وقصور أثرية

ومزارات جنيف متعددة فهناك عبق الزمن القديم الذي يغلف الجزء العتيق من المدينة حيث مبنى البرلمان وشارع الرول والقصور الأثرية القديمة بأعمدتها المرمرية والرخامية والجسر القائم على نهر الرون والجامعة القديمة وساحة بورج دي فور أقدم ساحات المدينة والشارع الأكبر ببناياته العديدة القديمة التي ترجع إلى القرن الخامس عشر والثامن عشر . وساعة الأزهار بالاضافة إلى العديد من المتاحف والمسارح وصالات العرض والموسيقى ، وأهمها متحف الفن والتاريخ ويضم مقتنيات ماقبل التاريخ في حوض البحر الأبيض المتوسط (اليونان . روما . مصر . العراق) . ومتحف الساعات ونماذجها التي صنعت من القرن السادس عشر إلى الآن . ومتحف القصر الصغير ويضم أعمالا لبيكاسو ورنوار وشاجال . والمسرح الكبير وقاعة فيكتوريا للموسيقى الكلاسيكية . ومتحف آلات الموسيقى القديمة ومتحف النباتات .

جزيرة لمفكر عالمي

ومن خصائص جنيف الهامة نافورتها الشهيرة التي تطبع وترسم صورتها على أغلب تذكاراتها السياحية . وهي التي تطالع المسافر من شباك الطائرة عندما تهبط مقتربة من سطح البحيرة في طريقها الى المطار . والنافورة يبلغ طولها ١٤٠ مترا وكثافة دفعها للمياه ٥٠٠ لتر في الثانية وسرعة تدفق الماء ٢٠٠ كم في الساعة ..

وللمفكر الفرنسي جان جاك روسو وهو من أثر بفكره ومؤلفاته في نشوب الثورة الفرنسية أكثر من أثر في مدينة جنيف التي ولد فيها في منزل صغير يقع في شارع « كوتانسي » رقم ١٥ . وعندما بلغ روسو السادسة عشرة من عمره عمل صبيا عند صانع الساعات « دوكو مون » بشارع إيتوف رقم ١٣ .. وقد خلدته جنيف باطلاق اسمه على جزيرة تتوسط بحيرتها وانتصب بها تمثال المفكر الكبير الذي صنعه يدعى براديبه . والجزيرة كان لها اسم قديم وهو جزيرة « المراكب » وتأوى إليها الآن أسراب الأوز والبجع وطيور النورس .

ومن معالم الجزيرة الشهيرة ساحة « بل أير » التي كانت تسمى حتى عام ١٦٧٠ ساحة الملوك الثلاثة وتمركز فيها صناع السكاكين والخراطون والدباغون . وينتصب أمام برج جزيرة روسو تمثال لفيلبير بيرتيليه الذي قطعت رأسه عام ١٥١٩ لأنه دافع عن حريات وطنه وحقوق الشعب ..

أما ساحة سان جيرفي فقد كانت في الماضي مخصصة لحوانيت صناع الساعات وبائعي الحلي والنقاشين وصانعي المجوهرات ..

وعندما تبدأ رحلتك على شاطىء البحيرة مشيا على الأقدام ستصادف مبنى فريدا في نقوشه الرائعة وقبته التي ازدانت بالرسوم الزخرفية البارزة . والمبنى يحيط به حديقة غنية بأحواض الورود والأزهار التي نسقت في أشكال هندسية فريدة .. والمبنى هو قبر دوق « بروتسويك » الذي أوقف كل ثروته لصالح مدينة جنيف .

وعلى بعد أمتار في نفس الشارع يقع قصر « ولسن » وكان مقرا لعصبة الأمم حتى نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . أما على الشاطىء الأيمن لبحيرة ليمان فستحس بمتعة وأنت تقطع « الكورنيش » الذي انتشرت فيه المقاعد بجوار أحواض الأزهار ، بينما طيور النورس تغسل أجنحتها في زبد الأمواج وأسراب البجع والاوز الأبيض تتبختر على المياه في دعة وسلام وأطفال صغار يلقون بحبات الحنطة وقطع الخبز إلى طيور الماء .

وينتهي بك المطاف إلى بستان وافر الخضرة غني بأشجار السنديان والصنوبر وأنواع الأزهار ونباتات الزينة المتنوعة ويطلقون عليه « لؤلؤة البحيرة » . وبالقرب منه العديد من القصور الرائعة يضم أحدها متحف النباتات حيث مئات الأنواع من الأزهار الملونة .

والزائر العربي لاينسى زيارة المسجد والمؤسسة الإسلامية في جنيف مايقرب من ستة آلاف مسلم . والمؤسسة الإسلامية التي أقامها المغفور له الملك فيصل تتولى تلبية متطلباتهم الدينية والاجتماعية والثقافية وتربط بين جموع المسلمين هناك وتحقق التقارب والتفاهم والصداقة بينهم وبين الطوائف الدينية الأخرى . وتضم المؤسسة مكتبة ومتحفاً ومختبر لغات ومدرسة لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم .

ومسجد جنيف مثمن الأضلاع على جدرانه نقوش عربية إسلامية قام بتنفيذها ثلاثون صانعا مغربيا ، والمحراب مكسو بخشب الأرز ، والثريا تضم خمسمائة شمعة أعدها ثلاثون صانعا مغربيا ، وصنعت من بللور البندقية . أما المكتبة فواجهتها من فسيفساء الزجاج الفينيسي ورخام أعمدة المسجد وكذلك الأرض والجدران جلبت من منجم « كارارا » الشهير بايطاليا ..

أما إذا أردت الانتقال لزيارة الشاطىء الأيمن للبحيرة فالأفضل أن تقوم بهذه الجولة داخل زورق أو يخت سياحي .. لقد دفعت سبعة عشر فرنكا فقط نظير المشاركة في جولة بالبحيرة استغرقت أكثر من ساعتين على ظهر يخت أنيق ، وشاركني في الرحلة مجموعة من سياح الولايات المتحدة ..

لقد جاب بنا اليخت طول البحيرة حتى المياه الفرنسية داخلها حيث يفصل خليج صغير بين مايخص جنيف وما يخص فرنسا من مسطح البحيرة .. وسترى تمثالاً رائعاً لعروس البحر حارسة بحيرة جنيف بجسدها نصف الآدمى المتربع على قاعدة تغمرها المياه ، وصخرة سيد البحر فى الميثولوجيا اليونانية « نبتون » والتى يعود تاريخها إلى يوم أن كانت جنيف مغطاة بالجليد ، وعلى المرفأ وقف آخر مركب شراعى استخدم فى نقل السلع ويرجع تاريخه إلى عام ١٩٠٤ وحمولته ١٢٠ طنا ، وهناك أيضا المرفأ الأسود والذى يعد تذكارا لنزول أول سويسريين إلى جنيف بعد دخولها فى الاتحاد .

بيت الشاعر الغريق

ولأن جنيف وبحيرتها كانتا دائما مهبطاً لوحى الشعراء والفلاسفة والمفكرين وفى مقدمتهم فولتير وجان جاك روسو ، فستتاح لك فرصة كى تشاهد المنزل الصغير الذى عاش فيه شاعر بريطانيا الكبير « لورد بيرون » الذى مات وهو فى ربيع الشباب ، ومجموعة من القلاع والقصور القديمة ، ومنزلا أنيقاً تحيط به حديقة صغيرة كانت تسكنه مدام « دى ستال » صاحبة الصالون الأدبى الباريسى الذى التقى فيه نابليون بونابرت بجوزفين بوهارنيه قبل أن يتزوجها وينصبها امبراطورة لفرنسا .

وبين المدينة القديمة والميناء يقع الحى التجارى وتعرض واجهة حوانيته عراقة جنيف ممثلة فى الساعات والمجوهرات وأنواع التذكارات .. هناك أيضا السوق اليومى للأزهار ويقع فى ساحة « مولارد » قلب المدينة النابض منذ العصور الوسطى ، أما نهر الرون الذى يشق قلب جنيف فطوله ٨١٢كم منها ٢٩٠ كم فقط فى سويسرا ، وينبع من منطقة الفاليه على ارتفاع ١٧٥٠ م فوق جبال الألب ، ويصب فى البحر الأبيض المتوسط وتتميز ضفتاه بالتلال الخضراء والصخور الشاهقة .

ولعل جنيف تنفرد بين مدن العالم بعدم وجودالشوارع الخلفية أو الأحياء الفقيرة التى لاتخلو منها عاصمة عالمية ، فريفها الملاصق لها يعد من الجنان الرائعة ، وأهم الأحياء الريفية المجاورة « منطقة كاروج » التى أصبحت ضمن أحياء جنيف ، وكانت قد بنيت فى القرن الثامن عشر ، وبناها ملك سيردينيا مستخدما مجموعة من مهندسى مدينة تورينو الايطالية ، وذلك قبل أن تضم إلى مقاطعة جنيف عام ١٨١٥ ، ولكنها كانت مأوى للصوص عندما كانت مدينتهم متشددة فى تطهرها فى العصور الوسطى !

الحضور العربى

وفى جنيف الكثير مما يجذب السائح العربى أكثر من بقية عواصم أوروبا ، وربما تحقق ذلك بسبب أنها البلد الوحيد فى أوروبا الذى أطلق كافة القيود على الدخول والخروج .

وجنيف أيضا هى المفضلة لعقد المؤتمرات التى تطرح على مائدتها أهم القضايا العربية ، وكان آخرها مؤتمر المصالحة اللبنانى بين القوى الأهلية المتحاربة (١٩٨٤) . وكان قد سبقه مؤتمر السلام فى الشرق الأوسط عام (١٩٧٣) .

ويعيش داخل جنيف العديد من التجار ورجال الأعمال العرب والذين اختاروها مقرا لنشاطهم التجارى والاقتصادى ، وقد أغرتهم بذلك التسهيلات الضريبية المتاحة هناك .

وتعتبر جنيف المصدر الرئيسى لتصدير المجوهرات إلى دول الخليج ،وكذلك الساعات ، حيث يراعى المصممون الذوق العربى والاسلامى .

ونظرا لإقبال العرب على زيارة جنيف إنتشرت الكتيبات السياحية المطبوعة باللغة العربية ، وكذلك المطبوعات الخاصة بتسويق السلع ، ولم يعد غريبا عندما تتجول فى أهم شوارع جنيف مثل شارع الجبل الأبيض أو شارع لوزان أو دى كارو لتجد محلات التذكارات والمطاعم ومتاجر الملابس والسوبر ماركت وقد حرصت على وضع لافتات فى واجهاتها الزجاجية تقول فيها (نحن نتحدث العربية)

وفى الفنادق الكبرى مثل الهيلتون وانتر كونتننتال « وبوريفاج » « وريشموند » « وبريزيدنت » تحرص إدارتها على أن يكون من بين العاملين فيها من يتحدث العربية ، كذلك المطبوعات الخاصة بالرحلات والتى تقوم بتوزيعها مكاتب حجز رحلات اليخوت والزوارق بمرسى البحيرة .

وداخل حجرات الفنادق بطاقات الترحيب بالعربية وقوائم بأسماء الأفلام العربية لمن يرغب بمشاهدتها مستخدما جهاز الفيديو .. وقد أصبحت صورة من الصور المألوفة فى شوارع المدينة وداخل فنادقها أن ترى أسراً عربية بأكملها الزوجة والزوج والأبناء فضلوا قضاء عطلاتهم فى جنيف .

وإذا تصفحنا الكتيبات السياحية التى طبعت باللغة العربية سنجدها تعلن عن العديد من المطاعم الشرقية التى تقدم الكباب واللحم المشوى والأرز ، بالإضافة إلى الإعلان عن مراكز العلاج الطبيعى والاستشفاء باستخدام النباتات العشبية لعلاج أمراض الوجه والجسم وكذلك العلاج بواسطة التدليك وحمامات البخار ، وضيف هذه المصحات عليه أن يشرب يوميا لترا أو لترين من خلاصة النباتات الطبية الواردة من المزارع مباشرة وهى أنجع الطرق لعلاج السمنة والنرفزة والأرق ، وارتفاع الضغط وزيادة الكولسترول والسكر واضطراب الدورة الدموية . أما قائمة الطعام فى هذه المصحات فتضم السلطة والدجاج وفخذ الضأن المحمر والكباب والخبز البلدى المعد على الطريقة الشرقية ..

ومن أنماط الإعلانات المكتوبة بالعربية أيضا إعلان عن سائق يتحدث العربية والفرنسية والانجليزية ، وهو فى الخدمة طيلة فترة اقامتكم فى جنيف أو خارجها .. ومطعم اتخذ اسما شرقيا يقول إنه يرحب بزبائنه الكرام من الظهر حتى منتصف الليل فى جو عائلى فاخر ، حيث يقوم بتقديم أشهر المأكولات اللبنانية والخليجية مع توصيل الطلبات إلى المنازل ، وإعلان بالعربية عن مخبر خاص يقوم بالتحقيق والتحريات والمراقبة والحماية المسلحة والملاحقات (كذا) وبيع السترات الواقية من الرصاص وأجهزة الكشف الدقيقة .

واتساقا مع الحركة السويسرية السياحية النشطة الهادفة لجذب المزيد من السياح العرب نشرت عدة بحوث فى مجلات متخصصة تؤكد أن هناك علاقات تاريخية قديمة بين سويسرا والعرب ترجع إلى فترة الاضطهاد الرومانى داخل مصر والشام ، وفرار المضطهدين من وجه الطغيان الرومانى إلى جنيف .. كما تكثف مكاتب السياحة السويسرية فى الخليج على إغراء السياح العرب بزيارة سويسرا وخاصة بعد أن نجحت فى تحقيق ٤٠ مليون ليلة سياحية داخل فنادقها المتميزة عالميا .

أما الحركة الثقافية والفنية داخل جنيف فإنها تحرص على تقديم التراث الثقافى والأدبى باللغة العربية داخل المكتبة المتخصصة وما تحتويه من كتب الأدب والشعر والاقتصاد وكتب الأطفال بالاضافة إلى الأغانى والأفلام العربية المسجلة على الأشرطة .

والرواج الاقتصادى فى جنيف كان السبب وراء اختفاء البطالة التى تعانى منها أوروبا كلها ، والغريب أن الشعب السويسرى رفض اقتراحا تقدمت به النقابة العامة للعمال من أجل تخفيض ساعات العمل ، ذلك لأن العمل له مكانة خاصة فى سويسرا . ولعل هذا هو السبب الأول فى سحر مدينة جنيف وروعة جمالها ونظامها ، والذى تجده دائما فى كل مدينة سويسرية !

فاروق أباظة

الهدوء الحالم المغلف بالصفاء فى مدينة جنيف ذات المذاق الخاص

عن قصة شعبية عمانية



موزة ولوزة

أو "سندريلا العمانية"

بقلم : يوسف الشاروني
ريشة : يوسف أحمد

يحكي أن رجلا كان عنده ابنتان : موزه من زوجة توفيت ولوزه من زوجته الحالية . وكانت زوجة الأب تعامل ابنة زوجها موزه معاملة الخدم ، فتجعلها تكنس البيت وتنظف أثاثه وتحضر الماء والحطب وتطبخ وتغسل الأطباق والملابس ، بينما تثرثر هي وابنتها لوزه أو تستقبلان الجارات والقريبات أو تقومان بزيارتهن .

وذات يوم أمرت زوجة الأب موزه قائلة .

ــ عليك اليوم أن تذهبى لكى تحضرى حطباً لا من الظل ولا الشمس ، ولا من الأخضر ولا اليابس ، ولا من الكثير ولا القليل ، ولا من القصير ولا الطويل .

فذهبت البنت مع زميلاتها لاحضار الحطب .

وبينما صديقاتها كن يجمعن الحطب ، كانت موزه قد جلست على صخرة تفكر من أين تحضر الحطب بالشروط التى اشترطتها زوجة أبيها . وانتهت صديقاتها من جمع حطبهن وتركنها وحدها حائرة تفكر . وعندما خلا المكان طلع عليها رجل من الجن يسألها :

ــ لماذا تجلسين وحيدة مطرقة الرأس فى هذا المكان القفر ؟

ــ لأن زوجة أبى تريدني أن أحضر لها حطباً لا من الظل ولا الشمس ، ولا من الأخضر ولا اليابس ، ولا من الكثير ولا القليل ، ولا من القصير ولا الطويل .

ــ سأحضره لك بشرط .

ــ ....

ــ أن أتزوجك .

ــ وتخلصنى من مرارة العيش مع زوجة أبى ، ولكن كيف ؟

ــ سأنقلب غولا (أى أفعوان) وأدخل الحطب ، وعندما تلقينه أمام البيت أخرج منه وأدخل غرفتك الخاصة بك وتطلبين الزواج منى .

ومالبث أن أحضر لها الحطب ، فحملته وعادت به الى قريتها . وعندما رأته زميلاتها استغربن من شكله لأنه كان يختلف عن أى حطب سبق أن أحضرنه .

وعند وصولها إلى المنزل القت بالحطب من فوق رأسها على الأرض فتسلل منه الغول وزحف إلى حجرتها ، وعندئذ طلبت من عمتها أن تتزوج الغول دون أن تصرح لها أنه رجل من الجن . وعندما سمع أبوها هذا الطلب رفض أن تتزوج ابنته غولا ، لكن زوجته ألحت عليه فى الموافقة لكى تتخلص منها .

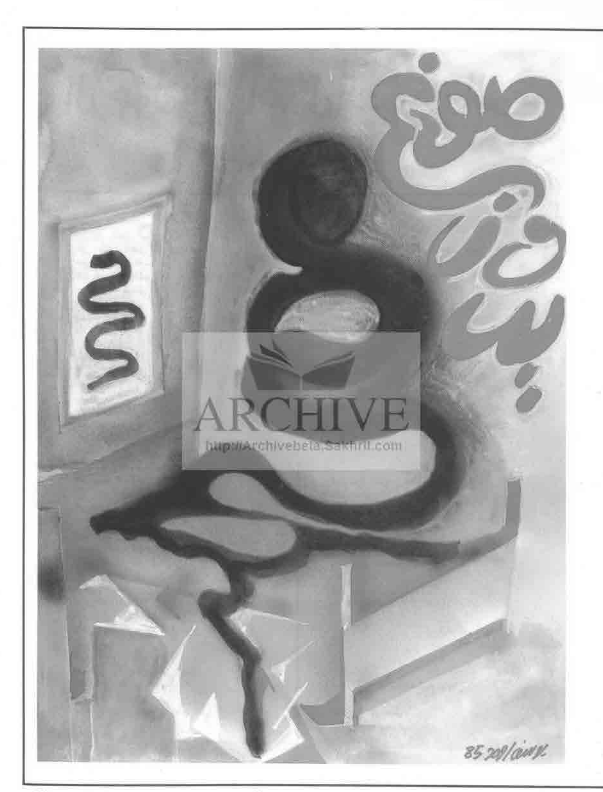
وهكذا زفت موزه إلى الغول فى غرفتها .. وعندما أغلقوا عليهما الباب سمعوا صراخ موزه ، ذلك لأن الجن كان يثقب أذنيها ليضع في كل منهما حلقاً ذهبياً . ولما سمعت زوجة أبيها صراخها نادت على الغول تقول : صوغ وزيد (وصوغ بتشديد الواو فى اللهجة العمانية لها معنيان : من الصياغة أى صناعة الحلى ، أى أعطها مزيداً من الذهب ، أما المعنى الآخر فهو اللدغ) وكانت كلما صرخت موزه صرخت عمتها بدورها على الغول مكررة قولها : صوغ وزيد .

ثم صرخت موزه تقول : حلقى حلقى . بينما كان الجن يضع المجوهرات حول رقبتها . وكانت عمتها تظن أنه يلتف الآن حول رقبتها ليخنقها فتشجعه من خارج الغرفة صائحة : صوغ وزيد .

فلما كان الصباح خرجت موزه مثقلة بالذهب الذى غمرها به الجن . فذهلت زوجة الأب وامتلأت حقداً وغيرة ، فقررت أن تبحث عن غول آخر لابنتها لوزه بين الشقوق والأوساخ ، حتى حصلت على أحد الأفاعى وكان أكبر من الغول الذى تزوج ابنة زوجها . فقامت بإحضاره وإدخاله غرفة ابنتها وأقيم حفل زفافهما .

وعندما أغلقوا الحجرة على الثعبان وابنتها ، صرخت لوزه صرخة واحدة . فصاحت أمها بفرحة : صوغ وزيد . ولكن لم ينبعث أي صوت آخر .

وانتظرت الأم فى الصباح أن تخرج ابنتها من الغرفة مثقلة بالذهب ، ولكن طال انتظارها دون أن يخرج أحد . فلما اشتد بها القلق طرقت الباب ثلاث طرقات فلما لم يجبها أحد دفعت الباب دفعة قوية لترى الأفعى يتسلل زاحفا على الأرض وهو ينساب مختفيا خارج الغرفة ، فخارج البيت عائدا الى الشقوق والأوساخ . أما لوزه فقد كانت ميتة بلا حراك !



الدخول في تفاصيل العشق والموت

شعر: محمود حامد

حينَ احتويتُ بقبضتي هذا الصَّهيلَ ،
شعرتُ كم هي رائعـــةْ
تلك العذوبة في الصَّهيلْ
حينَ احتويتُ بقبضتي جسد الرِّياحِ ،
ملكتُ مفتاح الفُصولْ
ونسيتُ طَعْمَ الفاجعةْ
وأنا فلسطينُ التي ،
في قبضة الجلَّادِ ،
كم روَّعتُ جلّادي ،
بهذي القبضةِ المتواضعةْ

لكنَّني ،
وأنا التي ،
ما زلتُ أملك هذه الدّنيا ،
أظلُّ أمام عصفور المنافي ذلك القمرِ الخجول
وأظلّ أحني هامتي في ساح مجدي لابتسامة فارس
شقَّ الدُّجى بيمنيه السَّمراء والجسد النَّحيل
يا أيّها الجسدُ المُعطّرُ بالشَّذى ،
وأنا المُتيَّمةُ القتيلة في هَواكَ .
تُرى أتأذن للحبيبة بالدُّخول
حينَ انتظرتُكَ ،
كانت الظُّلماتُ تطغى
حينَ جئْتَ ، رأيتُهـا ،
تستنهض الجُثَثَ المُناضلةَ الأبيّةَ أمّي
وتلملمُ الغضبَ المُبعثر في الوُحول
وأنا أمامَكَ أنحني
يا فارسَ الشّهداء ......
يذبحني الذُهول
غاصتْ عُيوني في عيونكَ ،
طوّقتني شهقة الضَّوْء الأسيرة في الفتيل
كيفَ الشّهيدُ يعودُ ،
أُقسِمُ أنَّ هذا الوَجْهَ وَجْهُكَ ،
والشّموس هي الشّموس على جبينكَ ،
والعذوبة ما تزالُ هي العذوبة ،
لم أجد شيئاً تبدَّلَ في حبيبي
غير جرح كالنّجوم يضيء في العُنُقِ الجميل

* * *

كيف امتطى هذا التّرابُ عذوبةَ الجسدِ القتيل ؟
كيف استفزَّ دمي ليقرأ ما كتبتُ ،
وكيف يطلب من شهيدٍ أن يُعيد قصيدةً
هرَّبْتُها سرّاً لسِفْرِ المُستحيلْ
فإذا بها كالنّار لاذعة السُّخونةِ ،
كلَّما قرَّبْتُها من رعشة الشّفةِ القتيلةِ ،
أشعلتني بالسؤالِ المُرّ :
خُذْني للجليل .

* * *

يا أيّها الحُلْمُ المُسافرُ في دمي
يطغى جنونُ هواكَ ،
تشتعلُ الخلايا ،
كلَّما لامستني
أسعى إليكَ ، تضمّني ،
وأنا القويّة :
كيف تنثرني شظايا في دماكَ
وكيف تجعلني أمامَكَ طفلةً
وأنا المليكةُ في الصَّبايا ؟
كيف تنهمر العذوبةُ في فمي
يبدو شبابك في عيوني كالنّخيلْ
ما دلَّني أحدٌ سواكَ ،
وأنت تتركني بساحات النّوى وحدي ؛
يُباغتني رحيلُكَ .... ،
كيف أومنُ بالصَّدى
وهو الذي مازال يصرخ في الطّلول :
آتٍ أنا ...
في الوعد آتٍ .

* * *

جسدي توزّع بين ساحاتِ المنافي والوطن
وأنا المليئة بالشّجن
أختار موتي بين أحبابي ،
يُداهمني الطُّغاة ويصرخونْ :
أنتِ القتيلةُ !

والتّفاصيلُ الصّغيرةُ عنكِ نعرفها ،
ونعرفُ من عشقتِ :
ومن يكونُ
هذا الفدائيَّ المؤرّخ في الضّمير ،
وعبر ذاكرة الزّمن
كيف استطعتِ له الوصولُ .. ؟
كيف انتفضت على السّلاسلِ ... ؟
كيف هرّبتِ العواطف في الكفن ... ؟
كيف اجتمعت ،
ونحن شتّتناكِ ملءَ الأرضِ .. ! ،
ضيّعْنا خطاكِ .
وعبر نهر الليل وزّعْنا الرّفاةْ ... !
والريحُ : حين الريح تحمل أعين القتلى ،
وتمضي ....
كيف تلتحم البقايا .. ؟ ،
كيف يعبر من تناثر كالغبار
هذي المرايا .. ؟
كيف مرّ الرّتْلُ فوق السكة السوداء في الجوّ المكهْرب ... ؟ ،
كيف هرّبتِ القصائدَ في الحقائبِ ... ؟ ،
كيف هرّبتِ الحقائبَ في القطارْ ... ؟
هذا أنا
من أجلِ نعلٍ في حذائكِ يا حبيبي :
أيهُا الشّعْبُ المُشرّدُ .....
أيهُا الولَهُ المؤبّدُ في جذوري ،
أمتطي كُلَّ الجسورِ لكي أراكِ ،
مَضَيْتَ أنْتَ ،
وها أنا وحدي بقيتُ على شبابيك البحارْ
أترصّدُ الولَهَ المُسافِرَ ،
كلّما غنّيتُ باسْمِكَ يجهشُ الشّجرُ المتيّم بالبكاءْ
ويجيئني صوتٌ من الأنهار يحتضنُ الصّدى
يبكي معي
تتحرّك الأحجارُ ، يبتدىءُ الغناءْ
نبكي ، نُغنّي ،
حين نصمتُ مُثقلين بوجدنا
يتململُ الجرحُ المُكابِرُ في المدى
ويظلُّ ينزف ما يشاء
فإذا بوجه الصّبح يُشرق في المساء

* * *

وأنا قريب منكِ ،
يبتدىءُ الهواءُ بسرقة اللحظات منّا ،
إن جعبتهُ المليئةَ بالتقاريرِ الخطيرةِ ،
سوف تمنعنا مُتابعة اللقاء
وسنلتقي
فالوعد تكتبه الدّماء على الدّماء
وغداةَ ينفجر النّزيف ،
نكُونُ وحْدَنا مواعيدَ الشّروق مدى الحياة .

* * *

خذني لمن
غيري بجرحِكَ يستحِمُّ ؟
ومن سواي يُراقصُ الشّجرَ المُتيّمَ منْ عُذوبةِ ما كَتَبْتَ ؟
وأيُّ عُصفورٍ يُغامر أن يلاحق ظلكَ المنثورَ في كُلّ الجهات ؟
خذني لمن
غيري بقبضتها تضُمُّ النّيلَ دوماً والفُراتْ
وأنا فلسطين التي
ستظلّ تنزفُ مُعجزاتٍ ؟

* * *

هذا هو البحر العجوز يمرُّ عبر دمي وذاكرتي ،
ويرسمني شهيداً فوق باب الذّكرياتْ
حيفا تؤرّخني أبيّا ،
ثُمّ تحضُنُ صورتي
وتشدّني منْ جثّتي لعيونها
وتظلُّ تصرخُ : كَيْفَ ماتْ ؟
وهو الذى يأتي إليّ مع السماء ،
قصيدة ، أو سُنبله ... ؟

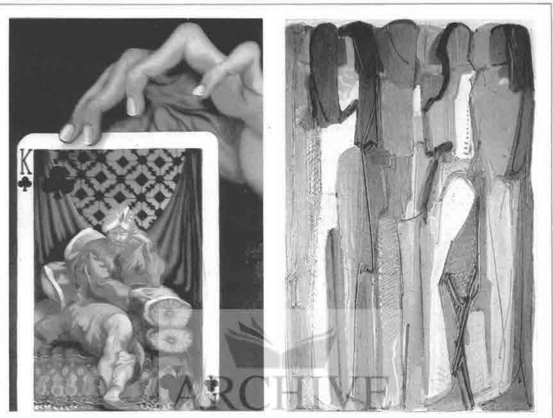
يأتي إليّ فلا يؤخرهُ الرّصاصُ دقيقةً عن موعدي
أبداً ولا تغتال فرحة شوقه النّاري هذي القنبلهْ
كَيْ يلوحْ ،
حين يبتسمُ النّهارُ على شفاه حبيبتي
آتي لها جسداً ونبضاً ،
إنّ رأسي لم يزل في المقصلة
ويحاورون دمي ليخْلَعَ عادةَ الشّوقِ العنيفِ ،
ويركعونَ على الجسَدْ
ليقول أخرجُ منكَ يا وطني ،
وأرحل للأبدْ
ويجرجرون الثّغر مرّاتٍ لينْطِق ،
إنْ نطقتْ بها على شفتي ،
فقلبي لن يساومهُ
أحدْ .

* * *

عبر الغزاة على نزيف الجرْح
فانفجر النّزيفْ
سيفاً يُقاتِلُ ،
صاح فيهم :
من لديه رُجولة
فلْيخْطُ من هذا الرّصيفْ

* * *

الرياض



جماعة : للفنان اللبناني بول جيراجوسيان

سقوط غرناطة : للفنان السعودي خليل حسن خليل

في معرض الكويت التاسع

بصراحة.. الفنان الخليجي أكثر ارتباطاً بالبيئة

وكثير من الفنانين العرب "مستوردون" للمدارس الغربية

بقلم: سلمان المالكي

إذا نظرنا إلى معرض الكويت التاسع للفنانين التشكيليين العرب ، كفكرة ، فإننا لابد أن نشيد بتبني دولة الكويت لانتاج الفنانين العرب ، وذلك تحت رعاية الجمعية الكويتية للفنون التشكيلية ، فالفكرة في حد ذاتها تحمل مضموناً نبيلا ومشاعر غالية تجاه الوطن الواحد وفنونه ذات التاريخ الحضاري العريق .

إلا أن السؤال الذى يراودنى دائماً ، كلما رأيت أى تجمع للفنانين العرب هو : هل استطاع الفنان العربى أن يجد هويته ، بحيث يمكننا أن نقول بكل وضوح إن الفن فى بلادنا يقف فوق أرض صلبة ، تعبر عن موروثاتنا وتاريخنا العربى ومسيرته الحالية ، أم أنه مازال غارقاً حتى أذنيه فى محاكاة المدارس الأوربية الحديثة بكل ما حملته لنا من ألوان التجريدية والتكعيبية والسريالية وغيرها ؟

بصراحة ، أعتقد ـ بدون حساسيات ـ أن الفنان الخليجى فى معرض الكويت التاسع ، كان أكثر تعبيراً عن ناسه وأرضه ، بينما أسهب معظم المشاركين ـ باستثناء فلسطين ـ فى الاعتماد على أساليب وافدة ، تنطلق فى البداية والنهاية من موروثات غربية !

ولكن ، كلمة الحق التى تقال أن الأعمال فى مجموعها ـ وخاصة جناح لبنان ـ كانت من الناحية الفنية أكثر من رائعة ومثيرة لكافة أذواق المترددين على المعرض !

وفى جناح العراق ، كنا نتوقع أن نرى أعمالاً لكبار الفنانين العراقيين أمثال ضياء العزاوى ، وعامر العبيدى واسماعيل الشخلى وسعد الطائى وغيرهم ، ولكننا فوجئنا بأسماء جديدة وبتجارب جديدة ، ربما الغرض منها إفساح المجال أمام المواهب الجديدة للانتشار .

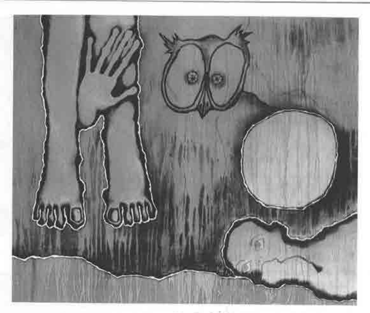
وقد توقف كثير من النقاد أمام لوحة الفنان الأردنى عزيز كامل عمورة التى استقى موضوعها من مأساة صبرا وشاتيلا ، وذلك لدقتها الفنية والمعالجة التى تدل على تمكن هذا الفنان الشاب ، الذى استطاع أن يفرض اسمه وسط هذا الكم الهائل من الأعمال ، رغم أن مساحة لوحته لا تتعدى عشرين سنتيمتر فى ١٥ سنتيمتر .

وقد حصل بهذه اللوحة على جائزة من جوائز المهرجان ، وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على أن العمل الفنى لا يقاس بحجم اللوحة ، ولكن بمدى ما تتركه من أثر فى النفوس !

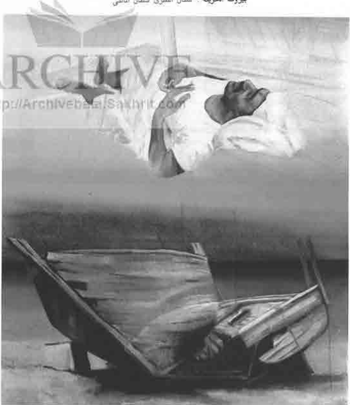
ورغم اشتراك تسعة فنانين من دولة الامارات العربية المتحدة وهم : عبد الرحيم سالم خميس ، حسين شريف ، حسن محمد شريف ، عبيد سرور الماس ، صالح أحمد الأستاذ ، منى الخاجة ، محمد يوسف ، محمد ابراهيم القصاب ، هشام المظلوم .. رغم إشتراك هذا العدد الذى تعودنا أن نراه فى معظم المعارض العامة ، إلا أن الأعمال فى هذا العام لم تكن بنفس مستوى متابعتنا للحركة التشكيلية فى دولة الامارات ، وقد يكون السبب هو الاستعجال فى الاختيار !

أما جناح سلطنة عمان فى المعرض ، فقد دل على أن الحركة التشكيلية الوليدة تسير بخطوات متقدمة ، وإن كان الفنان أنور بن خميس بن سونيا قد تألق كعادته ، وخاصة فى لوحاته المرتبطة بالبيئة مثل : صياد ، وبائعة الثياب الجوالة .

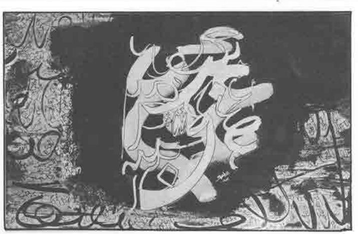
وكلنا نعرف أن الحركة التشكيلية فى البحرين قد سبقت كل الحركات التشكيلية فى منطقة



بيروت الحزينة : للفنان القطرى سلمان المالكى



حلم : للفنان الكويتى على نعمان توفيق



الأطلال : للفنان القطرى على حسن



صورة عمرها عشر سنوات لكاتب المقال مع نخبة من الفنانين العرب
خلال المعرض الرابع للفنانين التشكيليين العرب فى الكويت عام ١٩٧٥

الخليج ، ورغم ذلك فاننا تعودنا هذه الأيام أن نرى تذبذباً فى المستوى . فأحياناً نرى من الفنانين أعمالا متألقة ومبهرة ، وأحياناً نلاحظ التكرار لموضوعات سبق أن عولجت فى لوحات أهم من الناحية الفنية والموضوعية..

وإذا ما رجعنا إلى الحركة التشكيلية فى المملكة العربية السعودية ، لوجدنا انها قفزت فى السنوات الأخيرة قفزات ملفتة للنظر سواء من ناحية إنتاج الفنانين أو من خلال المعارض المحلية والخارجية .. وفى هذا المعرض ــ بالذات ــ اشترك من المملكة خيرة فنانيها وهم : خليل حسن خليل ، محمد موسى السليم ، سليمان أحمد باجبع ، حسن عبد الله عبد المجيد ، فهد ناصر الربيق ، عبد الله علي الشلتى ، يوسف أحمد جاها ، عبد الرحمن ابراهيم السليمان ، أحمد مبارك منشى ، وناصر عبد الله الموسى .. وقد قدموا جميعاً أعمالا تستحق الثناء ، وإن كان الفنان خليل حسن خليل بلوحته سقوط غرناطة ، وما تحمله من رؤيا فكرية وتقنية فنية ، قد جذبت إليه الأنظار وطرحت الكثير من التساؤل حول مضمون هذا العمل الفنى !

وقد جاءت تونس الخضراء إلى معرض الكويت التاسع لتشارك بأعمال ثلاثة من فنانيها : الصادق قمش ، ومحمود التونسى ، ورفيق الكامل .. وكانت معظم أعمالهم تدل على مستوى متقدم ورؤية فنية يغلب فيها الشكل على المضمون .. ورغم أن صادق قمش قد حصل على شهادة تقديرية ، إلا أن اللوحة الفائزة فى مجملها زخرفية مبسطة ، لا تحمل مضموناً أو شكلا جديداً !

وما ينطبق على جناح العراق ينطبق على جناح مصر ، فالمشاركون الأربعة وهم زكريا أحمد الزينى ، وصبرى محمد منصور ، وفتحى أحمد محمود ، ومحمود حسين شكرى .. رغم أنهم قدموا لوحات فى مستوى لا بأس به ، إلا أنهم لا يمثلون الحركة التشكيلية فى مصر فى مجملها ، فقد كنا نتوقع من البلد التى أنجبت عز الدين حموده وبيكار والسجينى وحامد ندا ومحمد صبرى وصبرى راغب وغيرهم ، أن تقدم لنا فناً يتجاوز هؤلاء الرواد وغيرهم إلى آفاق جديدة نابعة من جذور الأرض .

ومن اليمن اشترك فنانان هما فؤاد طه الفتيح ، وعبد الجبار أحمد نعمان . وفى لوحة الأخير شعرت بأننى ــ فعلا ــ أمام حلم مغرق فى الألوان الزاهية التى تدل على فهمه لكوامن النفس والقدرة على استكشاف الصراعات الداخلية التى تؤرق الانسان أثناء نومه .

أما الفنانون الذين جاءوا من دولة قطر للمشاركة فى هذا المعرض فهم جاسم الزينى ، يوسف خالد الشريف ، وسلطان الغانم ، وعلى حسن الجابر ، وعيس ماجد الغانم ، وحسن عبد الرحمن الملا ، ويوسف أحمد محمد ، ووفيقه سلطان سيف ، وسلمان المالكى (كاتب هذا المقال) .. وكان من الممكن لهؤلاء الفنانين الذين يمثلون قمة الحركة الفنية فى قطر أن يفوزوا بأكثر من جائزة للشراع الذهبى ، لولا أن أعمالهم المشاركة ليست آخر انتاجهم ، ولكنها أعمال ــ فى معظمها ــ سبق أن قدمت فى معارض أخرى .

أما الدولة المضيفة ــ الكويت ــ فقد شاركت بـ ١٤ فناناً هم : محمود الرضوان ، حسين عبد الله الشكفانى ، علي نعمان توفيق ، ومحمد الشيخ عقيل ، حميد خزعل ، ويوسف القطامى ، وعبد الرضا باقر ، سامى محمد ، وسعود الفرج ، وسالم الخرجى ، وأيوب حسين ، وموضى الحجى ، وعيسى صقر ، وقاسم ياسين .. ورغم المشاركة بهذا العدد الكبير فى هذا المعرض الهام ، إلا أننى أرى ــ من وجهة نظرى ــ أن الحركة التشكيلية فى الكويت تأثرت خلال السنتين الماضيتين نتيجة لغياب الروح الجماعية التى تعودناها من فنانى الكويت ، وقد كان لذلك أثره فى مستوى الأعمال المقدمة والتى لا تتناسب مع المكانة المتألقة التى وصل إليها الفنان التشكيلى الكويتى وسط المحافل التشكيلية .

وإذا كانت لوحات الجناح الفلسطيني قد قدمت ــ كعادتها ــ قضيتها الأساسية وقضية الفنان التشكيلى العربى وهى تحرير الأرض ، فإن الفنانين السوريين الذين شاركوا فى هذا المعرض قد تألقوا فى أسلوب التعبير ، ودلت لوحاتهم على تمكن فى الأدوات والمعالجة الفنية .

وعلى العموم فإن معرض الكويت التاسع للفنانين التشكيليين العرب ، كان فى مجمله تظاهرة فنية ، جمعت كافة الفنانين العرب من المحيط إلى الخليج ، كجسم واحد يشارك فى إيصال نبضات الأمة العربية .

سلمان المالكى

الأسلحة المعجزة

راضي صدوق



ـ ، ستموت ، واحسرتاه ..
ـ قتلته .. قتلته بيدي !
نعم . قتلاً خصباً متدفق الخيرات .
كان الوقت ليلاً ، زحفنا بين شجرات قصب السكَّر .
وكانت الخناجر تضحك للنجوم ، ولكننا كنَّا لا نُبالي بالنجوم !
وكانت شجرات قصب السكَّر تُخدِّدُ وجوهَنا بجداول من دموعٍ خُضْر
ـ لقد حلمتُ بابنٍ يُغمض عينَيْ أمّه .
ـ لا يا أمّاه . بل آثرت أن أفتح عينَيَّ على شمسٍ أخرى .
ـ واحسرتاه عليك يا بُنيَّ . ستموت شرَّ موته .
ـ أمّاه ، بل خيْرَ ميتة .
ـ لأنك كرهْتَ فأسرفْت .
ـ بل لأنني أحببتُ فأسرفت .
ـ ترفّقْ بي ، أغلالك تخنقني ، جروحك تُدميني يا بُنيّ .
ـ العالم لا يترفَّق بي . ليس في العالم إنسانٌ بائس يُعْدَم ، ولا إنسان شقيّ يتعذَّب ولا مُشرَّد ضائع في فجاج الأرض ، إلا وأقتلُ فيه وأُذَلّ .
ـ خلِّصْه يا ربّ ! ..
ـ لن ترحني يا قلب من ذكرياتي

كان ذلك ، ذات مساء ، من شهر نوفمبر
وفجأة ومَضتْ . في الصَّمتِ صيحات
.. يبدو أننا وثبنا ، ونحن الضائعين المشرَّدين ،
نحن المخلوقات الضائعة .

* * * * * * *

هذه ملامح من قصيدة لأيمه سيزار من ديوانه «الأسلحة المعجزة» مازلت أذخرها في قرار الذّاكرة ، مع ما ترسَّب في تلافيفها من غبار الأيام وركام السنين . لكأنّها قصة المسيرة العازمة لهذا الشعب الذي تبعثر في مفازات التيه ، على مدار المعمورة ، لأكثر من ثلاثين عاماً . هذا الشّعب الفلسطيني الذى نبع كدفْقة زلال الماء ، تنبجس من جلْمدِ الصخر ، ثم تتسرب في الجرود والتلال الظامئة ، فتوقظ الخصْب الغافي في رحم الجدب .. وتخفل الكروم بالعناقيد ، ويدر الطين الناشف لبناً وعسلاً ، بعد أن تروى بالدم .

إنها حوارية ضائع وضائعة . أم ووليدها . هى تضن به على نصال الخناجر التي تضحك للنجوم . تضن به أن يزحف في أدغال الليل والشجر . لقد خسرت الأرض ، فكيف تخسر ولدها والأرض ؟ .. ولكن الزمن مثل النار ، ينضج العواطف النيئة ، ويغذى الوجدانات الضيقة بآفاق جديدة ووعى جديد . فالغصن المورق حديث التفتح ، تمور فيه نيران نسغ جديد لا يرهب دغلا ، ولا يرجف لنصلة خنجر . لقد فتح عينيه على شمس أخرى .. أيموت شر ميتة ؟ .. بالطبع لا ، لأنه يحيا أذل حياة ! .

الأم ، بالعاطفة وبجربة العمر ، ترى أن معركة ولدها خاسرة . فهو صغير ، ضائع ، وان إسرافه في الكراهية لكل من صنع له مأساته ، هو الذى يدفع به في طريق الهول والخطر وركوب الموت . والولد ، على غضارة عوده وضآلة تجربته الحياتية ، يرى أن حياته الذليلة خاسرة . ولئن قدر له أن يسقط على أرضه شهيداً ، فلن يخسر شيئاً من حياة .. ولكنه سيطرق الباب المسدود ، للقوافل الضائعة التي تنتظر طلوع من يطرق لها الباب ، من غيابات المجهول .

وفي القضايا الكبرى ، لا تستقيم موازين المناطقة وعلماء الرياضيات . والوطن ، عندما يغتصب أو يعتدى عليه ، ليس أمام مواطنه الا أن يشهر سلاحه . وأى جدل متفلسف متحذلق ، ينكر على المعتدى عليه ان يرفع ساعده في وجه العادى ، أو يهول على أصحاب الحق عقابيل العزم على أداء ضريبة الوطن ، إن هو إلا ضرب من ضروب الانحراف الساقط والاجتهاد السلبي المرذول .

ياعاشق الزهر

« الشابي في الذكرى الخمسين لوفاته »

شعر : شجاع محمد الأسد



تذكَّر الحُلْمَ الريّانَ فابتسما
وراح يغزل من إيحائه نَغَما
حُلْم الصِّبا .. وربيعُ العمر مُتكِئ
على الزمان .. وما أحلى الصبا حُلُما
إذ « الرعاةُ » أغانيهم مجنّحة
تطوي البحيرات والقيعان والأكَما
وكلُّ وادٍ من الألحان مزدهر
وكل نهرٍ غدا بالحُبِّ منسجما
وما ترى زهرةً إلاّ وداعبها
ثغرُ النسيمِ فمالتْ تلثمُ النسَما
ونحلةٍ عبثتْ في صدرِ داليةٍ
وقبّلتْ نافراً من صدرها .. وهما
وطائرٍ حالمٍ نادى بصاحبه :
تعالَ نعمل من ورد الحقول دُمى
ونحتسي من شفاه الفُلِّ خمرتَنا
ونمسح الدمعَ إنْ دمعُ الصباح همي
فما الندى غير دمع الفجرِ يذرِفُهُ
قَبْلَ الفِراقِ . على خدِّ الرُّبَى ألما
وأرض قرطاجةٍ تزهو بشاعرها
فتجعل الشعرَ خمراً والرحيقَ لمى
ابن الطبيعة ... في عينَيْهِ بارقة
منها . ودفءُ فنونِ الشرقِ فوقهما
فشاعر الوجد إنْ دار الحديثُ طلى
وشاعر المجدِ إنْ داسَ العدوُّ حمى
وشاعر « الشعبِ » .. يُعطي منْ محبَّتِه
ما يبتغي الشعب . فِعْلاً كان أوْ كَلِمَا



والباعثُ العزمَ في أعمـــاق أمتِهِ:
إنَّ «الإرادةَ» تبني للعُلَى أمَمًا..
إذا الشعوبُ أرادت غيَّرتْ «قدَرا»،
ودمَّرتْ نُظُمـــا، واستنطقتْ قِيَمـــا
وحوَّلتْ زفرات الظُّلْم عاصفـــةً
تلوكُ في جوفِ شِدْقَيْهـــا الذي ظَلَمـــا

....

إنّ الذي أنشدَ الدنيـــا فأسكرهـــا
دَوّى النشيدُ على آهاتـــه سقَمـــا
وأقْبلَ الداءُ وحشاً فاغراً فَمهُ،
مُسَنَّنَ النابِ، جَوْعـــانَ الحَشـــا، نَهِمَـــا
فصَوَّح الزهرُ من فِقدانِ شـــاعِرِهِ
وأوْغلَ اللّيلُ.. والإصـــباحُ قد هُزِما
والحُبُّ والشِعْرُ قد ذابًا بظُلْمتهِ..
والحبُّ والشعرِ لا إبـــداعَ دونهمـــا
وليس في الأُفق إلاّ وحْشَةٌ ودَمٌ
يُلَطِّخُ السُحُبَ الدّكْناءَ والسُّدُمـــا
يا عـاشق الزهر! مثل الزهر قد قصرت
بكَ الحياةُ.. فلم تنْعَمْ. وما نعما

....

أشرِقْ، أبا قاسمٍ، كالشمس مُؤْتلِقاً
واهْطِلْ بشعرِكَ غيْثاً وَاكِبَ الدِّيَما
وابعثْ به ثورةً بالحقِّ زاخرةً
وابعثْ به عِزَّةً تستنهض الهِمَمـــا
فقد نسينا.. وسوطُ البطشِ يُفْزِعُنا..
معنى الكَـرامةِ والإقدامَ. والشَمَمـــا
وحُطِّمَ القلمُ الرَّعّافُ في يدنـــا
شَرُّ الطغاةِ طُغاةٌ حطّموا القَلَمـــا
وأنتِ.. ياتونسُ الخضراءُ! معذرةً
إنْ لمْ يُوَفِّ القريضُ الشاعر العَلَمـــا
فالبحتريُّ عليـــل النفْسِ مضطهَدٌ
وسيفُ عنترةَ العَبْسِيِّ قد ثُلِمـــا

....

وأقْفَرَ الحـــيُّ منْ فُرسانِ ساحتـــهِ
فمـــا ترى فيه إلا العبدَ والقزَما
ناديتُ معتصماً أبغي الملاذَ به
فإذْ بمعتصمٍ ما عاد معتصمـــا

عمان ــ الأردن

مع الشاعر فاروق جويده :

كيف يكون الوطن جرحاً وقصيدة ؟

حوار أجرته : سارة

ربما لأنني فشلت في كتابة الشعر .. أحببت .. الشعر والشعراء .

وربما .. كما قال المحزون لفقد نخلته العراقية بلقيس « الشاعر مخلوق استثنائي .. لذلك تكون جراحه استثنائية .. وأحزانه استثنائية .. وموته استثنائياً » .

ربما .. لذلك .. أصبح حبي للشعر أيضاً .. عشقاً استثنائيا .

وربما ..

بحر الدوحة .. أول قصيدة حب داعبت أنفاسها الحارة قلبي الصغير ..

بحر الدوحة .. بأهازيجه .. غناء المتكولين بأحبائهم .. وغناء العائدين لصدور أحبائهم .

ولأن كتابة الشعر بحد ذاتها عمل انتحاري .. و .. لأن الطمأنينة هي مقتل للشعر والشاعر معاً .. أحببت التمرد الشرس للكلمة المتوجة .. بالحزن .. والقلق .. وانكسارات القلوب الوحيدة .

« وزيرنا العاشق » فاروق جويده .. شاعر الثمانينات .. كما وصفه الدكتور زكي نجيب محمود .. ولعله شاعر الأعوام المقبلة أيضاً .. لأن « فاروق » خرج من معطفنا نحن قراؤه .. هاجرنا معه من الزمن الخارجي الصاخب .. إلى الزمن الداخلي الأشد صخباً .. وكنا معه .. وكان معنا .. كما أشار الدكتور سمير سرحان في دراسته النقدية لديوانه الأخير « قيثارة يختلط فيها الحزن الغامض الدفين .. والحنين إلى زمن ماض كان الكون فيه يتميز بالتناغم والإكتمال . والأسى على زمن حاضر اختلفت فيه موازين الأشياء وسادت فيه فوضى القيم » .



الشاعر فاروق جويدة

ولأننا كنا نحن « معطفه » فقد احتضن أحلامنا فاحتضناه .. وصارت أشعاره صدفتنا التى تحوى شتات إنكساراتنا .. فصرنا بحره السخي حباً .. وعطاء .

علمنا كيف يكون الوطن جرحاً وقصيدة .. وعلمنا كيف نموت كالأشجار واقفين .. وعلمنا كيف وأين يكون « الملاذ الأخير » .. فتشبثنا بأحلامنا المهزومة بحثاً عن « بيت صغير لكل الحيارى » .

وفى مكتبه بجريدة الأهرام .. صافحت وجهى عشرات البطاقات الملونة المزروعة كزهور بريد فى أرجائه .. وسمعته يقول لى : « تساءل د . لويس عوض عن سر هذه البطاقات .. فأجبته قائلا : فى غياب النقد والنقاد تظل هذه البطاقات القادمة من مختلف أنحاء العالم العربى ناقدى الوحيد » .

قلت : هل هذا رأى .

قال : نعم .. هو كذلك .

عصرنا .. وملوك الطوائف

وتساءلت .. وفى السؤال طعم العتاب ومرارة الحزن .. لماذا جئت بابن زيدون ليصرخ من جديد فى هذا الزمان بأن مآذن الأندلس لن تسقط أبداً .. وقد سقطت ؟

ـــ ربما لأننى أردت أن أقول بمعنى آخر أن مآذن الأندلس قد سقطت وما كان ينبغي أن تسقط .. وربما لأننى وأنا أخوض بأحلامى المشروعة المستنقع العربى الآسن .: أجد نفسى فى ابن زيدون الذى شهد لحظة السقوط الكبرى .. سقوط الأندلس .. وقد شهدت أنا أيضاً لحظة السقوط الأكبر .. سقوط القدس .. وسقوط الحلم معها .

وقد ظلت تطاردنا ـــ نحن الشعراء والكتاب ـــ منذ ألف عام وحتى اليوم حيرة ابن زيدون .. أيهما أجدى الكلمة أم السيف .. وإذا كانت السيوف قد تهاوت .. فما قيمة الكلمة .. وقد قضينا نصف عمرنا فى حروب ومعارك فكرية « دونكيشوتية » لم يكن فيها غالب ولا مغلوب .. إن دوافع معاركنا الفكرية تذكرني دائماً بدوافع معاركنا السياسية الوهمية على امتداد الساحة العربية فى ربع القرن الأخير .

إن جميع معاركنا ـــ الفكرية والسياسية ـــ كانت بلا قضية ، استنفدت طاقات الانسان العربى الاقتصادية والفكرية والجسدية أيضاً .. وكان الخاسر الوحيد فيها الانسان العربى .. البسيط المطحون بأحلامه المتواضعة .

إن اختيارى لابن زيدون لم يكن اختياراً عفوياً .. بل أردت أن أحذر من خلال هذا الاسقاط التاريخى الفنى بأننا نعيش عصر ملوك الطوائف من جديد .. إن المسرحية قد يتغير أبطالها .. ولكن النص واحد .. والمهزلة أيضاً واحدة .. وأردت أن أقول ان الكلمة التى لا يشوبها زيف ولا يحاصرها القهر هى القادرة على صنع الانسان .. وأنه حينما تسقط الفكرة يسقط الانسان والوطن .. وأن الأفكار العظيمة هى التى تصنع الحضارات العظيمة .. وأن العرب صنعوا حضارة الأندلس حينما كانت عقيدتهم هى المنارة التى يسترشدون بها .. وأن مأساة المجتمع الحقيقية تبدأ حينما يتجرد من قضاياه الحقيقية .. فيصبح مجتمعا بلا قضية أو فكرة أو عقيدة .. ذلك هو الانهيار الحقيقى الذى يتبعه بالضرورة ضياع الحلم وسقوط الانسان .. وأن المأساة الحقيقية ليست فى السيف أو الكلمة .. ولكن مأساة الانسان الذى يحمل السيف أو الكلمة .. وأن الاحلام الكبرى لا يصنعها الأفراد وحدهم .. وإنما تصنعها الشعوب .. وإن الحلم قد يحمله فرد .. ولكن يحتاج إلى شعب يحققه .. ابن زيدون

توهج بحلم كبير في زمن لا يعرف قدر الأحلام .. ولكنه ضل الطريق عندما اعتقد أن الشاعر قادر على العوم في مستنقع السياسة ومبارزة السلطة . لقد ضل ابن زيدون .. وسقط .. كما سقط المتنبى من قبله !

• وكيف جعلت « ولادة » شخصية إنسانية مؤثرة ، وهى المرأة اللعوب التى كتبت يوماً على ذيل ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشي مشيتي وأتيه تيها
وأمكن عاشقى من صحن خدى
وأعطى قبلتى من يشتهيها

ــ لقد كانت « ولادة » بالنسبة لي رمزاً أكثر منها « ولادة » التاريخ .. أنا لم أقدم على المسرح المرأة اللعوب التى استطاعت أن تجمع حولها كل تلك القلوب .. ولكنى قدمت امرأة مجروحة .. مهزومة .. ممزقة بين حلمها وبين واقعها .. بين ماضيها وبين حاضرها ومستقبلها .. بين إنسان تحبه وقضية تؤمن بها .. شخصية « ولادة » عندى الانسانة المعزولة التى آمنت بالكلمة والحب رغم أنها عاشت فى ظل السيف والحكم رمزا للوطن .. وابن زيدون رمز للحكم وللحلم معاً .. وقد حاولت أن تقنع وزيرها العاشق بأن الكلمة أجدى وأعمق .. وأن المنصب يعمى عن أشياء كثيرة فهو كالخمر يذهب العقول ، لكنه لم يصغ إليها فتهاوت الأشياء .. سجن ابن زيدون الحلم .. وسقطت « ولادة » الوطن .

• هل تتفق مع الرأى القائل بأن التصنيف الدقيق للوزير العاشق بأنها أمسية شعرية كانت فى حاجة أيضاً إلى استشراف عالم المسرح ؟

ــ أعتقد أن الحكم على هذه المسرحية كان على طرفي نقيض .. ولكن كان هناك إجماع على أن القضية التى طرحتها المسرحية خاطبت وجدان الإنسان العربى وتلمست مواطن الأوجاع فى نفسه .. البعض رأى فيها عملا دراميا تنقصه بعض عناصر العمل المسرحي .. والبعض الآخر رأى فيها عملا درامياً متماسكاً .. وهناك من قال انها امسية شعرية .. وفى ظل تلك المقاييس .. ومع تشعب الإتجاهات .. كتب عن المسرحية عدة مقالات .. واذا كانت هناك كلمة لابد أن أقولها .. فهى أنني قدمت فى هذه المسرحية كل ما استطعت من جهد .

• أعتقد أن « الوزير العاشق » بداية مرحلة جديدة للمسرح المصرى بعد إنتكاسة الأعوام الماضية ؟

ــ أترك هذا الحكم للناقد والقارىء والمشاهد .. ولكن ما يهمنى كشاعر وكاتب أنني وضعت يدى على جرح تنزف منه ضمائرنا وتخجل .. ودليلى على ذلك أن الجماهير التى شهدت المسرحية أثناء عرضها فى الجزائر قاطعت الممثلين بالتصفيق الحاد عدة مرات .. ودليلى الآخر أنه فى كل ليالي عرض المسرحية فى القاهرة وضعت لوحة تقول « كامل العدد » الأمر الذى لم يحدث من قبل .

• هل تتفق مع الرأى القائل بأن من أسباب نجاح المسرحية أنك اخترت ــ بذكاء ــ شخصيتين تثيران خيال القارىء العربى هما ولادة بدلالها الأنثوى وابن زيدون بنونيته الشهيرة؟

ــ لاشك أن قصة حبهما تثير خيال القارىء والمشاهد العربى .. ولكن لو أنني تناولت المسرحية من هذا الجانب فقط لما أضفت شيئاً للمسرح العربى .. وما كانت لتثير إهتمام أحد .. لأنها قصة نعرفها جميعاً ونحن مازلنا على مقاعد الدراسة الأولى .. ولكن الإضافة جاءت من أنني جعلت ابن زيدون الإنسان بكل مقاييس الضوء والظلال فى مواقفه وهواجسه وأحلامه يستبدل نونيته الشهيرة لِيصرخ فى وجوهنا محذراً :

لا تتركوا الأوطان أرضاً مستباحه
فالأرض تعرف من يحب ترابها
الأرض تعرف صدقوني
من يبيع .. ومن يفرط
ومن يلوث .. عرضها .
ماذا نقول غداً ..
ماذا سنحكي .. عندما تتكسر الصلوات
فى أرجاء مسجدنا الحزين ؟
أنقول بعنا الأرض؟
أنقول خنا العهد؟
الأرض ملك للصغار ..
القادمين مع الصباح .

لقد اتخذت من ابن زيدون قناعاً وسيطاً .. وللقناع « الرمز » الوسيط فى لغة الشعر والمسرح مفارقة فى الزمن .. بحيث يقودنا من حيث الظاهر إلى الماضى .. ولكنه يقودنا فى حقيقة الأمر الى الحاضر .. ومع ذلك فهو يقودنا الى المستقبل .. وهذا ليس بجديد فى الشعر العربى المعاصر أو فى المسرح الشعرى .. وغالباً ما يمثل القناع شخصية تاريخية مثل الحلاج وصقر قريش والمتنبي وأبى العلاء .. وقد يكون نموذجاً متكرراً فى الأساطير والقصص الشعبى مثل بروميثيوس وعشتار أو السندباد .. وقد يكون القناع شخصية مخترعة تشتق عناصرها من التاريخ أو الحاضر مثل « القرندل » فى مسرحية « الأميرة تنتظر » لصلاح عبد الصبور أو « مهيار الدمشقي » فى شعر أدونيس .

• إذن .. هل هناك شكل من أشكال التطابق بين القناع والشاعر ؟

ــ إن القناع محصلة العلاقة بين هذين الطرفين الشاعر/ الشخصية . ولأنه كذلك فهو ينطوي على عناصر منهما معاً دون أن يتطابق مع أى منهما بالضرورة .. وقد يكون القناع أقرب الى هذا الطرف أو ذاك .. ولكن القرب شيء والتطابق شيء آخر .. ولذلك فإن كلا الصوتين ــ فى القناع ــ لا يظل فى حالة عزلة بل يتفاعل كل منهما مع الآخر .. ويعدل منه .. فيفقد كل منهما داخل هذا التفاعل شيئاً من وضعه الأصلى .. ويكتسب وضعاً جديداً .. ودلالات جديدة .

سيجيء زمان الأحياء

• هل حقاً تعتقد كما بشرت فى قصيدتك بأنه « سيجيء » زمان الأحياء أم أنها ازدواجية الكلمات عند الشاعر ؟

• لا ينبغى أن نفرط فى لغتنا العربية الفصحى لأنها المجد والتاريخ .

• لست من جيل الكبار الذين ساهموا فى خلق « السيرك » الثقافى السياسى !

• رغم أن نزار دخل لعبة السياسة فإن شعره العاطفى أبقى من شعره السياسى



ابن زيدون





د. شوقي ضيف




نجيب محفوظ




نزار قباني






د. محمد جابر الأنصاري

فدوى طوقان




غادة السمان





نازك الملائكة

د. علي شلش

ــ أنا مؤمن بأن زمان الأحياء سيجيء ... زمان تستعيد فيه الكلمة موقعها على خريطة الأشياء .. وتستعيد فيه المشاعر مواقعها بجوار دفتر « الشيكات » والأرصدة .. لإيماني الراسخ أن الخلل قد يصيب مجتمعاً بعض الوقت .. ولكن ناموس الحياة وطبيعتها توازن الأشياء .. وبأن الأجيال الجديدة التى خرجت من أنقاض صبرا وشاتيلا ستكون أكثر جسارة منا .. والغد لن يصنعه إلا إنسان جسور .. و

حين يموت الناس وقوفاً
ذلك يعني .. أن الأرض ستنجب يوماً
بعض الأمن .. وبعض الحلم
وبعض الناس

وحين يموت الناس نياماً
ذلك يعني أن العمر
سيسقط سهواً
بين الحاكم والحراس .

هذا .. ما قلته في الوزير العاشق أيضاً .

• وسألته إذا كان قد نجح ــ كشاعر ــ في الحفاظ على البقية الباقية من أحلام هذا الجيل المهزوم إقتصادياً ونفسياً وإجتماعياً ؟

ــ أنا شاعر أرفض الهزيمة .. وأتحدى الإنكسار الذى لا يجبر .. وأسوأ أنواع الهزائم استسلامنا الصامت لإنكساراتنا .. ليس الموت أن تنفجر قنبلة تطيح بالعشرات .. أو أن نخسر قضية أو أن نتعثر في طموح .. لكن الموت الحقيقى هو سقوط الحلم .. فإذا كان الأمس قد سقط واليوم في طريقه للسقوط .. فلا ينبغي أن يسقط الغد أيضاً .. فإذا كنا استطعنا جمع أشلائنا في الحروب .. فما أسهل أن نجمع تذكارات لهزائمنا الأخرى .. ونتشبث بالحلم .. كل الهزائم تتساوى إلا سقوط الحلم .. والشعر هو الإبن الشرعي للأحلام .. والقدرة على مواصلة الحلم هي سبيلنا لبعث جديد من بين الأنقاض .. وأعتقد أنني وصلت بقناعاتي هذه إلى مساحة عريضة من أبناء هذا الجيل .. ومؤشري لذلك أن معظم دواويني بيع من كل واحد منها أكثر من مائة ألف نسخة على امتداد السنوات السبع الماضية .. ولعلني أكثر الشعراء تعرضاً لسرقة قصائده .. بل إنني تعرضت لأضخم سرقة أدبية في تاريخ شعرنا الحديث والقديم .. فقد سرق أحد الشعراء العرب ديوان « ويبقى الحب » وطبعه تحت إسم « حكايا القلوب الجريحة » .. والذى أسعدني كثيراً أن الذى كشف السرقة قارىء يعيش في إحدى ضواحي الرياض في خطاب نشرته مجلة اليمامة مع تعليق منها على هذه السرقة .. ولقد تكررت ظاهرة سرقة أشعاري .. والذين سرقوا قصائدى أثبتوا حب الناس للشعر .

قلت لشاعرنا المسروق ..

• لماذا مساحة الحزن في حياة الانسان العربي أكبر من مساحة الفرح .. وهل حقيقة أننا شعب يزدهر بالحزن ويذبل بالفرح ؟

ــ نحن شعب يحب أفراحه .. يزغرد لها نشوة .. ويبتهج ببشائرها كالصغار .. ولكن قدرنا أن نعيش هذا الحزن .. ونتنفسه في مواويلنا .. وضحكنا .. وأغانينا وخبزنا .. ولقد قلت في إحدى قصائدي :

يا ساقي الحزن دعني إنني ثمل
إنا شربناه قهراً ما بأيدينا

• يقول الشاعر حجازي « المبدع من يخرج عمله من الطمأنينة الى القلق » فماذا تقول أنت ؟

ــ المبدع من يحاول أن يصنع حلماً في زمن سقطت فيه كل الأحلام .

• ويقول الأبنودي إن العامية التى يكتب بها هي « فصحى الحياة » .

ــ اللغة العربية الفصحى هى تاريخنا ومجدنا .. وينبغي أن لا نفرط في المجد والتاريخ .

• قال نجيب محفوظ في حوار معه انه يجد في أغاني أحمد عدوية كلاماً وألحاناً « تمشي معاه » وأنه حينما يسمع « نار ياحبيبي نار .. فول بالزيت الحار » فإن هذا ليس كلاماً فارغاً .. بل هو ترجمة لفوضى العصر في قالب غنائي جميل !!

ـ مع تقديري العميق لأستاذنا نجيب محفوظ .. ودهشتي العميقة أيضاً لرأيه هذا .. فإن هذه الأغاني ما هي إلا صورة من صور الإنحطاط التى وصلت إليها الأغنية والكلمة العربية .

• هل تخلصت القصيدة العربية من الثرثرة الشعرية العربية ؟

ـ لم تتخلص القصيدة من الثرثرة .. لأننا مازلنا نرى الشعر قوة بلاغية .. واستعراضا لغوياً وثقافيا .. والشعر فى رأيى ـ ببساطة شديدة هو الإحساس .. والصدق الجميل .

وسألت فاروق جويده فى شيء من الدهشة ..

• أين كان الشاعر وقد هجرت الشعر ثمانية أعوام كاملة ؟

ولاذ بالصمت دقائق .. كأنه يحاول أن يتذكر أمراً قد نسيه .. وقال فى هدوء :

هذا هو الجانب القدرى فى حياتنا .. لقد فرقت بيننا ظروف الحياة .. اكتسحني الجفاف .. واستنزفني الإحساس الهائل بالإحباط والعبث مع بداية النكسة عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٦ وهى الفترة التى عملت فيها محرراً اقتصادياً بالأهرام .. لقد جنحت بي العربة فى طريق لا أعرفه .. وسرقت من عمرى ثمانية أعوام أحسست فيها بمعنى الضياع وتجرعت مرارته .. وإن كنت قد نجحت فى عملى آنذاك .. وقد يدهشك أن أقول أنني استفدت من تجربة عملي كمحرر اقتصادي .. لقد تعلمت أن الشعر هو اقتصاد الكلمات .. وهو اللغة المكثفة جداً .. جربي أن تحذفى بيتاً لي فى قصيدة .. ستجدينها تتهاوى منك تماماً .. فبناء القصيدة معمارياً يعنى الاقتصاد .. والتجربة عندى أيضاً مكثفة جداً وشديدة الاقتصاد .. و .. كان لابد أن أعود للشعر .. بيتي .. وخيمتي .. وسمائي .. كان حنيني للعودة جارفاً .. ولم أكن أملك القرار فيه .. وعدت .. لأتدثر بدفء الكلمة .. وأغفو على صدرها .. من جديد .

شعراؤنا .. ودموع التماسيح

• يقول الدكتور محمد عزيز الحبابي رئيس جمعية الفلسفة فى المغرب «إن المثقفين العرب يكتفون فقط بالبكاء على الشعب فى قصائد تجريدية كلها دموع .. ولكنها كدموع التماسيح .. نحن متخلفون .. وتخلفنا يزداد ويتراكم .. والمثقفون يمرحون وراضون عن ذلك» .

ـ أنا لا أبرىء المثقف العربي من الكارثة التى لحقت بالعالم العربي .. ولا من المأساة التى نعيشها الآن .. لقد مر المثقفون العرب بعدة مراحل .. مرحلة الإختيار .. مرحلة الصراع .. مرحلة التصفيات .. ثم مرحلة المهادنة .. وأخيرا مرحلة الإختيار .. التى كانت فيها اختياراتنا عاطفية وشمتها السياسة ببصماتها الداكنة .. حملنا فيها الأبواق ـ فى أحيان كثيرة ـ لقضايا وهمية .. أنا لست ضد أن يكون للانسان موقف سياسي .. ولكن ضد أن يتحول المثقف إلى لعبة فى يد الساسة . لقد كانت مرحلة الإختيار هذه بداية تفجير الصراعات بينهم على امتداد ربع القرن الأخير .. وبداية مرحلة التصنيفات الفكرية الموشومة أيضاً بالتصنيفات السياسية .. والتى بدأت معها مرحلة الإغتيالات المعنوية إعتقاداً منهم بأن المواقف لابد أن تحسم لإتجاه دون الآخر .. واستنفر المثقفون القوى السياسية ضد بعضهم البعض .. ولقد وصل بنا الأمر إلى أن يكون المثقف العربى سيفاً مسلطاً على مثقف آخر بحكم سلطة أو منصب أو قرابة .. وكانت النتيجة أن هزم المثقفون أنفسهم واغتالوا قضيتهم الحقيقية .. قضية الحرية .. حرية كل واحد منهم أن يعبر عن رأيه حتى لو اختلف معه .

وسألت فاروق جويده «الشاعر الذى يخطو خطوات ثابتة نحو القمة» كما قال عنه الدكتور محمد عناني ..

• أين كنت إذن من كل هذه الصراعات ؟

ـ لم أشارك أنا فى هذه الصراعات لأنني لست من جيل الكبار الذين ساهموا فى خلق «السيرك» الثقافي السياسي .. أنا من الجيل الذى تحمل وزر هذه النتائج ولم يشارك فى صنعها .

• هل الشعراء رافضون أم مستسلمون .. وهل هو رفض عبثي .. أم استسلام عبثي ؟

ـ كثير من الشعراء رفضوا ثم وافقوا .. ثم أعلنوا رفضهم من جديد .. ثم استسلموا .. وتاهت الموافقة فى الرفض .. والقضية فى اللاقضية .. وتلونوا بكل الألوان ولم نحفظ لهم لوناً واحداً فى ذاكرتنا .. وهذه لعبة يمارسها بعض بهلوانات السيرك الثقافي .

• ماذا تعني كلمة «تغيير» فى حياة شاعر .. وسياسي ؟

ـ فى حياة سياسي تعني استبدال أصنام بأصنام .. وفى حياة شاعر تعني خلق إنسان أفضل قادر على فرز العملة الحقيقية من العملة المزيفة .. إنسان يحلم .. وجذوره راسخة فى الأرض كنخلة .. إنسان يدرك أن قضاياه مهما تشعبت وتفرعت فإنها تصب فى مجرى واحد هو حريته .. وحريتي .. وحرية كل طفل يفتح عينيه بحثاً عن ضوء الشمس .

امرأتان .. بيني وبين نزار

• بعد ظهور القصائد الأولى لفاروق جويده ، كانت المقارنة دائماً تدور حول أوجه التشابه والإختلاف بينه وبين نزار قباني .. ومن هنا كان

فاروق جويده في سطور

• من مواليد كفر الشيخ فى ١٠ فبراير ١٩٤٥ .

• تخرج فى كلية الآداب ـ قسم صحافة ـ عام ١٩٦٨ وكان ترتيبه الأول على دفعته .

• عمل محرراً اقتصادياً بالأهرام ثم سكرتيراً للتحرير بها ثم مشرفاً للصفحة الثقافية .. ويعمل حالياً رئيساً للقسم الثقافى بجريدة الأهرام أيضاً .

• صدر له :

• ديوانه الأول «أوراق من حديقة أكتوبر» ١٩٧٤ .

• وديوانه الثامن «شيء سيبقى بيننا» ١٩٨٣ .

• أموال مصر كيف ضاعت «اقتصاد» ١٩٧٦ .

• بلاد السحر والجمال «أدب رحلات» ١٩٨١ .

• الوزير العاشق «مسرحية شعرية» ١٩٨١ .

يستعد لإصدار مسرحيته الشعرية الثانية والتى تتناول تاريخنا العربى المعاصر .. وله تحت الطبع ديوان شعر .

• ترجمت قصائد له إلى اللغات : الإنكليزية ، الفرنسية ، الصينية ، اليوغسلافية .

• صدرت هذا العام أعماله الكاملة عن دار تهامة وقد تضمنت دراسة نقدية مطولة كتبها الناقد الدكتور شوقى ضيف .

• وقد صدرت كتب تناولت أعماله منها .

• «الوحدة والتنوع فى الأدب العربى المعاصر» د . عبد العزيز شرف ١٩٨٢ .

• الجديد فى الأدب المعاصر د . صلاح حافظ ١٩٨٤ .

• أصوات من الشعر المعاصر أحمد فضل شبلول ١٩٨٤ .

• العلامتان المضيئتان فى الشعر العربى الحديث : فدوى طوقان ونازك الملائكة

• قامة شوقى تتساوى مع قامة المتنبى ، لأنه جعل من الشعر خبزاً يومياً !

• لا أوافق نجيب محفوظ فى اعجابه بأغانى أحمد عدوية !

سؤالي لماذا كانت هذه المقارنة بينكما فى رأيك ؟ وهل المرأة ــ الموضوع ــ هى التى ربطت بينكما .. أم أن هناك أسباباً أخرى ؟ فاجابني ، وزيرنا العاشق ، مبتسماً :

ــ أنا من عشاق نزار .. نذرت أيام شبابى لقصائده .. يوم كنا نتناول أشعاره كما نتناول أوراقنا الخاصة جداً والحميمة جداً .. ولاشك أننا أكثر الأجيال تأثراً به .. وأوجه التشابه بيني وبينه تنحصر فى نقطتين .. إحداهما سهولة العبارة .. وسهولة توصيلها للناس .. وأنا مع الرأي القائل بأن أبسط الشعر أجمله .. ونقطة الإلتقاء الأخرى هى مساحة قارىء نزار العريضة التى جعلت له مملكة خاصة .. وقد كنت الشاعر العربى الوحيد الذى اخترق حاجز هذه المملكة .. وأرقام المبيعات تؤكد ذلك .. أما أوجه الإختلاف .. فلقد وصل نزار للقارىء بالقصيدة والأغنية معاً .. أما أنا فقد وصلت اليه بقصائدي .. أنا لم أصل على جناح أحد كما حدث لنزار وكامل الشناوى وابراهيم ناجي .. والتجربة عندى ليست مشابهة لتجربة نزار .. والمرأة عندى أيضاً ليست هى امرأة نزار .. فهو يرى أن تحرير المرأة العربية ــ فى جزء منه ــ أن يكون فى جسدها .. بينما أرى أن تحرير المرأة العربية يجب أن يبدأ من عقلها .. ونزار أيضاً يرى المرأة أحياناً بقعة طين .. بينما أراها نقطة ضوء .. نزار عاش المرأة الحقيقية .. وأنا عشت المرأة الحلم .. هو عاشها كما أرادها .. وأنا عشتها كما حلمت بها .. وكلانا راض عن تجربته .. وإن كانت تجربتي مع المرأة لم تكن بالتوافق الذى حلمت به .. ربما تكون المرأة الحلم قد تراجعت فى السنوات الأخيرة .. لم يعد الحلم بوهجه القديم .. براءته القديمة .. لقد داسته أقدام كثيرة .. ونقطة الإختلاف الأخيرة بيني وبين نزار أنني لم أدخل لعبة السياسة ونزار فعلها .. ولقد أضرته أكثر مما أفادته .

• ولكن القارىء كسب « هوامش على دفتر النكسة » .

ــ هذا صحيح .. وفى رأيى أن شعر نزار العاطفى أبقى من شعره السياسي .. لقد دخل نزار خنادق وفنادق سياسية كثيرة ودفع الثمن غالياً .

• طرح هذا السؤال على نزار وأطرحه أنا عليك بدوري .. من هى المرأة التى يمكن أن يحبها فاروق جويدة اليوم ؟

ــ امرأة تقبلني بنصف عمر .. ونصف قلب .. ونصف حلم !

• للشتاء سر خاص عند الأدباء .. فهو موسم الكتابة عند أغلبهم .. فالشتاء عند العقاد

ــ مثلا ــ كتاب يغلق أبوابه عليه ليهيم فى أحلام الشعر والفن والأدب .. فماذا يعني لك الشتاء برد .. ومدفأة .. ومطر يهطل على النافذة ؟

ــ امرأة أحبها و .. تحبني .. و

وأخاف أشباح الشتاء ..
وأخاف يوماً .. أن أعود بلا جناح
كالطائر المكسور
تحمله الرياح الى الرياح ..
وأخاف حبك عندما ..
يأتي الشتاء بلا رفيق ..
والدرب بعدك ضامت الأنفاس
مرتجف الرحيق .

• هل جرحتك .. امرأة ؟

ــ جرحني .. صدقي .

• وما هي نقطة ضعفك ؟

ــ قلبي الطفل فى اندفاعه وأشواقه .

• ولأنك شاعر القلوب الوحيدة .. أسألك لماذا تخبو اللهفة .. وتنتحر الأشواق ؟

ــ هذا السؤال يعذبني .. فأنا القائل :

العطر عطرك .. والمكان هو المكان
لكن شيئاً قد تكسر بيننا
لا أنت أنت .. ولا الزمان هو الزمان .

• من هو الشاعر الذى ضللنا بأحلام اللقاء ؟

ــ مجنون ليلى عندما قال :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان كل الظن ألا تلاقيا

• هل تتفق معي فى أن الكتاب الذين أعتقدوا أنهم استطاعوا التعبير عن أعماق المرأة وهمومها هم أدعياء ــ أقول ذلك كامرأة ــ وأن ما يكتبه الرجال يتناول المرأة كموضوع وليس كذات ، وأنه لا يستطيع الوصول إلى مجاهل المرأة إلا المرأة نفسها ، وإن فشلت حتى الآن فى ذلك ؟

ــ أوافقك على هذا الرأى .. فأنا أرفض كل أشكال الأدب التى يصوغها بعض الكتاب مدعين أنهم نجحوا فى الوصول إلى سراديب المرأة وفك طلاسمها والتعبير عن جراحاتها وأحلامها .

• أثارت د . ميرفت حاتم الناقدة المصرية الشابة والمدرسة بكلية العلوم السياسية بجامعة « هاوارد » فى واشنطون عاصفة من التعليقات فى مهرجان طه حسين الذى عقدته جامعة المنيا حين خالفت آراء النقاد لأنها أكدت فى بحثها الذى قدمته وجود أدب نسائي مستقل .. وأن النساء يكتبن بطريقة مختلفة عن الرجال ويعالجن مواضيع مختلفة .. وأن الأدب النسائي ينمو ويمتد إلى الداخل .. والأدب الرجالى ينمو ويمتد إلى الخارج .. وأدانت آراء النقاد بأنها « كلاسيكية » لأنها يفوتها أن اهتمامات الجنسين تعبر عن نفسها من خلال أشكال أدبية وفنية متميزة .. لها خصوصيتها .

ــ أخالف هذا الرأى بشدة .. أنا لا أعتقد بوجود أدب نسائي وأدب رجالى .. هناك أدب أو لا أدب .. فعندما تعبر المرأة عن نفسها فإنها تعبر عن الذات الإنسانية التى تتمثل فى المرأة والرجل .. وهذاينطبق أيضاً على الكاتب الرجل .

الديناصور الذى يكاد ينقرض

• إذا كان الأدب العظيم يعطي نقداً عظيماً .. فهل أزمة النقد الحالية سببها أن الكرة فى محمد جابر الأنصارى .. وهل أصبح النقد مهدداً بالإنقراض كالديناصور كما قال د . علي شلش ؟

ــ لا أعتقد أن أزمة النقد الحالية يعود سببها إلى تواجد الكرة فى ملعب الكتاب أو النقاد لأنهما فريق واحد لا ينفصل ولا يتجزأ وإن اختلفت المواقع .. وأعظم ما كان فى حياتنا النقدية والإبداعية أنها كانت تشكل تيارات متكاملة ومتآلفة .. وفى رأيى أن الإنتكاسة أصابت الطرفين معاً المبدع والناقد .. وأن السياسة تركت ظلالها عليهما فأصابتهما بحالة من الإحباط واليأس .. وأنه لا يمكن للنتاج الفردى أن يشق طريقه بذاته

ويفرض وجوده بما يمكن من قيم فنية وثقافية .. لأن هذا تكريس للفردية فى العمل الثقافى والابداعى .. وإلا كيف تنمو التيارات والإتجاهات والمدارس الفنية المتباينة .. أليست هى نتاج فهم ووعى وممارسة جماعية وإن تمخضت فى النهاية عن قيمة فنية واحدة .. فنحن نعانى من أزمة شمولية فى مجتمع فقد تفاعله الصادق والإيجابى مع قضاياه العامة .. وإن كلا الطرفين – الناقد والمبدع – فى حاجة للآخر لأن العلاقة بينهما علاقة تعاون مشترك حول هدف واحد هو إثراء حياتنا الثقافية والفكرية .

• تطرح الصحف والمجلات بين الحين والآخر قضية أزمة العقل العربى ، أين تجد هذه الأزمة ؟

– فى المثقفين أنفسهم .. ومسئوليتهم كاملة وثابتة فيما لحق العقل العربى .. فهم مثقفون بلا قضايا .. اعتزلوا عقولهم .. وهجروا أرض قضاياهم الخصبة .. واشتغلوا فى مطبخ السياسة العربية .. لم يعودوا كما كانوا ضمير الأمة .. ويبدو ذلك جلياً فى صحفنا العربية .. إنها صحف بلا قضية .. فالقضية تخلق التزاماً .. والإلتزام يشحذ الهمم ويقود إلى الإلمام والابانة .. ويوم كانت لنا قضايا كان هناك عقل عربى .. كانت قضية الحرية الفكرية من القضايا الأساسية التى ناضل المثقف العربى من أجلها .. وكانت قضية الإستقلال .. وقضية تحرير المرأة من التسلط والإرهاب .. وحق الإنسان العربى فى أن يتعلم ابتداء بالدول العربية التى ناضلت لكى تستعيد لسانها العربى المفقود تحت ظلم الإحتلال .. وانتهاء بتعليم المرأة العربية التى حرمت من هذا الحق .. كل هذه قضايا اجتمع حولها العقل العربى .. وحينما صرنا مثقفين بلا قضية .. سقط العقل العربى .. وسقطنا .

• و .. هل إقليمية الفكر العربى جزء من أزمته ؟

– بل جزء من مميزاته .. طاغور كان شاعراً إقليمياً ورغم ذلك حصل على جائزة نوبل .. وعمر الخيام كان شاعراً إقليمياً ورغم ذلك أيضاً ترجم لكل لغات العالم .. الإقليمية إحدى المميزات إذا كانت جذورها ضاربة فى أعماق التاريخ والأرض والدين .. بدليل أن المعرى ترجم وابن خلدون وابن رشد وابن سينا والفارابى والغزالى .. ولكن حينما نغير العباءة ونرتدى « البرنيطة » ونمسك البايب ونقول نحن إقليميون فهنا تكون المغالطة .. وحينما ننقل من الغرب بعض قصصه وبعض تجاربه الشعرية والمسرحية ونعيد صياغتها باللغة العربية .. ومن ثم نعيد تصديرها .. فإنهم يقولون بضاعتنا ردت إلينا .. نحن لا نقيم ولا نترجم لأن الغرب يرى صورة باهتة من أدبه فى كثير من مؤلفات بعض كتابنا اللامعين المرموقين .

• ما هى أزمة الكتاب العربى الحقيقية ؟

– أزمة فكر .. وأزمة كاتب .. أزمة قارىء .. وأزمة ناشر .. وأزمة مجتمع .

• هل تتفق معى أن بعضاً من جيل الرواد تعملقوا فى وجدان الأدب العربى لأنهم كانوا رواداً وليس لأنهم عمالقة حقاً ؟

– نعم .. أتفق معك وأقول أيضاً بعضهم .. بدون تحديد أسماء .

إضاءات

وبيقى وهج من أنفاس الشعر .. وتبقى بعض الظلال .. وبعض الألوان من حوارى مع فاروق جويدة .. أنقلها لكم :

• العلامتان المضيئتان فى تاريخ الشعر العربى الحديث هما فدوى طوقان ونازك الملائكة .. أما الشاعرة المصرية فلم توجد بعد !

• شوقى هو الشاعر الذى جعل من الشعر خبزاً شعبياً والذى تتساوى قامته مع المتنبى .

• مدرسة الرومانسية العربية سبقت رومانسية الغرب وهى أكثر عمقاً منها وأكثر رسوخاً .

• أرفض الرمز الغربى حتى أظل مع قارئى على أرض واحدة .

• الفن كالحب .. لابد أن يكون عملاً أخلاقياً .

• الدكتورة سهير القلماوى وبنت الشاطىء إسمان أنا حريص على أن أقرأ لهما .. لأنهما تشكلا تشكيلا ثقافياً سليماً .. مشكلة الكاتبات المصريات الجدد هى ضحالة التشكيل الثقافى .. والموهبة وحدها لا تكفى .

• بدايات البياتى كشاعر كانت أعظم وأعمق وأروع .

• الشعر لا يموت بالضربة القاضية .. وكذلك الحب .

• ابن زيدون شاعر عالمى بكل المقاييس .

• غادة السمان .. أنضج كاتباتنا العربيات .

• كل الأشياء الجميلة تأتى بغير موعد .. وترحل أيضاً بغير موعد .

• أعيش كما أكتب .. وأكتب كما أعيش .. بمعنى أننى أعيش بهذه البساطة التى أكتب بها .. أنا ظل قصائدى .. وقصائدى ظل لى .

فاروق جويده فى الميزان

• قال الناقد الدكتور شوقى ضيف : « إن نبض الشاعر يختلف عن كل من سبقوه .. ومن أهم ما يميز شعره اتساع النداء فيه ، وهى صفة أساسية .. فى كل شعر جيد .. واننى أحس عند قراءته بأنه ينقلنى إلى قريتى أيام أن كنت ألهو مع لداتى من صبيان القرية » .

• ويقول د . عبد العزيز شرف : « إن شعره يمثل مرحلة متميزة فى الرومانسية الجديدة » .

• وأضاف د . عبد العزيز حموده : « بأنه واحد من الشعراء القلائل من أبناء جيله الذين يؤكدون باستمرار قدرة هذا الجيل على العطاء المتجدد والمستمر » .

• وكتب د . يوسف خليف رئيس قسم اللغة العربية بآداب القاهرة : « استطاع الشاعر أن يقدم لنا صورة من التجديد نفتقدها فى كثير من شعر المدرسة الجديدة التى حطمت كل القيم الموسيقية واهدرت كل المقومات الصوتية لشعرنا العربى » .

• وعن « الوزير العاشق » كتب كامل زهيرى : « لقد ظل جمهور المسرح الذكى متعطشاً لشاعر رصين حتى ظهر فاروق جويده بمسرحيته الراقية الأولى .. التى أعادت الروح للمسرح الشعرى بمولد شاعر جديد أعاد الضوء للمسرح وأعطانا الكثير من عذابه وعذوبته » .

• وعنها أيضاً كتب عبد الفتاح البارودى بأنها « أضافت إسم مؤلفها إلى أسماء مسرحنا الشرقى .. شوقى وعزيز أباظة وعلى باكثير والشرقاوى وصلاح عبد الصبور » .

• وطالب د . يحيى الجمل التلفزيونات العربية : « بأن تذيع هذه المسرحية حتى يراها كل عربى ويشعر بحجم الكارثة التى تحيط بنا » .

• وأضافت فريدة النقاش : « بأن المسرح المصرى يشهد بداية نهضة .. ومن مظاهرها مسرحية « الوزير العاشق » التى استعاد بها المسرح الشعرى جمهوره » .

• وأشاد مصطفى أمين بأن « المسرحية حدث ثقافى بكل المقاييس على المستوى المصرى والعربى فقد حققت أعلى إيرادات فى مسارح الدولة ومثلت مصر فى مهرجان المسرح الجزائرى . وأرسل التليفزيون المغربى بعثة تليفزيونية لتصوير بعض مشاهدها ورغم هذا اعترضت الرقابة المصرية على تصويرها مخافة أن يتعلم الوزراء العشق والغرام والهوى .. رغم أن المسرحية تتناول الصراع بين الحكام العرب فى الأندلس .. وربما تصورت الرقابة أن الأندلس هى حديقة الأندلس بالجزيرة ! » .

سارة

أوراق خضراء

الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد حجماً لأمع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة

● المعرفة سيادة ●● لا مؤاخذة ●●● المزاج البارد

المعرفة سيادة



بقلم : عباس محمود العقاد

المسافة بين منشية الاسكندرية ومحطة الرمل قصيرة ، ولكنها على قصرها تريك من أى طريق سلكتها عظم المسافة بين الأمم التى تسود والأمم التى تساد .

عشرون أو ثلاثون مكتبة فى هذه الطريق بين فرنسية وانجليزية وإيطالية ويونانية ، وفيها من الكتب الأدبى والقصصى والفلسفى والعلمى وكل ما يبحث فيه الباحثون ويصنف فيه المصنفون .

والبلاد عربية ، فأين هى المكتبة العربية بين جميع هذه المكتبات ؟

لا ترى هناك مكتبة واحدة ، وإن رأيت بعض الكتب العربية فقد تراها معروضة فى إحدى الوجهات الأفرنجية فرعاً من الفروع الصغيرة ، لا أصلا من الأصول الكبيرة التى تتشعب عليها الفروع .

لم هذا ؟

ألأن الاسكندرية مدينة تجارية كما يقولون فلا شغل فيها للمصريين غير التجارة والسوق ، وغير البضاعة والأسعار ؟

إن كانت التجارة صارفاً عن الثقافة فالأجانب فى الاسكندرية تجار أو عاملون فى التجارة . ولعلهم هم القابضون على أزمة السوق وهم الظافرون منها بحصة الأسد ، وما من أجنبى فى الاسكندرية إلا وهو طالب مال ومشتغل بحرفة من حرف الاتجار والصناعة . فلم كثرت الكتب الأفرنجية وقلت الكتب العربية فى المدينة ؟؟

أم هى كثرة الصحف والمجلات كما يقولون قد صرفت المصريين عن دراسة الكتب إلى لهو القراءة وتزجية الفراغ ؟

ليس هذا أيضاً بصالح لمعذرة ولا لتفسير ، فإن الصحف والمجلات الأجنبية التى تظهر فى القاهرة والاسكندرية ، أو ترد إليها من لندن وباريس وروما أكبر عدداً وأوسع انتشاراً من صحفنا ومجلاتنا العربية ، وهى مع هذا لا تصرف القراء عن مطالعة الآداب ومتابعة العلوم والأخذ بالنصيب المطلوب من الثقافات والفنون .

لا هذا ولا « الأمية » سبب معقول لشيوع الكتب الأفرنجية وندور الكتب العربية فى عاصمة القطر الثانية ، أو فى عاصمة الثقافة الشرقية على عهد من

المعرفة سيادة

عهود مصر الغابرة ، فإن العارفين بالقراءة من المصريين فى الاسكندرية لا يقلون عدداً من العارفين بالقراءة فيها من النزلاء والغرباء ، وإن كان فرق بينهما فى العدد فليس هو الفرق الذى يكون بين صفر وثلاثين .

إنما الفرق الصحيح هو فرق بين أمم تسود وأمم تساد .

أو هو فرق بين من يطلبون المعرفة شوقاً واستطلاعاً ، ومن يطلبونها تكليفاً واتباعاً ، لأن التكليف فرض على المسودين حتى حين يعرفون .

بل هو فرق بين النفس التى يبقى فيها جانب يطلب الغذاء بعد أن تشبع المعدة بالخبز والماء ، وبين النفس التى يشبع منها كل جانب حين تمتلىء الأحشاء بالطعام والشراب .

وذلك هو الفرق الصحيح لا مراء .

* * *

وفى الطريق من مصر إلى الاسكندرية على جانب الصحراء أديرة قديمة نعلم عنها من كتب الأجانب ما لسنا نعلم من الكتب العربية جمعاء .

ذهبت إلى الاسكندرية ومعى كتاب ضخم بالانجليزية عن هذه الأديرة يقع فى نيف وخمسمائة صفحة كبيرة بين كتابة ونقوش .

لمن كتبه الكاتب ؟

وماذا يعنى القراء مما كتب ؟

كتبه للمعرفة ، ويقرأه القراء للمعرفة ، وليس من سبب غير المعرفة يساوى الجهد المبذول فيه والثمن المقدور له والوقت الذى انقضى فى تحضيره وتأليفه وضبط نقوشه ورموزه وتواريخه .

أما هذا السبب فلعله آخر الأسباب التى تدفع الجمهرة عندنا إلى فتح كتاب ، فضلا عن تأليف كتاب .

* * *

من يطلب المعرفة لفائدة يحصرها فى المأكل والملبس والمسكن وما هو فى حكم الطعام واللباس والبيوت ، فإنما هو مسوق إلى ما يطلب ، وإنما هو عبد فى جهله وعبد فى معرفته على السواء .

ومن يطلب المعرفة لأنها المعرفة ، فذلك هو السيد وتلك هى السيادة ، وحسبه أنه هو يريد أن يعرف ثم تأتى الفائدة فى الطريق : وليس ، يراد على معرفة شيء كما يراد على جهله ، لأنه مسوق بسلطان الضرورة القاهرة إلى ما يريد .

ولست أعنى بسيادة العارف أن المعرفة سلاح فى يديه يصل به إلى السيادة كما يصل المرء إلى السلطان بالسيف والمال والحيلة .

كلا . فلو كان كل ما فى المعرفة من سيادة أنها كالسلاح فى هذا المطلب لكانت أداة تؤدى إلى غيرها ولم تكن غاية تتأدى إليها المقاصد وتنتهى إليها اللبانات .

ولكنما عنيت أن طلب المعرفة للمعرفة هو هو السيادة ، وهو هو العلامة على أن الانسان « سيد » ، يفهم ما يفهمه لأنه طبيعة فيه ووظيفة من وظائف عقله وتكوينه ، لا لأنه مغرى به إغراء الطمع ، ولا لأنه مسوق إليه سوق الاجبار والاكراه .

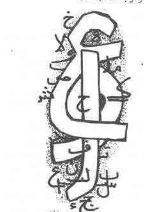
لم تعرف النفس ؟

الا تسأل : لم تنظر العين ؟ ولم تسمع الأذن ! ولم يشم الأنف ؟

ولم تدرك الحواس ؟

إن العين لا تنظر لسبب غير أنها حاسة فيها قوة النظر ، والأذن لا تسمع لسبب غير أنها حاسة فيها قوة السماع ، وكذلك الأنف وكذلك كل حاسة فى الانسان أو الحيوان .

فما بالنا نبتغى سبباً للعقل أو البصيرة حين يدركان ويعرفان ؟ لماذا تنظر العين لغير علة ولا مطمع ولا فائدة ، ثم نأبى على العقل أن يدرك ما يدرك إلا للعلل والمطامع والفوائد ، وإلا لهذه العلل والمطامع والفوائد التى نحصرها فى أضيق الحدود وأقرب الحاجات .



لأحرى بنا أن نسأل : لماذا يحجم العقل عن المعرفة ، وأن نسأل لماذا تحجم العين عن النظرة ، وأن نسأل لماذا تعجز الحواس عن الادراك .

عندئذ نفهم الجواب ولا يطول بنا العناء فى فهمه ، فذاك أن الحواس عاجزة مكفوفة ، وأن العين عمياء ، وأن العقل معدوم أو ضعيف .

أما أن نسأل لماذا يعنى العقل بالمعرفة فذاك هو اللغو والفضول ، وذاك هو السؤال الذى يشبه سؤالنا : ما بال العين تقع على ما تراه ولا تنحرف عنه ولا تأبى النظر إليه .

حسب الشيء أنه يرى ليكون ذلك حقاً له فى رؤية العيون .

وحسب الشيء أنه يعرف ليكون ذلك حقاً له فى معرفة البصائر والعقول .

فان جعلنا للمعرفة ثمناً من الحطام أو ثمناً مما يشبه الحطام فهى إذن معرفة اضطرار أو معرفة عبيد وأتباع ، وهى إذن شيء وطبيعة السيادة شيء ، ولو نجح صاحبها فى السيطرة على الآخرين كما ينجح الجبان فى يده المدفع وخصمه أعزل من السلاح .

قال الأستاذ طمسون عن آراء أرسطو فى علم الأحياء ما معناه : إن الفضل كل الفضل للفيلسوف الإغريقي العظيم أنه شعر بالحاجة إلى مراقبة الحشرات والأسماك فى الخلجات ، وفهم أن تقييد حركتها وتسجيل ولادتها ونموها معرفة تحسن بالحكيم ، وليس الفضل أنه أتى بآراء فى علم الأحياء يعول عليها الناس فى العصر الحديث .

ولو أن الفيلسوف الاغريقى لم يشغل عقله فى زمانه إلا بما يفيد لتوه وساعته لما وصلنا إلى علم أحياء يفيدنا اليوم ، أو لا يفيد .

ليست الآفة عندنا أننا مشغولون بالتجارة عن القراءة ، فالأوربيون أعظم منا اشتغالا بالتجارة واجتناء لخيراتها .

وليست الآفة أن الصحف اللاهية تصرفنا عن كتب العلم والأدب والدراسة ، فان الصحف اللاهية سبقتنا فى أوربا ويسبقنا بها الأجانب فى بلادنا .

ولكنما الآفة أن التجارة تجارتان : تجارة أحرار فهم مسيطرون عليها ، وتجارة اتباع فهى مسيطرة عليهم ، وأننا إذا طلبنا المال أو المعرفة طلبناهما مسوقين ولم نطلبهما طلب السادة الذين يملكون من أنفسهم بقية يشغلونها بما يحبون .

عباس محمود العقاد

١٩٣٨





بقلم : محمد فريد أبو حديد

كنت أعرف رجلاً طيب القلب بلغت منه طيبة القلب مبلغاً عظيماً . فكان يحب الخير ولا يميل الى الأذى ، ويعف عما فى أيدى الناس ، ويعطيهم مما فى يديه أكثر مما كان ينبغى له ، حتى إنه كان يحب أحياناً أن يولم لبعض أصدقائه وليمة فلا يجد ما يولم لهم به من المال فى كفه ، فيدفعه حرصه على إرضائهم إلى أن يؤذى نفسه فى سبيل ذلك الرضا . فقد استدان مرة بضعة جنيهات من صديق له وأولم فى اليوم التالى لبعض أصدقائه وليمة لذيذة ، وأبى عليه كرمه أن يهمل صديقه الذى استدان منه فدعاه الى الحضور ، وكانت فكاهة الأصدقاء بنبأ الوليمة والدين الذى ركب صاحبها من ورائها سبباً فى شحذ شهوة الطعام فى الجمع حتى لم يبقوا على شيء من ذلك الطعام اللذيذ .

غير أن هذا الرجل الطيب كان فيه عيب واحد لا أعرف فيه عيباً سواه ، وهو أنه كان يعنى عناية عظيمة برأي الناس فيه ، فلا يكاد يسمع من أحد مدحاً فى نفسه حتى يثور طربه ، ويهتز للمديح اهتزاز الغصن الرطب فى الريح ، وقد تدفعه الأريحية عند ذلك إلى الخروج عن طاقته فى جزاء المادح ، وأما إذا هو سمع أحداً يذمه ولو ذماً ضئيلاً ، فانه لا يتمالك نفسه من الغضب ، وقد تكون غضباته مضرية هائجة ، ولولا أنه من الثابتين المطمئنين الى حكم القانون ، لكان لا يرى شيئاً يغسل عنه معرة الذم ، إلا أن يراق فى سبيلها الدم . وقد عرفت أنه سمع مرة أن بعض الناس يهمون فيه ويذمونه بأنه يأكل فى بيته الثريد بأصابعه الخمس ، وأنه ما يكاد يصل إلى بيته حتى يخلع ثيابه المحترمة ، ويلبس لباساً ساذجاً مما يلبسه عامة الناس من طبقات الفقراء ، فيضع على رأسه لبدة بيضاء من الصوف الخشن ، ويلبس فى رجله قبقاباً من الخشب الثقيل ، ويلبس على جسمه جلباباً من القطن الرخيص ، فما كاد يسمع ذلك القول حتى ثارت ثائرته ، وجعل يصيح فى الحاضرين بأعلى صوته واصفاً ما يلبس وما يأكل ، مجتهداً أن يطلع الناس على حاله فى بيته ، وعلى ما هو عليه من تمتع بأقصى ما يتمتع به المتحضرون المتأنقون ، ولعله قد لاحظ شيئاً من التردد بين سامعيه فى تصديق أقواله ، فجعل يزيد فى التأكيد حتى بلغ الأمر منه أن جعل يقسم لهم جهد الايمان ، ولما أحس مع كل ذلك أن السامعين فيهم المعاند والمكابر ، اتخذ خطة عملية حازمة لبيان صدق قوله ، فقد حلف على الجميع وعزم أشد العزيمة أن يزوروه فى منزله فى صباح الغد ليقيموا عنده النهار أجمعه فيطلعوا على أسلوب حياته معاينة واختباراً . ثم ذهب من فوره الى أقرب أصدقائه إليه ، وأوثقهم مودة عنده ، وأملئهم جيبا . فاستدان منه مايستعد به لحفلة الغد . ولم ينس أن يدعوه فى المدعوين لشهود ما هو على نية إظهاره وإجلائه .

ولكن لا يظنن أحد من القراء أننى أصف هذا الرجل لأنه ممن يستحق العناية الخاصة لميزة فى شخصه ، أو لمكانة له بين الناس . فانما أنا أسوقه مثلاً لقوم فى مصر يريدون أن يقحموا البلاد فى مثل ما تورط فيه صاحبنا هذا . فمثلاً قد تكرر ما قال القائلون من الدعوة لمصر فى الخارج ، وما صاح الصائحون من وجوب إظهار أهل الغرب على ما نحن عليه من رقى وتحضر ، وهم لا يضنون على ذلك السعى بالمال مهما عظم مقداره ، والحق إننى أعطف أشد العطف على وطنية هؤلاء وسلامة طويتهم . فمثلاً قد ذهب أحد المصريين الى مؤتمر من المؤتمرات ، وكان بطبيعة الحال لابساً بذلة من البذلات الرسمية الوجيهة ، فمال عليه جاره وكان من ممثلى بعض دول الغرب فسأله عما هو صانع ببذلته تلك بعد انصرافه من المؤتمر . وأغلب ظنى أن ذلك الزميل الأوربى المحترم قد ظن فى الممثل المصرى أنه لا يكاد ينفلت من المؤتمر حتى يرمى بتلك البذلة فوق أقرب شجرة من شجر الجميز إذا بلغ الطريق المؤدية إلى عاصمة بلاده ، وهو راكب جملاً قوياً يحمله فى سفره ، ثم يقف تحت تلك الشجرة ينتظر مرور أول وعل من وعول الجبل فيرميه بسهم من قوسه الشديدة ، ويسلخ عنه جلده ، وينشره فى الشمس يوماً أو بعض يوم ، ثم يلبسه بدل بذلته الرسمية . ثم يتابع سيره نحو العاصمة لمقابلة أولى الأمر فيها ، وإبلاغهم نتيجة



بحوث المؤتمر الذى كان يمثل بلاده فيه . لعل ذلك الزميل قد حسب هذا . ولابد أن الممثل المصرى قد تصور هذا الظن . ورأى فيه مساساً عظيماً بكرامته وكرامة بلاده فغضب له . وجاء يشكوه لبنى وطنه ليظهر لهم مقدار جهل الناس بحقيقتهم . وقد سمع هذا القول طائفة من الناس فغضبوا له غضباً شديداً . وجعلوا يطالبون بأن تبذل الحكومة من أموال الشعب بضع مئات من ألوف الجنيهات الذهبية لكى تنظم دعوة لاطلاع أهل الغرب على حقيقة أمر الشعب المصرى..

واننى لا أرى مانعاً يمنع من بذل المال . ولا من القيام بدعوة فى سبيل مصر . فكل شيء فى خدمة مصر هين .

ولكنى مع ذلك أحب أن تتجه الدعوة نحو قصد مخالف كل المخالفة لما يريد هؤلاء السادة أن يدعوا إليه . ولايسعنى إلا أن أعتذر لهم وللقراء عن هذه المخالفة التى قد تغضبهم متى وصفت لهم حقيقتها . ولا أجد شيئاً أقدر أن أعتذر به اليهم إلا أن أقول لهم : « لا مؤاخذة » . فان هذه الكلمة كلمة سحرية . وقد جربت أثرها فى مختلف المواقف . فوالله ما خانتنى سحرها يوماً . ولا خذلنى نصرها فى ساعة من ساعات الشدة . فكم وطئت على أقدام فى الترام وقت الزحام . فلما رأيت ثورة الذى وطئت قدمه أسرعت وتلفظت بذلك الطلسم . فاذا وجهه تشرق عليه ابتسامة عريضة . ويهز رأسه لى . كأنما هو يعتذر عما ظهر على وجهه من التجهم فى أول الأمر . وكم أخطأت فلم ينجني من تبعة الخطأ إلا هذا اللفظ المبارك . وكم خرجت عن حدود اللياقة ونفذت الى العفو الفسيح من مداخل هذا اللفظ البديع . فلا مؤاخذة أيها السادة إذا كنت أعتقد أن خير مصر ونفع الوطن فى أن تبذل بضعة آلاف أو بضع مئات من الآلاف من جنيهات الذهب . على أن يقوم جماعة من المخلصين لمصلحة هذه البلاد بدعوة فى شعوب العالم أجمع . يعلون فيها من ذكر مصر . بأن يصفوا أهلها بالتوحش والغلظة . وينعتوهم بأقبح النعوت وأبشع الصفات ـ وحبذا يوم يعتقد فيه شعوب أوربا وامريكا أن المصريين لا يلبسون إلا جلود النمور والأسود . ولا يعرفون من المساكن إلا الكهوف والأدغال . وأن لهم قسياً قوية وسهاماً مسمومة . وأنهم يقفون لأعدائهم تحت الصخور ووراء الجذوع . فيسددون إليهم سهاماً مصمية لا ينجو أحد من جراحها . وأن الذى يدخل بلادهم لا يلقى إلا مشقة . ولا يرتاح فى حل ولا ترحال . وأن المصريين يأكلون لحم الحيوان بغير نضج . فاذا لم يجدوا من لحوم الحيوان شيئاً أشبعوا الجوع بما يجدونه قريباً منهم فى اللحم . ولو كان آدمياً . وأنهم حديدو الأسنان . حمش السيقان . خزر العيون . قبيحو الخلقة . أقول هذا . ولا مؤاخذة . فان تلك الدعوة عندى آثر وأحب . وأثرها فى ظنى أبلغ فى إجلال القوم لنا ومراعاتهم لحرمتنا . فان الناس على حضارتهم لم يزيدوا بعد على أنهم متوحشون . قد طلوا ظاهرهم بطلاء من الفضة أو الذهب . وأما باطنهم فلا يزال فيه الحيوان البري الذى يخشى القوة الوحشية خشية أعظم من تقديره لفضائل الفلسفة .

وانها لأهانة لا تعد لها إهانة أن يذهب نفر من أهل مصر ليعلنوا فى ملأ الشعوب الأخرى أن شعب مصر يلبس الملابس المعتادة . لا جلود الحيوان . وأنه يأكل الخبز والطعام . لا لحوم البشر ولا المن والجراد . أما أنا فيمين الحق إنه لأحب إلى أن يذهب الناس عنى قائلين إنى متوحش . أو إنى جاهل . أو إني غر . أو إنني من أكلة لحوم الانسان . من أن أكلف نفسى أن أبين لهم أننى لست كما يزعمون . لا بل إننى أحسب أنه لو ظن الناس فيّ مثل هذه الظنون لكان هذا مبعث فكاهة لنفسى أنعم بها وحدى وأنا أتأمل مقدار جهل هؤلاء الناس بى . وضلالهم فى معرفة حقيقة أمرى .

ولعل أهل الغرب إذا فشت فيهم عقيدة أننا من لابسى الجلود وآكلى اللحوم النيئة . حملهم ذلك على بعض التحرز فى معاملاتنا . وبعض الخشية من أنيابنا .

ولا مؤاخذة ! ! ...

محمد فريد أبو حديد

١٩٣٤

كان لنا فى المدرسة الابتدائية مدرس لا نراه إلا معبّساً ــ لا يفتر له ثغر ولا تنبسط له أسارير وجه . ولا تلمع عيناه بنور البشر . لفرط ما يزوي ما بينهما . ولكنه على هذا كان لا يكف عن ركوب زملائه المدرسين ورئيسه الناظر أيضاً بالدعابة التى تجيء أحياناً خفيفة محمولة . وسائغة مستظرفة وأحيانا أخرى تكون سمجة ثقيلة لا تطاق . فمن لطيف مزحه أن العادة جرت فى المدارس بأن يصور التلاميذ مع أساتذتهم فى آخر العام المدرسى لتبقى الصور ذكرى لعهد التعلم فصففنا أمام المصور ــ القصار من أمثالى فى الصدر . والطوال وراءهم . وجلس المعلمون على كراسى أعدت لهم أمامنا وجيء بكرسى كبير ذى مسندين للناظر . وكان رجلاً جهولاً ولكنه طيب القلب . وجعل صاحبنا يروح ويجيء هنا وههنا ليسوى الصفوف كما يزعم . ويقدم واحداً ويؤخر آخر ويقبل ويدبر والناظر قلق يصيح به : « اخلص بقى يا فلان افندي » فيقول : « حالا . إن الله مع الصابرين » ويمضي فيما هو فيه من التسوية والتعديل . وكانت العادة أيضاً أن توضع خلف الصفوف خريطة أو مصور جغرافى كبير فادعى أنه نسي ذلك وذهب يعدو إلى حجرة المدرسين ثم عاد يحمل مصوراً ملفوفاً وعلقه وأبقاه مطوياً ثم صاح بنا : « الآن انظروا كلكم إلى عدسة المصور » ففعلنا ونشر هو المصور الجغرافى وأخذت الصورة فطوى الخريطة وحملها وذهب بها فأعادها إلى حيث كانت . وجاءت الصور وأدى كل من رغب في الاحتفاظ بنسخة منها الثمن المفروض ومضى بها إلى بيته فرحاً مسروراً . ثم تأملناها على مهل فى البيوت فاذا مكتوب وراءنا بالخط الثلث : « حيوانات الدنيا » . ولا أحتاج أن أقول إن معلمنا نشر خلفنا مصوراً لحيوانات الأرض من أبقار وجاموس وحمير وخيل وأسود وفيلة الخ لا للكرة الأرضية وقاراتها..

ومما أذكره فى باب المزاح العملى أن واحداً من أصدقائى كاد مرة يخرب بيتى . فقد زارنى فلم يجدنى وكنت يومئذ فى بيت عتيق له فناء رحيب . فوقف يصفق وينادى . فلما قالوا له إنى خرجت قال : « سبحان الله العظيم وهل هذا كلام ؟ يشبك بنات الناس ويهرب ؟ » .

المزاح البارد

بقلم: إبراهيم عبد القادر المازني



وعدت إلى البيت وأنا خالى الذهن مما حدث . فلما دخلت على أهلي قلت : « السلام عليكم » كما هي عادتي فرأيت أمي تنظر إلى مقطبة ثم ترخى عينها إلى الأرض . فالتفت إلى زوجتي فاذا هي تنظر إلى الحائط ولا تحول عينها عنه . كأنما عليه رسم ساحر . فاستغربت وأنكرت هذا الاستقبال الحافل بالنذر ولكنى آثرت التباله . وأقبلت على أمي أريد أن أقبل يدها فتناولتها فنزعتها بعنف وحولت وجهها عنى والدمع متحير في مآقيها فزاد عجبى وقلت : « مالكم ... جرى إيه ؟ » فصاحت أمي بى : « رح .. رح إلى حيث كنت » .

ووجدت زوجتي لسانها فقالت : « أيوه رح إلى حيث كنت » .

فتأملتها ملياً وأنا أحك رأسى وأحاول أن أهتدى إلى سر هذا اللقاء الغريب فلم يفتح الله على بشيء ، فقعدت أمامهما وجذبت وجهيهما إلى وقلت : « خبرانى ما هى الحكاية فما أعرف شيئاً أستحق من أجله أن ألقى منكما هذه الجفوة » .

فأفصحت أمي قليلا وقالت : « شف بنات الناس ... » .

فقاطعتها : « بنات الناس ؟ أى بنات وأى ناس ؟ » .

قالت : « هل خطبت ؟ » .

فوثبت إلى قدمى وصحت : « خطبت ؟ .. خ .. خ ... » .

فقالت زوجتي : « ألا ترين كيف يتلعثم ؟ إن هذا إقرار » .

فصرخت وأنا أكاد أجن : « أى إقرار يا ستى ؟ أين عقلكم يا خلق الله ؟ ألا تكفى غلطة واحدة ؟ » .

ولا أحتاج أن أقول أيضاً إنى خرجت بحماقتى من ورطة فوقعت في ورطة . فقد اقتنعت أمى وزوجتى بأن الزواج من أخرى لم يخطر لى على بال . وإن هذا كان مزحاً ثقيلا من صاحبي ولكن زوجتي ظلت إلى آخر عمرها تذكر قولى : « ألا تكفى غلطة واحدة ؟ » .

* * *

ومن الفصول الباردة ما حدث مرة في بيت قريب لنا وكان قد دعانا إلى سهرة في مصر الجديدة حيث كان يسكن : وكان بين الضيوف اثنان من المصريين الذين تعلموا في ألمانيا : فاقترح أحدهما أن يدعو صديقاً له من الألمان ليسمعنا قطعة موسيقية ألمانية فكاهية . وقال إنها : « تميت من الضحك » وأيد زميله قوله . فقبلنا وذهب رب الدار معهما لدعوة هذا الألماني الذى بشرنا بأنه سيميتنا من الضحك وكانت شقته في العمارة نفسها فما لبثوا أن عادوا ومعهم رجل وقور ، ذو لحية كثة ، ووجه رزين ، ونظرة صارمة ، فجعلت أتعجب فيما بيني وبين نفسى كيف يسع هذا الرجل أن يضحك أحداً كائناً ما كان ما يغنيه أو يعرفه . وكان الشابان يكلمان الرجل بالألمانية التى لا نعرف منها حرفاً . وجلس الرجل إلى البيانو وشرع يدق فلم يبد لنا ــ أو على الأقل لى ــ أن في الأمر ما يضحك . وكان جاداً وكان وجهه ساهماً كأنه يحلم ، وغنى وهو يدق بصوت عميق قوى فالتفت إلى أحد الشابين فألفيته يبتسم فقلت : أبتسم مثله وأستر جهلي باتخاذه قدوة . وصرت بعد ذلك أخالس الشابين أو أحدهما النظر وأفعل كما يفعلان فإذا ابتسما ابتسمت ، وإذا ضحكا ضحكت ، وإذا قهقها أطلقتها مجلجلة .

ولم أكن وحدى في هذا الاحتذاء فقد كان المدعوون مثلى جهلاء ــ أعنى باللغة الألمانية ــ وقد خطر لهم كما خطر لى أن يحاكوا الشابين . وكنت ربما عجبت لطربنا فقد كان إذا ضحكنا أو قهقهنا يرمينا بنظرات حامية فالتفت إلى الشابين مستغرباً ما يبدو عليه من الغضب والغيظ والنقمة فهمس في أذنى أحدهما أن هذا هو المضحك .. هذا الجد الصارم على الرغم مما في القطعة التى يغنيها وما في تلحينها من الفكاهة الواضحة فهززت رأسى كأنى فهمت وازددت اقتناعاً بأن الأمر مضحك ولاشك ورحت أقهقه . ثم استغنيت عن النظر إلى الشابين والاقتداء بهما ورحت أضحك على مسئوليتى كما يقولون وخلعت ثوب الجهل والتقليد ، ولبست ثوب الدعوى المريض الفضفاض .

وأخيراً نهض الرجل عن كرسيه وأدار فينا عيناً تقذف بالشر وخرج مغضباً محنقاً يبرطم ويبرجم ونحن نتبادل نظرات الانكار لهذا السلوك العجيب فهل كان ضحكنا يا ترى أقل مما يجب ؟ هل خيبنا أمله ببلادتنا ؟ لا بل بجهلنا فقد كان ما يغنيه قطعة مبكية من مأساة مشهورة : وكان الرجل المسكين يعتز بأدائها على الوجه الصحيح . فكاد يجن إذ نتلقى ذلك بالهزء والسخرية . وقد اعتذرنا إليه بعد بضعة أيام ــ لما فهمنا الحقيقة وعرفنا أنها كانت مزحة قبيحة ــ ولكن المسكين كان قد تعذب ليالى لا ليلة واحدة .

ابراهيم عبد القادر المازنى

١٩٣٧

حين تصحو ابنتي

شعر: محمد الحارثي



حينَ تصحو ابنتي ابْتِهاجٌ
منَ النومِ
أصحو
أرتّلُ قرآنَ فجرٍ جديدْ
وأجلو زجاجة روحي بروحِ الزُّجاجْ
وأسبحُ في بحرِ يومٍ جديدْ
وأُشْعِلُ وردة عمري ..
أكثّفُها ، وأوحّدها باحمرارِ السِّراجْ

* * *

حينَ تصحو ابنتي
أستعيدُ المساءْ
وأمسكُ في راحتي أغنيات المدينة ، أسماءها ،
شوارعها ، حدائقها ، بناياتها ، نفاياتها ، خرافاتها ،
ثم أعجنُ كلَّ العناصر بالماء ..
أخبزها في إناءٍ مُحَمّى بنارِ التّوحُّدِ بالشمسِ والبرتقالْ
.. ثم آخذها وأوزعها بالبريد السريع إلى حَيْثُ كانتْ ،
وأقعدُ قدّامَها وأنا مُنْتَشٍ بدخولِ الهواءْ
في مساماتها وشُعيراتها ..
أُقَبِّلُ وَجهَ ابنتي ..
أُدثّرها بفطورِ الصباحْ
ثمّ ...

آخذها للحديقةِ ، حيثُ تمارسُ كلّ طفولتها
في التّزحلقِ ، أو في « التّمرجُحِ »
أنظُرُ في وجْهها وهي تضحكُ ..
وهي تطيرُ ككلِّ الفراشاتِ ..
أشعرُ ساعتها بارتياحْ
وأنسى قليلاً ..
قليلاً ..
قليلاً ..
قِلاعَ الجراحْ

* * *

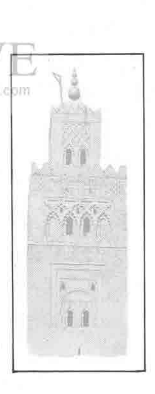
حينَ يأتي المساءْ
وتنامُ ابنتي ، بعد صحنِ العَشاءْ
أستعيدُ الصباحْ
ثم قَبْلَ التمسّكِ باللوحِ تشطُرهُ موجَةٌ ،
وتعرِّيهِ من شكلِهِ فلسفاتُ الرياحْ
بمجيءِ الدوارُ ..
وأسقطُ في قاعِ بحرِ الجراحْ
وأنتظرُ الصحو ...
صحو ابنتي ، وطُيور الصَّباحْ

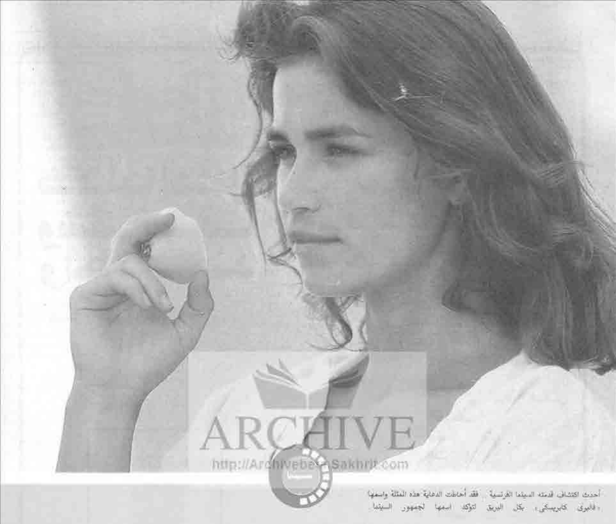
ـ مَسقط ـ



شعر: محمد التهامي

أغلِقُوا المذيَاعَ .. قَدْ أزْعَجَني
سَئِمتْ رُوحِي .. وَمَلّتْ أُذُني
بَعْدَمَا فُزِّعتُ مِنْ مَأْسَاتِكُمْ
لَمْ يَعُدْ شَيْءٌ لَكُمْ يُفْزِعُني
بَعْدَمَا أَسْرَفْتُ في تَصْدِيقِكُم
لَمْ يَعُدْ قَوْلٌ لَكُمْ يَخْدَعُني
ذلِكَ المَيْنُ الّذِى جُرِّعْتُهُ
حَطَّمَ الصِّدْقَ .. كَمَا حَطَّمَني
لَمْ أعُدْ بَعْدَ الّذِى شَاهَدْتُهُ
أُرْجِعُ العَيْنَ لِمَا رَوَّعَني
لاَ تَظُنُّوا أنَّ مَا تَأْتُونَهُ
فِيهِ شَيْءٌ مِنْ قَلِيلِ الفِطَنِ
إنِني أدْرَى بِمَا بَيَّتُّمُوا
قَدْ هَوى السِّتْرُ الّذِى ضَلّلني
لَنْ تَرَوْني دُمْيَةً فى كَفِّكُمْ
أَوْ تَرَوني سَاجِداً لِلْوَثَنِ
إنّني أرْثِى لَكُمْ مِمَّا أرى
وَأَرَاكُمْ في شِرَاكِ المِحَنِ
وَأُصَافِيكُمْ عَلَى عِلاّتِكم
وأُنَادِيكُمْ بِقَلْبٍ مُؤْمِنِ ..
آه مِنكُمْ لَوْ صَدَقْتُمْ مَرّةً
تُخْرِجُنَا مِنْ عَذَابٍ مُزْمِنِ
فَتعالَوْا نَصْدُقَ القَوْلَ مَعاً
لَا تَخافُوا مِنْ سَرابِ الفِتَنِ
كُلُّنَا أَهْلٌ وَشَعْبٌ وَاحِدٌ
نَتَلاَقَى فى رِحَابِ الوَطَنِ
وَسَنُعْطِى عَنْ سَخَاءٍ وَرِضىً
كُلَّ مَا تَبْغُونَ مِنْ عَيْشٍ هَنِى
نَحْنُ أَوْلَى مِنْ غَرِيبٍ غَرَّكُمْ
لَيْس يُعْطِيكُمْ بِغَيْرِ الثَّمَنِ
نَحْنُ أَهْلُوكُمْ .. وأَنْتُم أَهْلُنَا
كُلُّنَا أعْضَاءُ هَذَا البَدنِ
كُلُّ شَرٍّ نَصْطلى فِيهِ مَعَاً
لَيْسَ مِنَّا وَاحِدٌ فى مَأْمَنِ
أَرْضُنَا تَجْمَعُنَا فى عَيْشِنَا
وَتُوارِينَا ـ مَعاً ـ في الكَفَنِ
وَغداً !! هَلّا نَظَرْتُم فى غَدٍ
وأَمِنْتُم مِنْ حِسَابِ الزَّمَنِ ؟





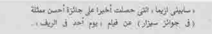
أحدث اكتشاف قدمته السينما الفرنسية .. فقد أحاطت الدعاية هذه الممثلة واسمها «فاليري كابريسكي» بكل البريق لتؤكد اسمها لجمهور السينما

بقلم: رءوف توفيق

مأزق السينما الفرنسية

التضحية بالفن الجيّد في مقابل إرضاء المتفرّج العادي.. المملول.. المرْهَق!





« سابيلي ازيما » التي حصلت أخيرا على جائزة أحسن ممثلة (فى جوائز سيزار) عن فيلم « يوم أحد فى الريف ».



« ايزابيل ادجاني » الممثلة التي قدمتها السينما الفرنسية منذ خمسة أعوام ، وأصبحت الآن من ألمع ممثلاتها.

في الثامن من هذا الشهر ـ مايو ـ يبدأ مهرجان « كان » السينمائي ، الذي يعتبر من أهم الأحداث السينمائية ، والتي تستعد له صناعة السينما في العالم . فهي تقدم من خلاله أفضل انتاجها الجديد ، وحيث يتجمع عدد هائل من النقاد والصحفيين والسينمائيين ، ورجال الصناعة وخبرائها وتجارها ..

مهرجان حافل تشهده هذه المدينة الفرنسية منذ ثمانية وثلاثين عاماً .. ارتبط بها ، وارتبطت به .. حتى أصبح أحد المعالم الفنية على خريطة العالم.

ولكن المثير تماماً .. أن فرنسا التي يقام على أرضها هذا المهرجان السينمائي .. تعاني صناعة السينما فيها من هزات متلاحقة !

ما تكاد تخرج من مأزق حتى تقع في مشكلة !!

ويمكن تلخيص موقف السينما الفرنسية الآن .. بأنها السينما التي تبحث عن « رد الاعتبار » بعد الهزائم المتلاحقة أمام السينما الأمريكية التي تكتسح السوق الأوربية ، والسوق الفرنسية واحدة منها !

« رد الاعتبار » بعد الخسائر المادية التي لحقت بالانتاج السينمائي ، وخصوصاً الأفلام ذات الميزانيات الضخمة ، والتي منيت بالفشل ..

« رد الاعتبار » بعد الهجوم العنيف الذي شنه النقاد والخبراء على فقدان « هوية » السينما الفرنسية حتى أصبحت في كثير من الأحيان « مسخاً » مشوهاً ، لا يدل بحال على حضارة فرنسا وتاريخها الطويل في الثقافة والفن.

المتفرج العادي .. هو الهدف !

ومحاولات « رد الاعتبار » .. يبدو أنها تتجه الآن الى تحقيق هدف رئيسي .. هو تدعيم وجود الفيلم الفرنسي داخل بلده أولا .. ثم داخل السوق



«رومى شنايدر» الوجه المعبر الذى فقدته السينما الفرنسية ، وكان أحد معالمها



«ايزابيل هوبير» إحدى نجوم القمة على الشاشة الفرنسية

سينما

الأوربي ثانيا ..

أي أن الخطة بدأت .. باثبات الوجود !

ومن الواضح حتى الآن .. أن تحقيق هذا الهدف يسعى بجدية وبحركة التفاف سريعة لجذب المتفرج العادي ، الملول ، المرهق .. وتلبية احتياجاته من الفن السينمائي الذي يعتمد على الكوميديا أو الاثارة البوليسية ... أو الاثنين معاً ! وهذا المتفرج ، الملول ، المرهق .. هو آفة السينما العالمية الآن !

واذا كانت السينما الأمريكية قد استطاعت أن تكسب هذا المتفرج ، بمجموعة أفلام الكوارث والرعب .. ثم أفلام الخيال العلمي ، ومخلوقات الفضاء .. فإن السينما الفرنسية لا تستطيع أن تجاري هذا التيار الباهظ التكاليف ، الذي يعتمد على وسائل الابهار البصري والسمعي ، والذي تتبارى من أجله الصناعة الأمريكية في تحقيق أعلى مستوى من خلال إخضاع تكنولوجيا الآلات والمعامل .. لزغللة العيون ، وإحداث الصدمة والمتعة الوقتية !

والسينما الفرنسية ليس لديها الامكانيات لتقديم هذه الأفلام .. فماذا تفعل ؟ بحثت في دفاترها ، ورصدت مؤشرات السوق عندها .. ثم قررت أن تدخل هذه المباراة الشرسة مع السينما الأمريكية ، لانتزاع «بعض» من جمهورها .. بسلاح الكوميديا وأفلام التشويق والمغامرات !!



مؤشرات الشهور

الثلاثة الأخيرة

ولهذا أسندت مسئولية ادارة أكبر مؤسسة للسينما في فرنسا (شركة جومو) لمنتج شاب حقق أرقاما قياسية في الايرادات بفلمه الأخير ، الذي شاهده خمسة ملايين متفرج في فرنسا وحدها (والفيلم من النوع الكوميدي) !!

استدعوا هذا المنتج .. وقالوا له نريد أن نربح .. تعال وظف خبرتك في السوق لانقاذ هذه الشركة الكبيرة من خسائرها ..

حدث هذا في ديسمبر الماضي .. وبعدها بثلاثة أشهر كانت مفاجأة جوائز سيزار السينمائية الفرنسية (وهي تعادل جوائز الأوسكار الأمريكية) .. فقد ذهبت جائزة أحسن فيلم وأحسن اخراج لفيلم كوميدي عنوانه «لي ريبو» يتحدث عن العلاقة بين شرطي ولص والمغامرات التي تجمعهما معاً ..

الفيلم من النوع التجاري ..

والغريب تماما أن ترشيحات جوائز السيزار لأحسن فيلم كانت تضم أفلاما لأكبر وأهم مخرجي السينما الفرنسية (آلان رينيه — اريك رومير — برنارد تافيرنيه) ..

وكان في قائمة أحسن فيلم ، ذلك الفيلم الموسيقى الرائع «كارمن» للمخرج فرنشيسكو روزي ، والذي يعيد إحياء أوبرا كارمن بلغة سينمائية متدفقة بالجمال والمتعة .

ولكن هذا «الفن الراقي» لم يشفع للحصول على الجائزة .. وكأنما كانت النية مبيتة لتكريم السينما التجارية .. فذهبت أهم جائزة سينمائية في فرنسا .. الى المخرج «كلود زيدي» وفيلمه «لي ريبو» .

واعتبر كثير من المراقبين لحركة السينما الفرنسية .. أن هذا الاتجاه في الجوائز يؤكد ارضاء مزاج المتفرج العادي الملول ، المرهق .. والاعتراف بذوقه الفني .

وهكذا كشفت الاتجاهات الجديدة في صناعة السينما الفرنسية — وخلال ثلاثة أشهر فقط — مؤشرات المرحلة القادمة من الانتاج !

وأصبح واضحاً أنها مرحلة من الانتشار .. قد تكون على حساب «الفن الراقي» .. ولكن المطلوب هو الاستمرار وتحقيق الأرباح !!

«الوحش الأمريكي»

الذي يلتهم الايراد !

والمأزق الذي تعاني منه السينما الفرنسية .. ليس جديداً .. ولكنه تفاقم في السنوات الأخيرة ..

وسجلت الأرقام ، انخفاض عدد المشاهدين ، المترددين على دور السينما . من ٤٥٠ مليون شخص في عام ١٩٥٠ الى ٢٠٠ مليون شخص في عام ١٩٨٢ .. الى ١٩٥ مليون شخص في عام ١٩٨٤ !

وهذا الانخفاض لا تنفرد به فرنسا فقط .. ولكنه ظاهرة عامة تعاني منها السينما الايطالية





المخرج «كلود ليلوش» على اليسار .. أثناء اخراج أحد أفلامه .

المخرج الراحل «فرانسوا تريفو»

أيضاً .. والسينما الانجليزية .

ولكن أغرب ما في هذا الانخفاض .. أنه يأتي بنسب عالية بين مشاهدي الانتاج السينمائي المحلي ، بصورة أكبر من تأثير ذلك على الانتاج السينمائي الأمريكي !

فالمشاهد الذي يملك حق ثمن تذكرة الدخول الى دار العرض .. قد يتحمس لمشاهدة فيلم أمريكي .. أكثر من حماسه لمشاهدة فيلم فرنسي أو ايطالي أو انجليزي !

وبالتأكيد يتضح أن اغراء السينما الأمريكية . وحجم الدعاية المصاحب لها .. يفوق اغراء السينما المحلية الأوربية !

وأمام هذا «الوحش» الذي يلتهم الايراد ، والاهتمام .. فكرت الدول الأوربية في تدعيم صناعة السينما فيما بينها .. من خلال وسيلة الانتاج المشترك .. كأن تساهم دولتان في انتاج فيلم وأحياناً ثلاث دول !! وتضخمت ميزانية الافلام .. ولكن بالرغم من هذا الحل .. الا أن العائد المادي لم يكن مغريا بالاستمرار .. ولكن لم يكن هناك طريق آخر !

تنقل المخرجون من بلادهم .. وتنقل الممثلون .. وتكتلت رءوس الأموال .. وبالرغم من ذلك لم تحدث المعجزة .. ولم ينكسر «الوحش الأمريكي» .. بل أصبحت المعجزة أن توافق إحدى شركات التوزيع الأمريكية على الدخول كشريك في الفيلم والقيام بتوزيعه عالمياً .. حينئذ تفتح «أبواب السعد» للفيلم !

وأمام هذه الحقيقة الاقتصادية .. كان على السينما الأوربية أن تعيد حساباتها .. وتستكشف الطرق لمقاومة الفناء والنهاية !

مأزق السينما الأوربية ..

ومــــأزق الفــن الجيد

أغرقت السينما الايطالية أسواقها بالأفلام الكوميدية الخفيفة ، القليلة التكاليف ، التي تصلح مع أطباق المكرونة الاسباجتي الشعبية

فتحت السينما الانجليزية أستوديوهاتها ومعاملها وأرضها لرجال الصناعة الأمريكية الباحثين عن أسعار أقل .. وأماكن جديدة لتصوير أفلامهم ..

سعت السينما الألمانية والسويسرية لكل الفرص المتاحة للانتاج المشترك .

وجربت السينما الفرنسية كل الطرق .. مستفيدة من تاريخ وخبرة المؤسسة الفرنسية «جومو» في الانتاج والتوزيع .. ولكن هذه المؤسسة بدأت تعاني من خسائرها المادية المتلاحقة ..

ولكن استمرار هذا المأزق .. لا يعني نهاية السينما الأوربية .. ولكن يعني انخفاض الفرص أمام السينما الفنية الجادة !

في وسط هذا الصراع التجاري للبقاء والاستمرار .. يصبح الحرص على المستوى الفني والفكري الجيد .. مسألة تحتاج لوقت وتكاليف .. وتضحية !

ولم يعد القادرون على التضحية .. مستعدون للمجازفة بقلب مفتوح !! هناك الف سبب وسبب يجعلهم يترددون .. ويتدخلون .. ويطالبون بالتنازلات !

ومن الصعب .. أن يقبل الفنان الحقيقي ، العمل بالتنازلات !

الفترة الذهبية .. التي انتهت

وقد حزنت فرنسا على رحيل مخرجها اللامع الموهوب «فرانسوا تريفو» في أكتوبر الماضي .. مات متأثراً بمرضه الخبيث عن ٥٢ عاماً .. ولكن «تريفو» كان أكثر حزناً في سنواته الأخيرة بسبب ما جرى للسينما الفرنسية .. بعد التوهج الفني الذي عاشته في سنوات الستينات مع «الموجة الجديدة» .. والتي كان هو أحد مؤسسيها .

في آخر حوار صحفي معه أجرته مجلة «ستيلز» الانجليزية .. قال المخرج تريفو : «لقد انتهت الموجة الجديدة في السينما الفرنسية .. ولم يعد باقياً منها سوى بعض الأفلام وما يكتبه عنها تاريخ السينما» .

وفي نفس الحوار الذي أجرته المجلة الانجليزية بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على ظهور الموجة الجديدة .. قال المخرج «كلود شابرول» وهو أحد مؤسسي تلك الفترة الذهبية من السينما الفرنسية :

«لقد كان كل شيء وقتها ينبيء بعصر من الحرية والابداع في فرنسا .. مجيء ديجول الى الحكم .. والرغبة الشعبية في أن تكون السينما الفرنسية تعبيراًعن ايقاع العصر .. في نفس وقت ازدهار أدب القصة والرواية .. وحماس الكتاب للمشاركة في السينما .. كل هذه العوامل كانت أشبه بالصدمة التي ايقظت السينما الفرنسية .. والتي جعلتنا نتحرك لنصنع شيئاً» .

هكذا تكلم بحزن ومرارة .. صانعوا الفترة الذهبية .



لقطة من فيلم « قصتنا » الذي فاز أخيراً بجائزة أحسن سيناريو كتب للسينما .. وفاز « آلن ديلون » بجائزة أحسن ممثل .. والفيلم استقبله الجمهور باستياء شديد ، بينما تحمس له النقاد !

وتمر السنوات .. ويتغير الناس .. وتتغير السينما.

انتهت الموجة الجديدة .. وأصبحت مجرد ذكرى جميلة .. ومناسبة فقط يحتفل بها في المهرجانات والمعاهد المتخصصة.

وفقدت السينما الفرنسية شخصيتها المتميزة .. وتفرق ألمع مخرجيها يبحثون عن فرص العمل في بلاد أخرى .. وحتى من بقي منهم محافظاً على فن السينما : لم يجد الجمهور المناسب الذي يحميه ويدافع عنه

قناة رابعة في التليفزيون .. تدخل المعركة

وآخر ما كانت تتوقعه السينما الفرنسية في معركتها من أجل البقاء والاستمرار .. أن يفتتح التليفزيون قناة خاصة (القناة الرابعة) لكي تعرض لجمهورها في المنازل ونظير اشتراكات شهرية ، عشرين ساعة يومياً من الأفلام السينمائية !

حدث هذا في نوفمبر الماضي .. وظهرت القناة الرابعة ، لتقدم لجمهورها نوعيات مختارة من الأفلام الفرنسية والأوربية والأمريكية (٦٠ في المائة) أفلام فرنسية وأوربية ــ والباقي أفلام أجنبية) .. ومعظمها أفلام حديثة ، لم يمر على عرضها الأول في دور السينما سوى ١١ شهراً .. بينما كان العرف السائد في التليفزيون الفرنسي أن ينتظر ثلاثة أعوام ــ وأحياناً عامين ــ حتى يستطيع أن يعرض الأفلام الجديدة !

ولكن القناة الرابعة ، وبإغراءات كثيرة ، وتخفيضات في الاشتراكات .. استطاعت أن تصبح حقيقة داخل نسبة كبيرة من البيوت الفرنسية .. وتحت شعار نحن نأتي لك بالسينما داخل بيتك .. ودون حاجة لأن تبذل مجهوداً لكي تذهب لدور العرض ، وأيضاً دون أن تتكلف ثمن التذاكر والمواصلات ..

وتراوحت ردود الفعل حول تأثير هذه القناة على مستقبل السينما الفرنسية .. البعض يراها كارثة محققة حيث ستلتهم عدداً كبيراً من رواد السينما . وبالتالي ستؤثر على ايرادات الأفلام .

والبعض الآخر يراها فرصة ذهبية للسينما الفرنسية ، حيث يصبح ثمن استغلال الفيلم للعرض بالتليفزيون .. مورداً جديداً لم يكن متاحاً بهذه السرعة !

وما زالت التجربة في شهورها الأولى .. ولم تحسم بعد نتائجها .




« طرزان الجديد » أو الممثل « كريستوفر لامبرت » الذي أصبح في عام ١٩٨٤ هو النجم الذائع الصيت الذي تراهن عليه السينما الفرنسية لخمسة أعوام قادمة

إيف مونتان .. نجم الشاشة الفرنسية الذي قرر الاشتراك في الأفلام التجارية الهابطة حتى يحافظ على مستواه الفني

جيل جديد من الممثلين .. ولكن

ولكن المتفائلين بمستقبل السينما الفرنسية .. يضعون أوراقاً مختلفة على المائدة ويراهنون عليها ..

إنهم يراهنون على قدرة السينما الفرنسية في العطاء المستمر بالنسبة للوجوه الجديدة من الممثلين والمخرجين ففي العام الماضي ـ فقط ـ دفعت بالممثل الجديد « كريستوفر لامبرت » الذي لعب بطولة فيلم « أسطورة طرزان » وتحول بين يوم وليلة الى واحد من أشهر ممثلي السينما الفرنسية .. بل والسينما العالمية !

فقد تصدر فيلم « طرزان » قائمة الايرادات في عام ١٩٨٤ .. واشترك نفس الممثل في فيلم مع ممثلة فرنسا الأولى « كاترين دينيف » بعنوان « كلمات وموسيقى » .. ثم اشترك مع « ايزابيل ادجاني » نجمة فرنسا المدللة ، التي فازت في العام الماضي بجائزة سيزار كأحسن ممثلة .. هاهما معاً في فيلم جديد بعنوان « محطة المترو » ..

وفي العام الماضي أيضاً .. لعبت الممثلة « فاليري كابريسكي » في فيلم « امرأة عمومية » .

ولعبت أيضاً الممثلة « سابيني أزيما » بطلة فيلم « يوم أحد في الريف » .. وفازت عنه بجائزة سيزار هذا العام كأحسن ممثلة ..

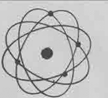
مجموعة من الممثلين قد يستمرون لعامين أو خمسة أعوام .. وقد تستثمرهم السينما الأمريكية لتدفع بهم الى آفاق عالمية أوسع انتشاراً ..

والمراهنون يقولون إن دليل صحة السينما الفرنسية هو بقاء الآن ديلون وبلموندو وكاترين دينيف وايزابيل هوبير .. وغيرهم ممن يضيئون الشاشة ويحملون اسم فرنسا .

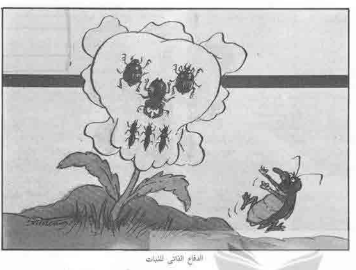
ولكن المتشائمين يقولون .. إن السينما الفرنسية تصنع النجوم .. ولكنها لا تصنع كتاب السيناريو الذين هم عماد السينما .. فالموضوع السينمائي هو الأصل .. والأبقى .. فما الذي يفعله الممثل الجيد بدون موضوع يقدمه !

وهذه النقطة التي يثيرها هؤلاء .. لهم كل الحق فيها .. فحتى اتجاه السينما الفرنسية الى مخاطبة المتفرج العادي ، الملول ، المرهق .. تحتاج الى نوعية من الموضوعات غير المستهلكة .. تلك التي اطلق عليها الجمهور والنقاد معاً « السينما الغبية التافهة » .. فمهما كان المتفرج ملولاً إلا أنه لا يريد أن يشعر أنهم يعاملونه كفاقد للوعي والإدراك .. !!

رءوف توفيق



الدفــاع الذاتــي للنبــات



الدفاع الذاتي للنبات

أعلن فريق بحث بلجيكى أنه تمكن من جعل أوراق شجيرات التبغ تنتج مبيداً حشريا يحميها من الآفات والحشرات .

فلقد استخدم الباحثون تقنيات الهندسة الوراثية لعزل الجينة المسئولة عن تكوين بروتين سام من نوع خاص من البكتريا ، ثم قاموا بزرع هذه الجينة فى نوع آخر من البكتريا تتطفل على النباتات مسببة لها نوعا من السرطان النباتى .

وبهذه الطريقة استطاع الباحثون تحويل نشاط هذه البكتريا الضار باستبدال الجينات المسئولة عن الأورام السرطانية بالجينات المكونة للبروتين السام للحشرات واليرقات التى تهاجم نبات التبغ .

وبعد الحصول على هذه البكتريا المعالجة بتقنيات الهندسة الوراثية ، قام الباحثون بجرح ساق نبات التبغ وتعريض الجزء المجروح لمحلول يحتوى على البكتريا المعالجة بحيث قامت الأخيرة بنقل جيناتها الجديدة للنبات التى تتطفل عليه . ومن ثم أصبح هذا النبات قادرا على إفراز المادة القاتلة للحشرات .

ونظرا لأن هذه الجينات أصبحت جزءا من الحامض النووى لخلايا النبات فإن هذه الخاصية ستنتقل من جيل إلى آخر وتصبح صفة متوارثة .

ويتوقع العلماء بعد نجاح الأبحاث على نبات التبغ امكانية تعميم هذه التقنية على عدد كبير من المحاصيل والخروج بها من حيز التجربة الى حيز التطبيق خلال فترة لا تزيد على خمس سنوات .

وتتميز هذه الطريقة المبتكرة بأنها لا تسبب تلوثا للبيئة ولا تضر بالانسان أو الحيوان أو الحشرات النافعة كما هو الحال بالنسبة للمبيدات الحشرية المستخدمة حاليا .

جهاز جديد لتنظيم دقات القلب



يعانى مرضى القلب عادة من اضطراب فى ايقاع دقات القلب فقد يصبح الايقاع بطيئا جدا أو شديد السرعة وبشكل مفاجيء ، وفى كلتا الحالتين يمثل ذلك خطراً على حياة المريض . كما يتعرض البعض إلى اختلاج عضلى فى البطين ، وفى مثل هذه الحالة لا تسرع دقات القلب فقط ولكن ايقاعها يصبح عشوائيا .

وبما أن جهاز تنظيم دقات القلب التقليدى لا يعالج الاحالة ضعف وبطء دقات القلب فقط ، فإن باحثاً امريكياً ابتكر جهازا جديدا يزرع تحت الجلد ويولد نبضات كهربية تنظم جميع اضطرابات دقات القلب .

ويزن الجهاز الجديد ٩٥ جراما ، ولا يزيد طوله عن ثمانية سنتيمترات ، ويزرع تحت الجلد قرب عظمة الترقوة ، ويخرج من الجهاز سلك يمتد خلال وريد كبير إلى البطين الايمن للقلب . ويقوم الجهاز بمراقبة النبضات الكهربائية الطبيعية للقلب ، بحيث لا يتدخل الا عند الحاجة فقط . وهو يولد عادة نبضة قدرها نصف جول ، ولكنه يستطيع توليد نبضة قيمتها ٢ جول فى حالات الطوارىء .

ومن مميزات هذا الجهاز الجديد أنه يمكن تعديل قوة النبضات الكهربائية التى يولدها بالتأثير عليه من الخارج .

ولقد تم تجربته بنجاح على ٢١ مريضا ، ومن المتوقع أن يصبح جاهزا للاستخدام العلاجى فى العام القادم . وسعه هذا الجهاز ألفا جول ، أى أنه يستطيع توليد ٤ آلاف صدمة كهربائية ، وبالتالى لن يحتاج المريض الى تغييره الا بعد فترة طويلة .

ميكروسكوب يستجيب لصوت صاحبه

أصبح الميكروسكوب أداة حيوية في مجال الجراحة ، خاصة في العمليات الجراحية الدقيقة ، فهو يكبر أدق التفاصيل مما يساعد الطبيب على العمل بدقة وراحة أكبر . وتصل درجة تكبير بعض الميكروسكوبات الى أربعين مرة .

ولكن استخدام الميكروسكوب يحتاج الى عمليات ضبط مستمرة أثناء الجراحة ، مثل تعديل معامل التكبير أو بعد العدسات .. الخ ، وهي تستغرق وقتا ثمينا . فالطبيب يقوم بالتحكم في جميع عمليات الضبط بواسطة قدمه ، وذلك بالضغط على واحدة من أربع دواسات ، ويستغرق الضغط على الدواسة المناسبة ونقل الحركة الى المحركات التي تقوم بعملية التعديل والضبط حوالي عشر ثوان ، وهو وقت طويل بالنسبة للعمليات الجراحية الدقيقة .

ولذلك ابتكرت باحثة فرنسية شابة ميكروسكوباً يطيع الأوامر الشفوية للجراح . فلقد زودت الميكروسكوب بميكرو كمبيوتر صغير لا يزيد حجمه عن حجم كتاب متوسط ، يضم دوائر للتعرف على الصوت بحيث يستطيع ترجمة الأوامر الشفوية التي ينطقها الجراح الى تغيير فعلي في بعد العدسات ودرجة التكبير .. الخ . وقامت الباحثة الشابة بتثبيت الميكروكمبيوتر محل الدواسات ثم وصلته بميكروفون صغير مثبت بين العدستين العينيتين .

ولا تستغرق عملية اعطاء الأوامر وتنفيذها سوى واحد على عشرة من الثانية . ويتميز هذا الميكروكمبيوتر بسرعة استجابته للأوامر الشفوية ، فهو أسرع خمس مرات من الأجهزة المماثلة .

ولقد أثبت هذا الميكروسكوب فاعليته وكفاءته ، وبدأ تعميم استخدامه في العمليات الجراحية الدقيقة .

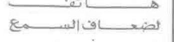
الحذاء الإلكتروني

وصل غزو الالكترونيات لحياتنا الى مستوى الأحذية ، فاحدى الشركات الألمانية المتخصصة في الملابس والأجهزة الرياضية تقدم أول حذاء ألكتروني ، وهو حذاء للتدريب على العدو .

تضم المادة المكونة لنعل هذا الحذاء دوائر ألكترونية يمكن اعتبارها ميكروكمبيوتر مصغرا فبواسطة هذه الدوائر يتم حساب المسافة التي قطعها العداء والزمن الذي استغرقه السباق وعدد السعرات المستهلكة آخذة في الاعتبار وزن العداء الضاغط على النعل .

كما يمكن برمجة هذا الحذاء بحيث يمكنه ضبط الخطوة بناء على ايقاع أساسي للسير أو العدو .

وتظهر جميع البيانات على شاشة مثبتة على لسان الحذاء .



يتحول الاتصال الهاتفي مع ضعاف السمع الى عملية تعذيب للطرفين ، ولذلك فكر مهندس أمريكي في تصميم هاتف خاص لهؤلاء المعوقين ، وهو يشبه الى حد كبير الهاتف العادي الا أن لوحة الأزرار تضم الى جانب الأرقام الحروف الابجدية ، بحيث يضم كل زرار رقما وثلاثة حروف .

ويتصل الهاتف بجهاز صغير حجمه ١٤ سم في ٨ سم في ٢ سم ولا يزن سوى ٢٨٠ جراما . يقوم هذا الجهاز بتحويل النبضات الكهربائية المرسلة الى كلمات مكتوبة تظهر على شاشة صغيرة أعلاه مصنوعة من البللورات السائلة .

وبالتالي فالمتحدث على الطرف الآخر من الخط الهاتفي لا يتكلم وإنما يستخدم أزرار الهاتف كمفاتيح الآلة الكاتبة لتظهر الكلمات على شاشة المعوق فيقرأها بدلا من أن يسمعها .



ولتسهيل عملية الاتصال يمكن استخدام بعض الاختصارات المتفق عليها .

ويعتبر هذا الهاتف حلا عمليا إلى أن يصبح الهاتف المرئي حقيقة واقعة .



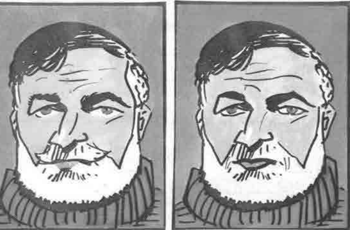
استراحة الدوحة

مجموعة مسابقات بالرسوم بريشة:

رووف



أصل وصورة

• بين أصل وصورة الروائي الأمريكي أرنست همنجواي ، الذي يتميز بواقعية أسلوبه ، هناك سبعة اختلافات طفيفة .. هل تستطيع التعرف عليها لتحصل على جائزة .

مثل يقول



• هذا الرسم الكاريكاتيري يعبر عن مثل شعبي عربي معروف .. إذا استطعت العثور على هذا المثل أرسله إلينا ، في انتظارك جائزة .

لوحة لم تتم



• هذه اللوحة التي لم تتم لزعيمة نسائية فقدناها ضمن حوادث العنف في العالم .. حاول أن تكمل اللوحة وتتعرف على الشخصية لتحصل على جائزة .

هات أجمل تعليق :



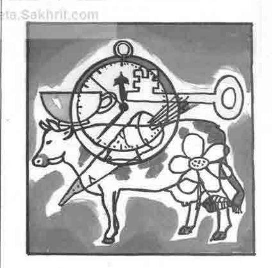
* هل يمكنك أن تجد تعليقا خفيف الظل على هذا الرسم الكاريكاتيرى ؟ حاول وأرسله إلينا لتفوز بجائزة.

لعبة الظلال



* هل تستطيع أن تساعد هذا اللاعب فى العثور على ظله الحقيقى ، بعد أن فشل تماما فى محاولاته ورفع راية الاستسلام ؟ .. حاول فى انتظارك جائزة

لأقوياء الملاحظة فقط !

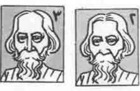


* أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة ، هل تستطيع التعرف عليها ؟ .. إذا تعرفت على تلك الأشياء إمسك ورقة وقلما ، وارسل اجابتك إلينا لتحصل على جائزة .

يخلق من الشبه أربعين











* الصور الست المنشورة لست شخصيات شديدة الشبه بشخصية طاغور .. شاعر الهند العظيم الذى مازال شعب الهند يردد أغانيه الوطنية حتى يومنا هذا .. فى هذه اللوحات واحدة تشبه تمام الشبه ، وفى البقية اختلافات بسيطة ..
هل يمكنك التعرف على اللوحة ؟





بقلم : عبد الله الجفري

مقدار الفرحة.. وقدرة الألم!

مقدار الفرحة .. لا يعرف بالكلمة ، أو بحجم الابتسامة !

قدرة الالم .. لا تحدد بالبكاء ، أو بوقت العبوس ..

إن الانسان يفر من « المقاسات » ومن التحديد : لحظة التعبير عن احساسه .

إنه يجرى فى داخل نفسه ، ولا يريد أن يراه الآخرون .. بل هو يحاول التمثيل أحيانا امام الناس ويرفض أن ينقاد لانطباع الناس عنه !

إن الفرحة فى حياة المرء نسبية .. إنها لاتتضاعف فى شكل انعكاسات على وجوه من يراهم .. إن كل من يشاركونك الفرحة .. لا يهم الرغبة أن يفرحوا هم أولا من خلال فرحتك ، فاذا نجحت فى امتحان أو رقيت فى وظيفتك ، أو شعرت بالحب يصفق بين جوانحك .. فلابد أن تتردد على مسامعك كلمات التهنئة المختلطة أحيانا بالغيرة أو بالحسد !!

وبعض الناس لا يتعمق فرحتك ، ولكنه يغوص فى أعماقه لتهوية تلك الأعماق حتى لا تختنق بالغبطة لك . ويجفف الأشياء التى ابتلت بضحكة يأخذها من فرحتك ولا يعيدها اليك !

وبالطبع ... فليس فى هذه الصورة حقد على الناس ، أو تشاؤم بمستوى الرابطة التى أصبحت تجذب الناس إلى بعضهم البعض ..

فالرابطة الانسانية مشوشة فى انشغال الجميع بما تمتلىء به نفسه وتفيض .. لكن هذه الصورة رؤية بـ « الزوم » لأعماق الانسان ! !

ورغم ذلك فالحب موجود ، والعاطفة لم تفقد من وجدان الانسان ، والخير .. من الممكن أن تعثر عليه ، ولو لم يكافئك الذين منحتهم الخير والمحبة !

الحب موجود ... إذا كنت لا تنتظر مقابلا له ، ولا تتوخى أصداء تأتيك ممن تحب .

الحب قدرة على التضحية ، ومقدرة بهذه الخفقة المتواصلة التى لا تهن ولا تضعف .. فإذا كانت نفسك مليئة بهذه العاطفة الجميلة .. فلن ترى الناس الا أحباء ، ولن تسمعهم الا منشدين يغنون ويعزفون !

والعاطفة موجودة .. إذا كنت تربى إبنك ليكون عضواً مفيدا وعاملا ، وترى فى إبنتك أمومة جديديةتسقى المستقبل من الحنان والالتئام والمحبة ، فالعاطفة لا تجعلك تنتظر من إبنك أن يتكفلك بعد عجزك وشيخوختك لأن زمنه القادم أكثر قسوة من زمنك ، فيكفيه ما سيواجهه ، والعاطفة لا تدفعك إلى مطالبة ابنتك بأن تنسى نفسها وتتذكرك أنت .. لأن واجبها القادم سيكون أكبر من واجبك .. ستكون منشغلة باثبات الحب فى بيتها الجديد بكل صوره ومواقفه المتعددة . فالابناء لن يكونوا امتداداً للآباء ، ولكنهم قدرة جديدة وقدر يختلف عن قدرك ، وطموح يتضاعف عن طموحاتك ، ولكنها الآمال التى تكبر فى نفسية سُقيت بالخير والمحبة ، وتتضاءل فى نفسية عانت من الفرقة ، والأسى والحزن !

إن الحياة بدون حب .. هى ذلك الذى كل ما تجرى إليه يهرب منك ، ولست احدد هنا ، أو أقيس .. لكنه انفتاح النفس على التعب .. وانفتاح القلب على الفرح بالأمل دائما ! !

لذلك .. فالناس يتعبون من هروبهم المستمر ، ويتعبون من تحديدهم المتعاقب ، ومن مقايساتهم لحجم الفرح وحجم الألم ، ويتعبون ــ تبعا لذلك ــ من أفراح الآخرين .. لأنها تنفذ إلى أعماقهم ، وتكشف عن بلل محصور فى تلك الأعماق !

إن فرحة الانسان .. هى من أملاك الناس .. وان أعماقك لك وحدك ! !

ولكى تسعد الناس .. ينبغى أن تدخل السرور إلى قلوبهم ليحبوك أكثر ، أو على الأقل حتى لايفكروا فى كراهيتهم لك ! !

إن فلسفة الرابطة الانسانية أصبحت ترهق الناس .. فالأب يخاف من عقوق ابنه إذا كبر ، والأم تخاف من انشغال ابنتها عنها إذا شاخت أو إذا ضامتها الحياة . والزوجة تخاف من تبدل زوجها وانسياقه وراء الماديات أو الشهوات ، والزوج يخاف من دعة زوجته واهمالها له . والابن يفكر فى مستقبله كلما ازداد عمره . وما الذى سيكون عليه أبناؤه من عاطفة نحوه ، والبنت تفكر فى أسلوب المحافظة على زوج المستقبل .. لئلا تسرقه منها مشاغل الحياة أو تأخذه منها فجائع العصر !

ورغم أبعاد هذه الفلسفة للرابطة الانسانية .. فقد أخذ الانسان يعدو خلف مطامعه ، وهربا من خوفه الذى ينذر به الغد القادم . أصبحت الماديات هى الاهتمام المباشر الذى يتسلط أحيانا على عاطفة المرء .. فترى الأب لا يرى أبناءه لعدة أيام ، وترى الابن فى زهوة شبابه يركض خلف المباهج دون قياس أو تأمل .. قبل أن تقتحمه مسئوليات الحياة !

وهكذا يضيع من عالمنا : مقدار الفرحة ، وقدرة الألم !!

جـــدة